الأساليب القرآنية
في عرض العقيدة الإسلامية

تأليف
د. صالح خليل حمودي الطائي

دار النهج
للدراسات والنشر والتوزيع

الأساليب القرآنية
في عرض العقيدة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

2008 م - 1429 هـ



للدراسات والنشر

والتوزيع

حلب - الجميلية - شارع البحتري - بناء الجمعية الخيرية الإسلامية

هاتف: 00963/21/21276760 فاكس: 00963/21/21276766

00963/933/332675

إهداء

إلى روح والدي العزيز والى روح والدتي الكريمة الذين لهما الفضل في تربيتي وإلى اسرتي الوفية التي لها الفضل في إعانتي على أن أسير في هذا الدرب الذي أخدم فيه ديـــني ومعتقدي، وإلى مشايخي الكرام وأساتذتي النجباء الذين لهم الفـــضل علـــيّ في التعلـــيم والتدريس واكتسابي العلوم الشرعية....

أهدي هذا السفر مبتغيا وجه الله تعالى والقبول فإنه بالإجابة مأمول ...

الباحث



شكر وتقدير

أقدم شكري وتقديري واعتزازي مشفوعاً بالدعاء لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور عبد الستار حامد الدباغ الذي أشرف على إعداد هذه الرسالة وتابعني فيها متابعة كريمة فصوب أخطائي ونفعني بتوجيهاته الراشدة والتي أغنت الرسالة.. نفع الله المسلمين بعلمه ومتعه بالصحة والعافية.

كما أقدم شكري وامتناني لكل من مد يد العون والمساعدة لي في إخراج هذا العمل على هذا الوجه وأرجو من الله ان يجزيهم عني خير الجزاء ...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

المقدمة

الحمد لله الذي أنـــزل القرآن على نبيه لإرساء قواعد التوحيد ووصف ذاته بنعوت التحميد والتمجيد فهو واحد أحد صمد خلق السماوات والأرضين وما فيهما من آيـــات للدلالة على الوجود.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين بتمكين النفوس من الوصول إلى الـــرب المعبود بالمعرفة الحقة والفطرة السليمة والعقل النير للوصول إلى غايـــة المنـــشود بالتعبـــد والخضوع والاستسلام لمن له خلق الخلق وأوجد الوجود، سيدنا محمد ﷺ الـــنبي المجـــتبى وبالشفاعة موعود.

أما بعد ...

فبعد الاستخارة والاستشارة ثبت في يقيني أن أبحث موضوعاً طالما شغل قلبي هـــواه وأسلمت نفسي لمداه، وهو أخذ العقيدة من منبعها الصافي الذي لا كدر فيه الثابت عـــن الله سبحانه بالتواتر والتوارد فهو قطعي الثبوت وفي الدلالة على التوحيد قطعي الدلالة.

لما قرأت على قدر تحصيلي الضئيل وقدرتي المتواضعة، أن عرض العقيـــدة في كتـــب الأفاضل من أكابر العلماء أمر لا مندوحة عنه لكن لا يصل شأوه إلا من بلغ بعلوم السلم درجة كبيرة من المعرفة؛ أي لا يدرك جل كلام إلا من أحاط بـــالمنطق والفلـــسفة أيمـــا إحاطة، فهي صعبة المنال وقليلة التداول قد قطع أصحابها شوطاً عظيماً وشموخاً عاليـــاً في العلم العقلي والمناظرة، لذا لا يفهمها إلا خواص العلماء وفحول العقلاء، لـــذا وجـــدت نفسي ومن بمعيتي بحاجة إلى طريقة أدرك بها ومن بمستواي أصول العقيدة كمـــا جـــاءت بالقرآن، ولقد وجدت من كتب بهذا المضمار لكنه لم يضع يده على مكمن الداء، وحاجة أمتنا إلى الدواء، فاقتحمت الأهوال وصارعت قمم شم الجبال، بـــأن أضـــع نفـــسي في مصاف الفحول من العقلاء الرجال، فشمرت عن ساعد الجد مع قدرتي المتناهيـــة في الـــصغر،

وأجليت كتاباً فيه من الآيات والذكر الحكيم ما يبصر المبصر ويفتح به على من فقد البصر آفاق البصيرة وإجلاء الحقيقة، فكان القرآن الكريم ترجمان العقيدة بكل وضوح كوضوح الشمس في رابعة النهار، مع ترابط معانيه واتساق ألفاظه وسبك جمله، مع الاستعمالات النحوية في أعلى نحتها، والصور البلاغية في أعلى قمتها.

وقد قامت هذه الأطروحة على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة. تناول التمهيد نبذة عن الأساليب والأسلوب القرآني. أما الفصل الأول فقد وقع في ثلاثة مباحث: تناول المبحث الأول النظر في الآيات الكونية، وتناول المبحث الثاني الأرض محيط الإنسان، وتناول المبحث الثالث توظيف خلق الإنسان للدلالة على عقيدة التوحيد.

ووقع الفصل الثاني على ثلاثة مباحث: تناول المبحث الأول الخلق دليل الوجود وتناول المبحث الثاني الإتقان دليل التوحيد، وتناول المبحث الثالث تعظيم الخالق بأسمائه وصفاته طريق إلى عبوديته.

أما الفصل الثالث فقد وقع في ثلاثة مباحث: تناول المبحث الأول المثل القرآني في عرض العقيدة، وتناول المبحث الثاني القصة القرآنية في عرض العقيدة، وتناول المبحث الثالث الوسائل البلاغية في عرض العقيدة.

وأما الفصل الرابع فقد وقع في ثلاثة مباحث: تناول المبحث الأول مخاطبة الفطرة، وتناول المبحث الثاني مراعاة مقتضى الحال، وتناول المبحث الثالث استعمال الألفاظ المألوفة.

وأما الفصل الخامس فقد وقع في ثلاثة مباحث: تناول المبحث الأول التشابه في وسائل الإنكار، وتناول المبحث الثاني التذكير بالعاقبة، وتناول المبحث الثالث سوء العاقبة.

أما أهم النتائج التي توصل إليها بحثنا هذا فهي:

إن تنوع الأسلوب القرآني وتعدد أغراضه كان يصب في اتجاه واحد وهدف منشود وهو مخاطبة العقول والقلوب لترسيخ عقيدة التوحيد الصحيحة وإقامة المشروع العقائدي

السليم لتكوين بيئة صالحة لعبادة الله سبحانه وتعالى، والأسلوب القرآني في عرض عقيدة التوحيد لم يقسم التوحيد إلى أقسام ثلاثة بل ذكر أن توحيد الربوبية هو مقدمة لتوحيد الألوهية؛ وهذا ما أثبته من خلال عرضه للتوحيد في الآيات التي ذكرت أن التوحيد واحد، وقد عرض التوحيد دون الإشارة إلى أقسام فهي متداخلة في العرض.

وقد اعتمد هذا البحث على كتب أصول الدين والعقيدة كالإنصاف للباقلاني والإرشاد للجويني والمطالب العالية للرازي وغيرها من الكتب، كما اعتمد هذا البحث على كتب التفسير كجامع البيان للطبري والكشاف للزمخشري وكتب معاني القرآن وإعرابه وغريبه، كما اعتمد على كتب اللغة والمعجمات كالعين للخليل ولسان العرب لابن منظور، وقد عمدنا إلى الانتخاب في دراسة الآيات الواردة، وقد تأتى ذلك من طبيعة المادة القرآنية التي تفرض أحياناً بحث المادة بطريقة تختلف عن مادة أخرى بسبب تعدد دلالات المادة القرآنية بتغير الاستعمال.

وأسأل الله العلي العظيم أن يغفر لنا ما أخطأنا، وحسبنا أننا بشر، وأسأله أن يجعل علمنا خالصاً لوجهه الكريم، إنه سميع مجيب.



تمهيد في مفهوم الأسلوب



تمهيد

قبل الدخول في الحديث عن الأسلوب القرآني في عرض العقيدة والسبل التي سلكها في مخاطبة العقول والقلوب لترسيخ العقيدة الصحيحة وإقامة البناء العقائدي السليم لتكوين بيئة صالحة لعبادة الله سبحانه وتعالى، لا بد من الإشارة إلى معنى الأسلوب، وما هو مفهومه، ليدرك القارئ مفهوم الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة جاء في لسان العرب قوله: "ويقال للسطر من النخيل: أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب: الطريق، والوجه، والمذهب، يقال: أنتم في أسلوب سوء، ويجمع الأسلوب على أساليب، والأسلوب بالضم: هو الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول: أي أفانين منه"[(1)].

والذي يلاحظ على هذه المعاني للأسلوب التي نقلناها عن ابن منظور أنها تنقسم إلى قسمين:حسي، ومعنوي؛ والحسي هو اللفظ السابق على الوضع كأسطر من النخيل، والطريق الممتد، والطريق الذي نأخذ فيه؛ وأما المعنوي: فهو انتقال اللفظ من هذا المعنى الحسي إلى معناه الذهني المجرد؛ فهو الوجه والمذهب والفن[(2)]؛ وهذا هو المعنى اللغوي للأسلوب.

أما المعنى الاصطلاحي فإننا نجده عند ابن خلدون واضحاً كل الوضوح، فهو يقول عن الأسلوب بأنه "صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة عليه باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها، ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال"[(3)] فهذا النص يعطينا

(1) ينظر: لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور (ت 711هـ)، دار صادر – بيروت، ط1، 1959م: 178/1.

(2) ينظر: الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية – مصر، ط6، 1966م: 40.

(3) مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط4: 570/1.

تصوراً عن الأسلوب ينظر إليه على أنه عبارة عن الشكل أو الهيئة التي يتم بها نسخ الكلام، وبناءاً على هذا يمكننا أن نعرّف الأسلوب على أنه "الطريقة التي يسلكها الكاتب المعبر في تكوين كلامه ورصف ألفاظه المختارة في تأدية المعاني المقصودة، من كلامه ذلك لأن كل إنسان له أسلوبه الخاص في التعبير يمتاز به عن غيره، وإذا كانت بصمة الرجل تختلف عن بصمة أخيه أو أبيه، وتتمايز كل بصمة عن الأخرى بما تحمل من صفات تحقق لها الفردية والأصالة، فكذلك يختلف الأثر الفني من أديب إلى آخر، وهذا يؤكد لنا طبيعة الأديب في أسلوبه وأدبه حتى قال بعض النقاد: الأسلوب هو الرجل[1] وهذا هو معنى الأسلوب بصورة عامة "والأسلوب ضغط مسلط على المتقبل بحيث لا يلقى الخطاب إلا وقد هيأ فيه من العناصر الضاغطة ما يزيد عن المتقبل حرية ردود الفعل"[2] وهو "مجموعة ألوان يصطبغ فيها الخطاب ليصل بفضلها إلى إقناع القارئ وإمتاعه وشد انتباهه وإثارة خياله"[3]، أو هو "مقياس المفاجأة تبعاً لورود الفعل ومعدن المفاجأة، ومولودها هو اصطدام القارئ بتتابع جملة الموافقات في نص الخطاب"[4]، أو هو "الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه"[5].

أما أسلوب القرآن فهو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن أسلوب خاص به، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، وأساليب المتكلمين من أدباء وعلماء وفقهاء وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو

---

(1) المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، مطبعة دار المعارف– القاهرة، ط2، 1978: 45–46.

(2) الأسلوب والأسلوبية، د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط2، 1982: 81.

(3) نفسه: 83.

(4) نفسه: 84.

(5) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي – القاهرة: 199/1.

نثر تتعدد بتعدد أشخاصهم، بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها، والفنون التي يعالجها[1].

والأسلوب القرآني لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية، من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة، بل جاء كتاباً عربياً جارياً على مألوف العرب من هذه الناحية، فمن حروفه تألفت كلماته، ومن كلماتهم تألفت تراكيبه، وعلى قواعدهم العامة في صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه، ومع دخوله على العرب من هذا الباب الذي عهدوه، ومع مجيئه بهذه المفردات والتراكيب التي توافروا على معرفتها وتنافسوا في حلبتها قد أعجزهم بأسلوبه الفذ ومذهبه الكلامي المعجز، ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذي يعرفونه لأمكن أن يلتمس لهم عذراً أو شبه عذر، وأن يسلم لهم طعن أو شبه طعن، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [سورة فصلت، الآية 44]، ولهذا المعنى وصف الله كتابه بالعروبة في غير آية فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يوسف، الآية 2]، وقال ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الزخرف، الآية 3]، وقال ﴿قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الزمر، الآية 28]. وإن أسلوب أي كلام بليغ معناه صورته الفنية أو طابعه الخاص، أو مزاجه الشخصي الذي يتهيأ ليهب رعاية صاحبه لجملة الأحوال ومناسباتها في هذا الكلام، وإنه على حسب ما تحتوي أساليب الكلام من الأحوال والمناسبات، يتفاوت هذا الكلام في درجات الإقناع علواً ونـزولاً وفي حظه عند السامعين رداً وقبولاً، وإن لم يظفر الوجود بكلام إلهي ولا بشري بلغ الطرف الأعلى في الإقناع والبلاغة، ووصل إلى قمة الإعجاز من هذه الناحية، غير القرآن الكريم، لأن منشئ هذا الكتاب هو وحده الذي تعلقت إرادته بأن تكون معجزة نبي الإسلام من هذا الطراز، ولأن الله سبحانه هو الذي انتهت إليه الإحاطة بجميع أحوال الخلق وحده، ولأنه

(1) نفسه: 200/1.

عز سلطانه هو القادر وحده على تضمين كلامه كل المناسبات التي اقتضتها تلك الأحوال الكثيرة التي لم يحط ولن يحيط بها سواه، ومن الذي يستطيع أن يحيط بكل أحوال الخلق وفيها الخفي الذي لا يعلمه إلا من يعلم السر وأخفى؟ ثم من ذا الذي يستطيع أن يحيط بأحوال الخلق كلها وهم أجيال متعددة، منهم من لم يخلقوا وقت نــزول القرآن، والقرآن هو كتاب الساعة الذي يخاطب كل الأجيال كافة حتى يرث الله الأرض ومن عليها؟ ولو ذهبنا نستقصي الأساليب القرآنية لوقفنا أمام بحر لا قرار له؛ ذلك أن صاحب هذه الأساليب هو رب العالمين، فكيف يحيط بأساليب رب العالمين البشر أصحاب العقول المحدودة وقد حارت في إدراك كنهه الأفهام؟ والأساليب القرآنية كثيرة ومتنوعة ولا يمكننا في هذه الدراسة الإحاطة بها جميعاً، وكما يقول الزركشي: "اعلم أن هذا علم شريف المحل عظيم المكان قليل الطلاب ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه ولا ذوو بصيرة تستقصيه، وهو أرق من الشعر وأهول من البحر، وأعجب من السحر، وكيف لا يكون؛ وهو المطلع على أسرار الكون العظيم الكامل بإبراز إعجاز النظم المبين ما أودع من حسن التأليف وبراعة التركيب وما تضمنه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلامتها ولا فرق بين ما يرجع الحسن إلى اللفظ والمعنى؟"[1].

فلا غرو أن يضمنه منــزله كل ما تحتاج إليه الأمم على اختلاف أجيالها من المناسبات الملائمة لأحوالهم، وليس ذلك في قدرة أحد إلا العليم بأسرار الخلق وخفايا السماوات والأرض[2]، قال تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنــزلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴿٢﴾ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنــزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى

---

(1) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط2: 382/2.

(2) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: 204/2.

﴿٦﴾وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴿٧﴾ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى ﴾ [سورة طه، الآيات 1-8] من هذه الآيات الكريمة وما ذكره الزركشي تتضح لنا الأساليب القرآنية بالجملة.

والذي يهمنا بيان الأسلوب القرآني عند عرضه للعقيدة، فالناظر يجد أن الألفاظ التي وظفت في هذا السياق قد اختيرت اختياراً دقيقاً يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار، وهذه الألفاظ التي مرت عليها القرون والأجيال منذ نـــزول القرآن إلى اليوم فإن بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره ويلائم ذوقه، ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة، وكان ذلك قدحاً في أنه كتاب الدين الخالد ودستور البشرية في كل عصر ومصر، فالله سبحانه أنـــزل هذا القرآن مشبعاً لحاجات الجميع، وافياً لتجارب الجميع، ملائماً لأذواق الجميع، متفقاً ومعارف الجميع، مما يدل دلالة واضحة على أنه كلام الله العظيم.

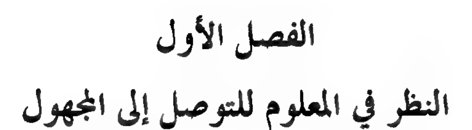
إن الخصائص التي توافرت في الأسلوب القرآني في طرحه للمواضيع والأفكار جعلت له طابعاً متميزاً في لغته وبلاغته، وقد أفاض العلماء فيه درساً وتفصيلاً لم يزيدوا علـــى أن قدموا إلينا قطرة من بحر، معترفين بأنهم عجزوا عن الوفاء بوصفه وأنهم لم يزيدوا على أن قربوا لنا البعيد بضرب من التمثيل رجاء الإيضاح والتبيين، أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآني وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منـــزله الذي عنده علم الكتاب[1].

والأسلوب القرآني ولا سيما عند عرض العقيدة الإسلامية والإشارة إليها يتمتع بمزية إقناع العامة وإرضاء الخاصة، ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرئ عليهم أحسوا بجلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم

(1) ينظر: نفسه: 209/2.

وعواطفهم، وكذلك الخاصة إذا قرؤوه أو قرئ عليهم، أحسوا بجلاله وذاقوا حلاوته وفهموا عنه أكثر مما يفهم العامة، ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثله كلام لا في إشراق ديباجته ولا في امتلائه وثروته، ولا كذلك كلام البشر، فإنه إن أرضى الخاصة والأذكياء لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة، لم يرض العامة لأنهم لا يفهمونه وإن أرضى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة، لم يرض الخاصة لنـــزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم فضلاً عن إرضائه العقل والعاطفة معاً [1]. فجاء "أسلوبه مستساغاً لدى العوام الذين هم أكثرية المخاطبين، ملاطفاً بساطة أذهانهم بتنـــزلاته الكلامية القريبة من إفهامهم باسطاً أمامهم صحائف ظاهرة ظهوراً بدهياً كالسماوات والأرض موجهاً الأنظار إلى معجزات القدرة الإلهية وسطور حكمته البالغة المضمرتين تحت العاديات من الأمور والأشياء"[2] لينتقل بالإنسان من حالة التصور من المعلوم إلى حالة تصور المجهول أو حتى تصور شيء من هذا المجهول، ومن ثم تهيؤه ليكون حافزاً لبناء تصور تام على هذا المجهول، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية 30].

(1) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: 2/210.
(2) الثمرة من شجرة الإيمان، سعيد النورسي، مطبعة الزهراء – الموصل، ط1، 1406هـ- 1985م: 84.



الفصل الأول

النظر في المعلوم للتوصل إلى المجهول

المبحث الأول: النظر في الآيات الكونية

المبحث الثاني: الأرض محيط الإنسان

المبحث الثالث: توظيف خلق الإنسان للدلالة على عقيدة التوحيد



المبحث الأول النظر في الآيات الكونيـــة

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: آيات السماء.
- المطلب الثاني: آيات الشمس والقمر.
- المطلب الثالث: آيات النجوم والكواكب.

تمهيد

ليس من شك في أن القرآن أنزل رحمة ونعمة للناس في زمن تاهت فيه الأفكار والقلوب، وتشتتت فيه العقول، وصارت الناس شيعاً وأحزاباً ومذاهب وعقائد ومللاً ونحلاً، حائدين عن الحق إلى الباطل وعن التوحيد إلى الشرك، وعن النور إلى الظلمات، فجاء القرآن فأرسى شعوب العالم التائهة في ضلالات الشرك من عبادة الآلهة المتعددة إلى شاطئ أمان التوحيد والعقيدة الصحيحة، فقد كانت لهذه الشعوب آلهة كثيرة متباينة، أبينها عناصر الطبيعة الكونية وظواهرها كالشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال والرعد والبرق...، ولم تكد حضارة من الحضارات التي عاصرت القرآن تخلو عن لُوثَةِ الوثنية، أو تنأى عن تعدد الآلهة.

وكان أهل الكتاب من يهود ونصارى يشركون بالله ما لم ينزل به سلطاناً، فكانت اليهود تقول: إن عزيراً ابن الله، وكانت النصارى تقول: إن المسيح ابن الله، إما عرب الجاهلية فلم يكونوا لينكروا الإله، بل كانوا يقرون بوجوده لخلقه السماوات والأرض كما هو ظاهر من حديث القرآن عنهم في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 61][1]، إلا أنهم مع ذلك كانوا يعبدون من دونه أوثاناً كثيرة، مختلفة الصور والأشكال، متباينة الصنوف والأسماء حتى قيل: إن لكل قبيلة صنمها، بل كان لكل بيت صنمه.

فجاء القرآن ليصحح هذه التصورات، ويبدل هذه المفهومات ويبصر الناس بإلههم ويردهم إلى عبادته وحده، فكانت الحقائق الإلهية التي أثبتها القرآن عن طريق الطبيعة الكونية كالدلالة على وجوده، وتوحيده، وبيان قدرته وتدبيره وحكمته ورحمته وعلمه ... إلى ما هنالك من مفهومات خطيرة في الفكر القرآني.

لقد أكدت آيات الكون وظواهره جملة وتفصيلاً إثبات التصور العقائدي؛ فقد عكس الأسلوب القرآني هذه الصورة الكونية أمام النظر البشري على أعلى درجات الكمال مرغباً إياه في التبصر والكشف عن حقيقة الكون وأن وراءه صانعاً عظيماً.

---

(1) ينظر: الآية 25 من سورة لقمان، والآية 38 من سورة الزمر، والآية 9 من سورة الزخرف.

والنظر له معان كثيرة منها أنه إذا تعدى بنفسه فمعناه التوقف كقوله تعالى: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [سورة الحديد، الآية 13]، وإذا تعدى بـ «في» فمعناه التفكر والاعتبار كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأرض﴾ (سورة الأعراف، الآية 185) وإذا تعدى بـ «إلى» فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [سورة الأنعام، الآية 99][1]، وهذا المعنى هو الذي يهمنا هنا لأن الأسلوب القرآني اعتمد عليه في سياق مخاطبة الإنسان للنظر في الكون لإرساء دعائم العقيدة الصحيحة وهو وجود مبدع لا شريك له.

وبما أن النظر هو أثبت مرتكزات تحقيق العلم فلا بد من الإشارة إلى مفهوم العلم في لغة العرب، والذي يعني عندهم ما تعرف به الأشياء، وعلم بالشيء: شعر به، وعلم بالأمر: أتقنه، والفرق بين العلم والمعرفة هي أن المعرفة أخص من العلم؛ وهي إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، لأنها تأتي عن طريق الإحساس بالشيء؛ أي الإحساس بذات الشيء فتكون بفكر بذات محسوسة أو تأتي عن طريق الإحساس بأثر الشيء وتمييزه من غيره من الأشياء، فتكون حكماً بعد تدبر لأثره[2]، والناس جميعاً متساوون في هذا الإدراك بأن سبيل المعرفة إدراك المعقولات بذواتها أو الحكم على وجودها لأن العلم إدراك الشيء بحقيقته؛ أي ما يحصل في الذهن من تمثل الواقع المحسوس أو المحسوس أثره بالحكم عليه، وهو على ضربين: "الأول التصديق؛ وهو أن يأخذ الحكم صفة النفي أو صفة الإثبات، والثاني التصور؛ وهو إذا لم يأخذ الحكم صفة الإثبات أو النفي؛ أي يأتي تمثل الواقع في الذهن من غير الحكم عليه بنفي أو إثبات"[3].

سنتناول في هذا المبحث أسلوب القرآن في عرضه للعناصر الكونية المشاهدة والمنظورة للإنسان، وهي العناصر الكونية المشاهدة، وهذه يطلق عليها "المشاهدات وهي

---

(1) ينظر: معجم ألفاظ العقيدة، أبو عبد الله عامر عبد الله فالح، منشورات مكتبة العبيكان - الرياض، ط2، 1420هـ-2000 م: 432.

(2) منهاج الأدلة في بحث أسماء الله وصفاته، عز الدين هشام عبد الكريم البدراني، مطبعة دار المتنبي - الأردن 1422هـ-2002م: 87.

(3) منهاج الأدلة في بحث أسماء الله وصفاته: 87.

ما يحكم فيه بالحس سواء كان من الحواس الظاهرة أو الباطنة كقولنا: الشمس مشرقة، وكقولنا: إن لنا غضباً وخوفاً"[1]، فإن الأسلوب القرآني يشير إلى بعض من هذه العناصر الكونية بأسلوب الكناية؛ أي لا يصرح باسم العنصر الكوني ولكن سياق المعنى والحال ووحدة المعاني تشير إليه، وقد وظفها في طريق تحقيق المقاصد العليا في تثبيت العقيدة من خلال لفت نظر الإنسان إلى الكون وملكوت السماوات والأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [سورة تبارك، الآية 5]، والمراد بالمصابيح: الشمس والقمر والنجوم[2].

(1) التعريفات: علي بن محمد أبو الحسن الجرجاني، مطبعة مصطفى البابي وأولاده، 1357هـ- 1938م: 191.

(2) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبري (ت 210هـ)، دار الفكر- بيروت، 1408هـ- 1988م: 3/29.

المطلـــب الأول: آيـــات الســـماء

السماء لغة

السين والميم والواو تدل على العلو[1]، وسما الشيء يسمو سمـوا فهـو سـام: أي ارتفع[2] أو سما إليه بصري: أي ارتفع إليه، وإذا رفع لك شيء فاستبنته قلـت: سمـا لي شيء؛ قال الشاعر:

سمـا لِيَ فرسـانٌ كـأن وجـوهَهم   مصابيحُ تبدو في الظـلام زواهـرُ[3]

والسمو: الارتفاع والعلو، وسماء كل شيء: أعلاه كسقف البيت وظهر الفرس؛ قال الشاعر:

وأَحْمَـرَ كالـديباج، أمـا سمـاؤه   فريًّـا وأمـا أرضُـهُ فَمُحُـول[4]

قال الزجَّاج: كل سقف هو سماء[5]، ومن هذا قيل للسحاب: سماء لأنها عالية فضلاً عن إطلاق لفظ السماء على السقف والمطر، وسماء الجنة والنار والسماء ذاتها: أي الوجـه المقابل للأرض[6].

وقد وردت لفظة السماء في القرآن الكريم بصيغة المفرد وبصيغة الجمع "سمـاوات"، وقد توزعت كلتا اللفظتين على خمسة معان هي: السقف، والسحاب، والمطـر، وسمـاء الجنة والنار، والسماء ذاتها أي الوجه المقابل للأرض، وقد وظف الأسلوب القرآني هـذه

(1) مقاييس اللغة: أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا (ت 395)، تحقيق عبد السلام هارون، ط2، مطبعة مـصطفى البـابي الحلبي وأولاده – مصر، 1389 هـ – 1969م: 98/3.

(2) ينظر: تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت 370هـ)، تحقيق: حسن مظفر الرزو، ط1، مطـابع جامعـة الموصل، 1985م: 116/13. جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي (ت 321هـ)، إعـادة طبعـه بالأوفست، مكتبة المثنى (د.ت): 53/3.

(3) كتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر – بغداد، 1400هـ/1980م: 318/7. وينظر: أساس البلاغة: أبو القاسم محمد بن عمر الزمخشري (ت 538هـ)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، 1385هـ – 1965م: 309.

(4) ينظر: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، دار العلم للملايين – بيروت، 1407هـ – 1987م: 2382/6، ونسب البيت الى طفيل الغنوي و لم أجده في ديوانه.

(5) ينظـر: معـاني القـرآن وإعرابـه، الزجـاج، تحقيـق عبـد الجليـل عبـده شـلبي، مطبعـة بـيروت، ط1، 1408هـ – 1988م: 99/1.

(6) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين بن محمد الدامغاني (ت 478هـ)، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، ط1، دار العلم للملايين، 1390هـ – 1970م: 248-249.

المعاني في إرساء قواعد التوحيد وإقامة البناء العقائدي الصحيح من خلال لفت نظر الإنسان إلى هذه النعم التي يراها أمامه، وليدرك أن وراءها خالقاً عظيماً.

السماء بمعنى السقف

وردت السماء بمعنى السقف في ثلاثة مواضع؛ منها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 32]، فالآية الكريمة في سياق الحث والتبصر بقدرة الله وسلطانه؛ والمعنى: أنا ﴿جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [1].

فبقدرة الله حفظ هذا السقف بالإمساك من أن يقع أو يتزلزل كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الحج، الآية 65]، وأراد حفظها بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانها من الملائكة[2]، ودلالة السماء على السقف واضحة في الآيتين المذكورتين، ويتضح ذلك أيضا من قوله: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ [سورة الطور، الآية 5]، فالله سبحانه يقسم بهذه السماء العالية الواقفة بقدرة الله بلا عمد كما قال تعالى ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [سورة الرعد، الآية 2]، وسميت السماء سقفاً لأنها للأرض كالسقف للبيت[3]، والمفسرون متفقون على أن السقف في هذه الآية هو السماء[4].

إن المراد بالسماء هنا إطلاقها العرفي عند العرب، وهو ما يبدو للناظر كالقبة الزرقاء وهو كرة الهواء المحيط بالأرض، وهذا هو الغالب في أسلوب القرآن اذا أطلق السماء بالإفراد دون الجمع[5]، فالآية في سياق الامتنان بأن جعل السماء سقفاً للأرض يحميها من

---

(1) جامع البيان: 21/17، وينظر: تفسير غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276هـ)، تحقيق: السيد احمد صقر، دار الكتب العلمية - بيروت، 1398هـ/1978م: 32.

(2) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمد بن عمر الزمخشري (ت 538هـ)، افتاب - طهران، (د.ت): 571/2.

(3) صفوة التفاسير: محمد بن علي الصابوني، ط2، دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان، 1401هـ - 1981م: 262/3. وينظر: تفسير غريب القرآن لأبن قتيبة: 424.

(4) ينظر: جامع البيان: 93/13، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بـ (التفسير البيضاوي)، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت 685هـ)، مؤسسة شعبان للنشر - بيروت، (د.ت): 99/5.

(5) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد في تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور (ت 1393هـ)، الدار التونسية للنشر، (د.ت): 331/1.

المؤثرات الخارجية التي تسبح في الفضاء[1]، فلولا هذا السقف لانعدمت الحياة واختلت أنظمة الكون وقوانينه، هذا فضلاً عن أنه مرصد لكل من يحاول استراق السمع من الجن، وكذلك فيه منفعة عظيمة في نقل الضوء والدفء من الشمس، والقمر والنجوم وما لهذه العناصر من تأثير مباشر في الأرض وفي الحياة فيها، وفي ذلك دلالة واضحة على عظمة الخالق وعلى عقيدة التوحيد، ولهذا ذم الذين يغفلون عن هذه الآيات البينات، قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾. وقد بين هذا السياق القرآني أن هؤلاء المعرضين قد رأوا الآيات التي في السماء واستيقنوا أنها حق، ولكن طغيانهم دعاهم إلى الجحود والإنكار. وتجدر الإشارة إلى أن الأسلوب القرآني ونسق الآيات فيه جعل من عناصر الكون شواهد حية دلت في حقيقة نفسها على أنها مخلوقة وأن ليس فيها عنصر يتصف بـ "الأزلية" التي هي صفة من صفات الله سبحانه والتي هي ركن عقائدي مهم، ولقد أكد الأسلوب القرآني أن هذه العناصر الكونية هي مخلوقات كسائر المخلوقات الأخرى، وقد عبر عن هذا المفهوم بألفاظ صريحة "كالخلق" و"الإبداع" و"الفطر" و"الجعل" و"القضاء" وهذه المفاهيم تنتهي كلها إلى معنى الإيجاد والتكوين والإنشاء مع الدلالة على القدرة، وقد أشار الراغب الأصفهاني إلى مفهوم "الخلق" فقال: الخلق أصله التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة النحل، الآية 3]؛ أي أبدعهما بدلالة قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة البقرة، الآية 117][2]، وقال في الإبداع[3]: الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء، وإذا استعمل في الله فهو إيجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان، وليس ذلك إلا لله سبحانه، والبديع يقال للمبدع نحو قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض﴾، وقال في الفَطْر: أصل الفطر الشق طولاً، وفطر الله الخلق؛ وهو إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة

(1) إذ لولا وجود هذا الغلاف الغازي في الجو الذي يحيط بالأرض لامتلأت الأرض بالحرارة والشهب في ثوان قليلة وهي تسير بسرعة شديدة تتراوح ما بين 10-40 ميلاً في الثانية الواحدة، ينظر: إعجاز القرآن الكريم لعبد الرزاق إسكندر، وهو بحث منشور من ضمن بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني من مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام العراقية سنة 1990م: 372.

(2) المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 406هـ)، تحقيق: محمد أحمد خلف الله، الطبعة الفنية الحديثة، 1390هـ/1970م مادة (خلق).

(3) المصدر نفسه، مادة (بدع).

مترشحة لفعل من الأفعال، قال تعالى ﴿الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ﴾ [سورة فاطر، الآية 1].

وقال تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرض الَّذي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 56]، وقال تعالى على لسان السحرة بعد أن آمنوا بالله وهم يخاطبون فرعون بعد أن هدد بقتلهم والتمثيل بهم: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَات وَالَّذي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذه الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [سورة طه، الآية 72]؛ أي أبدعنا وأوجدنا، ولهذا التفسير للفظة "فطَرَ" أخذ أشهر المفسرين كالطبري والزمخشري والفخر الرازي، واستدل الأولان على ذلك بقول أحد الأعراب وقد خاصم صاحباً له في بئر: أنا فطرهَا: أي ابتدأها[1]، وأشار الطبري إلى روايتين عن السدي وقتادة أن "فاطر السماوات والأرض يعني خالق السماوات والأرض"[2]، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن فطر عنده بمعنى: ابتدأ[3] وقال: "قال ابن الأنباري: أصل الفطر شق الشيء عند ابتدائه، فقوله ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ﴾؛ يريد خالقها ومنشئها.

ويلحظ أن إيجاد السماوات جاء في القران الكريم بلفظ "خلق" أكثر من بقية الألفاظ الأخرى الدالة عليه، اذ تكرر "خمساً وأربعين مرة "، كما تبين من بقية الألفاظ الدالة على هذا المعنى، فضلاً عما فيها من الدلالة على التقدير المستقيم كما مر من قول الراغب، فالخلق فيه بعد عن السذاجة في التكوين والتشكيل، إذ الصورة الخلقية ليست صورة اعتيادية اعتباطية بل هي صورة فنية دالة، وهناك فرق بين الشكل الذي لا دلالة فيه وبين الشكل الذي أخرجته يد القادر الحكيم بتقدير وتصميم.

ومن مثل الدلالة على الإيجاد "بالخلق" قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ في فَلَك يَسْبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 33].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاته اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا للشَّمْسِ وَلاَ للْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [سورة فصلت، الآية 37].

---

(1) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ)، دار الفكر - بيروت، 1408هـ - 1988م: 283/11.

(2) المصدر نفسه.

(3) مفاتيح الغيب المسمى بالتفسير الكبير، الفخر الرازي (ت 606هـ)، دار الكتب العلمية - طهران، ط2 (د.ت): 16/4.

وقوله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ [سورة الدخان، الآية 38].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة النحل، الآية 3].

ثم تلي لفظة "خلق" في معنى الإيجاد لفظة "فطر"؛ فقد تكررت مع السماوات والأرض ثماني مرات في كتاب الله؛ ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأرض﴾ [سورة إبراهيم، الآية 10]، وقوله تعالى ﴿قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة الزمر، الآية 46]، أما لفظة "بديع" فقد تكررت مرتين فقط مع السماوات والأرض؛ وهما قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض﴾ [سورة البقرة، الآية 117].

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام، الآية 101]، وقد ربط الأسلوب القرآني بين خلق السماوات والأرض وما بينهما وبين بناء العقيدة وأغراضها الكبرى كإثبات وجود الله سبحانه، وتوحيده، وتنزيهه عن الولد والزوجة، وغير ذلك من الأغراض المهمة التي وردت في سياق الأسلوب القرآني في عرض العقيدة.

السماء بمعنى السحاب

وردت السماء بمعنى السحاب في القرآن الكريم، وقد اقترنت مع فعل الإنزال في جميعها إلا موضعين[1]، والإنزال هو حط من علو؛ يقال: نزل عن دابة، ونزل في مكان كذا: أي حَطَّ رَحْلَهُ فيه[2]، وقد جاء الأسلوب القرآني بالسحاب مصرحاً بها أيضاً كما في قوله تعالى ﴿اللهُ الَّذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَد مَيِّت فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [سورة فاطر، الآية 9]، وقد وصفَ ذكرُ السحاب في القرآن الكريم للإشارة إلى تثبيت العقيدة من خلال لفت نظر الإنسان إلى السحاب الذي

---

(1) ينظر: سورة البقرة، الآية 19، وسورة إبراهيم، الآية 24.

(2) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت 817هـ) تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، 1384هـ - 1964م: 29/1.

يشير إلى أن خالقاً عظيماً وراءه يبعثه حيث يشاء ويشكله كيف يريد، ويجعل الماء والبرد والثلج يسقط منه حيث يشاء والاستدلال به من قبل الإنسان على خالقه استدلال مباشر وظاهر من خلال إدراك أثره العظيم في الإنسان والحيوان والنبات، وهم يستفيدون منه دون مشقة في الحصول عليه لأنه ينزل عليهم من فوقهم، وهو في ذاته قدرة وإعجاز وتفضل ومنة، ومما جاء من السماء يمضي السحاب قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 63]، الآية الكريمة جاءت في سياق إقامة الحجة على المشركين من خلال تقرير حالة نزول الماء من السماء؛ والسماء في الآية يعنى بها السحاب وقد أعطت المعاني في الآية الكريمة دلالات واضحة على حمق المشركين وجهلهم وسفاهة عقولهم عندما أقروا بأن الله سبحانه هو الذي ينزل عليهم الماء؛ فهم معتقدون بأنه الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته التي لا تقدر على ذلك[1]، وهذا الماء النازل هو ماء مبارك كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [سورة ق، الآية 9]، وقد وصف الأسلوب القرآني هذه المعاني في بيان اختصاص إنزال الماء بالله سبحانه، وهو دليل على توحيده سبحانه، وشاهد حي على عقيدة التوحيد، فهذا الماء على أعلى درجة من المنفعة والسمة والبركة، ولم يوصف الماء بالبركة في القرآن الكريم إلا في هذه الآية، فبركة ماء السماء هي ما نبه عليه بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرضِ﴾ [سورة الزمر، الآية 21]، ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس ولا يعد ولا يحصى قبل لكل ما يشاهد منه زيادة محسوسة هو مبارك وفيه بركة[2].

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 141/4.
(2) المفردات في غريب القرآن: 85.

المطـــر

وظّف الأسلوب القرآني الحديث عن المطر في معرض حديثه لتثبيت العقيدة والـــذي يعد من العناصر المهمة جداً في حياة الإنسان فضلاً عن الحيوان والنبات؛ وممـــا ورد مـــن السماء بمعنى المطر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَـــرْنٍ مَكَّنَّـــاهُمْ فِـــي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ (سورة الأنعام، الآيـــة 6)، والآيـــة أوردها في سياق العبرة والتفكر بما حل بالأمم السابقة التي جحدت آيات ربها مع أنعامـــه وتفضله عليهم والخطاب موجه إلى أهل مكة خاصة والكفار عامة[1]، والسماء في الآيـــة هي المطر، وقد سمي المطر سماء لخروجه منها، وقال بعضهم: إنما سمي سماء ما لم يقع على الأرض[2]، وذكر أبو عبيدة أن السماء هنا مجازها المطر[3]، وقد صرح الأسلوب القـــرآني بالمطر تصريحاً كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَـــزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُـــوا وَيَنـــشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [سورة الشورى، الآية 28]، وقد حدد الأسلوب القرآني استخدامه للألفـــاظ تحديداً دقيقاً فهو يفرق بين الغيث والمطر؛ فهو يذكر الغيث في مقام الخير والنعمة والرحمة، ويذكر المطر في مقام العذاب والاستئصال.

إن ذكر إنـــزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به ما يفتأ يتردد في مواضع شـــتى من القرآن في معرض التذكير بقدرة الله سبحانه والتذكير بنعمته، كذلك والماء النازل من السماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء في الأرض جميعاً؛ فمنه تنشأ الحياة بكل أشـــكالها ودرجاتها كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَـــلاَ يُؤْمِنُـــونَ﴾ [ســـورة الأنبياء، الآية 30]، سواء أنبت الزرع مباشرة حين يختلط بالأرض، أو كـــون الأنهـــار والبحيرات العذبة، أو انساح في طبقات فتألفت منه المياه الجوفية التي تتفجر عيوناً أو تحفر آباراً أو تجذب بالآلات إلى السطح مرة أخرى، ونعمة الماء ودوره في حياة الناس وتوقف

(1) ينظر: الكشاف: 6/2.
(2) المفردات: 355.
(3) مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 210هـ)، تحقيق: محمد فؤاد سركيس، ط2، دار الفكـــر، مكتبـــة الخـــانجي، 1390هـ/1970م: 187/1.

الحياة عليه في كل صورها وأشكالها، وهذا أمر لا يقبل الشك، وإنما تكفي الإشارة إليه والتذكير به في معرض الدعوة إلى عبادة الخالق الرزاق الوهاب(1).

سماء الجنة والنار

إن الجنة والنار تعدان من أركان الإيمان العقائدي للعالم الأخروي، وقد وظف الأسلوب القرآني طرقاً شتى للتدليل عليهما وعلى سعتهما، وهي حقيقة أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرنا وتصوراتنا المقيدة بمألوف حسنا وتفكيرنا(2)، وكل تفكير صحيح لا بد أن يرتكز على نظرية فكرية معينة، واهتمام القرآن بقضية الجنة والنار ذو وشيجة وطيدة بتحقيق أهدافه ومقاصده التي سعى إليها، فالأسلوب القرآني عند عرضه للعقيدة حث الإنسان على الإيمان بالله وتوحيده وتصديق رسله وإقامة شريعته في الأرض والاستجابة لأحكامه ونحو ذلك من أهداف سامية، وقد صرح الأسلوب القرآني بالجنة والنار ودفع الإنسان للتفكر في مسألة النظر إلى السماء لإدراك المعاني الخفية؛ ومما في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأرض إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود، الآيتان 106-107].

فالأسلوب القرآني عبر من خلال توظيف السماء في سياق الآية الكريمة للتدليل على سماء النار وأرضها، وليس المراد السماء والأرض المعروفتين لأنهما سوف تتغيران كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [سورة إبراهيم، الآية 48]، والسياق في الآيتين السابقتين يشير إلى الحالة التي ينتهي إليها المشركون والكفار في نار جهنم؛ والمعنى أنهم دائمون فيها مادامت سماوات النار وأرضها(3).

فالاستدلال في سياق الآيتين الكريمتين استدلال بما هو أقرب للحس من خلال لفت نظر الإنسان لتثبيت العقيدة في مسألة إقامة الحجة الدامغة والدليل الواضح، وقد جاءت "السماء" بصيغة الجمع "سماوات" دليلاً على عظمها، وتدل على سعة جهنم وضخامتها، وعذاب النار عذاب حسي ومعنوي للبدن والروح معاً لدلالة النصوص على ذلك، ولأن

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، مطبعة دار الشروق - بيروت، ط7، 1398هـ - 1978: 47/1.

(2) التفكر من المشاهدة الى الشهود، د. مالك بدري، مطبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان - الأردن، ط2، 1413هـ - 1992م: 85.

(3) جامع البيان 117/12. وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 222/3.

العدل يقتضي أن من باشر بالمعصية والخطيئة يجب أن يعاقب، وكما أن العاصي قد ارتكب المعصية بالبدن والروح معاً، فوجب أن تلحق العقوبة بهما معاً[1]، فالله سبحانه أفهم تخليد الكفار في جهنم[2].

وقد حقق الأسلوب القرآني معنى دلاليا تمثل في بيان دوام عذاب الكفار واستمراره إلى ما لا نهاية، وأما الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ففيه إشارة إلى أن هناك أنواعاً من العذاب غير النار كالزمهرير فهو استثناء من الخلود في عذاب النار وحده بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار بما هو أغلظ منها وهو سخط الله عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم[3]، وقد حقق الأسلوب القرآني هنا صورة جديدة لإقناع عقل الإنسان نحو العقيدة الصحيحة عن طريق دليل المخالفة الذي يقتضي عدم السقوط فيما سقط هؤلاء الكفار والمشركون فضلاً عما فيه من حيث التمسك بالعقيدة الصحيحة للنجاة من مصير هؤلاء.

أما سماء الجنة فقد أشار الأسلوب القرآني إليها في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذينَ سُعدُوا فَفي الْجَنَّة خَالدينَ فيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأرض إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذ﴾ [سورة هود، الآية 108]، الآية الكريمة تشير إلى حال المؤمنين في الآخرة وهم المعنيون في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذينَ سُعدُوا﴾، وقد أعاد الأسلوب القرآني ذكر الجنة بقوله: "فيها" زيادة في التشويق وزيادة في التوكيد على عقيدة الإيمان بالجنة، وأهل الجنة لهم نعيم آخر غير الجنة كما بين ذلك الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، فلهم ما هو أجل وأكبر، وهو رضوان الله سبحانه عليهم[4]، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمنينَ وَالْمُؤْمنَات جَنَّات تَجْري منْ تَحْتهَا الأَنْهَارُ خَالدينَ فيهَا وَمَسَاكنَ طَيِّبَةً في جَنَّات عَدْن وَرضْوَانٌ منْ اللَّه أَكْبَرُ ذَلكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظيمُ﴾ [سورة التوبة، الآية 72].

فالاستثناء في الآية أعطى دلالة واضحة بوجود ألوان أخرى من النعيم، وقد قال النبي محمد ﷺ في وصف الجنة: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب

---

(1) العقيدة الإسلامية الميسرة، أبو عمر عبد العزيز بن فتحي، الدار المتحدة - دمشق، ط1، 1423هـ - 2002م: 109.
(2) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 99/9.
(3) الكشاف: 294/2.
(4) ينظر: جامع البيان: 118/12، والكشاف: 123/3.

بشر"[1]، وقد ختم الأسلوب القرآني الآية بقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وذلك يعني امتداداً لهذا النعيم ودوامه إلى ما لا نهاية، فالمراد بالاستثناء في الثواب ليس للانقطاع[2]، بل لأنواع من الثواب، فالأسلوب القرآني ختم الآية بقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ تحقيقاً للبقاء والسكون في الجنة، وفيه معنى الأبدية، والعلماء متفقون على ان الذي يدخل الجنة لا يخرج منها أبداً، وفي الآية السابقة التي تتحدث عن أهل النار قد قطع الأسلوب القرآني الكلام فيها بجعلها جديرة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، ولم يوصلها كما فعل مع أهل الجنة، وقد أعطى ذلك معنى دلالياً تمثل في عدم التأبيد في بقاء جميع الأشقياء في النار، وهو تلميح بخروج بعضهم منها وهم فساق الموحدين، وهذا الأمر هو أحد أركان العالم الغيبي الذي يثيره الأسلوب القرآني للإيمان به، ولتثبيت أركان العقيدة من خلال عرض الغيبيات على أعلى درجات الكمال في الاقتناع والتأثير.

السماء ذاتها الوجه المقابل للأرض

وردت لفظة "السماء" لدلالة على الوجه المقابل للأرض في خمسة وثمانين موضعاً وقد جاءت في سياقات وأنساق مختلفة وظفها الأسلوب القرآني في عرض العقيدة، وقد عبرت هذه السياقات عن وحدانية الله في واحد وعشرين موضعاً، وعبرت عن الرحمة والعناية في خمسة عشر موضعاً، وعن الحديث عن يوم القيامة في اثني عشر موضعاً، وعن العقاب والعذاب في أحد عشر موضعاً، وعن إحاطة الله بكل شيء وسمة علمه في عشرة مواضع، وعن التهديد والوعيد في تسعة مواضع، وعن التحدي في سبعة مواضع.

في التعبير عن وحدانية الله

التوحيد من أهم المسائل التي عالجها القرآن؛ وقد استخدم الأسلوب القرآني "السماء" في عرض العقيدة والتصور العقائدي من خلال توظيفها للتدليل على وحدانية الله، كما

(1) الحديث: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت..." رواه البخاري (3055)، الجامع الصحيح المختصر: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري (ت 256هـ)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير - اليمامة، - - 1407هـ-1987م. ورواه مسلم برقم (5050 - 5052)، صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت 261هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت (د.ت). رواه الترمذي (3121)، الجامع الصحيح سنن الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت 279هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي. ورواه أحمد (7796، 8471)، مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (ت 241هـ)، مؤسسة قرطبة - مصر (د.ت).

(2) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل: 123/3.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة النحل، الآية 79].

وهذه الطير هي إحدى عجائب خلق الله سبحانه، فالله يخاطب الغافلين عن هذا الخلق فيقول: "ألم تروا أيها الكافرون بالله إلى الطير مسخرات في جو السماء، وما طيرانها في الجو إلا بالله وبتسخيره إياها"(1)، وفي ذلك دليل قاطع على وحدانية الله، وقد استعمل الأسلوب القرآني هنا أسلوب الاستفهام والذي خرج معناه إلى الإنكار؛ أي "إنكار رؤيتهم الطير مسخرات في جو السماء بتنزيل رؤيتهم إياها منزلة عدم الرؤية لانعدام فائدة الرؤية"(2)، لهذه الرؤية التي تشير إلى انفراد الله بالألوهية، وقد عمق الأسلوب القرآني هذا المعنى باستخدامه أسلوب القصر بالاستثناء في قوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ﴾ وفي ذلك دليل على عظمة الله وبديع صنعه وقوله ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ يعني: "ما بين السماء والأرض"(3)، وقد "أضيف الجو إلى السماء لارتفاعه عن الأرض"(4).

لقد شكل الاستفهام الإنكاري في الآية الكريمة معنى دلالياً من خلال ما يحدثه من تساؤلات في ذهن السامع وحسه في النظر إلى هذه المخلوقات اللطيفة التي تدل على الإله الواحد(5)، وقد عمل الأسلوب القرآني على اكتساب المعاني خصوبة وامتلاء فهو مشحون بالإيحاءات المهددة والمنذرة لكل من لا يعتبر ولا يتعظ، ولهذا ختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فالأسلوب القرآني يبين أن المؤمنين هم الذين يتأملون ويتفكرون في هذا الخلق العظيم(6).

من الرحمة والعناية

الآيات التي تتحدث عن رحمة الله تعالى بخلقه كثيرة، وقد اهتم الأسلوب القرآني في هذه السياقات لأنها تعبر عن حقيقة عقائدية عظيمة وهي رحمة الله بعباده، ومما ورد فيه

---

(1) جامع البيان: 153/14. وينظر: الكشاف: 422/2.

(2) التحرير والتنوير: 235/14.

(3) العمدة في تفسير غريب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: يوسف عبد الرحمن، ط1، مؤسسة الرسالة – بيروت، 1401هـ – 1981م: 353/1.

(4) الجامع لأحكام القرآن: 152/10، وينظر، مجاز القرآن: 353/1.

(5) ينظر: من الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، عبد العزيز سيد الأهل، مطبعة الأهرام التجارية – القاهرة، 1400هـ – 1980م: 98.

(6) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، ابن عبد الله محمد الخطيب الإسكافي (ت 421هـ)، ط3، منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت، 1979م: 109.

ذكر السماء قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ۝وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ [سورة الصافات، الآيتان 6-7].

إن سياق الآيتين الكريمتين يشير إلى إحدى نعم الله العظيمة على البشر بأن جعل في السماء نجوماً وكواكب، وأودع فيها منافع للإنسان بأن جعلها رجوماً للشياطين، ونوراً يهتدى بها، وزينة للسماء الدنيا[1]، وقد وصف الأسلوب القرآني السماء هنا بأنها السماء الدنيا؛ وهي إشارة إلى أن المقصود بها السماء الأولى، فالله سبحانه جعل النجوم في السماء الدنيا للحفظ؛ وذلك لأن طائفة من الناس اعتقدت في النجوم أنها ليست من السماء الدنيا، وأنها ليست حفظاً ولا رجوماً[2]، فكان ذلك من التدليل على رعايته للناس ورحمته بهم، وأنها ليس كما يظن تظهر في السماء إذا ولد رجل عظيم أو تختفي على فقد رجل عظيم[3].

في الحديث عن يوم الحساب

والآيات التي تتحدث عن يوم الحساب في القرآن الكريم كثيرة وقد ذكرت السماء في بعضها من خلال توظيف الأسلوب القرآني لها في عرضه للعقيدة؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [سورة الفرقان، الآية 25]، والآية تشير إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة وهو تشقق السماء وتصدعها؛ والمعنى أن السماء "تنشق عن الغمام"[4]، والغمام هو "السحاب الرقيق؛ وهو ما يغشى مكان الحساب"[5]، ولما كان "انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه هو الذي تشقق به السماء"[6].

وقد وظف الأسلوب القرآني الفعل "تشقق" هنا توظيفاً دقيقاً؛ فهو يدل على الحركة والنشاط، وهو من الألفاظ التي استخدمها الأسلوب القرآني لتصوير مشاهد يوم القيامة،

---

(1) ينظر: جامع البيان: 35/23. والكشاف: 335/3. والجامع لأحكام القران: 64/15.

(2) البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي (ت 794هـ)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية - بيروت، 1408هـ/1988م: 3-330 .

(3) وسنتكلم على النجوم والكواكب لاحقاً.

(4) الجامع لأحكام القرآن: 24/13.

(5) التحرير والتنوير: 10/25.

(6) التفسير البياني للقرآن: عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) (ت 1418هـ)، ط2، دار المعارف- مصر، 1393هـ/1973م: 80/2.

وهذه الألفاظ بالغة الإثارة قوية الموقع من أجل تحقيق الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن.

في العقاب والهلاك

كثيراً ما يتحدث القرآن عن العذاب الذي نــزل بالأقوام السابقة لكفرهم وضلالهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنــزَلْنَا عَلَى الَّــذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية 59]، الآية الكريمة في سياق الإخبار عن العذاب الذي حل ببني إسرائيل بعد عصيانهم وتكبرهم واستهزائهم بأمر الله سبحانه في دخول القرية، فتحولت هذه السماء الرقيقة الجميلة إلى مصدر من مصادر العذاب لتنفيذ أمر الله تعالى،"والرجز في لغة العرب العذاب، وقيل: إنه الطاعون"[1]، وقد وصف الأسلوب القرآني ذلك العذاب وصفاً عاماً غير محدد "ليدع للخيال الإنساني فرصة التأمل والتخيل الذي يمد الصور بالغنى والاتساع، ويدفق فيها الحياة ويكسبها خلــوداً"[2]. وقد كرر الأسلوب القرآني عبارة ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في الآية فلم يقل: "فأنــزلنا علــيهم"، وذلك لتعريف بني إسرائيل بالظلم لغرض تحقيرهم وللزيادة في تقبيح أمــرهم والتــشنيع عليهم والإيذان بأن إنــزال الرجز عليهم لظلمهم، وعندما كررت هذه الآية في ســورة الأعراف، لم تكرر العبارة استغناء بما ورد في هذه الآية، فقد قال تعالى: ﴿فَبَــدَّلَ الَّــذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 162]، فالأسلوب القرآني يوظف التكرار في سياقاته "لتوكيــد الزجر والوعد والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة أو لتحقيق النعمــة، وتزييــد المنــة والتذكير بالمنعم واقتضاء شكره[3]، فالمنعم هو الله سبحانه والإشارة إلى الربوبية إشــارة واضحة في سياق الآية الكريمة، وقد رسمت هذه الآية مشهد التدمير الذي وقع على بــني إسرائيل من السماء، وقد كان هذا التدمير هو المصير والمآل الطبيعي لهذه الــشجرة الــتي فسدت و لم تعد صالحة للنماء ولا للحياة بل للاجتثاث والتحطيم.

---

(1) جامع البيان: 3005/1. والجامع لأحكام القرآن: 417/1. والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بــن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلميــة - بــيروت، ط1، 1413هــ - 1993م: 113/1.

(2) الوصف في القرآن الكريم، يونس جاسم: 78.

(3) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي - بيروت، 1393هــ - 1973م: 194.

في إحاطة الله بكل شيء وسعة علمه

قام الأسلوب القرآني بالتركيز على الآيات التي تتحدث عن إطاعة الله بكل شيء وسعة علمه لأنها إحدى أساليبه في عرض العقيدة والإخبار عن ذات الله سبحانه وتعالى وقدرته العظيمة في الإحاطة وسعة العلم؛ ومن ذلك قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرض وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ (سورة آل عمران، الآية 5)، الآية الكريمة هي من ضمن الآيات التي نزلت في نصارى نجران الذين حاجوا النبي محمداً ﷺ في عيسى عليه السلام وأن الله مطلع عليهم، قال الطبري في تفسير الآية " كيف يا محمد يخفى علي وأنا علام جميع الأشياء ما يضاهي به هؤلاء الذين يجادلونك من نصارى نجران في عيسى ابن مريم ومقالتهم التي يقولونها فيه؟"[1].

والناظر في الآية الكريمة يرى دقة الأسلوب القرآني في عرض عقيدة التوحيد من خلال تقديم الجار والمجرور "عليه" العائد على الله سبحانه على الفاعل "شيء"، وذلك للاهتمام بالمتقدم وهو الله سبحانه، وقد قصد الأسلوب القرآني في قوله تعالى: ﴿فِي الأرض وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ عموم الأمكنة والأشياء التي فيها من أرض وما سفل منها والسماء وما علا فيها، وقد ابتدأ بذكر الأرض ليتسنى التدرج في العطف إلى الأبعد في الحكم، لأن أشياء الأرض يعلم كثيراً منها كثير من الناس، أما أشياء السماء فلا يعلم أحد بعضها فضلاً عن علم جميعها[2]، ولأن الخطاب "موجه لأهل الأرض"[3]، والمقصود في سياق الآية الكريمة النبي محمدﷺ ومن حاجه من نصارى نجران.

وقد قام الأسلوب القرآني بإعادة حرف الجر "في" في قوله تعالى: ﴿فِي الأرض وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾، لأن السياق قبل الآية الكريمة سياق محاجحة ومكابرة من نصارى نجران ومعارضتهم للنبي محمد ﷺ؛ فناسب ذلك أن يزيد لهم في القول ويبسط[4]، وهو يعالج مسألة عقدية مهمة؛ وهي عقيدة التوحيد.

(1) جامع البيان: 168/3. وينظر: الكشاف: 411/1. والجامع لأحكام القرآن: 7/4.
(2) ينظر: التحرير والتنوير: 151/3.
(3) البرهان في علوم القرآن: 348/3.
(4) ينظر: التعبير القرآني: فاضل صالح السامرائي، دار الكتاب للطباعة والنشر - جامعة الموصل، 1406هـ - 1987م : 103.

في التهديد والوعيد

ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ [سورة الكهف، الآية 4]؛ يعرض الأسلوب القرآني في هذه الآية الكريمة[1]، الحوار الذي جرى بين العبد المؤمن بالآخرة وبين الجاحد بها فالقرآن يخبرنا عن كلام المؤمن للكافر المرتاب في قيام الساعة "إن الرجل "أنا" أقل منك مالاً وولداً في الدنيا فعسى أن يرزقني الله خيراً من بستانك هذا ويرسل عليها - أي جنة الكافر التي قال عنها: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ [2] - عذاباً من السماء وهو الحسبان - وقيل: إنه "السحابة أو الصاعقة"[3] - فيهلكها.

فالتهديد في الآية الكريمة من هذا المؤمن لهذا الكافر بنزول العذاب إن أصر على كفره وجحوده موجه في الحقيقة إلى كل من كفر بالله واليوم الآخر، وهو تهديد دائم ومستمر لكل من لا يحمل العقيدة السليمة وهي عقيدة التوحيد، وقد بين الأسلوب القرآني هذا المعنى وبشكل جلي فضلاً عن أن السياق بين أن العذاب مرسل لهذه الجنة خاصة، وقد أفاد نزول العذاب من السماء معنى التسلط والشمول والإحاطة.

في التحدي

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الأنفال، الآية 32] نزلت الآية في النضر بن الحارث الذي قال: "إن كان ما يقوله محمد فأمطر علينا حجارة من السماء"[4]، وقوله: "أمطر" بالألف يعني: "كل شيء من العذاب وان كان من الرحمة فهو مطرت"[5]، ويلحظ دقة استخدام الأسلوب القرآني في عرضه للمعاني؛ ذلك لأن الفعل "أمطر" يدل على العذاب، وإن كان المطر مطر رحمة فيستعمل الأسلوب القرآني الفعل "مطر"، وقوله

---

(1) ينظر: جامع البيان: 248/15.
(2) جامع البيان: 163/15.
(3) مجاز القرآن: 245/1.
(4) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت 468هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط1، دار الكتاب الجديد، 1389هـ - 1969م: 232.
(5) الكشاف: 155/4.

تعالى على لسانهم: إن كان هذا هو الحق، تهكم؛ كمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين: هذا هو الحق؟!

وقد أسند الأسلوب القرآني القول هنا إلى جميع المشركين بعبارة: "فليمطر علينا" والقائل واحد؛ ذلك لأنهم كانوا في عقيدة الشرك والكفر سواء، وكلامهم جار مجرى القسم؛ وذلك "أنهم يقسمون بطريقة الدعاء على أنفسهم إذا كان ما حصل في الوجود على خلاف ما يحكونه أو يعتقدونه، وهم يحسبون أن دعوة المرء على نفسه مستجابة[1]، فقد كانوا لجهلهم وضلالهم يحسبون أن الله يتصدى لتحديهم، هذا ويلحظ أن الأسلوب القرآني علق الشرط في الآية الكريمة بأداة الشرط "إن" لتبين غباء هؤلاء المشركين وسفاهة العقيدة التي يحملونها بتحديهم لله سبحانه وتعالى بقولهم: "إن كان هذا هو الحق"، وهم أرادوا بذلك أن يظهروا لقومهم صحة اعتقادهم بعدم حقيقة القرآن، وقد أرادوا أن ينزل العذاب عليهم أولاً، ولم يكتفوا بهذا العذاب، وهو إمطارهم بحجارة من السماء، بل أرادوا عذاباً يختاره الله سبحانه أي نوع كان، وقد بينت الآية الكريمة حمق المشركين وسفاهة عقولهم إذ ليس من الحكمة الدعاء على النفس بالهلاك والدمار، وفي ذلك دلالة ظاهرة على ضحالة عقيدهم التي أورثتهم سفاهة في العقول والتصرف.

---

(1) التحرير والتنوير: 331/9.

المطلب الثاني: آيات الشمس والقمر

الشمس والقمر

ذكرنا فيما سبق كيف أن الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة عن طريق الاستدلال بأحوال السماء المشاهدة وأن خلقها المتقن العجيب يدل على أن هنالك خالقاً عظيماً وراءها، نقف الآن على عنصرين مهمين من عناصر الكون المشاهد القريب أمام بصر الإنسان وحسه؛ وهما: الشمس والقمر.

إن الإيمان بعقيدة التوحيد لا يعتمد الإيمان بها على الخوف في نواميس الطبيعة فحسب، أو بعبارة أخرى: لا يعتمد على الآيات والبيانات التي تتسم بالقوة ومخالفة المألوف والحوادث المتعاقبة بصورة دائمية ثابتة، بل إن الإيمان فيها يعتمد على الآية الاستدلالية التي تعتمد على إعمال الفكر وشحذ الذهن والاستبصار والتأمل في صفحات الكون الجميلة بعيدها وقريبها، حيها وصامتها.

وقد قام الأسلوب القرآني في عرض العقيدة بتكرار ذلك في القرآن كثيراً من أجل بسط الموعظة وتثبيت الحجة وإقامة الدليل، سواء كان ذلك الشيء الذي يستدل به شيئاً واحداً يعبر عنه بالآية، أم أشياء متنوعة من الطبيعة المشاهدة فيعبر عنها بالآيات، وقد تقدم في الحديث عن السماء والسحاب والمطر أن الأسلوب القرآني وظف هذه العناصر السماوية في التدليل على العقيدة وبين أنها آيات ودلالات ظاهرة على ما وراءها من القدرة الإلهية، والعظمة الربانية التي تتصرف في الكون بعلم وحكمة وتقدير.

إن اهتمام القرآن الكريم "بالآية الاستدلالية" المعتمدة على التأمل والتفكر، إنما هو اهتمام بتصفية الفكر، واهتمام بفتح آفاق أمام الذهن البشري لكي يستنتج ويستبصر، ويصل بالنظر العقلي والتأمل الفكري إلى آفاق سامية من الحقائق التي في الكون أو ما وراء الكون من أجل تثبيت العقيدة؛ ولهذا فإن الأسلوب القرآني غالباً ما يختم السياق في هذه الآيات بالثناء على الذين يتأملون ويتفكرون في هذا الخلق العظيم ويذم الذين يمرون على ما في الكون معرضين غير متأملين؛ قال تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [سورة آل عمران، الآيات 190-191] ومن آيي الشمس والقمر

خاطب الأسلوب القرآني العقل البشري عندما حثه على النظر إليهما وهما أعظم العناصر الكونية المحسوسة لدى الإنسان وأقربهما إليه فضلاً عن أثرهما العظيم فيه وفي حياته، وقد وظفهما للتعبير عن التوحيد وأقامته في ستة عشر موضعاً، وعن التسخير في عشرة مواضع، وعن الرحمة والعناية في تسعة مواضع، وعن يوم الحساب في أربعة مواضع؛ فمما جاء في التدليل على التوحيد وإقامته قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيم مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقنينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْه اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحبُّ الآفلينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئنْ لَمْ يَهْدني رَبِّي لأكُونَنَّ منْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ ممَّا تُشْرِكُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآيات 75-78]. فالأسلوب القرآني من خلال الآيات السابقة يشير إلى تقرير قواعد كبرى ومفهومات مهمة عظيمة حيث إن النبي إبراهيم عليه السلام أبطل الاعتقاد السائد ذلك الوقت، وهو عدم حدوث الكواكب ومنها الشمس والقمر عن طريق محاججة قومه محاججة عقلية مستنبطة من دلالة أحوال الموجودات على وجود صانعها؛ فإن النبي إبراهيم عليه السلام حين أظلم الليل عليه رأى كوكباً منيراً فقال على سبيل المحاجة ومجاراة الخصم في المناظرة – تمهيداً للإنكار عليهم بالدليل – حاكياً مقالتهم ليستدرجهم إلى سماع حجته ودليله على بطلان دعواهم، فأوهمهم أولاً أنه موافق على أسلوب زعمهم، ثم أبطل ألوهيته لأنه متغير ومتأثر بنظام كوني. ثم إن النبي إبراهيم عليه السلام أراد أن يكرر الحجة عليهم عن طريق تجاهل العالم تأكيداً لإبطال دعوهم حين رأى القمر فقال: هذا ربي فإن كبر حجم القمر الظاهري أحق من الكوكب السابق بأن يكون رباً، فلما اختفى القمر وتوارى تحت الحجب أبطل ألوهيته لأن فيه أمارة الحدوث والتغير، والإله الحق مخالف للحوادث منزه عن التغير والتأثر، ثم كرر الحجة عليهم بحجة أعظم حين أبطل ألوهية الشمس التي هي أكثر بزوغاً بحرارتها وضوئها وأكبر حجماً في جرمها وأكثر فائدة لأنها مصدر الدفء والحياة ومبعث الضوء والحركة، وفي هذا مبالغة في المجاراة لهم وتمهيداً لإقامة الحجة الدامغة عليهم، فلما غربت وتوارت في خدرها كما احتجب غيرها صرح النبي إبراهيم عليه السلام بالبراءة من شرك قومه ومن العقيدة الفاسدة منزهاً نفسه عن عبادة تلك الأجرام التي جعلوها أرباباً وآلهة مع

الله سبحانه [1]. فإن الأسلوب القرآني في هذه الآيات الكريمة يعرض نموذجاً لإحدى العقائد الفاسدة التي كان يعتقنها قوم إبراهيم عليه السلام وقد كانت آلهتهم التي يعبدونها أصناماً وتماثيل الكواكب والشمس والقمر بحسب تخيلاتهم وأساطيرهم، ويلحظ دقة الأسلوب القرآني في إبطال اعتقاد إن هذه العناصر الكوكبية آلهة من خلال الاستدلال بأفول الكوكب والقمر والشمس، فإن الأفول مغيب وابتعاد عن الناس، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير عباده، فلما أفل الكوكب والقمر والشمس كانوا في حالة أفولهم محجوبين عن الاطلاع على الناس، وقد بني هذا الاستدلال على ما هو شائع عندهم من كون أفول هذه العناصر الكونية مغيباً عن إدراكهم [2]، فإن ما يغيب لا يستحق أن يتخذ إلهاً لأنه لا يغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مغيبه، وليس الاستدلال منظوراً فيه إلى التغير لأن قوم إبراهيم عليه السلام لم يكونوا يعلمون الملازمة بين التغير وانتقاء صفة الإلهية؛ ولأن الأفول لهذه العناصر الكونية ليس بتغير في ذواتها بل هو عارض للأبصار المشاهدة له، فهي باقية في فلكها ونظامه واقعة تحت تأثير خالقها الذي وضعها في نظام متناسق لا تحيد عنه أبداً [3] وبذلك تتجلى دقة الأسلوب القرآني في عرض العقيدة وإقامتها مستعملاً أدق العبارات والسياقات من أجل تحقيق الاستجابة النفسية والعقلية في إقامة دعائم التوحيد.

التسخير

ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [سورة الرعد، الآية 2]، الآية الكريمة في سياق التدليل على عظمة الخالق المدبر الذي سخر الشمس والقمر ووضعها في فلكهما يدوران بتقدير ونظام دقيق تتجلى فيه العظمة الإلهية وقد سلك الأسلوب القرآني مسلكاً دلالياً من خلال ربط التسخير بإقامة دعائم التوحيد وإقرار العقيدة الصحيحة التي جاء بها القرآن، فالله سبحانه سخر الشمس والقمر؛ أي أنه "ذللهما لمنافع خلقه ومصالح عباده" [4] فالآية

---

(1) ينظر: التفسير الفريد للقرآن المجيد، د. محمد عبد المنعم الجمال، مطبعة الأوفست (د.ت): 876/2.

(2) ينظر الكشاف: 31/2. وينظر تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، مطبعة دار المعرفة – بيروت، ط2، 1393هـ – 1973م: 561/7.

(3) ينظر التحرير والتنوير: 321/7

(4) الجامع لأحكام القرآن: 279/9. وينظر الكشاف: 349/2. وينظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1417هـ – 1997م: 378/5.

الكريمة تشير إلى دوران القمر ونـــزوله منازل معدودة مختلفة يتغير فيها مظهره، فيظهــر للناس بأوجه مختلفة حتى يصير بدراً، ثم يتناقص فيعود هلالاً كما كان، وفي ذلك منفعــة عظيمة للإنسان[1]؛ لأنه من خلال هذا التغير يعرف عـــدد الأيــام والــسنين ومطــالع الأشهر.[2] أما الشمس فإنها تجري في فضاء واسع وهي تجر وراءها المجموعــة الشمــسية كلها، ولها تأثير مباشر وفعال في حياة الإنسان والحيوان والنبات وقد أكــد الأســلوب القرآني عظمة القرآن ودقته المتناهية في تصوير حقائق الكون الواهنة، وجَمَــعَ المعــاني[3] المتعددة في ألفاظ دقيقة، فالأسلوب القرآني بين في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أن الشمس والقمر خاضعة للنظام الذي خلقه الله سبحانه فإنهما لا يتغيران مع أن شــأن عظمتها وضخامتها لا يستطيع غيره تعالى وضعها على نظام محدد منــضبط[4]، فالآيــة الكريمة مشحونة بالإشارات الدالة على عظمة الخالق وهي تدعو إلى التأمل والتفكــر في هذا الخلق العجيب، ومن ثم تحقيق الاعتقاد الصحيح وهو التوحيد.

الرحمة والعناية

ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَــراً مُنِيراً﴾ [سورة الفرقان، الآية 61]، الآية تشير إلى أنعم الله الكثيرة على الخلــق ورحمتــه وعنايته بهم؛ فالبروج هي منازل الكواكب السيارة ومداداتها الفلكية الهائلة،[5] والــسراج يعني به الشمس؛ وهي من العناصر الكونية التي لها تأثير مباشر في الحيــاة علــى الكــرة الأرضية فضلاً عن القمر الذي به تدرك الأوقات والأحيان، فضلاً عن تأثيره المباشــر في حركة المد والجزر للبحار والأنهار والتي من شأنها أن تبقي الماء بحركة دائمة كيلا يقــف فيصبح آسناً فيموت ما فيها من أحياء، "ودلالة خلق البروج وخلق القمر والشمس علــى عظيم القدرة دلالة بينة للعاقل، وكذلك دلالته على دقيق الصنع ونظامه بحيث لا يختل ولا

(1) ينظر حقائق القرآن والعلم الحديث، عامر تحسين، مطبعة الزهراء – الموصل، 1406هـ – 1986م: 84.
(2) المصدر نفسه: 86.
(3) ينظر: آيات للموقنين، محمد الصوايدة، مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، ط1، 1405هـ – 1985م:49.
(4) ينظر التحرير والتنوير: 80/13.
(5) ينظر روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الآلوسي، دار إحياء التــراث العــربي – بــيروت: 40/19. وينظر: في ظلال القرآن: 2576/5.

يختلف حتى تسنى للناس رصد أحوالها وإناطة حساهم بها"[1] فالأسلوب القرآني بدأ الآية بقوله: "تبارك" من أجل إنشاء الثناء على الله سبحانه بالبركة والخير لما جعله للخلق من منافع وفوائد تعينهم في الحياة الدنيا[2].

يوم الحساب

وظف الأسلوب القرآني الشمس والقمر في سياقاته عند الإشارة إلى يوم القيامة والتي هي إحدى الغيبيات الكبرى التي ذكرها القرآن الكريم، وهي ركن من أركان العقيدة، فمما جاء من ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۞ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۞ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۞ يَقُولُ الإنسان يَوْمَئِذ أَيْنَ الْمَفَرّ﴾ [الآيات 7-10]، والآية تشير إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة، فإن الأنظار في ذلك الوقت تتجه شاخصة إلى السماء فيذهب ضوء القمر[3]، وينطمس نوره بسبب تزلزله عن مَداره فيلتصق بالشمس فتلتهمه، وعند ذاك ينفرط عقد هذا الكون، ونلحظ دقة الأسلوب القرآني في سياق الآية الكريمة في عرض مشهد الحساب، وفيه إشارة إلى الفزع والرعب[4] الذي يصيب الناس، فالأبصار شاخصة في السماء كما قال تعالى في موضع آخر:﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَة مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الآية 97]، فالأسلوب القرآني يخاطب القلب والعقل معاً لما ذكر الشمس والقمر وجمعهما للحساب أثر في عقل الإنسان وفكره؛ لأنهما أضخم العناصر الكونية المحسوسة لدى الإنسان وأعظمها تأثيراً فعليه.

والمعروف لدى المؤمنين أن إحدى علامات الساعة هي طلوع الشمس من مغربها؛ وهي من علامات الساعة الكبرى الدالة على يوم القيامة لقول النبي محمد ﷺ في حديث يرويه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله قال: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها؛ فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعين، فذاك حين لا ينفع نفساً

---

(1) التحرير والتنوير: 64/19.

(2) ينظر عقيدتنا، السيد سابق، مؤسسة فخر الدين للطباعة، بيروت، ط1، 1401هـ - 1981م: 214.

(3) ينظر جامع البيان: 180/29. والكشاف: 191/4.

(4) ينظر التحرير والتنوير: 344/29.

إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً"[1] فجعلت الشمس التي هي أقرب نجم إلى الإنسان إحدى علامات الإخبار[2] عن غيب واقع لا محالة فالفكر لدى الإنسان يتجاوب بتلقائية مع هذا الإخبار لأنه يشكل حدثاً عظيماً عنده إذ كيف للشمس أن تغير منازلها فتخرج من المغرب بدل المشرق وفي ذلك إشارة صريحة إلى أن وراءها خالقاً مدبراً يعلم مستقرها ومستودعها ولهذا فإن الأسلوب القرآني في عرض العقيدة يحث دائماً على التفكر في المعقول المنظور للوصول إلى الإيقان بالمجهول الغيبي الذي هو أحد ركائز العقيدة وهو الإيمان بالغيب.

---

(1) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب (لا ينفع نفساً إيمانها) (4269). رواه مسلم في كتاب الإيمان (226). ورواه أبو داود، باب الفتن والملاحم (3713)، سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي (ت 275هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر (د.ت).

(2) ينظر معجم ألفاظ العقيدة، أبو عبد الله عامر عبد الله فالح، منشورات مكتبة العبيكان – الرياض، ط1، 1420هـ – 2000م: 271.

المطلب الثالـــث: آيات النجوم والكواكب

وظف الأسلوب القرآني الكون وعناصره في الإشارة إلى العقيدة، وجعلـــها دلـــيلاً وبرهاناً مشتقاً من واقع الإنسان وحاله من خلال لفت نظره إلى النجوم والكواكب ومـــا لها من تأثير مباشر وغير مباشر فيه وفي حياته على الأرض.

أما النجوم فقد استخدمها الأسلوب القرآني في تسعة مواضع في التعبير عن التوحيـــد والرحمة والعناية ويوم الحساب، وأما الكواكب فقد استخدمها في خمسة مواضع في التعبير عن التوحيد وإقامته، وعن الرحمة والعناية، وعن يوم الحساب؛ فمن توظيف النجوم قولـــه تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الآيتان 75-76]، والآية الكريمة تشير إلى خلق عظيم ودقيق وهو "مواقع النجوم" التي أقسم الله بها في إثبات صدق القرآن، ثم عقب على هذا القسم بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، والقصة في هذا القسم أن في الكون ملايين النجوم التي لا يحصيها إلا من أوجدها، ولكل نجم منها منـــزل ومسار لا يحيد عنه ولا يميل، "وله تعالى في ذلك من الدليل على عظـــيم القـــدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف"[1]، فالأسلوب القرآني يعرض لنا في هذه الآية الكريمـــة حقيقة عظيمة وهي إحاطة الله سبحانه وسعة علمه وتقديره الدقيق في تسخير نجوم يتجاوز عددها عدد الحصى على الأرض، وكلها تجري في أفلاكها، ومع ذلك لم يحـــدث خلـــل لكوكب واحد، ولو حصل أي خلل بسيط في كوكب من الكواكب فخرج عن مـــداره أو مساره لأدى ذلك إلى اصطدامات عديدة تؤدي بدورها إلى كوارث جمة في الكـــون، فإن هذا التنسيق البديع والتنظيم الدقيق يؤكد أن كل نجم قد اختار له صانعه فلكاً محـــدداً بحيث لا تؤثر جاذبية أي كوكب في الكواكب المجاورة لها، وبذلك تتجلى عظمة الخـــالق الذي خلق الكون وسخر فيه من العناصر الكونية مالا يعلمه إلا هو، للتدليل على عظمته وحكمته.

---

(1) الكشاف: 58/4 – وينظر التحرير والتنوير: 330/27

الكواكـــب

من العناصر الكونية التي وظفها الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة وقد جـــاءت في سياقات وأنساق للتدليل على التوحيد وإقامته وعلى الرحمة والعناية وعلى يوم الحـــساب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ۝وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ [ســـورة الانفطـــار، الآيتان 1-2].

إن الأسلوب القرآني في سياق هذه الآية الكريمة يعرض مشهداً مـــن مـــشاهد يـــوم القيامة وهي انفطار السماء وتشققها وانتثار الكواكب وتبعثرها وسقوطها [1]، وفي الآية دلالة ضمنية تتمثل في دحض الذين يعبدون الكواكب مـــن دون الله ســـبحانه وتـــوهين معتقدهم بأن لها نفعاً أو ضراً أو أن لها تأثيراً في إنـــزال المطر أو إمساكه؛ "فإن الحـــوادث الأرضية ليس للكواكب والنجوم بها علاقة؛ ولهذا جاء في الحديث الشريف"مـــن قـــال: مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا وكذا، فإنه كافر بي مؤمن بالكواكب، ومن قـــال: مطرنـــا بفـــضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب"[2]. فهذه التي يظن بها النفع والضر تتـــساقط يوم القيامة تنفيذاً لأمر خالقها[3]، ويلحظ في سياق الآية الكريمة جمال الأسلوب القـــرآني في الإشارة إلى هذا الغيب؛ فإطلاق النثر للكواكب هو إطلاق مجازي كما قال ســـبحانه عن أعمال الكفار يوم القيامة حين قال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَـــاءً مَنْثُوراً﴾ [سورة الفرقان، الآية 23]، فإن الأسلوب القرآني قد استعار انتشار الكواكـــب للإشارة والتدليل[4] على تفرقها بعد أن كانت مجتمعـــة في مواقـــع معروفـــة في الكـــون وخروجها من دوائر أفلاكها فتبدو مضطربة في الفضاء، كل ذلك من أجل تنفيذ أمر الله سبحانه، وفي الآية دلالة عظيمة تحث الإنسان على التفكير والتبصر في عظمة الخالق مـــن خلال التفكير في هذه المخلوقات الكونية العجيبة الواقفة في أفلاكها ومـــداراتها بتنظـــيم عجيب، ومن ثم تحقيق الاستجابة النفسية التي يسعى إليهـــا القـــرآن لتحقيـــق العقيـــدة

(1) ينظر: الكشاف: 59/4.
(2) رواه البخاري في صحيحه (801). رواه مسلم في كتاب الإيمان (104).
(3) معجم ألفاظ العقيدة: 106
(4) ينظر التحرير والتنوير: 171/30.

الصحيحية وترك عبادة العناصر الكونية والتمسك بعبادة من خلقها وخلق الكون والفلك الذي تدور فيه [1].

(1) ينظر آيات للموقنين: 121-122.

المبحث الثاني
الأرض – محيط الإنسان

ويشتمل على تمهيد في معنى الأرض وأربعة مطالب:

- المطلب الأول: توظيف الأرض لإقامة التوحيد.
- المطلب الثاني: توظيف الأرض في الإحاطة بعلم الله وسعة رحمته.
- المطلب الثالث: توظيف الأرض في التهديد والوعيد.
- المطلب الرابع: تأثير الشمس في الأرض في إقامة الليل والنهار.

تمهيد

الأرض لغة

الهمزة والراء والضاد ثلاثة أصول: الأصل الأول: لكل شيء يسفل[1] ويقابل السماء، يقال لأعلى الفرس: سماء، ولقوائمه: أرض، قال الشاعر:

وأحمر كالديباج، أما سماؤه فريا، وأما أرضه فَمُحُول[2]

والأصل الثاني: الزكمة، يقال رجل مأروض: أي مزكوم، قال الهذلي:

جهلتَ سَعُوطَكَ حتى تخا لَ أن قد أُرِضْتَ و لم تُؤْرَضِ[3]

والأصل الثالث: الرعدة، يقال: بفلان أرض: أي رِعْدَةٌ، ومنه قول الشاعر:

إذا تَوَجَّسَ رِكْزاً من سنابكها أو كان صاحبَ أرض أو به مُومُ[4]

والأرض لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة بخلاف السماء التي وردت بصيغة الجمع في مئة وتسعين موضعاً، لأن الأرض واحدة والسماوات سبع؛ قال تعالى مشيراً إلى طبقات الأرض في مقابل السماوات السبع: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأرض مِثْلَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق، الآية 12] فأتى بثلاثة ألفاظ تدل على الجمع (منَ + أرض + مثلهن) بدلاً من "أرضين"[5] التي وردت في الحديث النبوي الشريف في قوله ﷺ: "من أخذ شبر أرض طَوَّقَهُ اللهُ من فوق سبع أرضين"[6].

فإن الأرض أكثر ما يجيء مقصوداً بها معنى "السفل والتحت" دون أن يقصد الأسلوب القرآني ذواتها وأعدادها، وحيث جاءت مقصود بها الذات والعدد أتى بلفظ يدل على البعد كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ الأرض مِثْلَهُنَّ﴾ فضلا عن أن الأرض لا نسبة لها مع

---

(1) مقاييس اللغة: 80/1. وينظر الصحاح: 1063/3.

(2) ينظر الصحاح: 2382/6. وتاج العروس، تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، (ت 1205هـ)، ط1، المطبعة الحديثة الخيرية – مصر، 1306هـ – 1886م : 83/10، والبيت لطفيل الغنوي.

(3) مقاييس اللغة: 80/1. والبيت في التهذيب أيضاً: 62/12، وهو لأبي المثلم الخزاعي الهذلي.

(4) لسان العرب: 113/7، ولم أجد قائله.

(5) ينظر بدائع الفوائد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، تحقيق: إدارة الطباعة المنيرة، دار الكتاب العربي – بيروت، (د.ت): 115/1-116.

(6) ينظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (ت 241هـ)، مؤسسة قرطبة – مصر (د.ت): 188/1. ورواه البخاري في بدء الخلق: 130/4.

السماوات وسعتها، بل هي بالنسبة لها كحصاة في صحراء؛ فهي وإن تعددت فهي بالنسبة إلى السماء كالواحد القليل، فضلاً عن أن الأرض هي دار الدنيا التي هي مقارنة بما في الآخرة كما يدخل الإنسان إصبعه في اليم، فما تعلق به هو مثال الدنيا من الآخرة، والأسلوب القرآني لم يذكر الدنيا إلا مقللاً لها ومحقراً لشأنها، أما السماوات ففيها مقر ملائكة الرب ومحل دار جزائه ومهبط ملائكته ووحيه إلى الناس[1].

وعلل الرافعي عدم ورود الأرض مجموعة في القرآن "لجَسْأة هذا اللفظ" عند نطقه لتعثر اللسان وتعرقله، والحاصل أن الأسلوب القرآني إذا أراد العدد أتى بصيغة الجمع الدالة على السعة والعظمة والكثرة نحو قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ﴾[2] [سورة الصف، الآية 1]؛ أي جميع سكانها على كثرتهم، وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرضِ﴾ [سورة الجمعة، الآية 1]؛ أي كل واحد على اختلاف عددها، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ﴾ [سورة النمل، الآية 65] إذ المراد نفي علم الغيب عن كل واحد من السماوات، وإذا أراد الأسلوب القرآني إقامة الحجة أتى بصيغة الإفراد نحو قوله تعالى: ﴿وَفِي الأرضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ۝ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [سورة الذاريات، الآيات 20-22]، وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الأرضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [سورة الملك، الآية 16] أي من فوقكم[3].

وقد وردت لفظة الأرض في القرآن الكريم في سياقات وأنساق مختلفة ومتباينة وتخصصت ضمن سياقاتها التي وردت فيها من خلال توظيف الأسلوب القرآني لها للدلالة على التوحيد وإقامة عقيدة التوحيد في مئتين وأربعة عشر موضعاً، وفي إحاطة الله وسعة علمه في سبعة وعشرين موضعاً، وفي الرحمة والعناية في خمسة عشر موضعاً، وفي التهديد والوعيد في ثلاثة عشر موضعاً، وفي العبرة والتفكر في اثني عشر موضعاً، وفي الحديث عن يوم الحساب في تسعة مواضع، وفي الحديث عن العقاب والعذاب في ثلاثة مواضع.

---

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي: 133.

(2) ينظر الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1395هـ - 1975م: 356/2.

(3) ينظر الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان البلخي (ت 150هـ)، تحقيق عبد الله محمود شحاتة، دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة، 1395هـ - 1975م : 173.

أما الذي يخصنا في بحثنا هذا هو كيف وظف الأسلوب القرآني الأرض ومتعلّقاها من جبال وأشجار وأنهار وثمار، استعمل القرآن الأرض باعتبارها المقـر للإنـسان والمحيطـة بوجوده مثاراً لإقامة الدليل على التوحيد ولفت نظر الإنسان إلى قدرته سـبحانه علـى الإيجاد والإبداع وأثار القرآن مسألة الاستمرار في الحياة من استمرارها في الوجود إلى مـا أودع فيها من خيرات وإلى تسخيرها للإنسان كل ذلك يثار حتى يرجـع الإنـسان إلى إعمال عقله وتعميق نظره من أجل أن يؤمن بأن هذا الوجود - ومنه الأرض- لا يمكن أن يأتي من نفسه، بل هناك خالق موجد أبدعها وصورها فهو وحده المستحق للعبادة لأنـه متفضل. وهكذا نرى توظيف القرآن لعنصر الأرض من خلال الآيات المباركات. وهـو من رد المألوف إلى حالة الاستغراب من خلال النظر والتتبع لهذا الخلق وما فيه من آيـات بينات، هذه طريقة من طرق القرآن وأسلوب من أساليبه لإقامة الدليل والبرهان، فالتدليل والبرهنة شيء مهم في تثبيت العقيدة، في عرضه للعقيـدة وكيـف جعـل مـن الأرض ومتعلقاها دليلاً وإثباتاً على التوحيد وإثبات الخلق والعبودية لله وحده وكيف جعل منـها — وهي صامتة جامدة — شواخص حية ناطقة تكلم الناس بلسان حال الكون الذي يتكلم معها للإخبار عن موجدها وصانعها وأنها لولاه ورعايته لزالت كما قال تعـالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَـانَ حَلِيمَاً غَفُوراً﴾ [سورة فاطر، الآية 41].

المطلب الأول: توظيف الأرض لإقامة التوحيد

التوحيد وإقامته

ذكرنا فيما سبق أن التوحيد وبناء العقيدة من أهم المسائل التي عالجها الأسلوب القرآني ضمن السياقات والأنساق التي ورد بها وقد كانت السمة البارزة فيه لأن فيها قوام الإنسان ورفعته وفيها نجاته من براثن الشرك والأوثان التي هي للإنسان كالسم القاتل الفتاك الذي يحاول أن ينهش في جسد العقيدة السليمة والفطرة الربانية التي فطر الله الناس عليها كما قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ا للهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [سورة الروم، الآية 30] وقد قال النبي محمد ﷺ: "كل مولود يولَد على الفطرة؛ فأبواه ينصرانه أو يهودانه أو يمجسانه ..."[1].

كانت الأرض أحد العناصر التي وظفها الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة ولأنها محيط الإنسان وبيئته جعل منها دليلاً على العقيدة، وهذا الدليل مستقى من حال الإنسان لأن المشاهد حوله بعد السماء هي الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار وثمار وأشجار ... وقد وظفت في مئتين وأربعة عشر موضعاً للتدليل على توحيد الله سبحانه وتعالى من مجموع ثلاث مئة وأربعة وتسعين موضعاً، وهذا يؤكد اهتمام القرآن بتوطين وإرساء أصول العقيدة السليمة لبناء المشروع العقائدي، ثم تهيئة بيئة صالحة لعبادة الله الواحد الأحد.

ومما جاء في إقامة التوحيد وإثباته قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً﴾ [سورة فاطر، الآية 40].

---

(1) البخاري، "يهودانه ويمجسانه": (6226)، 2434/6. ورواه مسلم: باب أطفال الكفار وأطفال المسلمين (2658)، 2047/4. صحيح ابن حبان: (128)، 336/1، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت 354هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط2، 1414هـ - 1993م. البيهقي، السنن الكبرى: (11917)، 202/6، سنن البيهقي الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي (ت 458هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، 1414هـ-1994م.

الآية الكريمة في معرض الاحتجاج على الكافرين الذين يعبدون غير الله، فالله سبحانه يخاطبهم فيقول: "أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه، أم لهم شركة في خلق السماوات، أم أن معهم كتاباً من عند الله ينطق أنهم شركاء؟"[1].

والآية الكريمة جاءت في معرض الاستدلال على وحدانية الله سبحانه ونفي الشركاء والأنداد عنه، ويلحظ أن الأسلوب القرآني في عرضه لعقيدة التوحيد قد وظف أسلوب الاستفهام في سياق الآية الكريمة، وقد خرج معناه إلى الإنكار؛ أي إنكار وجود الشركاء والأنداد لله، وقد تحقق هذا المعنى عن طريق مخاطبة الأسلوب القرآني لعقل الإنسان وحسه ودفعه إلى التفكر وشحذ الذهن في الإجابة على السؤال في الآية الكريمة، وجعل المخاطب مشاركاً في عملية استنتاج الجواب، وقد ذكر الأسلوب القرآني الأرض أولا قبل السماوات؛ لأن الآية الكريمة في سياق تعجيز الشركاء في الخلق والمشاركة، وأمر الأرض في ذلك أيسر من السماوات بكثير، فبدأ بذكر الأرض مبالغة في بيان عجزهم لأنه من عجز عن أيسر الأمرين كان من أعظمها أعجز، وقد عاد الأسلوب القرآني إلى تقديم السماوات على الأرض بعد هذه الآية مباشرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض أَنْ تَزُولاَ﴾ [سورة فاطر، الآية 41]، فبدأ بالسماوات لأنها أعظم من الأرض وأشرف[2]، أما تقديم الأرض في الآية التي سبقتها فقد جاء لبيان عجزهم فضلاً عن الأرض هي المشاهدة القريبة، فبدأ بها مراعياً التدرج في إقامة الحجة وإثبات عجزهم، حتى إن السياق القرآني لم يكتف بذكر الأرض فقط، بل أراد ذكرها مطابقة للسماوات لتثبيت الحجة وإقامة الدليل[3] على أعلى مستوى في الإقناع والتأثير؛ لأنه يعالج قضية مهمة وهي التوحيد.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية 93]، فالآية الكريمة في معرض الاستدلال على وحدانية الله سبحانه، إذ كل مخلوق في السماوات والأرض منقاد له

---

(1) الكشاف: 311/3. وينظر الجامع لأحكام القرآن: 355/14. وتفسير النسفي المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات أحمد بن محمد النسفي، مطبعة الغزالي – بيروت (د.ت): 128/3.

(2) البرهان في علوم القرآن: 286/3. وينظر أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم، محمود السيد شبخون، ط1، مطبعة مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة 1403هـ – 1983م: 121.

(3) ينظر البرهان في علوم القرآن: 286/3.

ومستسلم "حتى الحيوان والجماد سلم لله وحتى الكافر مستسلم كرهاً، وان كفر قلبه ولسانه فكلهم منقاد وخاضع له لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج منه"[1].

والأسلوب القرآني يعبر في هذه المعاني عن حقيقة واضحة وهي تفرد الله سبحانه بالعبادة، وقد وظف السماوات والأرض في الآية "لما فيهما من ضخامة حسية تلفت الأنظار"[2] ليدخل ضمن الاستسلام لله كل شيء، وقد خرج الاستفهام في الآية إلى معنى الإنكار والتعجب، إذ كيف لهؤلاء الكفار أن يتخذوا ديناً غير دين الله؟!

وهذا الخطاب من الله سبحانه يبين أن العبادة الحق لا تكون إلا لله الواحد، وكل عبادة أخرى فهي باطلة لأنها متوجهة إلى المعبود بالباطل الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا يملك حياة ولا موتاً ولا نشوراً.

(1) جامع البيان: 336/3. وينظر الجامع لأحكام القرآن: 127/4.
(2) ينظر الكشاف: 442/1.

المطلب الثاني

توظيف الأرض في الإحاطة بعلم الله وسعة رحمته

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يونس، الآية 61].

الآية الكريمة في سياق الإخبار عن إحاطة علم الله وسعته ومعنى "يعزب" أي لا يبعد ولا يغيب، والذرة قيل: معناها "النمل الأحمر"، وقيل: هو ما يرى في ضوء الشمس[1] والمقصود "ضآلة النجم وليس خفة الوزن وأنها في الكون لا تغيب عن علم الله لضآلتها وهوانها"[2].

ويلحظ أن الأسلوب القرآني قد قرن بين الأرض والسماء لتحقيق معنى الشمولية لسعة علم الله ومعرفته لدقائق الأمور وجزئياتها.

ويلحظ أن الأسلوب القرآني قد قدم الأرض في سياق الآية الكريمة، والغالب في أسلوب القرآن تقديم السماء على الأرض؛ والسبب هو أن الكلام في سياق الآية حول إحاطة علم الله وسعته، وهو موجه بشكل عام لأهل الأرض وعملهم يكون فيها فهم أهلها[3] فناسب ذلك تقديم الأرض على السماء، وأن آخرها في موضع آخر في سورة سبأ في قوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة سبأ، الآية 3]، وقد قدم الأسلوب القرآني السماوات على الأرض هنا لأن سياق المعنى هنا حول قيام الساعة وأمرها يأتي من السماء، وهي تبدأ بأهل السماء كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ (سورة النمل، الآية 87) والآية الكريمة فيها معنى التهديد للكافرين لأن الله مطلع على جميع أحوالهم وأفعالهم، وفيها أيضاً تسلية للنبي محمد ﷺ وأن الله مطلع على ما يلاقيه.

---

(1) ينظر جامع البيان: 130/11. والكشاف: 242/2.

(2) التفسير البياني للقرآن: 97/2.

(3) البرهان في علوم القرآن: 250/3. وينظر التعبير القرآني: 228-230.

إن الأسلوب القرآني يستخدم "المشاهد الكونية في معرض الحديث عن قضية الألوهية والعبودية، ذلك أن هذا الكون بوجوده ومشاهده شاهد ناطق للفطرة لا تملك لمنطقه رداً"[1] وهو على أعلى درجات الإقناع والتأثير.

في الرحمة والعناية

كثيراً ما يتحدث القرآن عن الخلق والإيجاد والصنع، وقد ربط الأسلوب القرآني بين العناصر الكونية والأرضية في تثبيت العقيدة، وبين من خلال ارتباط هذه العناصر بعضها ببعض بنظام دقيق أن الذي يسخرها قد وظفها في خدمة الإنسان ومساعدته في أمور دنياه، وجعل منها إشارات ودلائل تشير وتدل على العليم الخبير، ذلك أن الإنسان عند الله ذو قيمة عالية، ولهذا سخر له ما في السماوات وما في الأرض لخدمته ومنفعته، وقد أشرنا في المبحث الأول في الحديث عن السماء كيف جعل الله منها مصدراً من مصادر حياة الإنسان فإن فيها الشمس والقمر والنجوم، ولهذه العناصر تأثير مباشر في ديمومة حياة الإنسان واستمرارها. أما الأرض فإنها للإنسان ذات قيمة عالية فهي الأقرب إليه، وفيها حياته ومماته، ومنها خروجه عند النشور؛ قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى﴾ [سورة طه، الآية 55] ولهذا فإن الأسلوب القرآني جعل من العناصر الأرضية بما فيها من جبال وسهول وبحار وأنهار ورياح وأمطار وأشجار ونباتات أدلة حسية عقلية مستنبطة من واقع الإنسان ومحيطه، وجعل منها أدلة وبراهين للتدليل على عقيدة التوحيد والتوجه إلى عبادة خالق وموجد هذه العناصر الأرضية قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأرض جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآية 29].

الآية الكريمة وقعت جواباً واستدلالاً ثانياً على شناعة اعتقاد الكافرين وسوء ظنهم بالله سبحانه في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية 28]، وكلام الكفار هذا يقتضي العجب؛ ذلك أن دلائل ربوبية الله ووحدانيته وتفرده بالخلق ظاهرة في مختلف مخلوقات الله سبحانه

---

(1) في ظلال القرآن: 1805/11.

وفي خلق جميع ما على الأرض، فهو ارتقاء في الاستدلال بكثرة المخلوقــات[1]، وخلــق الأرض وما فيها منفعة للبشر إكمالاً لإيجادهم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَكُنــتُمْ أَمْوَاتــاً فَأَحْيَاكُمْ﴾ ذلك أن فائدة الإيجاد لا تكمل إلا بإمداد الموجود بما فيه ســلامته مــن آلام الحاجة إلى مقومات وجوده وتزويده بكل ما يؤمن له الاستمرار بالحياة، فإن الأســلوب القرآني يعرض العقيدة الحق عن طريق نقض معتقد الكافرين عن طريق تذكيرهم برحمة الله وعنايته في الخلق المتنوع في الأرض من حيوان ونبات ومعادن، وهو استدلال بما هو نعمة مشاهدة مخصوصة بالإنسان كما بين ذلك قوله: "لكم" فإن الإنسان هو المخــصوص في تسخير كل شيء له رحمة من الله سبحانه وعنايته به. وهذا يقتضي من الإنسان أن يقابل هذا الفضل والمنة بالإيمان والاستجابة لدعوة القرآن في توحيد الله ســبحانه وتخــصيص العبادة له، وليس الكفر والإعراض كما فعل الكافرون، فالأسلوب القرآني بين رحمــة الله وعنايته بالخلق عن طريق تسخير الأرض لخدمتهم وجعلها لهم سكناً مريحاً، وملجأ واقياً، والإنسان في غفلة عن التسخير والتمهيد، وعن هذا التوافق المنظم الذي جعلــه في الأرض ليمهد لهم وسائل العيش والراحة والمتاع، ولولا هذا التوافق الإلهي الحكيم ما قامت حياة الناس على هذا الكوكب في مثل هذه السهولة واليسر والطمأنينــة[2] والأرض المــسخرة تشمل البر والبحر، الذي يعمره الإنسان والحيوان والنبات؛ وهي مخلوقات الأرض الثلاثة، وبما أن العبرة كائنة في مشاهدة هذه الوجودات علق الأسلوب القرآني الخلق هنا بمــا في الأرض بما يحتويه ظرفها من ظاهر وباطنه، ولم يعلق بذات الأرض وذلك لغفلة جل الناس عن الاعتبار ببديع خلقها، ومن خلال هذه المعاني بين الأسلوب القــرآني عظمــة خلــق الأرض، وهذا المعنى مستفاد من فحوى الخطاب لأن الأرض ظروف لهذه العناصر المتعددة المتنوعة فهي تضمهم كلهم، وفي ذلك دلالة على عظيم خلقها وإيجادها وبالتالي الإشــارة إلى الخالق العظيم الذي أوجدها.

فسياق الآية فيه بيان وإظهار لعظيم القدرة الإلهية وبيان وإظهار عظيم المنــة علــى البشر وبيان مقدار منــزلة الإنسان عند الله تعالى.

---

(1) ينظر التفسير الكبير للرازي: 151/2.

(2) ينظر التحرير والتنوير: 378/1.

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق "النظر الحسي" إلى ما حولهم، ابتداء من مواضع إقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون، وأعطى للحواس مسؤوليتها الكبرى عن كل خطوة يخطوها الإنسان في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب؛ قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [سورة الإسراء، الآية 36] وناداه أن يمعن النظر فيما حوله، إلى طعامه في قوله تعالى ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسان إِلَى طَعَامِهِ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً، ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ۞ وَعِنَباً وَقَضْباً ۞ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ۞ وَحَدَائِقَ غُلْباً ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبّاً﴾ [سورة عبس، الآيات 24-31]، وإلى خلقه في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ﴾ [سورة الطارق، الآية 5]، وإلى الملكوت في قوله تعالى: ﴿انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرض ﴾ [سورة يونس، الآية 101]، وإلى تاريخ عواقب الأمم في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرض فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [سورة الروم، الآية 9]، وإلى مخلوقات الله في قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [سورة الغاشية، الآيات 17-20] وإلى الثمار وهي تتدلى من غصون الأشجار في قوله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [سورة الأنعام، الآية 15][1]، وهكذا يمضي الأسلوب القرآني في عرضه لمئات الآيات في العقيدة يدعو إلى النظر في مجالات الكون الفسيحة، ليهتدي الإنسان إلى مبدع العالم وخالقه، وليعرف حقائق الأشياء وخصائصها كي يتسنى له الانتفاع الأمثل بما أودع فيها من فوائد ومنافع[2].

وقد جعل الله سبحانه من الماء المصدر الأساس في حياة مخلوقات الأرض وبه قوامها كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 30]. والناظر في مخلوقات الله يرى العجب العجاب في اختلاف الأنواع والفضائل والأجناس؛ فالنبات كله يسقى بالماء ولكن أنواع الثمر مختلفة في الشكل والطعم؛ قال تعالى: ﴿وَفِي الأرض قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ

(1) ينظر مدخل إلى موقف القرآن في العلم، د. عماد الدين خليل، مطبعة الزهراء – الموصل، 1405هـ – 1985م، 72.
(2) ينظر: إسلامنا، سيد سابق، دار الكتاب العربي، (د.ت): 23.

صنْوَان يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَــوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد، الآية 4]، فكيف يختلف الطعم في هذه الثمار إذا كانت تــسقى بماء واحد؟!

فالخطاب القرآني يدعو إلى النظر والتفكر في هذا الخلق، ثم التيقن والاستبــصار وفي مخلوقات الله لتحقيق الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن.

المطلب الثالث: توظيف الأرض في التهديد والوعيد

إن الأرض وما فيها من عناصر وضعت لخدمته ومنفعته والإنسان يجد فيها مرتعاً طيباً وحياة ومرحاً وهو عن طريق الإيمان والعقيدة السليمة يضمن عيشاً هنيئاً فيها وينقلب إلى أهله مسروراً، أما إذا كفر نعمة الله سبحانه وجحد حق الله في التوحيد والعبادة الحق تحولت هذه الأرض الجميلة الهادئة البسيطة إلى مصدر من مصادر التهديد والوعيد، وقد وظف الأسلوب القرآني الأرض في هذه المعاني من أجل إقامة عقيدة التوحيد وإرساء قواعدها من خلال التهديد بمعاقبة الجاحدين والكافرين؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرحمن وَلَداً ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ۞ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ۞ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً﴾ [سورة مريم، الآيات 88-90].

الآيات السابقة تشير إلى حدث قد يقع من قول المشركين ونسبتهم الولد إلى الله سبحانه، ونلحظ أن الأسلوب القرآني قد قرن بين السماوات والأرض في تصور الحال الذي يقع للسماوات والأرض من قول المشركين: "وقول الله هذا جاء استعظاماً لهذه الكلمة وتهويلاً لفظاعتها، وتصويراً لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده، وإن مثال ذلك الأثر في المحسوسات أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخر[1]؛ ومعنى "تكاد" أي تقرب من عظيم هذا القول"[2]. وقد ذكر الأسلوب القرآني قولهم الباطل في قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرحمن وَلَداً﴾؛ ذلك لان المقصود من حكاية قولهم الباطل ليس مجرد الإخبار عنهم، ولكن تفظيع قولهم وتشنيعه وأنهم ما قالوا ذلك إلا تأييداً لعبادتهم الباطلة.

ونلحظ أن التهديد في سياق الآية الكريمة والاقتران بين السماوات والأرض والجبال أعطى دلالة قوية تشير إلى انفراط عقد هذا الكون وتلاشيه من قول المشركين الشنيع على الله سبحانه، وقد جمع الأسلوب القرآني بين "الانفراط والشقق تفنناً في استعمال المترادف لدفع ثقل تكرير اللفظ[3] حيث إن الانفطار هو التشقق[4]، وقد أطنب في الكلام على

(1) الكشاف: 256/2. وينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، (ت 855هـ)، تحقيق عبد الرزاق غالب مهدي، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ - 1995م: 248/12.

(2) تفسير النسفي: 346/2.

(3) التحرير والتنوير: 170/16.

(4) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 276. وينظر مجاز القرآن: 12/2.

ذكر الجبال زيادة في التهديد والوعيد والتخويف؛ إذ إن الجبال رواس للأرض وهي تابعة لها، والتشقق فيها يفضي إلى سقوط الجبال ونسفها.

العبرة والتفكير

ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسيرُوا في الأرض فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقلُون بهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتي في الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج، الآية 46].

الآية الكريمة في سياق الإخبار عن كفار قريش ومن معهم الذين وقفوا ضد دعوة النبي محمد ﷺ؛ والمعنى: "ألم يسر هؤلاء المكذبون بآيات الله والجاحدون قدرته، وهم بصراء ينظرون بأعينهم ما يمرون عليه من الآيات المرئية من القرى الظالمة المهلكة وغيرها ليروا مصارع الكفار، ومن أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا[1]"؟.

ونلحظ أن الأسلوب القرآني يعرض لنا صورة من الصور التي تحتاج من الإنسان إلى الوقوف أمامها والتفكر فيها بعقله وقلبه، وقد لفت الأسلوب القرآني الانتباه إلى الأرض دون غيرها؛ ذلك لأن عقاب الكافرين وما آلوا إليه هو واقع ماكث في الأرض، وشاخص أمامهم[2]، والأرض أقرب للإنسان والاستدلال بها هو استدلال بما هو أقرب للحس والإدراك.

والأسلوب القرآني جاء بالاستفهام في سياق الآية الكريمة الذي خرج معناه إلى الإنكار، ويبدو من خلال المعاني في الآية الكريمة أن هؤلاء الكفار قد ساروا في الأرض ورأوا بقايا مصارع الكافرين من قبلهم، ولكنهم لم يعتبروا، وهذا ما بينه أيضاً قوله تعالى في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشيدٍ﴾ [سورة الحج، الآية 45] فكأنه قال: "إذا كان ذلك فسيروا في الأرض واعتبروا"[3].

---

(1) جامع البيان: 182/17. وينظر تفسير النسفي: 446/2.

(2) وسوف نتكلم على عواقب الأمم في الفصل الخامس إن شاء الله.

(3) درة التنـزيل وغرة التأويل: الخطيب الإسكافي: 243.

يوم الحساب

ذكرنا أن الأرض هي مرتع الإنسان وحياته ومماته وخروجه فيها ومنها، وهو على اتصال دائم بها حتى إنه نسي عظمة خلقها لأنه ألفها حتى أصبحت كأنها بعض منه، وقد وظف الأسلوب القرآني الأرض في الإشارة والتدليل على يوم الحساب وإن كانت تلك الأرض غير أرضنا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية 48].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ [سورة الكهف، الآية 48] والآية في سياق الإخبار عن مشهد من مشاهد يوم الحساب، وهو تسيير الجبال، وظهور الأرض؛ أي: "يوم نسير الجبال فنبثها بثاً ونجعلها هباء منبثاً، وترى الأرض بارزة: أي ظاهرة، وظهورها على أعين الناس من غير شيء يسترها: هو بروزها"[1].

فالأرض هنا هي أرض القيامة والمحشر؛ وهي الأرض نفسها التي تضيء بنور الله كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ [سورة الزمر، الآية 69]، والبروز: هو الحصول في بَرَاز، وهو الفضاء، وقوله تعالى ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ تنبيه على أنها تبطل فيها الأبنية وسكانها[2].

ومن أجل تجسيد يوم الحشر، وما يتخلله من مظاهر، وصفت أحداثه في الأرض والسماء "وإن كان أرض الحشر وسماؤه غير أرضنا وسمائنا، فالحشر بداية سماء جديدة، وأرض غير معهودة"[3].

فإن المعاني في هذه الآية الكريمة تعمل وبشكل جلي على تصوير حالة الأرض التي سوف تبدل وتغير، وهي تدفع الإنسان إلى التفكر والتأمل في محيطه الذي يعيش فيه فكيف تفنى وتنتهي وتشكل مكانها أرض أخرى؟ والأسلوب القرآني ينقل الفكر الإنساني في سياق هذه الآية عن التصور الحقيقي إلى التصور المجهول الذي هو من مقومات العقيدة؛ إذ الإيمان بالغيب الذي نص عليه القرآن الكريم والرسول الأمين هو إيمان واجب، ومن يخل به فقد وقع في المحظور.

---

(1) التحرير والتنوير: 126/15.
(2) ينظر: المفردات في غريب القرآن: 56. ومجاز القرآن: 254/1.
(3) ينظر: الوصف في القرآن الكريم: 48.

في العقاب والعذاب

الأرض هي ملاذ الإنسان وطمأنينته لكنها تتحول إلى مصدر من مصادر العذاب استجابة لأمر الله سبحانه في تنفيذ أمره في معاقبة الكافرين؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [سورة القمر، الآيتان 11-12].

الآيتان الكريمتان تشيران إلى مشهد العذاب الذي حل بمن كفر من قوم نوح عليه السلام: "بعد تكذيبهم لنبيهم وكفرهم برسالته، فأرسل الله سبحانه المطر منصبا بقوة وغزارة، وجعل الأرض كلها عيوناً تتفجر بالماء، فيلتقي ماء السماء وماء الأرض على حال قد قدرها الله في الأزل وقضاها بإهلاك المكذبين"[1].

ونلحظ أن الأسلوب القرآني قد شبه تدفق المطر وانهمارها من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء، وانشق بها أديم الأرض؛ فالأرض أصبحت كلها عيوناً تتفجر لا من أجل الحياة والزرع والنبات بل للقضاء على الكافرين وإغراقهم واجتثاثهم، ومن أجل نصرة النبي نوح عليه السلام الذي طلب العقاب لقومه الذين كذبوه وردوا دعوته بعد أن يئس من إيمانهم، فقد ظل فيهم فترة زمنية طويلة لكنهم لم يستجيبوا إلا قليلاً منهم، فقام يدعو عليهم بالهلاك والعذاب كما قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [سورة القمر، الآية 10]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ۝ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [سورة نوح، الآيتان 26-27]. فجاء الرد من الله سبحانه وتعالى لنصرة نبيه ولرفع راية الدين والعقيدة السليمة من خلال توظيف عناصر الطبيعة في عقاب الكافرين واجتثاثهم لأنهم كفروا بالله ورسوله فحق علهم العقاب والعذاب.

الجبال

تعد الجبال من أميز عناصر الطبيعة الأرضية وأظهرها لما لها من ضخامة حسية تلفت الأنظار، وغالباً ما يذكرها الأسلوب القرآني مقترنة مع السماوات والأرض وبخاصة عند الحديث عن الأمور العظيمة والحساسة فيذكرها مع السماوات والأرض لما لها من رهبة

(1) ينظر: الكشاف: 285/3.

وعظمة في قلوب وعقول الناس، ولم يذكر غيرها في معرض حديثه عن هذه الأمور العظيمة كالمياه والأشجار لأن ليس لها ضخامة حسية كالجبال، ومن هذه الأمور المهمة هي توحيد الخالق وتوحيد صفاته وأسمائه، ومن ذلك قوله تعالى في الرد على الذين نسبوا الولد إليه سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرحمن وَلَداً ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ۞ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴾ [سورة مريم، الآيات 88-90].

وقد وظف الأسلوب القرآني الجبال في ستة وثلاثين موضعاً، وقد وظفها في سياق التوحيد وإقامته في اثني عشر موضعاً، وفي الرحمة والعناية في أحد عشر موضعاً، وفي الحديث عن يوم القيامة في أحد عشر موضعاً، وفي التهديد والوعيد في موضعين، والأسلوب القرآني يتصرف بالمفردة على أعلى درجات الفن والصياغة والإقناع والتأثير.

التوحيد وإقامته

الجبال هي أحد مظاهر الكون الأرضي التي تشير دلالات خلقها إلى الخالق العظيم، وهي أحد دلائل القرآن في إرساء عقيدة التوحيد والعبادة الحق، ومما وظف من ذكر الجبال في تثبيت العقيدة وإرساء المشروع العقائدي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [سورة إبراهيم، الآية 46].

الآية الكريمة في سياق الإخبار عن مكر الكافرين الذين سخروا عقولهم في صد دعوى الحق والوقوف ضد إقامة الدين القويم، والمكر: هو تثبيت فعل السوء بالغير وإضماره من أجل مصلحة ما، فالأسلوب القرآني يبين في سياق الآية الكريمة قوة محاججة الكافرين في إثبات ما يدعون حتى إن لقوة ما يقولونه ويفعلونه من قول وفعل تكاد منه الجبال أن تزول من شدة[1] مكرهم لو كان لها أن تزول، وسياق الآية الكريمة يبين أن الله سبحانه محيط بمكر الكافرين[2] حتى إن كانت هناك قوة لمكرهم تؤدي بالجبال إلى الزوال، وقد وظف الأسلوب القرآني الجبال لما فيها من ضخامة حسية فضلاً عن أنها "أثقل شيء وأصلب شيء، وأبعد شيء عن تصور التحرك والزوال، فإن مكرهم هذا ليس مجهولاً،

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: 250/13.
(2) ينظر: جامع البيان: 246.

وليس خفياً، وليس بعيداً عن متناول القدرة، بل إنه حاضر عند الله سبحانه يفعل به كيفما يشاء"[1].

فإن مكر هؤلاء الكافرين[2] لا يقوى ولا يستطيع أن يخفي أدلة القرآن وشرائع الدين القويم لأنها راسية رسو الجبال وأشد لأن هنالك من تولاها بالحفظ وعدم المس والتلاعب بها؛ وهو الله سبحانه.

في الرحمة والعناية

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ الأرض مِهَاداً۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ [سورة النبأ، الآيتان 6-7]، الآيتان الكريمتان في سياق الإخبار عن رحمة الله سبحانه وعنايته بالناس، وهما واقعتان في سياق الرد على الكافرين وإبطال إلهية أصنامهم وإثبات إعادة خلق أجسامهم، وهم الأصلان اللذان أثارا تكذيبهم بأنه من عند الله وتأليبهم على رسول الله ﷺ وترويجهم تكذيبه، وجمع الأسلوب القرآني في سياق هذه الآيات عبراً وشواهد للاستدلال على الوحدانية بالانفراد بالخلق وعلى إمكانية إعادة الأجساد[3] للبعث بعد البلى فهي لا تبلغ مبلغ إيجاد المخلوقات العظيمة من شمس وقمر ونجوم وأرض وجبال، والإشارة هنا إلى تذليل الأرض وجعلها ميسرة للجلوس والنوم والمشي فضلاً عن جعل الجبال أوتاداً للأرض، ولها أثر في انتظام سيرها وفي خلق الجبال وشكلها منه ورحمة[4] من الله وحكمة فإن هذه الجبال كالرواسي للأرض كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 31] وقوله أيضاً: ﴿وَالأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝ مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [سورة الذاريات، الآيات، 29-32].

والأسلوب القرآني في عرضه لهذه الآيات يخاطب العقول والقلوب في وسيلة منه للتذكير برحمة الله ومنته على الناس في خلق الجبال، فإن غالب سكان الأرض وخاصة العرب لهم منافع كثيرة في الجبال؛ فمنها مسايل الأودية، وقرارات المياه في سفوحها، ومراعي أنعامهم ومستعصمهم في الخوف، ومراقب الطرق المؤدية إلى ديارهم إذا طرقها

(1) في ظلال القرآن: 213/7.
(2) ينظر: جواهر البيان في بيان تناسب سور القرآن، أبو الفضل عبد الله الغماري، مكتبة القاهرة، (د.ت): 45.
(3) ينظر: الكشاف: 207/4. والجامع لأحكام القرآن: 170/14.
(4) ينظر: التحرير والتنوير: 14/30.

العدو، ولذلك قرن الجبال مع الأرض كما في قوله تعالى في إظهار المنة والرحمة والتوفيق لقوم هود: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً ...﴾ (سورة الأعراف، الآية 74).

يوم الحساب

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ [سورة المزمل، الآية 14]، الآية تعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة، فالأرض والجبال ترجفان من هول ذلك اليوم[1]، والأصل "أن الأرض مرجوفة لا راجفة وهو من باب المجاز، والرادفة مردوفة لا رادفة، وأن حفرة القبر محفورة لا حافرة، كذلك الخاسرة والساهرة"[2].

إن العدول عن هذا الأصل إلى الإسناد المجازي فيها جميعاً ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم، فقد قرن الأسلوب القرآني رجف الأرض برجف الجبال زيادة في تهويل ذلك الرجف وشدته، فهذه الجبال التي هي رواس للأرض تضطرب وتتحرك وتنقلع من مكانها، فتصبح الجبال من شدة الرجفة رملاً مهيلاً سائلاً تحت الأرجل من شدة الزلزلة[3]، فإذا كانت تلك الرجفة تدك الجبال فما حال أهل الأرض عن ذاك؟ فالإنسان في تصور هذه المعاني سوف يخرج بتصور أكبر عن شدة ذلك اليوم الذي تكون فيه الجبال كالعهن المنفوش بعد أن كانت رواسي وأوتاداً تشد بها الأرض.

التهديد والوعيد

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأرض وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [سورة الإسراء، الآية 27]، والآية في سياق الإخبار عن صفة سلبية وهي التكبر والعجب؛ أي: إنك أيها الإنسان المتكبر "لن تجعل في الأرض خَرْقاً بدوسك لها وشدة وطأتك عليها"[4]، ولن تبلغ الجبال طولاً باختيالك وتطاولك[5] والخرق في الآية

(1) ينظر: الكشاف: 177/4.
(2) التفسير البياني للقرآن: عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) (ت 1418هـ)، ط2، دار المعارف - مصر، 1393هـ - 1937م: 131/1.
(3) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 46/19.
(4) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 248/2.
(5) ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 255.

يعني قطعها وبلوغ آخرها، وذهب القرطبي إلى أن الخرق هنا هو نقبها لا قطعها بالمسافة[1]، وهو الأقرب للصواب، لأن ثقب الأرض والولوج فيها أكثر استحالة من قطعها بالمسير.

ويلحظ أن الأسلوب القرآني وظف هذه المعاني للتهكم والسخرية والتهديد والوعيد، وقد استخدم الأسلوب القرآني الجبال هنا في بيان الطول والارتفاع، وهي أعلى ما يمكن أن يتصور فيه ارتفاع وله نهاية، فإن الإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان أو قوة أو جمال، وأنه لو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله، وأنه ضعيف أمام حول الله لترك خيلاؤه ولمشى على الأرض هوناً، والأسلوب القرآني يجابه هذا المتكبر بقوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأرض وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ فالإنسان بجسمه ضئيل هزيل لا يبلغ شيئاً من المخلوقات الضخمة الأخرى التي خلقها الله[2]، وإنما هو قوي بقوة الله من أجل أن يكون دائم المراقبة من الله سبحانه.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن: 260/10.

(2) ينظر: في ظلال القرآن: 2228/4.

المطلب الرابع

تأثير الشمس والقمر في الأرض في إقامة الليل والنهار

وظف الأسلوب القرآني الليل والنهار في إقامة المشروع الإيماني لصحة الاعتقاد وتوحيد الله سبحانه فبعد أن عرض السماء وما فيها من عناصر كونية يلفت النظر الآن إلى إحدى تأثيرات عنصر كوني وهو الشمس على الأرض في إقامة الليل والنهار بتقدير الله سبحانه؛ وقد جاءت في سياقات وأنساق لتعبر عن التوحيد وإقامته في خمسة وخمسين موضعاً وعن الرحمة والعناية في عشرة مواضع، وعن الإخبار في ثمانية مواضع، وعن إحاطة الله وسعة علمه في خمسة مواضع، وعن التهديد والوعيد والعقاب والعذاب في خمسة مواضع، وعن العبرة والتفكر في موضعين، وعن يوم الحساب في موضعين.

ويلحظ أن الأسلوب القرآني قد اهتم بالليل والنهار وفي سياقاته اهتماماً خاصاً بإقامة التوحيد وتثبيت العقيدة، وهذا ما توصلنا إليه من خلال استقراء الآيات التي ورد في سياقاهما الليل والنهار؛ فقد جاءت في خمسة وخمسين موضعاً للتدليل والإشارة إلى العقيدة "عقيدة التوحيد"، وقد نوع الأسلوب القرآني في تدليلاته على العقيدة لزيادة التأثير والإقناع، وليدفع بعقل القارئ وحسه بطريقة سهلة لإدراك المعاني التي قصدها القرآن الكريم، وقد حشد الأسلوب القرآني كل العناصر الكونية المختلفة للتدليل على العقيدة ومعرفة الله سبحانه.

فمما جاء في إقامة التوحيد وتثبيت العقيدة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحج، الآيتان 60-61]، فالأسلوب القرآني يبين أن الذي قدر على وضع هذا القاموس المحكم، في تعاقب الليل والنهار وتخالفهما لقادر على أن ينصر من بغي عليه وظلم، فالأمر أهون عليه دون شك، ذلك أن اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما باستمرار وجرياهما على وفق ناموس منظم، أكثر إيغالاً في القدرة من القدرة على نصر المظلوم لأن هذا النصر قد يقع مرة أو مرات، ولكن تعاقب الليل والنهار دائم مستمر يتناول جزيئات الزمن جميعاً ويستغرق الأوقات كلها. وقد ذكر البيضاوي أن قوله: "ذلك؛ أي ذلك النصر بان الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل" بسبب أن الله قادر على تغليب الأمور بعضها على بعض جارياً

عادته على المداولة بين الأشياء المتضادة من ذلك إيلاج الليل في النهار أو النهار في الليل أو بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضوء النهار بتغييب الشمس، وعكس ذلك بإطلاعها[1].
وتعاقب الليل والنهار أحد استدلالات القرآن الكريم، وله تأثير كبير في الإنسان لأنهما قريبان منه وتحت نظره وحسه، فالاستدلال بهما استدلال قريب وصريح.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ۞ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [سورة القصص، الآيتان 71-72]؛ الآيتان الكريمتان تتحدثان عن رحمة الله سبحانه بالناس في قضية الليل والنهار وتعاقبهما وتداخلهما وإيلاج أحدهما بالآخر من أجل راحة الإنسان والاعتناء به؛ ومعنى السرمد في الآية الكريمة: "هو الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة"[2]، فالأسلوب القرآني يعرض من خلال هاتين الآيتين الكريمتين مشهد الرحمة والعناية[3] من الله تعالى للناس، وهو يخاطب عقولهم التي ألفت الهمود ويلفتهم إلى تملي الكون من حولهم ومشاهده العظيمة وذلك حين يخيل لهم عن طريق الاستفهام الاستنكاري استمرار الليل أبداً أو النهار أبداً، وحين يخوفهم بعواقب هذا وذاك، وما يشعر الإنسان بقيمة الشيء إلا حين يفقده فالناس يشتاقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلاً في أيام الشتاء، ويحنون إلى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحاب، فكيف بهم لو فقدوا الضياء؟ فإن الحياة عندئذ كلها معرضة للتلف والبوار لو لم يطلع عليها نهار، أما الليل فإن الناس يحنون إليه حين يطول بهم النهار فإنهم يجدون في ظلامه وسكونه الملجأ والقرار، والحياة كلها تحتاج إلى فترة الليل لتجدد ما تنفقه من الطاقة في نشاط النهار، فكيف بالناس لو ظل النهار سرمداً عليهم إلى يوم القيامة؟ فإن الحياة عندئذ معرضة للتلف والبوار[4] فإن اختلاف "الليل والنهار في تعاقبهما ليبتغي الناس في النهار من فضل الله سعياً وعملاً،

(1) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 98/20.
(2) ينظر: الكشاف: 189/3.
(3) ينظر: الإسلام والعلم وإعجاز القرآن: د. عبد العزيز الخياط، بحث منشور ضمن بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني، مطبعة الأمة – بغداد، 1410هـ -1990م: 383.
(4) ينظر: في ظلال القرآن: 2708/5.

وليسكنوا في ليلهم سكون راحة وهدوء"[1]. ونلحظ دقة الاستدلال على رحمة الله وعنايته فضلاً عما في ذلك من إشارة إلى توحيد الخالق والعقيدة الصحيحة، فإن تعاقب الليل والنهار المتكرر في اليوم مرتين، والذي يستوي في إدراكه كل مميز، والذي هو أجلى مظاهر التغير في هذا العالم؛ فهو دليل الحدوث، وهو ما يدخل في التكيف به جميع الموجودات في العالم حتى الأصنام، فهي تظلم وتسود أجسامها بظلام الليل وتشرق وتضيء بضياء النهار، وكان الاستدلال بتعاقب الضياء والظلمة على الناس أقوى وأوضح من الاستدلال بتكوين أحدهما لو كان دائماً؛ لأن قدرة خالق الضدين وجاعل أحدهما ينسخ الآخر كل يوم أظهر منها لو لم يخلق إلا أقومهما وأنفعهما؛ ولأن النعمة بتعاقبهما دوما أشد من الأنعام بأفضلهما وأنفعهما؛ لأنه لو كان دائماً لكان مسؤوماً ولحصلت منه طائفة من المنافع وفقدت منافع ضده، فالتنقل في النعم مرغوب فيه ولو كان تنقلاً إلى ما هو دون، والأسلوب القرآني ساق إلى المشركين هذا الاستدلال بأسلوب تلقين النبي محمد ﷺ في أن يقوله لهم اهتماماً بهذا التذكير لهذا الاستدلال فهو استدلال مباشر، وهو مشتمل على ضدين متعاقبين، وحتى لو كانت عقولهم قاصرة عن إدراك دلالة أحد الضدين لكان في الضد الآخر تنبيه لهم، ولو قصروا عن حكمة كل واحد منهما كان في تعاقبهما ما يكفي من الاستدلال[2].

(1) الموسوعة في سماحة الإسلام، محمد صادق عرجون، منشورات مؤسسة سجل العرب – القاهرة، 1392هـ -1972م: 643.

(2) ينظر: التحرير والتنوير: 169/20.

المبحث الثالث
توظيف خلق الإنسان للدلالة على عقيدة التوحيد

ويشتمل على أربعة مطالب:

- المطلب الأول: دعوة الإنسان إلى مشاهدة ما في الآفاق والأنفس.
- المطلب الثاني: توظيف خلق الإنسان في التدليل على التوحيد وإقامته.
- المطلب الثالث: توظيف خلق الإنسان في الإشارة إلى يوم الحساب.
- المطلب الرابع: أثر الروح في إرشاد العقل إلى الإيمان.

المطلب الأول

دعوة الإنسان إلى مشاهدة ما في الآفاق والأنفس

إن الأسلوب القرآني في عرض عقيدة التوحيد وظف الإنسان نفسه في الاستدلال على عقيدة التوحيد، فقد دعا الناس قبل كل شيء إلى مشاهدة ما في الآفاق وفي أنفسهم من آيات الله سبحانه وآثار حكمته ومظاهر قدرته وأن يعملوا فيها الفكر والروية؛ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [سورة فصلت، الآية 53]؛ فالإشارة والدلالة في الآية الكريمة تنبه على أنكم - أيها الناس- لستم من القوة والعظمة بحيث من الممكن لكم أن تروا رأي العين ما لا يأتي تحت حواسكم، أو تعرفوه على حقيقته بالاعتماد على تجربة من تجاربكم، غير أنكم إذا فتحتم أعينكم، ورأيتم آيات الله وآثار حكمته، ومظاهر قدرته الماثلة أمام أعينكم ليل نهار، وتذكرتم مع ذلك حتى في خلقكم وأنفسكم وبذلتم جهوداً مخلصة للوصول إلى الحقيقة بالتأمل في كل هذه المحسوسات والمرئيات، فإنه لا بد أن يتبين لكم العقيدة الحق الأولى بالاتباع ولمن تستحق العبادة والتذلل والخضوع. ثم إن الأسلوب القرآني في عرضه لآيات العقيدة يدعو الناس إلى التفكر والتأمل في ما هو أكثر بداهة وجلاء حتى من هذه الآيات والدلائل والآثار الظاهرة ليستدل من خلالها على الخالق سبحانه فبعد أن استشهد عليهم بآثار الأجرام السماوية والأرضية كما بينا في المبحثين السابقين، وأن الله الذي خلق هذا الكون العظيم البديع المتسق، والذي قانونه المهيمن قد شاد أكبر سيارة في هذا الناظم بقيوده وأغلاله، والذي قدرته تحرك هذه السيارات الكونية العظيمة بنظام مترابط لا يلحقه خلل ولا انتكاس ولو للحظة من البصر، والذي قوته قد أقامت طبقات الكون على دعائم غير مرئية وغير محسوسة كما قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [سورة الرعد، الآية 3]، ثم التفت إلينا داعياً إيانا للتفكر في آيات حكمته على الأرض وبدأ الخلق كما قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأرض فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 20]، ثم بعد ذلك دعا الإنسان إلى التفكر فيما قد وضع في ذات أنفسنا من آياته وآثار قدرته وحكمته ليضع أمامه أقرب الاستدلالات وأبينها وأكثرها حضوراً؛ وهي ذاته وحواسه وبدنه وروحه وإن كان كل ذلك لا يقارن من حيث عظمة الاستدلال والإثبات من أدلة السماوات والأرض

كما قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [سورة النازعات، الآيات 27-30].

إذاً فالإنسان هو عالم أصغر من عالم ملكوت السماء والأرض، وهو بخلقه وتشكيله يمثل أعجوبة الصناعة الإلهية وآية من آيات الإله القادر، وقد خاطب الأسلوب القرآني عند عرضه للعقيدة العقل والقلب معاً لإقامة العقيدة الحق من خلال الاستبصار بحال خلق الإنسان وما أعطاه الله سبحانه من نعم ظاهرة وباطنة ودعاه إلى التفكر فيه كما قال تعالى: ﴿وَفِي الأرض آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ۞ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [سورة الذاريات، الآيات 20-23]، والآيات الكريمة تشير إلى دلائل عظمة الله وتوحيده في الأرض وفي الأنفس، وتوجيهه إلى السماء في شأن هذا الرزق المكتوب والحظ المقدور[1]. فقوله: "وفي أنفسكم" أي في ذواتكم آيات ظاهرة إذ ليس في العالم شيء إلا وفي ذات الإنسان له نظير يدل مثل دلالته على ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الأفعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة[2]، وآيات النفس أكثر من أن تحصى، وروي عن ابن عباس أنه قال في معنى الآية: أراد بذلك اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع، وقيل: إنه يشمل الطعام والشراب، والحق أنه يدخل في ذلك كل شيء من نعم ظاهرة وباطنة سواء أكان الانتفاع بها من قبل الإنسان انتفاعاً مباشراً أو غير مباشر، وقد ختم الأسلوب القرآني السياق في هذه الآيات بقسم عظيم، فقد أقسم الله سبحانه بذاته بوصفه "رب السماوات والأرض" اللتين وردتا في السياق على أن هذا القرآن الذي نزل على النبي بأمر من الله هو حق يقين.

ونلحظ من خلال الآيات الكريمة روعة وجمال الأسلوب القرآني فبعد أن بين لنا في معرض هائل لآيات الله الكونية وعجائب صنعه، وهو معرض لم نسجل منه حتى اللحظة إلا القليل من بدائعه، يعرض لنا الأسلوب القرآني معرضاً آخر مكنوناً فينا نحن؛ وهي

(1) ينظر: الكشاف: 20/4.
(2) ينظر: روح المعاني: 27/9.

النفس الإنسانية الخفية المليئة بالأسرار، وقد فتح الأسلوب القرآني في عرضه لدلائل توحيد الله سبحانه الأبواب على مصارعها لمن يريد أن يبصر ولمن يريد أن يستيقن "والنصوص القرآنية معدة للعمل في جميع الأوساط والبيئات والظروف والأحوال، قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس ولكل عقل ولكل إدراك، كل بقدر ما يتقبل منها وما يطيق"[1].

ذلك أن العنصر البشري كلما ارتقى في علوم المعرفة زادت واتسعت مداركه، وتنوع زاده الذي يتلقاه من نصوص القرآن الذي لا تنفد عجائبه، ولقد وجد الذين سمعوا هذا القرآن وأدركوا عظمة ربهم ووحدانيته بعد أن شحذوا الفكر والعقل والذهن ودفعوه إلى التحليل والاستنباط ووضع الأدلة تحت مجهر التجربة والمعايشة والمقارنة والخروج بنتائج ترضي العقل والقلب بحرية ودون أي قهر أو قسر.

فإن هذا الإنسان المخلوق هو أحد عجائب خلق الله ودليل صادق على توحيده وتفرده بالخلق والإيجاد والألوهية والربوبية لكن هذا المخلوق يغفل عن قيمته، وعن أسراره الكامنة في كيانه؛ وذلك حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين.

إن الآيات والدلالات في تكوين الإنسان مختلقة متعددة، منها ما يخص أسرار الجسد، وما يحتويه خلقه ونشأته من خفايا وغموض، فهو عجيب في ظاهره الماثل أمام أبصارنا وعجيب في باطنه الذي تكشفه وتعقله عقولنا، وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه.

وقد حث الأسلوب القرآني على التأمل والتدبر في خلق الإنسان وأنه لولا أن هناك رعاية عظيمة وراءه لما كان على هذا الحال وهذه الاستقامة والتقدير الدقيق الذي جعل الإنسان قادراً على تأدية مهام الحياة والاستمرار فيها بيسر وسهولة، وقد دعا الأسلوب القرآني إلى التفكر في خلق الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۞ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۞ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۞ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [سورة عبس، الآيات 18-22]، فإن كانت السماء بعيدة ودراستها شاقة والأرض متسعة والإحاطة ببعضها متعذرة، وتحتاج دراسة بعض ما في السماء والأرض إلى تركيز وبحث؛ فإن الإنسان نفسه هو الدليل القريب الملموس الذي ليس بأقرب منه على وجود الله، فليس أقرب دليل للإنسان من نفسه على وجود وتوحيد الله سبحانه.

---

(1) في ظلال القرآن: 3378/6.

إن خلق الإنسان وتكوينه من الأدلة الواضحة على توحيد الله سبحانه، ولهذا فإن الأسلوب القرآني ربط بين خلق الإنسان وما أودع فيه من صفات خارجية وداخلية وبين التدليل على عقيدة التوحيد؛ لأن الإنسان هو أحد أهم عناصر الطبيعة التي خلقها الله سبحانه الذي سخر كل شيء فيها لخدمة هذا الإنسان ومنفعته.

من خلال الآيات التي وردت في القرآن الكريم نلحظ أن الأسلوب القرآني عبر عن العمليات التي مر بها آدم عليه السلام في مسألة الخلق، ونبه على أنه جعله إنساناً في سبع درجات، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في مواضع مختلفة بحسب ما تقتضيه الحكمة فقال تعالى في موضع: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [سورة آل عمران، الآية 59]، وهي إشارة إلى المبدأ الأول الذي خلق منه آدم عليه السلام، وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية 12]، وفي سياق دلالة معنى الآية إشارة إلى الجمع بين التراب والماء، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [سورة الحجر، الآية 28]، والإشارة هنا إلى الطين المتغير بالهواء أدنى تغير، وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [سورة الصافات، الآية 11] وفي سياق الآية إشارة إلى الطين المستقر على حالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة، وفي موضع آخر يقول تعالى ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [سورة الحجر، الآية 33]، وفي سياق الآية إشارة إلى يبسه وسماع صلصلة منه، وفي موضع آخر يقول: ﴿خَلَقَ الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [سورة الرحمن، الآية 14] وهو الذي عالجته النار وأثرت فيه فأصبح كالخزف، وبهذه القوة النارية حصل في الإنسان إثر من الشيطنة، وعلى هذا المعنى دل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [سورة الرحمن، الآيتان 14-15].

فالأسلوب القرآني في هذه الآية نبه على أن الإنسان فيه من القوة الشيطانية بقدر ما في الفخار من أثر النار، وأن الشيطان ذاته من المارج لا استقرار له، ثم نبه الله سبحانه على تكميل خلق الإنسان بنفخ الروح فيه فقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة ص، الآيتان 71-72][1] فإن قبضة الطين هذه تشير إلى مادة الإنسان، بينما النفخة تشير إلى

(1) ينظر: الإيمان بالغيب، بسام سلامة، مكتبة المنار – الأردن، 1403هـ - 1983م: 93.

روحانيته، وقد فصل رسول الله ﷺ مراحل خلق الإنسان في الحديث "عن عبد الله بن عمر حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين، ثم علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع: برزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فوالله إن أحدكم – أو الرجل – ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وأن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها"[1] وفي دلالة الحديث أن الإنسان جسد وروح وأنه لم يعتبر إنساناً يكتب له الرزق والأجل والشقاء والسعادة إلا بعد نفخ الروح فيه؛ مما يدل على أن الروح جزء لا يتجزأ من الإنسان ومن دونها لا يطلق عليه لفظ الإنسان، ولما كان الإنسان جزءين: بدناً محسوساً، وروحاً معقولاً، كان له بحسب كل واحد من الجزءين صورة؛ فصورته المحسوسة البدنية انتصاب القامة وعرض الظفر وتعري البشرة عن الشعر، والضحك، وصورته المعقولة الروحانية تتمثل بالعقل والفكر والروية والنطق، والإنسانية هي تعاطي الفعل المختص بالإنسان[2]. فإن أبرز ما في الكيان البشري أنه كيان مزدوج؛ وهو بهذا الازدواج كائن متفرد في خصائصه وصفاته عن كل مخلوقات الكون الأخرى التي تمثل طبيعة واحدة ذات وجهة واحدة.

إن من المعروف أن الإنسان الأول الذي خلقه الله سبحانه في نظر أهل الدين على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم هو آدم عليه السلام، وقد كان نبياً وهو أول من سكن الأرض من البشر، فأصل الإنسان هو التدين، ثم تأثرت ذرية آدم بالظروف المحيطة بها وبإغراء الشيطان فانحرفت تدريجياً عن جادة الصواب والعقيدة الصحيحة، وبرغم هذا بقي التدين والعقيدة الحق عقيدة التوحيد أصيلاً في الإنسان.

لقد وظف الأسلوب القرآني الإنسان في التدليل على العقيدة، وقد وظفه في أربعة وعشرين موضعاً في التعبير عن التوحيد، وإقامته في ستة عشر موضعاً، وفي يوم الحساب في خمسة مواضع، وفي العظة والتفكر في ثلاثة مواضع، هذا فضلاً عن أن الأسلوب القرآني ذكر الإنعام على هذا الإنسان في مواضع متعددة منه من خلال ذكر أنعام الله عليه في

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: (2969). رواه مسلم في صحيحه: (4781).
(2) ينظر: الإيمان بالغيب: 94.

أعضائه: السمع والبصر واليدين والرجلين، فضلاً عن تسخير الكون لخدمتـــه ومنفعتـــه، ولتأمين المستلزمات الضرورية لاستمرار حياته وجعله قادراً على مجاراة صعوبات الحيـــاة ومتطلباها.

المطلب الثاني

توظيف خلق الإنسان في التدليل على التوحيد وإقامته

وقد سخر الأسلوب القرآني خلق الإنسان وإيجاده وتكوين نشأته وما وضع فيه من إمكانيات عقلية وفكرية وجسدية في التدليل على عقيدة التوحيد، وقد خاطب الأسلوب القرآني في عرض العقيدة في هذا الجانب جميع مستويات البشر على اختلاف إمكانياتهم الثقافية والفكرية والأكاديمية مراعياً كذلك البيئة ومتطلبات العصر بأدلة ثابتة تارة وبأدلة مستقبلية تظهر على مرور الزمن تارة أخرى لتحقيق الاستجابة النفسية والعقلية من قبل البشر وتوحيد الله سبحانه وإقامة العقيدة الحق التي هي إحدى أهم متطلبات وأهداف الأسلوب القرآني[1] التي يسعى لتحقيقها، ولعل أبرز ما وظفه الأسلوب القرآني في عرض العقيدة من أدلة خلق الإنسان هو الاستشهاد بمسألة خلق الإنسان نفسه، والتي تعد من أعجب صنائع الله سبحانه، ويوضح لنا الأسلوب القرآني هذا الخلق العجيب كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآيات 12-16]. فالأسلوب القرآني في سياق هذه الآيات يعرض لنا دلائل التوحيد والإيمان من خلال دفع الإنسان للتفكر في ذاته وفي أطوار وجوده ونموه، مبتدئاً بأصل النشأة الإنسانية، منتهياً بحقيقة البعث والنشور[2]، فالأسلوب القرآني يعرض لنا أطوار خلق الإنسان ونشأته، وأن في هذا الخلق قصداً وتدبيراً من الإدارة المدبرة في هذا الوجود، وقد جاء بنظام دقيق متتابع للإشارة إلى الخالق سبحانه، والآيات الكريمات تشير إلى أطوار خلق الإنسان ولا تحددها؛ وذلك يعني أن الإنسان مر بأطوار مسلسلة من الطين إلى الإنسان والأسلوب القرآني يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالاً للتدبر في صنع الله سبحانه وتعالى، ويلحظ أن الأسلوب القرآني عند الحديث عن خلق الإنسان يعمد أحياناً إلى عدم التعرض لتفصيل تسلسل خلق الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ

(1) ينظر: الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط4، 1399هـ - 1979م: 76.

(2) ينظر: جامع البيان: 7/18. والكشاف: 3/27-28.

﴿حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق، الآية 16]، والحقيقة أن الأسلوب القرآني إذا أراد التأكيد لمسألة الخلق والإيجاد في إرساء قواعد التوحيد والعقيدة، فإنه يعمد إلى تفصيل مسألة الخلق من أجل بسط الموعظة وتثبيت الحجة وإقامة الدليل، بحسب ما يتطلبه السياق ووحدة المعاني والأغراض، ثم يشير الأسلوب القرآني إلى طور آخر من أطوار خلق الإنسان وهو النطفة، وهذه حقيقة أخرى من حقائق القرآن والتي بينها العلم الحديث(1) فهذا الإنسان الضخم يختصر ويلخص بكل عناصره وبكل خصائصه في تلك النطفة، ثم تحول إلى طور جديد وهو العلقة بعد أن تشترك مع بويضة الأنثى ثم إلى طور آخر وهو المضغة حين تكبر تلك العلقة وتتحول إلى قطعة من دم غليظ مختلط، وتمضي هذه الخليقة بتقدير وتدبير في ذلك الخط الثابت المقرر لها لا ينحرف ولا يتحول، ولا تتوانى حركته المنظمة الرتيبة ثم تجيء مرحلة العظام ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 14] فمرحلة كسوة العظام باللحم ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 14]، والعقل الإنساني أمام هذا المشهد يقف مندهشاً حول ما كشفه القرآن من حقيقة تكوين الجنين، وقد بين أن خلايا العظام غير خلايا اللحم(2)؛ إذ إن خلايا العظام هي التي تتشكل أوّلاً، ولا يمكن مشاهدة خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام وتمام الهيكل العظمي للجنين.

ثم يشير الأسلوب القرآني في معرض الاستدلال على العقيدة إلى مسألة التصرف في الخلق وتكوينه بحسب المشيئة الإلهية كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾ [سورة المؤمنون: الآية 14] وهذه إشارة إلى الإنسان ذي الخصائص المتميزة، ذلك أن جنين الإنسان يشبه جنين الحيوان في أطواره الجسدية، ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقاً آخر، ويتحول إلى تلك الخليقة المتميزة المستعدة للارتقاء، ويبقى جنين الحيوان في مرتبة الحيوان مجردا من خصائص الارتقاء والكمال التي يمتاز بها جنين الإنسان حيث إن هذا الجنين مزود بخصائص معينة تقوده فيما بعد نحو طريقه الإنساني، وهو ينشأ ﴿ خَلْقاً آخَرَ ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 14] في آخر أطواره الجنينية، بينما يقف الجنين الحيواني عند التطور الحيواني لأنه غير مزود بتلك الخصائص ومن ثم فإنه لا يمكن للحيوان أن يتجاوز

---

(1) ينظر: مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة، د. ناطق محمد جواد النعيمي، وهو بحث منشور من ضمن بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني، بغداد، 1410هـ - 1990م: 677.

(2) ينظر: آيات للموقنين: 7-8.

مرتبته الحيوانية، فيتطور إلى مرتبة الإنسان تطوراً آلياً، فهما نوعان مختلفان، اختلفا بتلك النفحة الإلهية التي صارت بها سلالة الطين إنساناً، واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتي ينشأ بها الجنين الإنساني، ويتحول خلقاً آخر قابلاً لما هو مهيأ له من الكمال بواسطة خصائص مميزة وهبها الله له عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلي من نوع الحيوان إلى نوع الإنسان كما ادعت به نظرية النشوء والارتقاء[1].

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 14] الذي أودع فطرة الإنسان تلك القدرة على السير في هذه الأطوار، وفق السنة التي لا تتبدل ولا تنحرف ولا تتخلف، حتى تبلغ بالإنسان ما هو مقدر له من مراتب الكمال الرباني على أدق ما يكون النظام[2]. ومن خلال ما سبق يمكن لنا إدراك اللفتة البديعة الجمالية التي ساقها الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة، لنا فإن في هذه الآيات معاني زاخرة بينت التباين في خلق الإنسان؛ فإنه خلق من نطفة فعلقة فمضغة فعظام كساها الله سبحانه لحماً ثم خرج من بطن أمه في وقت معلوم يسمع بعد لحظات، ويرى بعد أيام قلائل، ثم يدرك ويحس بعد أيام طويلات فإنه ينتقل من "طبيعة إلى طبيعة ومن حال إلى حال فطبيعة الدم غير طبيعة الماء (المني) وطبيعة اللحم غير طبيعة العظم والسن والظفر والشعر ....، وهذا كله وهو في ظلمات ثلاث"[3] وهذه الحقائق القرآنية تتفق تمام الاتفاق مع الحقائق العلمية ويؤيدها الواقع ولا غرو إذا تطابقت الحقيقة العلمية مع الحقائق القرآنية فهي صادرة من الخالق سبحانه[4] ودلالات هذه المعاني تتطلب من القلب أن يستشعر يد الله عليه وليس آلاءه في كل نفس وفي كل نبضة ويستشعر بكل ذرة عظمة الله وجلاله كما قال الشاعر:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد[5]

فضلاً عن أن هذه المعاني تستدعي الفكر والعقل أن يتساءل في نفسه عن هذه العجائب التي ركبها الله فيه وهي مرآة تعكس عظمة الخالق وجلاله الذي خلق هذه

---

(1) وهي نظرية غربية لدارون تقوم على أساس اعتبار الإنسان طوراً من أطوار الترقي الحيواني، والواقع المشهود يكذب هذه النظرية ويبطل أركانها جملة وتفصيلاً.

(2) ينظر: في ظلال القرآن: 2456/4.

(3) منهج القرآن في تربية المجتمع، د. عبد الفتاح عاشور، دار الجيل – مصر، ط1، 1399هـ – 1979م: 94.

(4) ينظر: منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام، جمعة أمين عبد العزيز، دار الدعوة، ط3، 1414هـ – 1993م: 226.

(5) أبو العتاهية، أشعاره وأخباره، ديوانه، تحقيق د. شكري فيصل، مطبعة جامعة القاهرة، 1386هـ – 1965م: 104.

الأجهزة ووزعها فيه بشكل منتظم وسخر كل عضو بوظيفة وألهمه طريقة أداء وظيفتــه، عملية الهضم والامتصاص، عملية التنفس والاحتراق، دورة الدم في القلــب والعــروق، الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم، الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجــسد ونــشاطه وانتظامه تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها وتجاوبها الكامل الدقيق، وكل عجيبة من هذه تنطوي تحت جناحها عجائب أخرى، وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة وإشارة ظاهرة أو ضمنية تشير إلى الإله الواحد الأحد[1].

والإنسان أفضل خلائق الله على وجه الكرة الأرضية وشخصيته ذات الشعور جعلت منه دليلاً ناطقاً عن لسان حال الكون في إثبات العبودية لله؛ فقد أوتي العقــل والفكــر والنظر والفهم وقوة الإدارة والاختيار[2].

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن: 3380/6.

(2) ينظر: الإسلام، سعيد حوى، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، ط2، 1399هـ - 1979م: 800.

المطلب الثالث

توظيف خلق الإنسان في الإشارة إلى يوم الحساب

وقد وظف الأسلوب القرآني الإنسان في الإشارة إلى يوم الحساب، ولا بد لنا من الإشارة إلى أن الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة ربط بين خلق الإنسان وبين النشور في بداية الحياة الأخروية لما فيهما من تدليل وإشارة على توحيد الله سبحانه؛ إذ إن الإنسان يمر بمرحلة عدم الوجود ثم الحياة ثم الموت ثم الحياة مرة أخرى، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّه وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية 28]، وقد تضمن القرآن الكريم آيات بينات عن الساعة وأشراطها والقيامة وصورها، وقد ربط الأسلوب القرآني بينها وبين خلق الإنسان أحياناً لأنها حق واقع على كل نفس فما من إنسان إلا وسيقف يوم القيامة للحساب.

وقد وظف الأسلوب القرآني هذه المعاني في إقامة العقيدة كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإنسان أَئِذَا مَا متُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ۝ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ منْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ [سورة مريم، الآيتان 66-67]، وقد كان إثبات عقيدة البعث أحد أهداف الأسلوب القرآني خاصة في العهد المكي وقد تنوع أسلوب القرآن في عرض العقيدة في هذا الجانب في تصوير[1] مقالات المشركين وتخرصاتهم والرد على المعاندين بإمكانيات يقبلها العقل ويدركها كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئذَا كُنَّا عظَاماً وَرُفَاتاً أَئنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَديداً﴾ [سورة الإسراء، الآية 49]، وفي هذا الجانب يقدم الأسلوب القرآني تصويرا لدعاوى القوم فجاء القرآن بالرد عليهم: ﴿قُلْ كُونُوا حجَارَةً أَوْ حَديداً ۝ أَوْ خَلْقاً ممَّا يَكْبُرُ في صُدُوركُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعيدُنَا قُل الَّذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّة فَسَيُنْغضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَريباً ۝ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجيبُونَ بحَمْده وَتَظُنُّونَ إنْ لَبثْتُمْ إلاَّ قَليلاً﴾ [سورة الإسراء، الآيات 50-52].

والناظر في الأسلوب القرآني في عرض العقيدة يدرك أن الالتزام بالعقيدة وتحقيقها وتوحيد الله سبحانه يجعل الإنسان أشد استجابة وتفاعلاً في تصور حياة أخرى، وأن هذا التصور ليس لمجرد الرياضة الذهنية[2]، بل هو تصوير ينبني عليه العمل والسلوك وتوظيف

(1) ينظر: منهج القرآن الكريم في إثبات العقيدة الإسلامية، د. رؤوف شلبي، مكتبة الأزهر - مصر، ط1، 1397هـ - 1977م: 173.

(2) ينظر: الإيمان بالغيب: 144.

ما منّ به الله سبحانه على هذا الإنسان من طاقات وإمكانيات في توجيه الفكر والعقل والقلب إلى الواحد الأحد وصرف العبادة له، والتي تعد أهم مرتكزات دعوة الرسل عليهم السلام والعنصر الأبرز في سياقات وأنساق الأسلوب القرآني في عرضه لعقيدة التوحيد وإقامة المشروع العقائدي.

العبرة والتفكر

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ الإنسان إِلَى طَعَامه ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً ۝ فَأَنْبَتْنَا فيهَا حَبّاً ۝ وَعنَباً وَقَضْباً ۝ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ۝ وَحَدَائقَ غُلْباً ۝ وَفَاكهَةً وَأَبّاً ۝ مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامكُمْ﴾ [سورة عبس، الآيات 24-34]. فقد دعا الأسلوب القرآني الفكر الإنساني للتبصر والتدبر في خلق الله سبحانه، وما وفره وهيأه للإنسان من مستلزمات الحياة الضرورية منها وغير الضرورية، بل جعل الكون كله يصب في مصلحته وتحقيق منفعته واستفادته، وقد ربط الأسلوب القرآني بين التفكر والاعتبار بخلق الإنسان بما هو موجود من عناصر أرضية تتمثل في المأكل والمشرب وغيره، وقد سيقت هذه الآيات الكريمة الحديث عن خلق الإنسان في قوله تعالى: ﴿قُتلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ ۝ منْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ منْ نُطْفَة خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝ ثُمَّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝ ثُمَّ إذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [سورة عبس، الآيات 17-22].

فالأسلوب القرآني استدل على الخلق وإثبات التوحيد لله عن طريق الاستدلال بذكر[1] أحوال موجودة في بعض الكائنات شديدة الملازمة لحياة الإنسان ترسيخاً للاستدلال، وتفنناً فيه، وتعريضاً بالمنة على الإنسان في هذه الدلائل من نعمة النبات الذي به بقاء حياة الإنسان وحياة ما ينفعه من الأنعام، وقد بينت هذه الآيات مدى منزلة الإنسان وكرامته وعظمته عند الخالق العظيم؛ فقد جعل له الغيث منزلاً من السحاب، وهو يحصل عليه دون مشقة، وكان هذا الماء سبباً في إنبات النبات بعد أن شقت الأرض له شقاً فأخرجت ألواناً من الثمرات المختلفة الطعام والألوان والأشكال، فضلاً عن الحدائق والأشجار، وقوت الحيوانات التي هي من أنعام الله سبحانه على الإنسان الذي يقابل كل هذا[2] الإنعام بالكفر والجحود.

(1) ينظر: الكشاف: 219/4.
(2) ينظر: الكشاف: 319/4. التحرير والتنوير: 129/30.

ونلحظ دقة استخدام الأسلوب القرآني لهذه السياقات التي عبرت عن صورة الدعم الإلهي والتأييد الرباني لهذا الإنسان بعد أن خلقه وأوجده يسر له كل أسباب العيش وكل مستلزمات البشر الضرورية، وقد عمل الأسلوب القرآني في هذا الموقف على إجلاء[1] هذه المعاني بصورة ناصعة وواضحة؛ دافعاً العقل الإنساني إلى التفكر في هذا الخلق وبالتالي تحقيق الاستجابة النفسية والفكرية التي يسعى إليها القرآن في إقامة المشروع العَقَدي.

المطلب الرابع: أثر الروح في إرشاد العقل إلى الإيمان

لقد أحس الإنسان الأول بوجود الروح، وقد أحس بها بين جنبيه، تسكن جسمه، وتأوي عينه، فقد عرف أن لكل جسم صاحباً، وساكن جسمه وصاحب بدنه يحسه ويستشعره ويدركه، وقد كانت تلك النظرة الأولى التي دفعت الإنسان لإدراك حقيقة الروح.

إن الروح هي قوام الإنسان، فإن مخ الإنسان لا يفكر ولا يعقل إذا فارقته الروح فكيف له أن يدرك إذا كان بدون الروح وهو مادة غافلة عن وجودها لا تعرف بنفسها ولا أقسامها ووظائفها[2]؟ فإنه لو لم تكن هناك ذات أخرى تحل في البدن تعرف وجودها لبطل التفكير.

إن الذي يفكر ويعقل هو الروح، أما المخ فهو آلة للإدراك، وقد وظف الأسلوب القرآني الروح في الاستدلال على عقيدة التوحيد والإله الواحد. "والروح هي من الغيوب والألغاز التي لا يعلمها إلا الله سبحانه، إما الإنسان بما أعطي من مؤهلات واستعدادات لا يستطيع أن يرى غير أثرها في الأجسام الحية مما يميزها عن الأجسام الميتة في نشاطات الحياة المعروفة من تغذي وتنفس وتكاثر وحركة ..."[3].

يستفاد مما سبق أن الإنسان جسد وروح وهذا ينبني عليه إثبات الغيب لهذه الروح والإيمان بأن خالقاً عظيماً أوجدها، فإن الروح أمر غيبي فليس لإنسان أن يراها أو يلمسها أو يعرف كنهها كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [سورة الإسراء، الآية 85]، وكم من البحوث الفلسفية التي كتبت حول الروح لبيان حقيقتها ولكن دون جدوى، فإذا كانت الروح ملازمة للإنسان

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن: 3812/6.
(2) ينظر: نداء الروح، فاضل صالح السامرائي، مكتبة القدس – بغداد، 1411هـ – 1991م: 106.
(3) الظاهرة القرآنية والعقل، علاء الدين المدرس، ط1، مطبعة العاني – بغداد، 1986م: 244.

- والروح أمر غيبي- فإدراك وجود القوة الكامنة خلف هذا الخلق اللطيف أمر واقع، وهو ظن يصل بما فيه من أدلة وبراهين مصدقة إلى حد اليقين.

ويقول محمد قطب: إن أبرز ما في الكيان البشري أنه كيان مزدوج، وهو بهذا الازدواج كائن متفرد في كل ما نعلم من مخلوقات هذا الكون التي تمثل طبيعة ذات وجهة واحدة، فالحيوان من جانب والملك من جانب (وهما المخلوقان اللذان تجمعهما بالإنسان صلات) كلاهما ذو طبيعة واحدة ووجهة واحدة، الإنسان وحده فيما نعلم من الكائنات هو الكائن المزدوج الطبيعة القادر على أكثر من اتجاه[1].

والسيد سابق يقول: إن الإنسان مركب من جسد وروح، فالجسد يتحرك ويحس، وبالروح يدرك ويعي ويفكر ويعلم ويريد ويختار ويحب ويكره[2]. وقد بين الأسلوب القرآني في مواطن عدة في كتاب الله العزيز أن الإنسان كائن متفرد لازدواج طبيعته، وأن تفرد هذا الإنسان بهذه الصفة بين بقية مخلوقات الله عز وجل أمر يدركه كل من يبحث بإنصاف في هذه المخلوقات التي هي مرآة لعظمة الله وجلال قدره وحكمته.

لقد بين الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة أن الإنسان قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، وقبضة طين الأرض تتمثل في حقيقة الجسد وعضلاته، ووشائجه، وأعضائه، وأحشائه، وتتمثل في مطالب الجسد، ونشاطاته، وشهواته، ودوافعه، وهو كذلك نفحة من روح الله تتمثل في الجانب الروحي للإنسان من وعي وإدراك وإرادة وقيم كالخير والبر والرحمة، والتعاون، والإخاء، والمثل العليا، وهذان النوعان من النشاط البشري حقيقة واضحة مشهودة[3].

إن الحقيقة الجسدية لا تحتاج إلى توكيد فهي ظاهرة أمامنا، وإن كانت العلوم التي تبحث فيها تقر بعجزها عن إدراك كنهها الحقيقي، وتكتفي فقط بذكر وصف شكلي لمظاهرها، وهي أحد سبل الاستدلال التي يستدل بها العقل الإنساني من خلال ربط العلاقات المتشابهة بعضها ببعض أو بيان تأثير شيء على شيء آخر، وتكون الأدلة فيه مستمدة من واقع الحياة والبراهين والشواخص الثابتة التي لا يتواطأ أحد على إنكار أي

---

(1) دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب، دار القلم – القاهرة، (د.ت): 41.

(2) ينظر: العقائد الإسلامية: السيد سابق، مطبعة الرسالة – القاهرة، ط1، 1986 م: 244.

(3) ينظر: العقائد الإسلامية: 244،

شيء منها؛ أي أن لها قبولاً واسعاً مطلقاً لجميع البشر وإن كان هناك اختلاف عقدي أو لغوي أو غيره بينهم.

إذاً فالحقيقة الجسدية ماثلة أمام العيان تشير إلى مبدعها، أما الحقيقة الروحية فهي خفية[1]، وأي شيء في الإنسان ليس بخفي إذ لا بد من وجود سر خلفه، أما الروح فلا أحد يستطيع أن يحددها أو يقيس أبعادها على الرغم من أننا نرى آثارها حولنا وفينا، فنحن نراها متمثلة في الرغبات والأشواق، وإن كون الإنسان جسداً وروحاً أمر يدركه كل عاقل منصف لأن الأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، وإن أول دليل هو أن ينظر الإنسان إلى نفسه ويتفكر فيها كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات، الآية 21] فهذه الأطراف والعيون لا تتحرك من ذاتها وإنما بتلك الروح التي تسكنها التي أوجدها الله سبحانه في ذات الإنسان والتي يصبح الإنسان من دونها جثة هامدة.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الروم، الآية 8]؛ فإن طبيعة تكوينهم وما أودع فيها وما يوحي به الكون من حولهم كلها أدلة على وجود الله العزيز الحكيم وقدرته اللامتناهية الأبدية.

إن روح الإنسان قد أرشدت العقل إلى الإيمان بما هو غائب عن الحواس، وهذا الذي دلت عليه حق لا بد منه، والروح ليست وحدها في تركيب الإنسان الدالة على الغيب منها الحواس تدلنا على ذلك، فإن من العلم المسلم به إقرار حقيقة أن ليس كل ما لا تدركه الحواس غير موجود، ذلك أن الحواس محددة، فالإنسان يرى شيئاً على مسافة معينة، ويسمع أصواتاً ذات اهتزازات معينة، وبعد ذلك لا يرى ولا يسمع ما كان قد تلقته أجهزته الاستشعارية، فهل يعني هذا أن الشيء الذي لا يصل إليه بصري أنه غير موجود؟!

فإن الإيمان بما وراء الحواس إيمان عن وعي لا عن خرافة[2]، وقد بين الأسلوب القرآني وأكد أفضلية الإنسان على سائر المخلوقات الأخرى، وهذا التفضيل لم يكن من أجل قوة جسمية، ولا بطول عمر، ولا بشدة البطش، ولا بحسن اللباس، ولا بكثرة

---

(1) ينظر: الإيمان بالغيب: 96-97.

(2) ينظر: الإنسان بين المادية والإسلام، محمد قطب، مكتبة الجيل - مصر، 1380هـ - 1971م:215.

الذهب والفضة، وإنما فضل الإنسان بهذا العقل الذي منحه الله وبهذه الطبيعة المزدوجة (الجسد والروح).

إثبات وجود الروح من خلال الأدلة الشرعية

إن الأدلة الشرعية على جسمية الروح وأنها متميزة عن هذا الجسم كثيرة جداً، ولا نريد أن نوردها كلها، وإنما نكتفي بأدلة تحليلية منها في كتاب الله القرآن الكريم، ومنها ما أخبرت به سنة المصطفى ﷺ، أما الأدلة في كتاب الله فمنها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الآخرى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [سورة الزمر، الآية 42] والقرآن يخبرنا بأن الله سبحانه يتوفى الأنفس حين الموت وفي النوم وأنه يمسكها أو يرسلها، وفي سياق الآية الكريمة دلالة واضحة على تميز الروح، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [سورة الأنعام، الآية 93]، وفي سياق الآية الكريمة دلالة واضحة على أن الملائكة يبسطون أيديهم لتناولها كما وصفها الأسلوب القرآني بالإخراج والخروج، وهذا لا يكون إلا لجسم متميز[1].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [سورة الفجر، الآيات 27-30]؛ فوصفها الله سبحانه بالطمأنينة والرجوع، ووصفها بالرضا والدخول[2].

أما في مسألة الاستدلال بالسنة المطهرة فقد روي عنه ﷺ أنه قال: "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"[3] فوصفها بأنها جنود مجندة، والجنود ذوات قائمة برأسها، ووصفها بالتعارف والتآلف والتناكر والتخالف، وفي ذلك دلالة قطعية على تميزها وجسميتها.

---

(1) ينظر: نداء الروح: 104.

(2) ينظر: الكشاف: 254/4.

(3) البخاري: باب الأرواح جنود مجندة (3158)، 213/3. مسلم: باب الأرواح جنود مجندة (2633)، 2031/4. صحيح ابن حبان: (6168)، 42/14. سنن أبي داود: (4834)، 260/4.

وكذلك قوله ﷺ في منــزلة الشهداء: إن "أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وتأوي إلى قناديل العرش"[1].

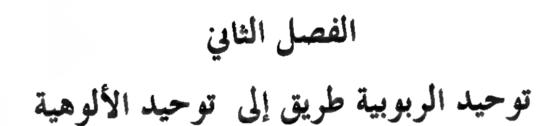
ومعلوم أن الإنسان إذا مات فإن روحه تكفن بكفن وتحنط، وتحمل وتؤخذ من الملائكة، وفي هذه المعاني دلالات بارزة على جسمية الروح. وكل ما تقدم يدل دلالة قطعية على جسمية الروح وتميزها وأنها غير الحياة، فالإنسان يرى ويدرك أن الروح خالدة باقية، ويرى ويدرك أن الجسد بعد الموت قد تمزقت أوصاله وتفتت عظامه وافترقت ذراته[2].

وعلى كل حال فالروح طاقة مجهولة لا نعرف كنهها ولا طريقة عملها، وهي وسيلة الإنسان للوصول إلى الله سبحانه، وهي مهتدية إلى الله بفطرتها، إذ إنها من روح الله التي أودعها قبضة الطين كما أخبر بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة الحجر، الآية 29]، ومن ثم فهي بذاتها تهتدي إلى خالقها وتتصل به على طريقتها التي أوجدها الله سبحانه فيها كما أخبر بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 172]، فهذه الروح تهتدي إلى الله كما يهتدي إليه كل شيء من خلق الله، بفطرته دون كد فلا تعب ولا جهد في الاهتداء كما أشار النبي موسى عليه السلام عند الرد على فرعون في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه، الآية 50]، وقد بين القرآن أن هذا الإنسان قد نال شرف تكريم الله سبحانه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [سورة الإسراء، الآية 70]. وكان من آيات وعلامات هذا التكريم أن جعل الله للإنسان فؤاداً واعياً كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [سورة السجدة، الآية 9].

(1) رواه مسلم: (1887)، 1502/3.
(2) ينظر: منهج التربية الإسلامية، محمد قطب: 40-41.

وقد بين الأسلوب القرآني في هذه الآية أن الله قد جعل عملية الهدى عملية واعية يشترك فيها الفؤاد والسمع والبصر، فتفترق بذلك من الطاعة التي يمارسها الجماد والنبات والحيوان، ومهمة العقيدة هي مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها، فمهمتها مساعدة الفطرة في الاهتداء إلى الله، وقد نبه الأسلوب القرآني عند عرض العقيدة إلى العناية بهذه الروح، فهي مرتكز النشاط البشري ونقطة ارتكازه، وهي القاعدة التي يستند إليها الكيان كله ويترابط عن طريقها؛ إذ إنها المهيمن على حياة الإنسان.





الفصل الثاني

توحيد الربوبية طريق إلى توحيد الألوهية

المبحث الأول: الخلق دليل الوجود

المبحث الثاني: الإتقان دليل التوحيد

المبحث الثالث: تعظم الخالق بأسمائه وصفاته طريق إلى عبوديته

تمهيد في معنى توحيد الربوبية والألوهية

تناول القرآن الكريم في آياته الإيمان بالله سبحانه وتعالى فتضمنت آياته توحيده جل جلاله في ثلاثة أنواع: في ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته، وكلها تدخل في الإيمان بالله عز وجل، وينبغي أن أبين هذه الأنواع لدخولها في هذا الفصل.

النوع الأول: توحيد الربوبية

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ولا رب سواه؛ وبيانه أن ربوبية الله على خلقه تفرده سبحانه في خلقهم وتدبير شؤونهم، وأنه هو وحده خالق الخلق ومالكهم وحاميهم ونافعهم وضارهم، ويجيب دعاءهم عند الاضطرار، وله الأمر كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 54].

ويدخل في هذا النوع من التوحيد الإيمان بقدرة الله وقضائه[1]، وبعبارة أخرى: إن كل مُحْدَث صادر عن علم الله وإرادته وقدرته، وقد وظف القرآن الكريم كثيرا من آياته للإفصاح عن هذا النوع من التوحيد؛ إذ لا تكاد سورة من سوره تخلو من ذكر هذا النوع من التوحيد أو الإشارة إليه، فهو الأساس لأنواع التوحيد الأخرى، ولذلك نجد القرآن قد تطرق إلى هذا النوع من التوحيد في مواطن كثيرة؛ منها موطن الحمد فالمسلم يتلو ذلك في كل ركعة يصليها كما في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[سورة الفاتحة، الآية 2]، ومن موطن الاستسلام والانقياد له عز وجل كما في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وكذلك في موطن التوجه إلى الله عز وجل وإخلاص النية له كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 162].

وفي موطن تولي الله عز وجل دون غيره قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ

---

(1) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية، علي بن علي بن محمد بن أبي العز (ت 792هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط2، 1404هـ - 1984م: 76-77.

تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 14]، وفي موطن الدعاء قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 55].

وفي موطن العبادة قال عز وجل: ﴿وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يس، الآية 22].

وفي موطن الجمع بين ربوبيته المتمثلة في ملكه للسماوات والأرض وما فيها، وبين أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وفي ذلك يقول تعالى في آية الكرسي: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة، الآية 255].

النوع الثاني: توحيد الألوهية

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه هو الإله الحق ولا إله غيره؛ وإفراده سبحانه بالعبادة والعبادة معناها لغة هي الانقياد والتذلل والخضوع[1].

فوجود الألوهية مبني على إخلاص العبادة لله وحده ظاهراً وباطناً بحيث لا يكون شيء منها لغير الله سبحانه، ومن هنا كانت شهادة أن لا اله إلا الله شاملة لجميع أنواع التوحيد؛ فمعناها المباشر هو توحيد الله في ربوبيته وأسمائه وصفاته.

من أجل ذلك كان هذا التوحيد أوله وأخره وظاهره وباطنه، ومن أجله خلق الله الخليقة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات، الآية 56].

يقول ابن تيمية: وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة فمن لم يأت به كان من المشركين[2].

ومن أجل هذا التوحيد أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب؛ فما من رسول أرسله الله إلى العباد إلا وكان هذا التوحيد أساس دعوته وجوهرها؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ

---

(1) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت 1205هـ)، ط1، المطبعة الحديثة الخيرية – مصر، 1306هـ - 1886م: 297/1.

(2) الحسنة والسيئة، للإمام تقي الدين بن تيمية (ت 728هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، (د.ت): 126.

أُمَّة رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة النحل، الآية 36].

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله عز وجل يتصف بجميع صفات الكمال، ومنزه عن جميع صفات النقص، وأنه متفرد بهذا عن جميع الكائنات، وهذا النوع واضح من الأسماء والصفات الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية من غير تحريف ألفاظها أو معانيها ولا تعطيلها بنفيها أو نفي بعضها عن الله عز وجل، ولا تكفيها بتحديد كنهها وإثبات كيفية معينة لها ولا تشبيهها بصفات المخلوقين(1).

ويقوم هذا النوع من التوحيد على ثلاثة أسس هي:

الأساس الأول

تنزيه الله عز وجل عن أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين، وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص، الآية 4]، وقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل، الآية 74].

وقال الواسطي رحمه الله: ليس كذاته ذات ولا كاسمه اسم ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ وجلت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة، وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة(2).

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند تفسير الآية المذكورة: والفطرة تؤمن بهذا بداهة، فخالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التي هي من خلقه(3).

---

(1) ينظر: الإيمان، أركانه حقيقته نواقضه، د. محمد ياسين، ط6، مطبعة بغداد- العراق، 1413هـ - 1993م: 22.

(2) الجامع لأحكام القرآن: 9/16.

(3) في ظلال القرآن: 272/7.

الأساس الثاني

الاقتصار على الأسماء والصفات الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية؛ فهي تتلقى عن طريق السمع، فلا يوصف الله عز وجل إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لأن الله عز وجل أعلم بنفسه وصفاته وأسمائه؛ قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة، الآية 140].

وفي هذا يقول الأمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث[1].

وقال نعيم بن حماد المروزي: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله كفر وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل[2].

الأساس الثالث

إيمان المكلف بتلك الصفات والأسماء المنصوص عليها في الكتاب والسنة من غير سؤال عن كيفيتها ولا بحث عن كنهها؛ ذلك لأن الصفات تختلف باختلاف موصوفاتها ولأن معرفة كيفية الصفة متوقفة على معرفة كيفية توحيد صفاته سبحانه لا يصح السؤال عن كيفياتها[3].

ولذلك أثر عن كثير من السلف أنهم قالوا عندما سئلوا عن كيفية استواء الله عز وجل: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[4].

---

(1) الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية، زيد بن عبد العزيز بن فياض، المطبعة اليوسفية، ط2، 1388هـ -1968م: 22.

(2) شرح ملا علي القاري على الفقه الأكبر لأبي حنيفة، ملا علي بن سلطان محمد القاري الحنفي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ - 1955م: 15.

(3) ينظر: الروضة الندية: 23 و28.

(4) قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول، قال الدارمي: حدثنا مهدي بن جعفر الرملي: ثنا جعفر بن عبد الله وكان من أهل الحديث ثقه عن رجل قد سماه لي قال: جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال: يا أبا عبد الرحمن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف؟ استوى قال: فما رأينا مالك وجد من شيء كوجده من مقالته، وعَلَتْهُ الرُّحَضاء وأطرق وجعلنا ننظر ما يأمر به فيه، قال: ثم سُري عن مالك فقال: الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعه،وإني لأخاف أن تكون ضالاً، ثم أمر به فأخرج، الرد على الجهمية للإمام أبي سعيد الدارمي (ت 280) ضمن مجموعة عقائد السلف، تحقيق: د. سامي علي النشار وعمار جمعي الطالبي، مكتبة الآثار السلفية، مطبعة المعارف - الإسكندرية، 1971م.

فاتفق هؤلاء السلف على أن الكيف غير معلوم لنا، وأن السؤال عنه بدعة، فلو قال لنا: كيف ينزل ربنا الى السماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلم كيفية، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله[1].

والأسلوب القرآني في ذكر التوحيد لم يشر إلى تقسيم التوحيد بما نراه حاصلاً عند علماء الكلام أو من ينتسب إلى مدرسة ابن تيمية رحمه الله وإنما جاء الخطاب متداخلاً وكأنه نسيج واحد يكمل بعضه بعضاً.

والدليل على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذي خَلَقَكُمْ وَالَّذينَ منْ قَبْلكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ فرَاشاً وَالسَّمَاءَ بنَاءً وَأَنزَلَ منْ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجَ به منْ الثَّمَرَات رزْقاً لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا للَّه أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، الآيتان 21-22]. وقد أشار ابن جزي إلى معاني ومدلولات هذه الآيات، وقد استنبط منها المعنى الذي ذهبنا إليه، وقد ذكرها بعد تفسير الآيات بفوائد ثلاث:

الأولى: أن هذه الآية ضمنت دعوة الخلق إلى عبادة الله بطريقين:

أحدهما: إقامة البراهين بخلقهم وخلقه السماوات والأرض والمطر.

والثاني: ملاطفة جميلة بذكر ما لله عليهم من الحقوق ومن الأنعام، فذكر أولاً ربوبيته لهم، ثم ذكر خلقه لهم وآبائهم لأن الخالق يستحق أن يعبد، ثم ذكر ما أنعم الله به عليهم من جعل الأرض فراشاً والسماء بناء، ومن إنزال المطر، وإخراج الثمرات لأن المنعم يستحق أن يعبد ويشكر.

الثانية: المقصود الأعظم من هذه الآية الأمر بتوحيد الله وترك ما يعبد من دونه، وهذا ما بينه بقوله: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ للّه أَندَاداً﴾ [سورة البقرة، الآية 22]. ثم قال بعد ذكر التنبيه والاعتبار في المخلوقات: "وذلك أنها تدل بالفعل على عشرة أمور؛ وهي: أن الله موجود، لأن الصفة دليل على الصانع لا محالة، وأنه واحد لا شريك له، لأنه لا خالق إلا هو ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل، الآية 17]، وأنه حي قدير عالم مريد، لأن هذه الصفات الأربع من شروط الصانع، وأنه قديم لأنه صانع للمحدثات، فيستحيل أن يكون مثلها في الحدوث، وأنه باق لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه، وأنه حكيم لأن آثار حكمته ظاهرة في إتقانه للمخلوقات وتدبيره للملكوت، وأنه رحيم لأن

---

(1) ينظر: الإيمان: 36.

كل ما خلق منافع لبني آدم، وأكثر ما يأتي ذكر المخلوقات في القرآن في معرض الاستدلال على وجوده تعالى وعلى وحدانيته"[1].

وهكذا دأب القرآن في تنوع أساليب الاستدلال بشكل يعجز عن الإتيان بها جهابذة أهل العلم من البشر.

ونلاحظ في هذا العرض التداخل في ذكر وحدة الربوبية ووحدة الإلوهية وذكر الأسماء والصفات، وكلها تدل على الواحد الموجود، وتذكر الآيات بربوبيته سبحانه للخلق فهو وحده المستحق للعبادة.

(1) التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: محمد عبد المنعم اليوسفي، وإبراهيم عطوي عوض، دار الكتب الحديثة - القاهرة، 1987م: 1/70-71.

المبحث الأول: الخلق دليل الوجود

ويشتمل على تمهيد وستة مطالب:

المطلب الأول: إمكان الخلق والإيجاد.

المطلب الثاني: دليل الإمكان الأول (بدء الخلق).

المطلب الثالث: دليل الإمكان (بدء خلق السماوات والأرض).

المطلب الرابع: بدء خلق الإنسان.

المطلب الخامس: دليل الاختراع والعناية.

المطلب السادس: وجوب وجود الخالق.

تمهيد: الخلق دليل الوجود

قضية الخلق والإيجاد هي مرتكز الدليل على الوجود الواجب؛ وهو الله سبحانه وتعالى أو الوجود الممكن؛ وهو ما دونه، والذي يهمنا في بحثنا هذا هو الوجود الواجب، والواجب لذاته "هو الموجود الذي يمتنع عدمه امتناعاً ليس الوجود له عن غيره بل من نفس ذاته"[(1)].

وقد أكد القرآن الكريم استعمال هذه الأساليب في التدليل على وجوده سبحانه، وقد سبق الحديث في الفصل الأول عند النظر في الآيات الكونية مبتدئاً بالكون منتهياً بالإنسان ومحيطه، وهذا يدور في الكون المحسوس الممتد ملايين السنين الضوئية لا يجد محلاً للفوضى، فالنظام والقانون المعبر عنهما بسنة الله عز وجل الكونية، والكون وسننه قائمتان بإقامة الله لهما، وهنا تثبت صفة القيومية والهيمنة؛ فهو القيوم والمهيمن[(2)]، والتكليف لا يكون في الإسلام إلا بالعقل، وهذا يدل على أن الحكم العقلي معتمد، ومن هنا اعتمدت الملاحظة الكونية كدليل عقلي للوصول الى معرفة الله، وذلك دليل على أن الحكم العادي والذي هو أثر عن وجود الأسباب معتمد في الإسلام، والتكليف من الله سبحانه بالاهتداء بالقرآن، وطاعة الرسول في أمر من الأوامر ونهي من النواهي دليل على أننا محكومون بالحكم الشرعي؛ فالأحكام لها معان ثلاثة: الحكم العقلي، والحكم العادي، والحكم الشرعي، وكل منهم يكمل الآخر في التكليف أو في بناء الحياة أو في قضية المعرفة والعلم، فبدون إثبات الحكم العقلي لا يبنى الحكم الشرعي، وإذا لم يعتمد الحكم الشرعي فإننا قد عطلنا الحكمة من عالم الأسباب، ولم يغط قوانين العقل مداها، ولم نبن على هذا المدى، فلا بد من الوقوف عند العقل وأحكامه والكون وقوانينه، والشرع وأحكامه[(3)].

والإنسان مكلف من ربه بالبحث في الكون؛ قال تعالى: ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يونس، الآية 101]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 20]، فإن دعوة التفكر والنظر والسير أوامر إلهية أمر بها الخلق كما بينتها

(1) التعريفات: 222.

(2) ينظر: جولات في الفقهين الكبير والأكبر، سعيد حوى، دار الأرقم، ط2، 1401هـ - 1981م: 7.

(3) ينظر: جولات في الفقهين الكبير والأكبر: 8.

الآيات الكريمة في بيان صريح عن هذا المعنى دافعاً الإنسان للتفكر فيما حوله وتدبر آيات الله من خلال النظر في صفحات الكون كيف خلقه الله، فإن ما تراه عيناك وما يشمه أنفك دعوة تحدد منهج البحث ووسائله للوصول إلى الحق والمعرفة الصادقة حتى يتبين الهدى من الضلال، وهذه الدعوة الربانية منطقية واقعية بسيطة في التعامل معها لا مع القضايا النظرية والأقيسة المنطقية، ولذا يعتبر الأسلوب القرآني في قضية التدليل على الخالق بالخلق ديدن القرآن الكريم، فهو منهج بسيط يعتمد على التجرد من المؤثرات، فقد من الله على عباده أن جعل قراءة هذا الكتاب المنظور (كتاب الكون) وتدبيره ميسوراً للجميع للعالم والجاهل، والقارئ والأمي، وإن لم يكن يتدبرها ويفقهها إلا من هدى الله، كما لا يعقل آياته إلا العالمون.

فالإنسان لا يحتاج إلى عناء كبير لقراءة هذا الكون؛ فهو يشعر هواءه ويشرب ماءه ويأكل ثماره ويركب بحاره ويسير في فجاجه وينظر إلى سمائه، ويستخدم أنعامه ثم يفكر تفكر العاقل فيما وقع عليه حسه، فإنه يجد الدلائل التي لا تعد ولا تحصى من العبر والآثار الدالة على معاني صفاته جل شأنه فتثير هذه المطالعة للقلب إحساسات ووجدانيات عالية لاتصاله بالله تعالى[1].

فالأسلوب القرآني يطرح قضية الخلق على وجه يثير الاهتمام، فتنجلي أمام المتلقي آفاق رحبة تدفع الإنسان للتبصر عقلاً أو قلباً للعمل على إقامة الحجة والبرهان من واقع الإنسان ومحيطه، فتزول عنه خرافة الاعتقاد.

المطلب الأول: إمكان الخلق والإيجاد

الإمكان: "عدم اقتضاء الذات الوجود والعدم"[2]، وهو القسم الثالث لأقسام المعلوم، الواجب والمستحيل، وأما الخلق فهو "التقدير والخالق في صفاته المبدع للشيء المخترع على غير مثال سابق[3]، فالخلق من الممكن والمراد عنه حدوث العالم، والعالم، وهو منطوق به لغة وشرعاً، وهو كل موجود سوى الله[4]، ويعتمد إمكان الخلق أو حدوث

(1) ينظر: منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام، جمعة أمين عبد العزيز، دار الدعوة، ط3، 1414هـ - 1993م: 11.
(2) التعريفات: 30.
(3) لسان العرب: مادة خلق: 84/10. ينظر: القاموس المحيط، مؤسسة الحلبي - القاهرة: 288/3.
(4) ينظر: الإرشاد الى قواطع الاعتقاد: الإمام الجويني، تحقيق د. محمد يوسف موسى، علي عبد المنعم عبد الحميد، مكتبة الخفاجي، 1369هـ - 1950 م: 17.

العالم على أن العالم متغير فهو حادث، والحادث لا بد له من محدث، والمحدث لا يكـون حادثاً لأنه يفتقر إلى محدث، وينتهي الأمر إلى الدور والتسلسل، وهما ممتنعان عقلاً، فالدور هو أن يكون شيئان كل منهما علة لآخر بوساطة أو دونهما، وهو ممتنع لأن العلة متقدمة على المعلول، والتسلسل هو أن يستند الممكن في وجوده إلى علة مؤثرة وتستند تلك العلة المؤثرة إلى علة أخرى مؤثرة وهلم جراً إلى غير نهاية، وهو ممتنع فالمحدث الخالق من دلالـة معاني هذا الكلام هو الله تبارك وتعالى[1]، والعالم جواهر وأعراض، فالجوهر هو المتحيـز، وكل ذي حجم متحيز، وأما العَرَضُ فهو المعنى القائم بـالجوهر كـالألوان، والأكـوان والروائح والطعوم والحياة والموت والعلوم والإرادات والقدر القائم بالجوهر، فالأكوان هي الحركة والسكون والاجتماع والافتراق، ويجمعها ما يخصص الجوهر بمكـان أو تقـدير مكان، فالأعراض حادثة ودليل حدوثها تغيرها فنشاهد تغيرها من وجود إلى عدم ومـن عدم إلى وجود، ومن سكون إلى حركة ومن حركة إلى سكون، والتغير دليل الحـدوث وكذلك احتياجها إلى مخصص بوقت حدوثها لا قبله ولا بعده، فلا بد من مرجح لوقوعها في ذلك الوقت لأن الترجيح من دون مرجح محال، وكذا حاجتها الى جسم تحل به، وكل ذلك يؤكد حدوثها[2]، وقد ثبت بالدليل حدوث الجواهر لأنها ملازمـة للأعـراض ولا تنفصل عنها، فهي لا تخلو عن الحركة أو السكون، والألوان وغيرها، والأعراض حادثـة بمجملها، وملازم الحادث حادث، فإذا أثبت حدوث الأعراض والجواهر لـزم حـدوث العالم.

وزعم بعضهم قدم العالم وقد أوردوا حججاً على زعمهم هذا، وقد ردت من أهـل الحق وأقيم الدليل على بطلانها. وهناك من زعم بقدم الممكن لذاته وحـدوث الـصورة فتكون الأقوال ثلاثة؛ أصوبها ما كان عليه أهل الحق من إثبات حدوث العـالم وإمكـان الخلق[3].

---

(1) ينظر: شرح المقاصد، سعد الدين التفتازاني، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، منشورات الـشريف الرضـي، ط1، 1989م: 467/1-498. وينظر: كبرى الآيات اليقينية: 83-94.

(2) ينظر: الإرشاد إلى قواعد الاعتقاد: 19.

(3) ينظر: المطالب العالية من العلم الإلهي، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت (د.ت): 12/4-23. وشرح المقاصد: سعد الدين التفتازاني، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، منشورات الشريف الرضي، ط1، 1989م: 125/3. وكبرى اليقينيات الكونية، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، 1394هـ: 83-94.

أما الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة فقد أخذ طريقاً آخر في إثبات إمكان العالم من خلال توظيفه للنص القرآني في إثبات الإيجاد والخلق بأسلوب سلس يستطيع كل إنسان إدراكه ببساطة ويسر، فوظف لفظ البدء والخلق في سياق آياته وأثبت عملية التغيير التي تطرأ على هذا الخلق، وأن العالم متغير كما أظهرت هذه المعاني قوله تعالى على لسان النبي إبراهيم عليه السلام حين نظر في الكون مراقباً حركته، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 75-78].

وسياق الآيات الكريمة يشير الى تساؤل النبي إبراهيم ثم استدلاله بحدوث الأفول على وجود المحدث والحكم على السماوات والأرض بحكم الشمس والقمر والكواكب وتساويها في الحدوث وطروء الأحوال عليها وتغيرها بالحس، فحدوث هذه الأشياء يدل على وجود المحدث؛ وهو الله تعالى[1].

وبساطة الاستدلال في هذه الآيات هو من خلال استعمال الحس والظواهر الطبيعية في إقامة الدليل بشكل واضح جلي لا يقبل الشك والريبة، فلفظ الأفول في كلام النبي إبراهيم عليه السلام وقوله: إنه لا يحب الآفلين؛ أي أنهم محتاجون للغير، وكل من احتاج إلى الغير بالتغيير فهو حادث ليس في ذلك شك أو تردد، فعندها يلزم من تلك عقلياً أنه لا بد من متصرف في هذا لأنه حادث ودليل حدوثه تغيره ومن ثم احتياجه[2]

المطلب الثاني: دليل الإمكان الأول (بدء الخلق)

إن الناظر في سياقات الآيات القرآنية يلحظ أن الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة قد وظف لفظ "البدء" في التدليل على بداية خلق العالم، فهناك آيات تشير إلى إمكان الخلق وبيان القرآن في عرض دليل الإمكان، ليكون دليلاً ناطقاً على حدوث العالم، وأن له بداية وأن له نهاية، في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ

---

(1) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 35/2.

(2) ينظر: تفسير آيات العقيدة: د. عبد العزيز حاجي، دار الصابوني، ط1، 1424هـ - 2003م: 89/1.

كُلِّ مَسْجِد وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 29]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّه حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [سورة يونس، الآية 4]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [سورة يونس، الآية 34]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 104]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة النمل، الآية 64]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 19]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 20]، وقوله تعالى: ﴿اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة الروم، الآية 11]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة الروم، الآية 27].

البدء لغة: من بدأ، ومن أسمائه: المبدئ؛ وهو الذي أنشأ الأشياء واخترعها ابتداء من غير سابق مثال، والبدء: فعل الشيء أول[1]، فالآيات السابقة تؤكد حدوث العالم وإمكان خلقه؛ فقد وظفت في بيان قضية مهمة من قضايا العقيدة بأن الله سبحانه وتعالى ثبت له صفة القدم بإثبات إمكان حدوث العالم، وهو ما دون الله سبحانه الذي هو علة الوجود والمؤثر فيه؛ فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِد وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 29] أمر وتكليف شرعي، وقد ربطه الأسلوب القرآني بقضية أخرى وهي إقامة الوجوه عند كل مسجد، وهي الصلاة والدعاء بالإخلاص والتوجه الصحيح إليه، وربط ذلك بتذكير الناس بالخالق العظيم والتوجه الصحيح إليه، وربط ذلك بتذكير الناس بالخالق العظيم

(1) ينظر: معجم مقاييس اللغة، مادة "بدأ": 212/1. وينظر: مفردات الراغب، مادة " بدأ ": 49.

القادر على خلق العالم ثم على إنهائه ثم على إعادته بعد هذا الإنهاء بشكل آخر كما يريد سبحانه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [سورة إبراهيم، الآية 48]، فدلالة الآية في سورة الأعراف بيان بدء الخلق على غير مثال سابق، وتأتي الآية الأخرى من سورة يونس لتعطي معنى آخر وتوظف بشكل جديد في إبراز قضية إمكان الخلق بمقدمات لها من التأثير في النفس البشرية بعد تهيئتها لتشغيل قضية حدوث العالم حتى تتمكن من النفوس فتدعها تنظر الى مسألة البدء بالخلق على أنه شيء كبير، فالذي أوجده وخلقه على غير مثال سابق هو الله المتصف بصفات الجلال والكمال، ولا يستطيع أحد أن يبدأ الخلق وهو قادر على إعادته فقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وفيه تقرير لقيام الساعة وهذا الربط بين مفردات القرآن توجهاً وعقيدة وسلوكاً ينظم كعقد لا يستغني أحدهما عن الآخر كما بينه قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، وتأتي الآية من السورة نفسها لتؤكد وجود الخالق وترد على المشركين محاولة نزع عقيدة الشرك من قلوبهم وإمكان الإيمان من هذه القلوب بإقامة البرهان، وهذا أسلوب القرآن في عرضه للعقيدة فهو يربط بين الحالة والمعالجة.

وأما آية سورة الأنبياء فجاء السياق فيها ليؤكد يوم القيامة، ثم ربطه ببدء الخلق، وكل ذلك يصب في معنى الخلق وبدايته.

وأما سياق آية النمل فيشير إلى المحاججة والتحدي للإتيان ببرهان يؤكد بما يذهبون إليه من عقيدة الشرك، ويأتي بأسلوب تهكمي في استبعاد قدرة الإتيان بهذا البرهان؛ فالاستفهام التقريري يشير الى تحدي القرآن لهم، ثم عقب بقضية ملاحقة الرزق للإنسان وتحصيل قوته، فيسأل بعد هذا البيان: أيوجد إله غير الله يقوم بهذا؟ فعليكم أن تأتوا بالبرهان، وهذه الأسئلة موجهة للإنسان من واقعة تجعله يسلم أن الذي بدأ الخلق هو الله.

أما سياق آية سورة العنكبوت فقد حثت على النظر الصحيح والسير في هذه الأرض، وتقليب النظر في الكون من لوازم الفعل ليسأل: من الذي خلقه؟ من الذي أوجده؟ إنه الخالق الواحد، وأما الحديث في سورة الروم فيختم بالآية الكريمة: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي إنكم أيها المعاندون والمكذبون بيوم الدين هذا هو بدء خلق الإنسان ووجوده في هذا الكون المبدوء

من قبله سبحانه وتعالى على أن الإعادة أهون من خلقها وإيجادها من العدم، وفي ذلك دليل على إمكان الخلق وحدوث العالم، فالأسلوب القرآني في عرضه لعقيدة التوحيد بأساليبه المتنوعة في محاولة تثبيته للعقيدة في عقول الناس وقلوبهم.

وقد ذهب المفسرون في توجيه معاني هذه الآيات وبينوا معانيها ودلائل ألفاظها ومفرداتها؛ قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؛ أي كما بدأكم الله خلقاً بعد أن لم تكونوا شيئاً تعودون بعد فنائكم خلقاً مثله[1]، وذكر القرطبي أن الكاف في "بدأكم" في موضع نصب؛ أي تعودون كما بدأكم؛ أي كما خلقكم أول مرة يعيدكم[2]، أما الآلوسي فقد ذكر أن معناها: "أنشأكم ابتداء"[3]، وذكر الزجاج أن هذا الكلام متصل بما قبله في قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[4]، وقال الآلوسي: إنه لا يخفى بُعْدُهُ في "تعودون" و لم يقل سبحانه: "يعيدكم" كما هو الملازم لما قبله إشارة إلى أن الإعادة دون البدء من غير شيء، بحيث لو تُصور الاستغناء عن الفاعل – وهو الله – لكان فيما دونه؛ فهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ سواء كانت الإعادة الإيجاد بعد الإعدام بالكلية أو جمع متفرق الأجزاء، وإنما شبهها سبحانه بالإبداء تقريراً لإمكانها والقدرة عليها، قال قتادة[5]: أي كما بدأكم من التراب تعودون إليه قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [سورة طه، الآية 55][6].

يتبين مما ذكر من أقوال المفسرين في توجيه معاني الآيات أن إمكان الخلق وارد في إشارات ومدلولات هذه الآيات، ويبدو أن ما ذهب إليه الطبري يعزز ما ذكرناه عن بدء العالم خلقاً وإيجاداً.

---

(1) جامع البيان: 158/5. والتفسير الكبير: 58/14.
(2) الجامع لأحكام القرآن: 188/7.
(3) روح المعاني: 107/8.
(4) معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم الزجاج (ت 311 هـ) تحقيق: عبد الجليل عبد شلبي، ط1، عالم الكتب – بيروت 1408هـ – 1988م: 331/1.
(5) هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز (ت 711 هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء: شمس الدين بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الفكر، ط1، 1417هـ – 1996م: 90/6.
(6) ينظر: روح المعاني: 107/8.

وإن كان قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ يخص الإنسان نفسه فإن قوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [سورة يونس، الآية 34]، يشمل الخلق كله ذلك أن الله يبدأ إنشاء الخلق وإحداثه وإيجاده، ثم يعيده حياً كهيئته يوم ابتدائه بعد فنائه وبلائه(1).

أما الزمخشري فقد بين أن قوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ استئناف ومعناه التعليل لوجوب المرجع إليه كما بينته نهاية الآية ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً﴾ وهو أن الغرض ومقتضى الحكمة ببدء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم(2).

ويؤكد الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة هذه المعاني، ويشير إليها في أكثر من موضع كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [سورة يونس، الآية 34].

والخطاب في الآية الكريمة موجه للنبي محمد ﷺ أي قل لهم، يا محمد: هل من شركائكم - أي الآلهة والأوثان - من يبدأ الخلق ثم يعيده من ينشئ خلقاً سوياً من غير أصل فيحدث خلقه ابتداء ثم يعيده ثم يفنيه بعد إنشائه ثم يعيده كهيئته قبل أن يفنيه فإنهم لا يقدمون على دعوة ذلك لها، وفي ذلك حجة واضحة ودلالة واضحة على أنهم في دعواهم أنها أرباب، وهي لله في العبادة شركاء كاذبون مفترون فقل لهم حينئذ، يا محمد: الله يبدأ الخلق من غير شيء ويحدثه من غير أصل(3)، قال الزمخشري: فإن قلت كيف قيل لهم: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وهم غير معترفين بالإعادة؟ قلت: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها مع منع ما إن دفعه دافع كان مكابراً رداً للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه دلالة على أفكارهم لها منكرون أحراراً مسلماً معترفاً عند العقلاء(4)، والدليل فيه على بدء الخلق قوله بأن البرهان في وجود الخلق وإمكانه وكونه حادثاً أمر ظاهر عند أهل العقل، وهو الهدف والمراد.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّنْ

---

(1) ينظر: جامع البيان: 84/7.
(2) الكشاف: 225/2.
(3) ينظر: جامع البيان: 115/7. وروح المعاني: 113/11.
(4) الكشاف: 236/2.

جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ في ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَته أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة النمل، الآيات 60-64].

ودلالة معاني الآيات الكريمة تشير إلى أن الله رتب الأدلة على هذا الوجه ترقياً من أعم إلى أخص ومن أرض إلى سماء ختمها إلى ما يعمها وغيرها إرشاداً إلى قياس ما غاب منها على ما شوهد، فتلتزم من ذلك قطعاً القدرة على الإعادة، فساقها لذلك سياق المشاهد المسلم، وعد من أنكرها في عداد من لا يلتفت إليه فقال: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ أي كله ما علمتهم منه، وما لم تعلموا ثم يبيده، لأن كل شيء هالك إلا وجهه، فهو له هذا الوصف باعترافكم يتحدد أبداً تعلقه، ولما كان من اللازم البين لهم الإقرار بالإعادة لاعترافهم أن كل من خلق شيئاً ثم أفناه قادر على إعادته لأن الإعادة أهون قال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي بعدما يبيده، ولما كان الأمطار والإنبات أول ما يكون على الإعادة قال مشيراً إليها على وجه عم جميع ما مضى: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ﴾ أي بالمطر والحر والبرد وغيرها مما له سبب التكوين أو التلوين، (الأرض) أي بالنبات والمعادن والحيوان وغيرها مما لا يعلمه إلا الله وعبر عنها بالرزق لأن به تمام النعمة ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أي الذي له صفات الجلال والإكرام كائن أو يفعل شيئاً من ذلك.

ولما كانت هذه كلها براهين ساطعة ودلائل قاطعة وأنواراً لامعة، وحججاً باهرة، وبينات ظاهرة وسلاطين قاهرة على التوحيد المستلزم للقدرة على البعث وغيره من كل ممكن ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي لهؤلاء المدعين للعقول ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على نفي شيء من ذلك عن الله تعالى أو على إثبات شيء منه لغيره لتثبت دعوة الشركة في الخلق، فتسمع دعوة الشركة في الألوهية وليكن إتيانكم ناجزاً من غير مهلة لأن من يدعي العقل لا يقدر على شيء إلا ببرهان حاضر ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي في أنكم على حق في أن مع الله غيره، وأضاف البرهان إليهم إضافة ما كأنه لا كلام في وجوده وتحقيقه، وإنما المراد الإتيان به كل ذلك تهكماً بهم وتنبيهاً على أنهم أبعد في الضلالة وأعمق في المحال حيث

رضوا لأنفسهم بتدين لا يصير إليه عاقل إلا بعد تحقيق القطع بصحته ولا شبهه إذ لا شبه لهم على شيء منه[1].

وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْه وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكيمُ﴾ [سورة الروم، الآية 27]، ودلالة لفظة "هو" أي: لا غيره ﴿الَّذي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ أي على سبيل التجدد كما تشاهدون، وأشار إلى تعظيم الإعادة بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ يُعيدُهُ﴾ ولما كان من المذكور في فكر جميع البشر أن إعادة الشيء بعد فنائه أسهل من ابتدائه، قال: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْه﴾ أي وذلك ينكرونه في الإعادة خطاباً بما ألفوه وعقلوه، ولذلك أخر الصلة، لأنه لا معنى هنا الاختصاص الذي يفيد تقدمها، وقد ذكره الزمخشري واستحسنه أحمد الإسكندري في كتابه الانتصاف[2].

---

(1) ينظر: نظم الدرر: 443/5. والجامع لأحكام القرآن: 225/13.

(2) ينظر: نظم الدرر: 617/5 والكشاف: 220/3، وينظر: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف في الاعتزال، أحمد ابن المنير الإسكندري المالكي، دار المعرفة - بيروت: 220/3.

المطلب الثالث

دليل الإمكان (بدء خلق السماوات والأرض)

إن دليل بدء خلق السماوات والأرض التي جاء بها الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة يعد من الأدلة الحسية الظاهرة آثارها على الإنسان خاصة والأحياء الأخرى عامة، وقد جعل الأسلوب القرآني خلق السماوات والأرض حجة دامغة وبرهاناً صريحاً على وحدانية الله وتفرده بخلقه، فإن خلق السماوات والأرض وما بينهما برهان على إمكان الخلق، والأسلوب القرآني في عرضه لهذا الدليل أعمق تأثيراً في عقل الإنسان وفكره لأن هذا الدليل مساق إليه من واقعه الذي يحسه ويلمسه وآثاره بينة وظاهرة عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. فالأسلوب القرآني في سياق هذه الآية الكريمة يؤكد أن الله سبحانه هو الذي أوجد الخلق من العدم، وهذه منة منه على خلقه وما أكثر نعمه وامتنانه، وهذا هو العرض الإلهي يوظف في بيان عقيدة التوحيد حيث يبين منته على خلقه، ثم يذكر كيف حدث هذا العالم في مدة معلومة في علم الله، وهي الإشارة إلى ستة أيام ثم كان له الاستيلاء على العرش، ثم ذكر الليل والنهار يغشى يعضه بعضاً، وحركة الليل مع النهار والشمس والقمر والنجوم المسخرة بأمره، ولا تخرج عن إرادته، ثم يقرر مسألة الخلق أنها له وحده، والأمر بإيجاد الخلق وعد.

ويسوق الأسلوب القرآني في موضع آخر هذا الدليل في عرضه للعقيدة كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ فإن تكرر الأسلوب القرآني في إخباره عن بدء وإمكان خلق السماوات والأرض وما بينهما يأتي لتوكيد اختصاص خلق الله لهم، وأنه سبحانه هو المتصرف فيها، فهو المنشئ لهما والقادر على إعدامهما، وفي ذلك إشارة واضحة إلى قدرة الله تعالى ودليل على توحيده سبحانه[1].

---

(1) ينظر: التفسير الكبير: 99/14. ولباب التأويل في معاني التنزيل، علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الخازن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1955م: 238/2.

وفي موضع آخر يشير الأسلوب القرآني في عرضه لعقيدة التوحيد من خلال بيان إمكان خلق السماوات والأرض قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة فصلت الآيات 9-12]، فسياق الآيات الكريمة يشير إلى إمكان الخلق من خلال عرض هذه الأدلة الكونية من خلق السماوات والأرض وذكر الأيام ومقدارها، والله سبحانه بإمكانه الخلق في لمحة، ولكن أراد الله أن يعلم الإنسان التثبت والتمهل[1].

قال الرازي: إن مدار أمر القرآن على تقدير هذه المسائل؛ وهي التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر، ولا شك أن مدار إثبات المعاد على إثبات التوحيد والقدرة والعلم، فلما بالغ الله في تقدير أمر المعاد عاد إلى ذكر الدلائل الدالة على التوحيد وكمال القدرة والعلم لتصير تلك الدلائل مقررة لأصول التوحيد وإثبات المعاد، فالخلق هو التقدير، وقد ذكرنا ذلك سابقاً فخلق السماوات والأرض إشارة إلى تقدير حالة من أحوالهما، وذلك التقدير يحتمل وجوهاً كثيرة أذكرها فيما يأتي:

الأول: تقدير ذواهّا بمقدار معين مع أن العقل يقضي بأن الأزيد منه والأنقص منه جائز، فاختصاص كل واحد منهما بمقداره المعين لا بد أن يكون بتخصيص مخصص، وذلك يدل على اختصار خلق السماوات والأرض إلى الفاعل المختار.

الثاني: أن تكون هذه الأجسام متحركة في الأزل محال لأن الحركة انتقال من حال إلى حال، فالحركة يجب كونها مسبوقة بحالة أخرى، والأزل ينافي المسبوقية، فكان الجمع بين الحركة وبين الأزل محالاً، إذا ثبت هذا نقول: هذه الأفلاك والكواكب أما أن يقال: إن ذواهّا كانت معدومة في الأول ثم وجدت، أو يقال: إنها كانت موجودة لكنها كانت واقفة ساكنة في الأزل ثم ابتدأت الحركة، وعلى كلا التقديرين فتلك الحركات ابتدأت بالحدوث والوجود في وقت معين مع جواز حصولها قبل ذلك وبعده، وإذا كان كذلك

---

(1) ينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل: 238/2. والجمل على الجلالين، سليمان بن عمر العجلي الشافعي الشهير بالجمل، دار الفكر: 151/2.

كان اختصاص ابتداء تلك الحركات بتلك الأوقات المعينة تقديراً وخلقاً ولا يحصل ذلك الاختصاص إلا بتخصيص مخصص قادر ومختار.

الثالث: إن أجرام الأفلاك والكواكب والعناصر مركبة من أجزاء صغيرة، ولا بد أن يقال: إن بعض تلك الأجزاء حصلت في داخل تلك الأجرام، وبعضها حصلت على سطوحها، فاختصاص حصول كل واحدة من تلك الأجزاء بحيزه المعين ووضعه المعين لا بد وأن يكون بتخصيص المخصص القادر المختار.

الرابع: إن بعض الأفلاك أعلى من بعض، وبعض الكواكب حصل في المنطقة وبعضها في القطبين، فاختصاص كل واحد منهما بموضعه المعين لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص قادر مختار.

الخامس: إن كل واحد من الأفلاك متحرك إلى جهة مخصوصة وحركة مختصة بمقدار معين مخصوص من البطء والسرعة، وذلك أيضاً خلق وتقدير، ويدل على وجودها المخصص القادر.

السادس: إن كل واحد من الكواكب مختص بلون مخصوص، والأجسام متماثلة في تمام الماهية، فكان اختصاص كل واحد منها بلونه المعين خلقاً وتقديراً ودليلاً على افتقارها إلى الفاعل المختار.

السابع: إن الأفلاك والعناصر مركبة من الأجزاء الصغيرة وواجب الوجوب لا يكون أكثر من واحد، فهي ممكنة الوجود في ذواتها، فكل ما كان ممكناً لذاته فهو محتاج إلى المؤثر والحاجة إلى المؤثر لا تكون في حال البقاء، وإلا لزم تكون الكائن فتلك الحاجة لا تحصل إلا في زمان الحدوث أو في زمان العدم، وعلى التقديرين فيلزم كون هذه الأجزاء محدثة، فمتى كانت محدثة كان حدوثها مختصاً بوقت معين، وذلك خلق وتقدير، ويدل على الحاجة إلى الصانع القادر المختار.

الثامن: إن هذه الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون، وهما محدثان، وما لا يخلو عن الحدث فهو محدث، فهذه الأجسام محدثة، وكل محدث فقد حصل حدوثه في وقت معين وذلك خلق وتقدير، ولا بد له من الصانع القادر والمختار.

التاسع: إن الأجسام متماثلة فاختصاص بعضها بالصفات التي لأجلها كانت سماوات وكواكب، والبعض الآخر بالصفات التي لأجلها كانت أرضاً أو ماء أو هواء أو ناراً أن يكون أمراً جائزاً؛ وذلك لا يحصل إلا بتقدير مقدر وتخصيص مخصص، وهو المطلوب.

العاشر: إنه كما حصل الامتياز المذكور بين الأفلاك والعناصر فقد حصل أيضاً مثل هذا الامتياز بين الكواكب والأفلاك والعناصر، بل حصل مثل هذا الامتياز بين كل واحد من الكواكب، وذلك يدل على الافتقار إلى الفاعل القادر المختار، وأعلم أن الخلق عبارة عن التقدير، فإذا دللنا على أن الأجسام متماثلة وجب القطع بأن كل صفة حصلت لجسم معين فإن حصول تلك الصفة ممكن لسائر الأجسام، وإذا كان الأمر كذلك كان اختصاص ذلك الجسم المعين بتلك الصفة المعينة خلقاً وتقديراً، فكان هذا داخلاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[1]، فإن السماوات والأرض حادثة، وإمكان خلقها دليل واضح على توحيد الله كما بينته معاني دلالاتها الآيات الكريمة.

إن الأسلوب القرآني يوظف النصوص القرآنية توظيفاً دقيقاً في توضيحه لقضية العقيدة والتي هي الرأس للدين، فبدونها لا يستقيم الإسلام في النفوس، ونلحظ أن الأسلوب القرآني بعد ذكر الزمن في خلق السماوات والأرض جاء بذكر عدد طبقاتها لبيان الوقت الذي استغرق خلقها وإيجادها، وقد التفت إلى هذه القضية من خلال تصوير ضخامة هذا الخلق كونه أعظم من خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [سورة النازعات، الآيات 27-33]، فدلالة معاني هذه الآيات الكريمة تشير إلى أن هناك خالقاً وموجداً ومؤثراً ومخصصاً أثر به وخصصه، وهذه الإشارات والدلائل الظاهرة في آيات الكون مع ما فيه من أسرار الخلق والعظمة[2]، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [سورة الطلاق، الآية 12].

الملاحظ في الآية أن الأسلوب القرآني ذكر صفة القدرة والعلم، وهي إشارة إلى غاية في الدقة والجمال في العرض للوصول بالمتلقي إلى درجة اليقين، والخلق هنا يثبت الإمكان، فقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ مبتدأ وخبر، وقوله: ﴿وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾؛

---

(1) التفسير الكبير: 14/97-98.

(2) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 4/331.

أي: خلق مثلهن، على أن "مثلهن" مفعول لفعل محذوف، والجملة عطف على الحياة قبلها، وقيل "مثلهن" عطف على سبع سماوات، وفيه الفصل بين الجار والمجرور وبين حرف العطف والمعطوف "ينزل" مضارع "نزل" مشدداً "الأمر" بالنصب؛ أي ينزل الله الأمر ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ متعلق بخلق أو ينزل أو بمضمر يعمهما؛ أي فعل ذاك لتعلموا أن من قدر على ما ذكر قادر على كل شيء، ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، لاستحالة حدوث هذه الأفاعيل ممن ليس كذلك[1].

وفي موضع أخر قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرحمن مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [سورة الملك، الآية 3]، قوله: "طباقاً" أي مطابقة بعضها فوق بعض، من طابق النعل: إذا خسفها طبقاً على طبق، وهذا وصف بالمصدر، أو على ذات طباق أو طوبقت طباقاً[2].

وفي موضع أخر في سياق الدليل على الإمكان يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ [سورة نوح، الآيتان 15-16]، فالأسلوب القرآني في هذه الآيات وغيرها عند الإشارة إلى خلق السماوات والأرض يكرر هذه المعاني زيادة في التأثير والإقناع، وقوله: ﴿ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [سورة نوح، الآية 16]، فإن القمر ليس فيها بأسرها بل في السماء وهذا من قولهم: السلطان في العراق، وليس المراد أن ذاته حاصلة في جميع انحياز العراق، وهو من باب المجاز، والمراد أن ذاته حاصلة في حيز من جملة انحياز العراق، وقوله: ﴿والشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ [سورة نوح، الآية 16]، من باب التشبيه البليغ، شبهت به من باب أن كل واحد منهما يزيل ظلمة عن وجه الأرض، وإضافة الشمس والقمر في الإيجاد دليل الإمكان، وهو برهان القرآن على الخلق[3].

---

(1) ينظر: الكشاف: 134/4. وروح المعاني: 145/28.

(2) ينظر: الكشاف: 134/4. وأنوار التنزيل وأسرار بالتأويل: 489/2، حاشية محيي الدين شيخ زادة على البيضاوي، محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوى الحنفي (ت 951هـ) تحقيق: محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1419هـ - 1999م: 269/8.

(3) ينظر: محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (د.ت): 5936/16.

المطلب الرابع: (بدء خلق الإنسان)

وظف الأسلوب القرآني قضية خلق الإنسان في التدليل على الإمكان من حيث الإيجاد والخلق، قال تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية 28]، فإن قضية الخلق بحد ذاتها قضية عظيمة؛ فقوام الإنسان وصورته التي خلق عليها لا يمكن أن تكون إلا بأمر إله عظيم خالق مبدع ومصور، ومراحل تكوين الانسان وأدواره التي مر بها إشارات ودلائل تشير إلى الصانع العظيم الحكيم، وهي أيضاً تدفع الإنسان إلى التفكر والنظر في عظمة هذا الخلق، ومن ثم الاستدلال على الخالق العظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران، الآية 59]، فدلالة الآية تشير إلى أن مثل عيسى عند الله كمثل أدم خلقه من تراب ثم قال له: كن، واعلم - يا محمد - أن ما قال له ربك: "كن" فهو كائن، فلما كان في قوله: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ إشارة إلى أن الكلام يراد به إعلام نبي الله ﷺ وسائر خلقه أنه كائن ما كونه ابتداء من غير أصل ولا أول ولا عنصر، استغنى بدلالة الكلام عن المعنى[1]، فدلالة معاني الآية في كون خلقه ابتداء من غير أصل ولا أول ولا عنصر تشير إلى دليل إمكان الخلق والحدوث.

وفي موضع آخر يأتي التدليل على بدء خلق الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [سورة الكهف، الآية 37]، فقوله: ﴿ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني آدم عليه السلام وهو أبو البشر، والآية تشير إلى المحاورة التي وقعت بين العبد المؤمن والكافر، فقد خاطب العبد المؤمن الكافر وأخبره أن أصل الإنسان التراب، فهو عادة أصله أو أصل مادته، وقوله: ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ فإنها مادة الإنسان القريبة، وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ ثم كذلك وكملك إنسانا ذكراً بالغاً مبلغ الرجال، فجعل كفره بالبعث كفراً بالله لأنه منشؤه الشك في كمال قدرته تعالى، ولذلك رتب الأفكار على خلقه إياه من تراب فإن من قدر على بدء خلقه منه قدر

(1) ينظر: المحرر الوجيز: 94/3.

على أن يعيد منه[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [سورة الحج، الآية 5].

والخطاب في الآية موجه للناس كافة أي انظروا في بدء خلقكم فإنه يزيح ريبكم فإذا خلقناكم "من تراب" إذ خلق آدم منه، كذلك الأغذية التي يتكون منها الميت[2].

وفي موضع أخر يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [سورة الروم، الآية 20]، فقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي في أصل الإنشاء لأنه خلق أصلهم منه – وهو آدم عليه السلام – فإذا أنتم تنتشرون في الأرض[3].

وفي موضع آخر يأتي التدليل والإشارة إلى بدء خلق الانسان كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [سورة غافر، الآية 67)]، فقوله تعالى ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ بخلق أبيكم آدم[4].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾ [سورة فاطر، الآية 11]؛ أي بخلق آدم عليه السلام منه[5]، فالتكوين البشري والمقصود أصله هو من تراب الأرض؛ أي من عناصره، وهي مادته الأولى وأصله والآيات دالة على ذلك وتمثل هذه المرحلة الأولى والطور الأول لخلق الإنسان وأما دليل خلقه فإنه يعود إليه ويصير إلى مادته الأولى، وهذا ما يتبعه من مراحل التخليق بالنسبة للإنسان هو أن الله خلقه و لم يكن شيئاً مذكوراً، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ [سورة الإنسان، الآية 1].

والاستفهام في سياق الآية الكريمة قد خرج معناه إلى التقدير والتقريب وأصل "هل"؟ وقد فسر هل بـ "قد"، وقوله: ﴿حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ طائفة محدودة من الزمان الممتد غير

(1) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/2. ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: 13/3.

(2) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 85/2. ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: 93/3. وينظر: تفسير الجلالين للسيوطي والمحلي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط2، 1388هـ – 1968م: 85/2.

(3) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 219/2. ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: 269/3. والجلالين: 219/2.

(4) ينظر: الجلالين: 340/2.

(5) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 269/2. والجلالين: 269/2.

المحدود، وقوله: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ بل كان شيئاً منسياً غير مذكور بالإنسانية كالعنصر والنطفة، والجملة حال من الإنسان أو وصف لحين يحذف الراجع[1].

وفي مواضع أخرى يأتي التدليل على التخليق الثاني وهي اختلاط الماء والتراب فإن العرب تقول للتراب المخلوط بالماء طيناً، وهو الوحل والطين: الجبلة[2]، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، ودلالة الآية تشير إلى خلق آدم من طين، والبشر من آدم[3]، وإن آدم الذي هو أصل البشر خلق منه[4]، وهو استئناف أي هو الذي خلقكم من طين مسوق لبيان كفرهم بالبعث مع مشاهدة لما يوجب الإيمان به إثر بيان بطلان إشراكهم به تعالى مع معينتهم لموجبات توحيده وتخصيص خلقهم بالذكر مع بيان سائر دلائل صحة البعث مع أن ما ذكر من خلق السماوات والأرض من أوضحها وأظهرها كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة يس، الآية 81]، لما كان محل النزاع بعثهم، فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر، وهم بنشوء أنفسهم أعرف، والتعامي عن الحجة النيرة أصبح، والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ، أي ابتداء خلقهم منه فإنه المادة الأولى للكل[5].

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 12]، فقوله "الإنسان" آدم عليه السلام لأنه استل في الطين، وسلالة الطين صفوة الماء، وعلى هذا فالإنسان اسم جنس، ويترتب فيه أنه سلالة من حيث كان الكل عن آدم، أو عن أبوي الإنسان المتغذيين بما يكون من الماء والطين[6].

فقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ أي في خلاصة سلت من بين الكدر ﴿مِنْ طِينٍ﴾ متعلق بخلق لأنه صفة السلالة أو من صفة بيانية، أو بمعنى سلالة لأنها في معنى مسلولة فتكون "من" ابتدائية و"السلالة" أي أنهم خلقوا من سلالات جعلت نطفاً

---

(1) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 524/2. والجلالين: 524/2.

(2) ينظر: لسان العرب: 270/13، مادة "طين".

(3) ينظر: المحرر الوجيز: 266/2. وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: 304/1. والجلالين: 304/1.

(4) ينظر: المحرر الوجيز: 266/2.

(5) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد المعماري (ت 951 هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان: 106/3.

(6) ينظر: المحرر الوجيز: 137/4.

بعد أدوار، وقيل: المراد بالطين آدم، لأنه خلق منه والسلالة نطفته[1]، ويأتي التدليل على مرحلة التخليق هذه في موضع آخر من القرآن كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة السجدة، الآية 7]، والآية تشير إلى أن الله سبحانه خلق الإنسان موفراً عليه ما يستعده ويليق به على وفق الحكمة والمصلحة، وقوله: ﴿بَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ أي آدم عليه السلام[2]، وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة ص، الآيات 71-76]، والآيات الكريمة تشير الى المحاورة التي جرت بين الله سبحانه وملائكته فقوله: ﴿بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ هو آدم عليه السلام ﴿سَوَّيْتُهُ﴾ يريد به شخصية ﴿وَنَفَخْتُ﴾ هي عبارة عن إجراء الروح فيه، وهو عبارة على نحو ما يفهم من إجراء الأشياء بالنفع، وقوله: ﴿مِنْ رُوحِي﴾ إضافة ملك إلى مالك، لأن الأرواح كلها ملك لله تعالى، وأضافها إلى نفسه تشريفاً وأما أمر الله للملائكة بالسجود تكريماً لآدم فاستكبر إبليس أن يسجد لآدم وجاء التأكيد على أن آدم قد خلق من الطين فقال إبليس عند الامتناع من السجود تكبراً على آدم: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وهو قياس قد أخطأ فيه إبليس اللعين وذلك عند توهمه أنه خلق من النار وأن النار خير من الطين وأفضل[3].

وفي موضع يأتي قوله تعالى للتدليل على خلق آدم من طين قوله تعالى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية 12]، والآية في معرض الحديث عن المحاجة التي جرت بين الله والملائكة في خلق آدم وأمره لهم بالسجود تكريماً له.

وتأتي مرحلة أخرى لبيان عملية تخليق آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ (سورة الصافات، الآية 11)، والآية الكريمة في معرض الإخبار عن خلق الله لآدم، وقد أضاف الأسلوب القرآني الخلق من

---

(1) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 103/2. وإرشاد العقل السليم: 126/6. والجلالين: 103/2.
(2) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 234/2. والجلالين: 234/2.
(3) ينظر: المحرر الوجيز: 514/4-515.

الطين إلى جميع الناس من حيث إن الأب مخلوق منه، فإن خلقه من تراب وماء ونار وهواء، وهذا كله إذا خلط صار طيناً لازباً، واللازب يلزم ما جاوره ويلتصق به[1].

هذا ما بينته الآيات من خلق الإنسان من طين، وهذا الطين لازب؛ أي مخلوط بالعناصر الأربعة التي منها أصل الخلق، وبهذه الأدلة يبرهن الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة على إمكان الخلق من حيث بدء خلق الإنسان كما بينته أطوار خلق آدم، ثم تبين الآيات في مواضع أخرى الأطوار الأخيرة للتخليق قبل نفخ الروح وهي تشكيل الصورة لآدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [سورة الحجر، الآيات 26-33].

فقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ﴾؛ أي هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فرد من أفراده خلقنا بديعاً منطوياً على خلق سائر أفراده انطواء إجمالياً ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ أي من طين يابس غير مطبوخ يصلصل أي يصوت عند نقره، قيل: إذا توهمت في صوته صدأ فهو صليل وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة وقيل: هو تضعيف إذا أنتن ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾ من طين تغير وأسود بطول مجاورته للماء، وهو صفة لصلصال؛ أي من صلصال كائن من حمأ مسنون؛ أي مصور من سنة الوجه؛ أي صورته، أو مصبوب من شيء من: سن الماء: إذا صبه؛ أي مفرغ على هيئة الانسان، كما يفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب، وقيل: ﴿مَسْنُونٍ﴾ صفة لحمأ، وعلى الأولين حقه أن يكون صفة لصلصال، وإنما أخر عن "حمأ" تبينها على ابتداء مسنونيته ليس في حال كونه صلصالاً بل في حال كونه حمأ، كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال إنسان أجوف فيبس حتى إذا نقر صَوَّت ثم غيره جوهر آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين. وقوله ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ﴾ بيان لخلق الجن؛ أي ابتداء خلقه، وهو أبو الجن وقيل: إبليس، ويجوز أن يراد الجنس كما هو الظاهر في الإنسان لأن تشعب الجنس لما كان من فرد واحد مخلوق من مادة واحدة كان الجنس

---

(1) ينظر: المحرر الوجيز: 467/4.

بأسره مخلوقاً منها، ثم تشير الآيات إلى أمر الله للملائكة بالسجود في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ﴾؛ أي صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه، وقوله ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ فالنفخ الريح إلى تجويف الجسم صالح لإمساكها والامتلاء بها، وليس ثمة نافخ ومنفوخ، وإنما هو تمثيل لإضافة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها[1]، فالأسلوب القرآني يكشف في سياق هذه الآيات الكريمة عن سر خلق الإنسان وخلق الوجود، فذكر مراحل خلق الإنسان ابتداء من التراب ثم مزجه بالماء وبعد مكثه زمناً تغير إلى حمأ مسنون، ثم صب جسماً مصوراً فأصبح صلصالاً كالفخار، ثم نفخ فيه الروح فأصبح إنساناً، ثم بث منه زوجه ثم خلق منهما أناساً كثيراً، فلا تضارب بين الآيات التي ورد فيها بدء خلق الإنسان وإنما أشارت كل آية إلى مرحلة أو دور من المراحل والأدوار التي مر بها تخليق آدم ليصير إنساناً مخلوقاً على أجمل صورة وأحسنها مما يدل على موجد وخالق ومصور[2]، وفي موضع أخر يقول تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَ يُوقِنُونَ﴾ فما مر من آيات محكمات تدل على أن العالم حادث، فهو مخلوق، فهل هذا الخلق من غير خالق؟ أو خلق نفسه؟ فلا يمكن عقلاً تصور أن هذا الخلق من غير خالق؟ كما لا يعقل أنه خلق نفسه أو جاء بالصدفة العمياء، فهذا ما لا يقبله العقل، لأن هذا الخلق يحتاج إلى إرادة ومشيئة واختيار، والمادة لا تملك ذلك لأنها لا تملك الإرادة والمشيئة والاختيار، فلا بد من خالق مريد مختار قادر وهو الله سبحانه وتعالى[3].

---

(1) ينظر: إرشاد العقل السليم: 74/5.

(2) ينظر: نظم الدرر: 26/8. وإرشاد العقل السليم: 179/8.

(3) ينظر: الجواب الإلهي أو الإسلام أمام العلم والفلسفة، نديم الجسر، المطبعة المنبرية، ط1، 1376هـ - 1956م: 66. والعقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حنبكة، دار التعلم - دمشق، ط2: 125-126. وينظر: أدلة وجود الله تعالى في ضوء العقل والنقل منهج وتطبيق، د. محمد علي نمر العرب السماحي، حوليات أصول الدين، القاهرة - مصر، العدد السابع، 1410هـ: 367. وينظر: تفسير آيات العقيدة: 89/1.

المطلب الخامس: دليل الاختراع والعناية

دليل الاختراع: وهذا الدليل يسمى برهان الاختراع أو السببية أو الخلق والإبداع أو الصنع أو الحدوث، ويسمى أيضاً الآفاق والأنفس أو حدوث الأعراض[1].

وهذا دليل من أعظم الأدلة وأبسطها، وهو يدور حول البديهية القائلة: إن عملية الحدوث لا بد لها من محدث؛ أي كل مخلوق لا بد له من خالق، وأن الموجودات لا بد لها من موجد، وقد وظف الأسلوب القرآني أكثر من ثمانين آية في التدليل على قضية الخلق والإيجاد، والناظر في هذه الآيات يجد أن سياق هذه الآيات تحث العقول والقلوب بمختلف مستوياهم على التأمل في عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات كونها بديعة، ليصل بنا الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة لمعرفة الله سبحانه وتعالى، فبعض سياقات هذه الآيات تأتي مفتتحة بكلمة التسبيح والتنــزيه ابتداء ليدرك الإنسان أن الخالق هو الله وحده لا غير، وبعضها تختم بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أو قوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ أو قوله: ﴿أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ أو ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أو ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ومن خلال هذه الآيات نلحظ أن القرآن يشيد بالعقل لماله من تميز على النظر، ويأتي ذلك كله في إظهار قدرة الله الغالبة وأن الله هو الخالق المؤثر المختار، والأسلوب القرآني في عرض هذه المسألة المهمة لا يذهب بعيداً عن الإنسان، بل يلفت نظره إلى تكرار مشاهدة ما حوله، كما مر بنا في بيان الآيات الكريمة في الفصل الأول، وهذا هو أدب الأسلوب القرآني؛ فإنه يأتي أحياناً في إثارة تساؤل إما تقريري وإما اختياري وإما إخبار على وجه البدء[2]، وبحسب ما يتطلبه السياق ووحدة المعاني في تراكيب الآيات القرآنية.

إن دليل الاختراع مبني على أصلين موجودين بالقوة في نظر جميع الناس وهما:

---

(1) ينظر: مناهج الأدلة في عقائد الملة، ابن رشد (ت 595 هـ) مع مقدمة في نقد مدارس علم الكلام، تحقيق: د. محمد قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، 1969م: 3. وينظر: المطالب العالية: 43. وينظر: علم الكلام القرآني، بلقاسم الغالي، وهو بحث منشور في مجلة الإسلام المعاصر، العدد 62، 1415هـ: 66-109.

(2) ينظر: تفسير آيات العقيدة: 103/1، وأصول الدين الإسلامي: د. رشدي محمد عليان، ود. قحطان عبد الرحمن الدوري، كلية العلوم الإسلامية، ط4، 1411هـ - 1990م: 85.

الأول: إن هذه الموجودات مخترعة، والبرهان على ذلك أننا نرى أجساماً شامخة ثم تحدث فيها الحياة، وهذا التغيير من جماد إلى وجود الحياة دليل على وجود موجد للحياة، وخالق قد أنعم بها.

الثاني: إن كل مختَرَع لا بد له من مخترِع، فعلى من يريد معرفة الله حق المعرفة أن يعرف جواهر الأشياء، ليُعرف المخترِع الحقيقي للأشياء ويعرف الاختراع، ومن لم يقف على حقيقة الشيء لم يكن له أن يعرف حقيقة الاختراع[1].

أما الآيات التي ورد فيها دليل الاختراع فمنها قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 1]، فتعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة أولاً باسم الذات الذي يدور عليه كأنه ما يوجبه من صفات الكمال، وإليه تؤول جميع نعوت الجمال والجلال، للإيذان بأنه عز وجل هو المستحق للحمد بذاته لما مر من اقتضاء اختصاص الحقيقة به سبحانه لاقتصار جميع أفرادها عليه بالطريق البرهاني، ووصفه تعالى ثانياً بما ينبئ من تفصيل بعض موجباته المنتظمة في سلك الإجمال من عظائم الآثار وجلائل الأفعال من قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ للتنبيه على استحقاقه تعالى له الآثار العلوية والسفلية، وعامة آلائه الجليلة والخفية التي أجلها نعمة الوجود[2]، وفي موضع آخر يأتي التدليل على برهان الاختراع كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 185]، ودلالة الآية تشير إلى برهان الاختراع الدال على وجود الخالق سبحانه بأن أمرهم بالنظر في هذا الملكوت العجيب، وهو خلق هائل فضلاً عن خلق الله للأشياء الأخرى، وقد خرج الاستفهام في الآية إلى معنى الإنكار والتوبيخ؛ وذلك لإخلالهم النظر في الآيات الكونية أو التكوينية المنصوبة في الآفاق والأنفس والشاهدة بصحة الآيات المنزلة[3].

---

(1) ينظر: مناهج الأدلة في عقائد الملة: 52، والقرآن والنظر العقلي، فاطمة إسماعيل، مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1413هـ/1993م: 164.
(2) ينظر: إرشاد العقل السليم: 104/3.
(3) ينظر: إرشاد العقل السليم: 299/3.

ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ [سورة الفرقان، الآية 61]، والآية القرآنية تعرض صورة التنزيه والتعظيم له سبحانه، وقد ذكر الأسلوب القرآني النجوم على أنها البروج، والشمس على أنها السراج، والقمر على أنه المنير، وفي ذلك بيان للاختراع والخلق.

وفي موضع يأتي التدليل على برهان الاختراع من خلال عرض الأسلوب القرآني لخلق الحيوان في التدليل على عقيدة التوحيد، وهو الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة النور، الآية 45] والآية تشير إلى أصناف الحيوان التي خلقها الله سبحانه وتعالى، فقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ فالدابة: كل ما دب على وجه الأرض من الحيوان، فيقال: دب، يدب، فهو داب(1)، والهاء للمبالغة، وقوله: ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ أي من نطفة وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ بيان لأصناف الحيوان، فالمشي على البطن للحيات والحوت، وعلى الرجلين الإنسان والطير إذا مشى، والأربع بقية الحيوانات(2).

دليل العناية

وظف الأسلوب القرآني هذا الدليل في صنف سياقات آياته لإقامة الحجة، فالله قد أودع هذا الكون كل ما من شأنه العناية بالإنسان من تسخير السماوات وما فيها والأرض وما فيها، وهذا الدليل مبني على أصلين:

الأول: أن الموجودات كلها موافقة لوجود الإنسان.

الثاني: هذه الموافقة ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد؛ إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق(3).

وقد وظف الأسلوب في سياقات دليل العناية في الإشارة إلى الخالق العظيم قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية 22]، فقوله: ﴿الأَرْضَ فِرَاشاً﴾ تمثيل لما

---

(1) ينظر: لسان العرب: مادة "دب": 369/1.

(2) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 291/12.

(3) ينظر: أصول الدين الإسلامي: 84، وتفسير آيات العقيدة: 108/1.

كانوا يقصدون وينامون عليها كالفرش، وهو مجاز وكذلك ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، وقوله ﴿مِنْ الثَّمَرَاتِ﴾ من للتبعيض، أو لبيان الجنس، لأن الثمرات هي المأكول من الفواكه وغيرها، "به" الباء سببية لأن الماء سبب لخروج الثمرات بقدرة الله تعالى[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية 164].

والأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة أدمج بين دليل الاختراع ودليل العناية في سياق هذه الآية الكريمة، فهذا العرض الشامل لمنن الله تعالى على الإنسان عناية به من خلال تسخير كل شيء في منفعته؛ فدليل العناية تمثل في هذا التسخير، ودليل الاختراع تمثله السماوات والأرض والليل والنهار، وتصريف الرياح، والسحاب، وكلها خلق الله، وقد ختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فالأسلوب القرآني في بيانه في إقامة الدليل تلو الدليل في خطاب العقول والقلوب الإنسانية والاسترسال ثم الانتقال، من نعمة إلى نعمة، وهي عملية استثارة لكوامن عقل الإنسان وفكره[2]، وهو هدف من أهداف الأسلوب القرآني في مخاطبة العقول والقلوب لتحقيق الاستجابة النفسية التي يسعى إليها القرآن.

وفي موضع آخر يأتي التدليل على العناية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً وَأَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾ [سورة النبأ، الآيات 6-16]، فقوله: ﴿مِهَاداً﴾ هو البساط والفراش، و﴿الْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ إرساؤها، كما يرسى البيت بالأوتاد، و﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أصنافاً ذكراً وأنثى، ليسكن كل صنف من الصنفين إلى الآخر، وينتظم أمر المعاشرة والمعاش، ويتسنى التناسل، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾ أي موتاً لأنه أحد التوفيين لما بينهما من المشاركة التامة وانقطاع أحكام الحياة، وقيل: قطع عن

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: 71/1.
(2) ينظر: إرشاد العقل السليم: 88/9.

الإحساس والحركة، لإراحة القوى الحيوانية، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ الذي يقع فيه النوم غالباً، ﴿لِبَاساً﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللباس، و﴿جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾ أي وقت حياة، و﴿جَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾؛ وهذا الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخلق، و﴿أَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ﴾ هي السحائب، و﴿مَاءً ثَجَّاجاً﴾ أي منصباً بكثرة، و﴿حَبّاً﴾ بقيات كالحنطة والشعير، و﴿نَبَاتاً﴾ يعتلق بها كالتين والحشيش، و﴿جَنَّاتٍ﴾ وتطلق على النخل والشجر المتكاثف، و﴿أَلْفَافاً﴾ أي ملتفة على بعضها[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الآنسَانُ إِلَى طَعَامِه أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [سورة عبس، الآيات 24-32].

ودليل العناية واضح في سياق هذه الآيات الكريمة، وقد وظفها الأسلوب القرآني في التدليل على الموجد - وهو الله - من خلال لفت نظر الإنسان إلى ما حوله من نعم وتفضيل من قبل الله عليه كي يتفكر ويتعظ ويعترف بالإله الواحد.

(1) ينظر: أصول الدين الإسلامي: 84. وتفسير آيات العقيدة: 107/1.

المطلب السادس: وجوب وجود الخالق

ذهب أهل علم الكلام أن المعلوم ينقسم إلى ثلاثة أقسام هي: الواجب والممكن والمستحيل.

فأما الواجب لذاته: "فهو الموجود الذي يمتنع عدمه امتناعاً ليس الوجود له من غيره بل من نفس ذاته، فإن كان وجوب الوجود لذاته سمي واجباً لذاته، وإن كان لغيره سمي واجباً لغيره"[1].

وأما الممكن فقد مر ذكره، وأما المستحيل: "وهو ما يسمى الممتنع بالذات، وهو ما يقتضي لذاته عدمه"[2]، وهذه الأقسام الثلاثة للحكم العقلي ليس له رابع، وهنا لا بد من الإشارة إلى:

أولاً: أنه لا يجوز أن يكون موجد العالم مستحيلاً لأنه يعني العدم ولا يمكن تصور وجوده مطلقاً لأنه عدم محض، فلا يمكن أن يكون موجوداً لغيره، فإن فاقد الشيء لا يعطيه فكيف يمكن أن نتصور أن المستحيل مصدر للوجود.

ثانياً: كما لا يجوز أن يكون الممكن (الجائز) موجداً للعالم، لأن الممكن لا يمكن أن يوجد لذاته بل لا بد له من مؤثر أو مخصص يرجح وجوده، لأن الممكن محتاج، والمحتاج لا يمكن أن يوجد غيره، وإذا افترضنا أن سبب وجود الممكن يحتاج إلى سبب آخر، وهكذا فإن هذا يلزم الدور والتسلسل، وقد مر بيان الدور والتسلسل[3]، وهذا ذكر باطل، لأن العقل يحيله، ومن هنا لا بد من معرفة واجب الوجود.

ثالثاً: ولما ثبت أن موجد العالم واجب الوجود، فلا يحتاج وجوده الى سبب بل هو علة العلل، وسبب وجود العالم، وأما واجب الوجود فهو لا يقبل العدم أولاً وأبداً[4].

وقد وظف الأسلوب القرآني آيات كثيرة تدل على الخلق والإيجاد في إثبات الخالق سبحانه، ومن الإشارات المهمة في بيان هذا الأمر قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [سورة محمد، الآية 38]، فهو غني لأنه غير محتاج فوجوده ووجوب وجوده من ذاته،

---

(1) التعريفات: 222.

(2) ينظر: التعريفات: 206.

(3) ينظر: أصول الدين الإسلامي: 85.

(4) ينظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، القاضي أبو بكر الباقلاني (ت 403 هـ)، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، الثقافة الإسلامية – القاهرة، 1369هـ – 1950م: 14.

وليس من آخر بينما نحن مفتقرون إليه في وجودنا، وهذه المقدمة مبنية على قانون عقلي عام قد اتفق عليه العقلاء[1].

(1) ينظر: العقائد الإسلامية في ضوء العلم والعقل والوحي، د. محسن عبد الحميد، مطبعة العاني – بغداد، ط1، 1422هـ/2002م: 25.

المبحث الثاني: الإتقان دليل التوحيد

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: الدليل القرآني في إثبات وجود الخالق.

المطلب الثاني: اختلاف العلماء من الاستدلال بالنقل على وجود الخالق.

المطلب الثالث: قدرة الخالق ودقة إتقانه في خلق الموجودات.

المطلب الرابع: مطابقة الحقائق العلمية لما جاء من القرآن للدلالة على الخالق العظيم.

المطلب الخامس: الأسلوب القرآني في بيان معنى التوحيد والوحدانية.

المطلب الأول: الدليل القرآني في إثبات وجود الخالق

في البداية لا بد من الإشارة إلى أقوال العلماء فيما يخص هذا الدليل؛ فقد انقسم العلماء إلى ثلاثة فرق في مسألة وجود الله: هل وجود الله سبحانه فطري أم جاء عن طريق الاكتساب؟ أما الفريق الأول فإنه يتمثل بأقوال طائفة من المحدثين، والمفسرين وبعض المتكلمين، وكثير من الصوفية[1]، فهم يرون أن وجود الله فطري ضروري لا يحتاج إلى نظر واستدلال لا من العقل ولا من النقل، وتعتبر قضية وجود الله من المسلمات التي لا توضع موضع البحث، وتعليل ذلك أنها فطرية مركوزة في فطرة الانسان وضميره، ويشعر به كل عاقل ولو لم يستخدم طرق البرهنة المختلفة[2]، وإن كان يحتاج إلى أن يلتفت إلى نفسه ويحررها من الغفلة ليكون قوياً مع الوضوح في إحساسه بها، ويستدل أصحاب هذا الاتجاه على بعض الآيات منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 172]، وسألوا أيضاً أن الرسول ﷺ وأصحابه اكتفوا بإجراء أحكام الإسلام ورفع القتال بمجرد النطق بالشهادة تبين من غير الكشف عن سرائرهم، ولم يرد عنه ولا عنهم ما يدل ولو من بعيد على أنهم اشتغلوا بنصب الأدلة على وجود الله، وعلى أنهم طالبوا من أراد الدخول بالإسلام من الكفار إقامة الدليل على وجود الله قبل أن يدخل في زمرة المؤمنين[3].

وأما الاتجاه الصوفي فعلى الرغم من استناد بعضهم إلى بعض الأفكار الفلسفية أو الكلامية كما يقول ابن رشد: "إن المعرفة بالله وغيره من الموجودات شيء يلقى في النفس عند تحريرها من العوارض الشهوانية، وإقناعها بالفكرة عن المطلوب"[4]، فعمدتهم في هذه المسألة هو القلب المؤمن لا العقل المفكر، وهو الكشف الذي يخترق حجب الغيب لا البرهنة العقلية القاصرة، وهذه نظرة الخواص، وإيمانهم العالي على مذهب القوم، ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ

---

(1) ينظر: العقائد الإسلامية في ضوء العلم والعقل والوحي: 25.

(2) ينظر: المصدر نفسه.

(3) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية: 77-78. وينظر: أصول الكلام في فن المنطق والكلام، جلال الدين السيوطي: تحقيق علي سامي النشار، دار الكتب العلمية - بيروت: 224-225. وينظر: نظرات نقدية في علم الكلام، د. محمد حسنين، بحث منشور في حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة قطر، العدد العاشر: 213.

(4) ينظر: مناهج الأدلة في عقائد الملة: 150.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة، الآية 282]، وقوله: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال، الآية 29]، يقول: أبو بكر محمد الكلاباذي (ت 380هـ) وأجمعوا على أن الدليل على الله هو الله وحده، وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل في حاجته إلى الدليل، لأنه محدث والمحدث لا يدل على مثله[1]، وهذا المنحى في الاعتقاد هو منحى خاص كما ذكرنا في المثل السابق، والقوم لهم أذواقهم التي لا تدخل في إيمان العوام من الناس وأهل النظر في أهل العلم، بل هي أذواق خاصة وتعابير خاصة.

وأما الفريق الثاني فإنه يمثله جمهور أهل السنة والمعتزلة من أهل النظر وقد ذهبوا إلى أن معرفة الله ليست فطرية ولا تقع اضطراراً بل مكتسبة، ولا تتم إلا عن طريق النظر العقلي[2]، وقد تعددت الأدلة التي استدل بها الفلاسفة والمتكلمون المسلمون في مؤلفاتهم منها دليل الحدوث في الجوهر والعرض، والممكن والواجب ودليل الوجود وغيرها[3].

أما الفريق الثالث فقد جمع بين الطريقتين، فقالوا: إن المسألة ضرورية في الحقيقة لا تحتاج إلى النظر وإنما تحتاج إلى إصلاحها وإلى ذكر يوقظ من سنة الغفلة عنها، فقد أقام الأنبياء والعلماء الحجج لذلك، ولإصلاح فطر من عرضت لهم الشبهة فيها وفي بعض صفات الله تعالى[4].

ونذهب مع القول الثالث فإنه يجمع بين الفريقين؛ فالفطرة لها أثرها في معرفة الله لكن عندما تخرمها أدران المعاصي والذنوب ومن أعلاها وأكبرها الإشراك بالله احتاجت هذه

---

(1) ينظر: التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد الكلاباذي، دار الكتب العلمية، 1400هـ - 1980م. 63، وينظر: لمحات من الفكر الكلامي، د. حسن الشافعي، دار الثقافة العربية - القاهرة، 1413هـ - 1984م: 11-12.

(2) ينظر: التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والخوارج والمعتزلة، الإمام محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: محمود محمد الخضيري، ومحمد عبد الهادي أبو زيدة، دار الفكر العربي - القاهرة 1366هـ - 1947م: 44. وينظر: أصول الدين، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت 429 هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط3، 1401هـ - 1981م: 14. وينظر: المواقف في علم الكلام، عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، عالم الكتب - بيروت: 28-29.

(3) ينظر: الاقتصاد في الاعتقاد، محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده 1382هـ - 1962م: 15. وينظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، فخر الدين الرازي، وبذيله تلخيص المحصول للطوسي، مكتبة الكليات الأزهرية: 82. وينظر: نهاية الإقدام في علم الكلام، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: الفرد جيوم، مكتبة زهران، 1397هـ - 1979م: 5-6.

(4) ينظر: دلائل التوحيد، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد حجازي، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1406هـ - 1986م: 21.

الفطرة إلى من يزيل عنها أدران الشرك ليرجعها إلى عهدها صافية، قال ﷺ: "ما من مولود إلا ويولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه"[1].

فدلالة حديث النبي تؤكد أن الإنسان يولد صافياً من كُدورة الشرك والكفر ولكن الذي يكدرها هو بيئة الإنسان فيصبح أسير العادة وما ألفه من أسرته، أو قبيلته، أو بلده فتتبلد عقليته بأوحال الكفر وانحراف العقيدة، فهناك اعتراف بوجوده سبحانه وتعالى، ولكن عبادة الناس له مشوبة بعقائد الشرك والكفر قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾، فمهمة الرسل تنقية عقائد الناس بما يوحى إليهم من ربهم، وإماطة أذى الشرك والكفر عن الفطرة بالأدلة والبراهين وإثبات وجود الخالق، وأنه وحده المستحق للعبادة، وقيام الدليل على ذلك يقوي ملكة الفطرة ويرسخ الإيمان ويقوي اليقين.

---

(1) رواه البخاري: (يهودانه ويمجسانه) (6226)، 2434/6. ورواه مسلم: باب أطفال الكفار وأطفال المسلمين (2658)، 2047/4. صحيح ابن حبان: (128)، 336/1. البيهقي في السنن الكبرى: (11917)، 202/6.

المطلب الثاني

اختلاف العلماء في الاستدلال بالنقل على وجود الخالق

ذهب المتكلمون من المعتزلة والأشاعرة - وبخاصة المتأخرين منهم - إلى عدم الاستدلال بالنقل على أي مسألة من المسائل المتعلقة بوجود الله وبعض صفاته، وما يتوقف عليه صحة النبوة فيقولون: إن الأصل يصير فرعاً، والفرع يصير أصلاً؛ وذلك دَوْرٌ، والدور متناقض، وهو باطل، ويقتصر الدليل النقلي على السمعيات التي هي غيوب، ولا مجال للعقل فيها، وكذا المسائل التي لا يتوقف عليها صحة النبوة[1].

يقول القاضي عبد الجبار (ت 415 هـ) في معرض تأكيده أن معرفة الله لا تنال إلا بالعقل بعد أن ذكر الأدلة الأربعة، العقل والكتاب والسنة والإجماع: ومعرفة الله لا تنال إلا بحجة العقل، فإن قيل: لم قصرتم الأدلة على هذه الأربعة؟ ثم لما قلتم: إن معرفة الله لا تنال إلا بحجة العقل؟ وبعد الإجابة على السؤال يقول: "وأما الثاني وهو الكلام إن معرفة الله لا تنال إلا بحجة العقل فلأن ما عداها فرع على معرفة الله تعالى بتوحيده وعدله، فلو استدللنا بشي منها على الله - والحال هذه - كنا مستدلين بفرع للشيء على أصله، وذلك لا يجوز.

بيان هذا الكتاب إنما ثبت حجة متى ثبت أنه كلام عدل حكيم لا يكذب، ولا يجوز عليه الكذب، وذلك فرع على معرفة الله بتوحيده وعدله[2]، ويؤكد هذا المعنى في كتابه "متشابه القرآن" بقوله: "اعلم أن كل فعل لا تعلم صحته ولا وجه دلالته إلا بعد أن يعرف حال فاعله ولا يمكن أن يستدل به على إثبات فاعله ولا على صفاته، وإنما يمكن أن يستدل به على ما سوى ذلك من الأحكام؛ لأنه إن دل على حال فاعله ولا يعلم صحته إلا وقد علم فاعله أدى ذلك إلى أنه لا يدل عليه إلا بعد المعرفة، ومتى علم الشيء استغني عن الدلالة عليه"[3].

وقد بلغ هذا الاتجاه عند متأخري الأشاعرة ذروته على يد الإمام الفخر الرازي فزاد على ما قاله المعتزلة من "الدور" فكرة "المعارض العقلي" حيث يقول: الدليل اللفظي (النقلي) لا يفيد اليقين إلا عند تيقن أمور عشرة؛ ومنها عدم المعارض العقلي الذي لو

---

(1) ينظر: المدخل إلى دراسة علم الكلام: د. حسن الشافعي، مكتبة وهبة، ط2، 1411هـ - 1991م: 151.

(2) ينظر: شرح الأصول الخمسة، عبد الجبار بن أحمد، تحقيق: د. عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، ط1، 1384هـ - 1965م: 88-89.

(3) ينظر: متشابه القرآن، القاضي عبد الجبار الهمداني، تحقيق: د. عدنان زرزور، دار التراث - القاهرة: 1.

كان لرجح عليه[1]، وما كتبه أبو الحسن الآمدي (ت 631هـ) وهو متأخر عن الإمام فخر الرازي هو محاولة لتحقيق توازن بين الدليلين، ولكن انتهى إلى موافقة رأي الرازي فيقول: وإذا عرف ذلك فاعلم أن الدليل إما عقلي محض كأدلة حدوث العالم، ووجود الصانع، وإما سمعي محض كأدلة وجوب الصلاة والزكاة وغير ذلك، وإما مركب من الأمرين بأن تكون مقدماته عقلية والبعض سمعية، وعلى هذا فالمطلوب منه ما لا يعرف بغير الدليل العقلي كحدوث العالم ووجود الصانع قبل ورود السمع، ومنه ما لا يعرف بغير الدليل السمعي كالأحكام الشرعية كوجوب الصلاة، وتحريم الخمر ونحوه، ومنه ما يمكن معرفته بكل واحد من الطريقين كخلق الأفعال ورؤية الله تعالى[2].

ومن هنا ندرك أن فكرة "الدور" أثرت في حجية الدليل النقلي وزلزلت التوازن المنهجي بين العقل والنقل في إطار علم الكلام[3].

وأما أصحاب الرأي الآخر، والذين أقاموا القرآن والسنة أدلة على وجود الخالق سبحانه، وعلى العقائد وهم جمهور السلف من الصحابة والتابعين والذين كانوا يتلقون القرآن من رسول الله ﷺ دون الدخول في القضايا الجدلية بل كانوا يقفون عند النصوص عاملين بها غير سائلين في فنون الحجاج، واعتبروا القرآن الكريم بآياته حكماً فسلموا له تسليماً.

ولن تكون الأقيسة العقلية والبراهين المنطقية معتمدة عندهم في الاستنتاجات حول قضايا العقائد معتمدين في ذلك على قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [سورة الأنعام، الآية 153]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب، الآية 36]، ذلك لأن الوحي استوفى الجانب العقيدي، ولم يكل الناس إلى عقولهم من شيء منه، وجانب العقيدة أمر غيبي لا يستطيع عقل الإنسان إدراكه في

(1) محصل أفكار المتقدمين: 51. وينظر: الأربعين في أصول الدين، فخر الدين الرازي (606هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف الإسلامية، ط1، 1353هـ: 452-456. وينظر: معالم أصول الدين، فخر الدين الرازي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، الكليات الأزهرية: 24.

(2) ينظر: أبكار الأفكار في أصول الدين، سيف الدين الآمدي، تحقيق: د. أحمد المهدي محمد المهدي، مطبعة أصول الدين – الأزهر، القاهرة: 819/2. وينظر: المدخل إلى دراية علم الكلام: 159.

(3) ينظر: من قضايا المنهج في علم الكلام، د. حسن الشافعي، بحث منشور في سلسلة دراسات عربية وإسلامية، العدد الأول، القاهرة، 1404.

مجال التكييف والتعطيل، فلا يستطيع العقل الإنساني الإحاطة بالله سبحانه ومعرفة حقيقته؛ فإن المحدود لا يحيط بالمحدود، وهذا لا يعني الطعن بالعقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح، وأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنه لا يمكن أن توزن به أمور التوحيد والآخرة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء ذلك طمع في محال[1]. ولهذا كان الأسلوب القرآني في منهجية فيما يتصل بالخالق وصفاته يوجه أنظار الناس الى التفكير والتدبير في آيات الله في الكون وبدائع الخلق لتكون دليلاً ومرشداً إلى المبدع الخالق، وأما كيفية الخالق فقد سد الباب بإحكام أمام العقل لأنه كما يقول القرآن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [سورة طه، الآية 11]، وقوله: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [سورة البقرة، الآية 255].

قال الشيخ مصطفى عبد الرازق: "قد بعث محمد ﷺ بدين وشريعة أما الدين فقد استوفاه الله كله في كتابه الكريم ووحيه، ولم يكل الناس إلى عقولهم في شيء منه"[2].

وعندما نورد هذه الآراء لا يعني أن علماء الكلام والفلاسفة المسلمين قد ابتعدوا نهائيا عن الأدلة القرآنية ولم يعترفوا بها، بل حصلت مشاركتهم لغيرهم في الاعتماد عليها، وقد استعملوا الأدلة الكثيرة ومنها "دليل الاختراع والعناية" وقد مر بنا في المبحث السابق، وقد أخذه ابن رشد من القرآن الكريم وقبله الكندي وابن سينا[3]، ودليل تجدد الصفات وحدوثها عند المتكلمين[4]، ودليل الأحكام والإتقان في الكون عند الغزالي[5]، ودليلا الإتقان والاختراع عند ابن معين النسفي الماتريدي، وقد استنبطها من الآية الكريمة ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ [سورة الرعد، الآية 4]، والتي تدخل في العنوان الآتي في هذا

---

(1) ينظر: المصدر نفسه.

(2) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، مصطفى عبد الرازق، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط3 1386هـ -1966م: 72. وينظر: العقيدة في ضوء الكتاب الكريم والسنة المطهرة، د. عبد السلام خضر، القاهرة، 1405هـ - 1984م: 21-22.

(3) ينظر: مناهج الأدلة: 151. ورسائل الكندي الفلسفة، تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد - مصر، 1369هـ - 1950م: 1/80-231.

(4) ينظر: اللمع في الرد على أهل الزيغ، أبو الحسن الأشعري، ريتشارد يوسف مكارشي اليسوعي، المطبعة الكاثولكية - بيروت، 1953م: 706. وينظر: الأربعين في أصول الدين: 90.

(5) ينظر: إحياء علوم الدين، دراسة تحليلية لشخصية الغزالي وفلسفة الإحياء، د. بدوي طبانة، عيسى البابي الحلبي (د.ت): 103. ودرء التعارض بين العقل والنقل، أحمد بن تيمية (شيخ الإسلام)، تحقيق: محمد بن رشاد سالم، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، ط1، 1399هـ - 1979م: 7/219.

البحث[1]، وقد ذكر ابن الوزير اليماني أن طريقة (الإحكام والإتقان) هي أعمدة آل البيت منذ علي ﷺ في الاستدلال على وجوده، وقد ساق عدداً من نصوص الزيدية ما يؤدي إلى ذلك[2].

وعلى الرغم مما ورد في مشاركتهم الاعتماد على الأدلة القرآنية فإنهم قد نحوا منحى آخر في إقامة الأدلة والبراهين المعتمدة على الأدلة العقلية وهذا واضح فيما أوردوه في كتبهم التي ألفوها في علم الكلام مثل "الجوهر والعَرَض" "والممكن والواجب"، وسبب ذلك يعود إلى بروز اعتناق أهل الكفر والزندقة والإلحاد فاحتاج علماؤنا إلى إقامة الحجة عليهم بما فتح الله عليهم من الفهم آخذين ما ورد من نصوص قرآنية في إعمال العقل والفكر دفعاً لهم بهذا الاتجاه، ولكي ينصبوا الأدلة في الرد على هؤلاء بأساليبهم إذ إن هؤلاء الكفار والزنادقة والملحدين لا يؤمنون بالقرآن ليكون الرد عليهم من أدلة القرآن.

فإن القرآن الكريم هو الفصل الذي أقام الله به البراهين والأدلة الواضحة والكاملة الدالة على وجود الصانع سبحانه وتعالى؛ إذ أمرنا بالنظر في الكون والأنفس لكي يجعلنا شهوداً على أنفسنا، فإن المقدر لآيات الله يجد فيها أدلة وبراهين على وجود الخالق، فمن ذهب إلى أن الله يعرف بالفطرة فقد ذهب مذهباً سليماً إلا أنه يحتاج إلى القرآن، ليقيم الدليل على وجوده سبحانه، لأن هناك أقواماً ينكرون وجوده؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الجاثية، الآيات، 24-26].

وقد أشار القرآن إلى بعض الأقوام الذين شكوا في الله وجادلوا فيه بغير علم فواجههم الأنبياء بوضوح الأدلة ووجهوا عقولهم إلى آيات الأنفس والآفاق الدالة على حتمية وجود الله تعالى وربوبيته للكون واستحقاقه وحده للعبادة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ

---

(1) ينظر: بحر الكلام في علم التوحيد، أبو المعين النفسي (ت 508 هـ)، مطبعة كردستان العلمية – القاهرة، 1329هـ – 1911م: 14-16. وينظر: مقدمة الدكتور محمود قاسم لمناهج الأدلة: 21-23.

(2) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، أبو عبد الله محمد بن مرتضى اليماني، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1404هـ – 1984م: 15-16. وينظر: لمحات من الفكر الكلامي: 9-10.

جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ۝ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ۝ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة إبراهيم، الآيات 9-11].

والفلسفات الإلحادية التي ثبتت على إنكار وجود الله، والتي لا تزال إلى عصرنا هذا وراح أصحابها ينشرونها في العالم، فما كان من علماء السنة إلا أن يقيموا الأدلة على وجود الله تعالى، ومن الواجب عليهم ألا يصموا آذانهم عن شبهات المنكرين في كل زمان ومكان، بل لا بد من المدافعة والرد على المنكرين بالأدلة والبراهين، ولا بد من الإشارة الى أن الأسلوب القرآني عند عرضه للعقيدة لا يكتفي بالإخبار عنها وتقريرها والأمر باتباعها، بل يشفعها بالبراهين العقلية الناصعة، وهذا وحده جدير بالاهتمام بغض النظر عن كون القرآن وحياً وكتاباً سماوياً، وقد بين ابن الوزير أن الاستهداء والاستشهاد بالنصوص القرآنية هو بمثابة استهداء التلميذ بالأستاذ، يقول: "كما أن المتكلم ينظر في كتب شيوخه ليتعلم منها الأدلة من غير تقليد"[1]. ولما كان القرآن الكريم هو المعجزة الكبيرة لرسول الله ﷺ كان ما جاء به يجب اتباعه في رده على من زعم أن إثبات وحدانية الله تعالى مما لا سبيل إليه إلا من جهة العقل، لأن القرآن الكريم كلام الله تعالى، ولا يصح أن يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم، يقول: "وإذا ثبت بما بينته في إعجاز القرآن وأن الخلق لا يقدرون عليه ثبت أن الذي أتى به غيرهم، وإنما يختص بالقدرة عليه من يخص بالقدرة، وأنه صدق، وإذا كان كذلك كان ما يتضمنه صدقاً، وليس إذا أمكن معرفته من جهة العقل امتنع أن يعرف من طريق القرآن، بل يمكن عندنا أن يعرف من طريق القرآن، بل يمكن عندنا أن يعرف من الوجهين"[2]. وعلى هذا ينبغي أن يكون القرآن هو المنطلق

---

(1) ينظر: ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان: 15. وينظر: معالم التوحيد في القرآن الكريم، مظفر سبحاني، قدم له: جعفر الهادي، دار الأضواء – بيروت، ط2، 1405هـ - 1984م: 33. وينظر: المدخل إلى علم دراسة الكلام: 167.

(2) إعجاز القرآن: 23. وينظر: المدخل إلى دراسة علم الكلام: 167.

والأساس في العقيدة الإسلامية لأنه دليل قطعي يجمع بين النقل والعقل، والقــرآن الــذي أنــزل على النبي محمد ﷺ ليكون خاتماً للأنبياء والرسل لا بد أن يكون منظماً لكل مــا يحتاج إليه في هداية الإنسانية، وهذا واضح في سياق معاني آيات كثيرة تدعو الإنسان إلى إعمال الفكر وإشغال العقل بعد ذكره دلائل قدرته، وأهم ما جاءت به معاني هذه الآيات إثبات وجود الخالق سبحانه؛ يقول بديع الزمان النورسي: مقاصد القرآن أربعة: إثبــات الصانع الواحد، النبوة، الحشر الجسماني، والعدل، ثم يقول: المقــصد الأول يــدل علــى الصانع الجليل[1].

وقال الغزالي (ت 505 هـــ): في جواهر القرآن سبع مئة وستون آية؛ أولها فاتحــة الكتاب[2]، ثم سرد الآيات وفق ترتيب المصحف وكلها في إثبات الخالق.

وأشار ابن الوزير اليماني إلى الذين جمعوا الأدلة على وجود الله وتوحيده من القرآن؛ ومن جملة هؤلاء السيد العلامة يحيى بن منصور الذي صنف في ذلك كتابــاً سمــاه بـــــ "الجمل الإسلامية" وشحنه بالاحتجاج بالآيات القرآنية[3]، وقد جمع الشيخ نديم الجسر في كتابه "قصة الإيمان" أربع مئة آية من الآيات القرآنية التي أراد الله بها لإقامة البراهين علــى وجوده[4].

وقد وظف الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة جملة من الآيات في التــدليل علــى وجود الخالق سبحانه؛ منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَــاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَــإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَــرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْــدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية 258].

الآية تعرض المحاججة التي جرت بين نبي الله إبراهيم عليه السلام والنمرود، وقد أعطــت دلالة معاني الآية الكريمة صفة الكافر المعاند، وهو ضعيف، ولكن طغيانه أوصله إلى هــذا العناد، فإن إبراهيم لما قال له: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ قال لإبراهيم: ﴿أَنَا أُحْيِــي وَأُمِيتُ﴾؛ والمقصود من كلام إبراهيم هو إحياء الأجساد وإماتتها، روي أن النمرود دعا

(1) محاكمات عقلية في التفسير والبلاغة والعقيدة، سعيد النورسي: 145-461.
(2) جواهر القرآن: محمد الغزالي، دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط6، 1405هـــ - 1985م: 52.
(3) ينظر: ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان: 17-21.
(4) ينظر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم، نديم الجسر، المكتب الإسلامي، ط3، 1389هـــ - 1969م: 245-246.

برجلين فقتل أحدهما وأطلق الآخر، فنقل المسألة من حالة الإماتة إلى حالة السبب في القتل والعفو، وهذا بعيد مما أراده إبراهيم الطَّيِّلاً، ولذلك شفع قوله بسؤال آخر لا يقدر عليه هذا المعاند فقال: ﴿فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ووجه التحدي هو إظهار ضعف النمرود وأنه لا يقدر على الإتيان بمثل مقدورات الله تعالى، وقد جاء بهذا الدليل لإبطال مقالة اللعين إيذاناً بأن بطلان زعمه من الجلاء والظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد، وأن التصدي لإبطاله من قبيل السعي في تحصيل حاصل، فأتى بمثال لا يجد فيه مجالاً للتلبيس والتمويه فبهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين[1].

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 95]؛ فقوله: ﴿إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ شروع في تقرير بعض أفعاله تعالى الدالة على كمال علمه وقدرته ولطف صنعه وحكمته إثر تقرير أدلة التوحيد، و"الفلق" هو "الشق بإبانه" أي ساق الحب بالنبات و"القوى" بـ "الشجر" وقيل: المراد به الشق الذي بالحبوب والنوى؛ أي خالقها، وقيل: الفلق بمعنى الخلق، قال الواحدي:[2] "ذهبوا بفالق مذهب فاطر" وقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات مما لا ينمو من النطفة والحب والجملة مستأنفة مبينة لما قلبها) وقيل: خبر لـ "إن"، وقوله: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ ﴾ أي من النطفة والحب، وقوله (من الحي كالحيوان والنبات، وهو عطف على خالق الحب لا على يخرج لكم القادر العظيم الشأن هو الله المستحق وحده للعبادة)[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآيات 96-97]، فقوله: ﴿فَالِقُ

---

(1) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 24/2. والبحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بـ "أبي حيان الأندلسي" (ت 754هـ)، دار الفكر، ط2، 1398هـ - 1978: 287/2. والنهر الماد من البحر، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، ط2، 1398هـ - 1978م: 286/2. وينظر: الدر اللقيط من البحر المحيط، تاج الدين الحنفي النحوي (ت 749 هـ)، دار الفكر، ط2، 1398هـ - 1978: 287/2. وينظر: إرشاد العقل السليم 252/1.

(2) هو أبو الحسن بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت 468هـ). انظر: سير أعلام النبلاء: 367/3.

(3) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 24/22. وينظر: إرشاد العقل السليم: 164/3. وينظر: أولى ما قيل في آيات التنزيل، رشيد الخطيب الموصلي، الموصل، 1992هـ - 1972: 244/1.

الإِصْبَاحِ﴾ أي فالق عمود الفجر عن بياض النهار وأسفاره، أو فالق ظلمة الإصباح؛ وهو الغبش الذي يلي الصبح، وقوله: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾ أي يسكن إليه التعب بالنهار لاستراحة فيه، والجعل المستمر الأزمنة المتجددة بحسب تجددها لا الجعل الماضي فقط" وقوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ معطوفان على الليل، ﴿حُسْبَاناً﴾ أي على أدوار مختلفة يحسب بها الأوقات التي ينظر بها العبادات والمعاملات أو حسباناً، والحسبان بالضم "مصدر حسب" وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما كذلك وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته؛ أي ذلك التسيير البديع، وقوله: ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب القاهر الذي لا يستعصي عليه شيء من الأشياء التي من جملتها تسييرهما على الوجه المخصوص، وقوله:﴿الْعَلِيمِ﴾ بجميع المعلومات التي من جملتها ما في ذلك التسيير من المنافع والمصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم، وقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ شروع في بيان نعمته في الكواكب إثر بيان نعمته في النيرين، والجعل متعد إلى واحد واللام متعلقة به، وتأخير المفعول الصريح من الجار والمجرور للاهتمام بالمقدم، والتشويق إلى المؤخر، أي إنشاؤها وإبداعها لأجلكم، وقوله: ﴿لِتَهْتَدُوا﴾ لاهتدائكم لكن لا على ان الغاية اهتدائكم فقط على طريقة أفراد يعطي منافعها، وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي في ظلمات الليل في البر والبحر، وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ﴾ أي بينا الآيات المتلوة المذكرة لنعمه التي هذه النعمة من جملتها، أمر الآيات الكريمة الدالة عليه تعالى مفصلة، وقوله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي معاني الآيات المذكورة، ويعملون بموجبها فيعلمون حقيقة الحال، وتخصيص التفصيل بهم مع عمومه للكل لأنهم المنتفعون به[1].

قال تعالى: ﴿خَلَقَ الآنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل، الآيات 4-8].

(1) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 24/2، وينظر: إرشاد العقل السليم: 164/3، وينظر: أولى ما قيل في آيات التنزيل: 116/3.

قوله ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ أي هذا النوع غير الفرد الأول منه و﴿مِنْ نُطْفَةٍ) أصلها الماء الصافي، ويعبر بها عن ماء الرجل؛ أي أوجده من جماد لاحس له ولا حراك، سيال، لا يحفظ شكلاً ولا وضعاً، وقوله ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بعد الخلق خصيم منطيق مجادل في نفسه مكافح للخصوم وهو صيغة مبالغة، وقوله ﴿مُبِينٌ﴾ مظهر للحجة، وقوله ﴿وَالأَنْعَامَ﴾ وهي الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز، ﴿خَلَقَهَا﴾؛ أي أوجدها، وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ الدفء اسم لما يدفئ به أي يسخن، والمراد به ما يعم اللباس والبيت الذي يتخذ من أوبارها وأصوافها، أو الثياب التي تلبس، منافع أخرى، ويعني بها درها وركوبها والحراثة بها والنضح عليها وغير ذلك، وإنما عبر عنها بها ليشمل الكل وقوله: ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾؛ أي زينة في أعين الناس، بعد ذكر الضرورية، وكذا العظمة والوجاهة عندهم، وقوله: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردونها بالعشي من المرعى إلى مراحها، وقوله: ﴿حِينَ تَسْرَحُونَ﴾؛ أي تخرجونها غداة من حظائرها ومبيتها إلى مسارحها، وقوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾؛ أي أحمالكم الثقيلة، وقيل: أجسامكم، وقوله: ﴿إِلَى بَلَدٍ﴾؛ أي إلى اليمن والشام ومصر، وكأنه نظر إلى متاجر أهل مكة لأن القرآن نزل فيها وقوله ﴿لَمْ تَكُونُوا بَالغِيهِ﴾ واصلين إليه بأنفسكم مجردين عن الأثقال فضلاً عن أن تحملوا على ظهوركم الأثقال لو لم تخلق لكم الأنعام، وقوله: ﴿إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾؛ أي مشقتها وتعبها؛ وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لذلك أسبغ عليكم النعم الجليلة ويسر لكم الأمور الشاقة، وقوله :﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾؛ أي خلقها لأجل ركوبكم وتتخذونها زينة[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ۞ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [سورة النحل، الآيات 79-81].

---

(1) ينظر: إرشاد العقل السليم: 5/97-99. وروح المعاني: 14/96-97.

فدلالة المعاني في سياق الآيات الكريمة تشير إلى الخالق العظيم، فهـذه آثـار خلقـه ظاهرة بائنة من تسخير الطير في جو السماء وتسخير الأنعام ومتعلقاتها لخدمـة الإنـسان فمأكله وملبسه منها فضلاً عن جعل الجبال بيوتاً لحماية الإنسان من المؤثرات الخارجيـة، وقد عرض الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة هذه المعاني ليصل بالإنـسان إلى مرحلـة الإقناع وتنبيهه إلى الخالق العظيم، وهذا هو هدف القرآن ومقصده[1].

(1) ينظر: أنوار التنـزيل وأسرار التأويل: 565/1.

المطلب الثالث:

قدرة الخالق ودقة إتقانه في خلق الموجودات

وظف الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة كثيراً من الآيات القرآنية في الكشف والإخبار عن قدرة الصانع العظيم، ودقة إتقانه في خلق الموجودات، وقد استعمله جملة من العلماء كما مر في إقامة الحجة والبرهنة على توحيد الخالق العظيم، وما مر بنا من إثبات وجوده من خلال الخلق والإيجاد، وهو ما أقيم من أدلة إذ تتجلى عظمته سبحانه في عظمة هذا الخلق مما لا يعطي مجالاً للشك في كونه واحداً لا شريك له، وهو المستحق للعبادة فهو المتفضل على العباد بالإيجاد الذي يحث الناظر إلى التطلع لمعرفة أسرار هذا الوجود فيقف مسلماً بأنه لا يمكن أن يوجد هذا العالم بهذا النظام الدقيق إلا مبدعاً مختاراً وضع كل شيء في موضعه بحيث لا ترى في هذا الخلق من تفاوت، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرحمن مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [سورة الملك، الآيات 1-5].

ودلالات المعاني في سياق الآيات القرآنية هذه تشير إلى الصانع المتقن، وهو الله سبحانه، وتلفت أنظار الخلق مع وجود التحدي لكل الكائنات وبخاصة من ادعى الألوهية مع الله، أو من أضل سبيله فعبد غير الله فأشرك، وألحد، وكفر فهلك، فقوله ﴿تَبَارَكَ﴾ مشتق من البركة وهو فعل، وقيل معناه تعاظم وهو مختص بالله تعالى، و﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ ملك السماوات والأرض والدنيا والآخرة، وقيل: ملك الملوك وهو كقوله ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾، والأول أعم وأعظم، و﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ يعني موت الخلق وحياتهم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليختبركم، واختبار الله لعباده إنما لتقوم عليهم الحجة بما يصدر منهم، وقد كان الله قد علم ما يفعلون قبل كونه، والمعنى يبلوكم فيجازيكم بما ظهر منكم، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ التسارع إلى ترك المعاصي والتبادر إلى الطاعة، ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً﴾ أي بعضها فوق بعض ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرحمن مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ أي من قلة تناسب

وخروج عن الإتقان والمعنى أن خلقه السماوات في غاية الإتقان وقيل: أراد خلقه جميع المخلوقات، ولا شك أن جميع المخلوقات متقنة، ولكن تخصيص الآية بخلقه السماوات أظهر لورودها بعد قوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً﴾ فبان قوله: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرحمن مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ بيان وتكميل ما قبله، والخطاب في قوله: ﴿مَا تَرَى﴾ و﴿ارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ وما بعده للنبي ﷺ أو لكل مخاطب ليعتبر ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ الفطور: الشقوق، جمع فطر وهو الشق، وإرجاع البصر ترديده في النظر معنى الآية: الأمر بالنظر إلى السماء فلا يرى فيها شقاً ولا خللاً، بل هي ملتئمة، ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي انظر نظراً بعد نظر للتثبت والتحقيق، ومعنى التثنية في "كرتين" التكثير لا مرتين خاصة كما في قولهم: لبيك، فإن معناه إجابات كثيرة[1]، ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الخاسئ: هو البعيد عن الشيء الذي طلبه، والحسير: هو الكليل الذي أدركه التعب فمعنى الآية: أنك إذا نظرت إلى السماء مرة بعد مرة لا ترى فيها شقاً أو خللاً رجع بصرك ولم يشأ من ذلك فكأنه خاسئ لأنه لم يحصل له طلب من رؤية الشفاف والخلل، وهو مع ذلك كليل عن شدة النظر وكثرة التأمل[2]، فدلالة الإتقان وبرهانه دليل واضح جلي في التدليل على الصانع المتقن، وقد أكد على هذا الدليل: الغزالي، وابن رشد، والرازي، وقد جعلوه دليلاً مستفيضاً في التدليل على الصانع الحكيم.

(1) ينظر: الكشاف: 135/4. وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: 489/2. ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: 274/4.
(2) ينظر: التسهيل: 250/4. وأولى ما قيل في آيات التنزيل: 68/9.

الصنع والإتقان والتحدي

إن الأسلوب القرآني في عرضه لعقيدة التوحيد يوظف الآيات القرآنية في قضية الصنع والإبداع من خلال عرض الأدلة أمام الإنسان ليرى بديع صنع الله وعظمة قدرته التي تؤدي بالإنسان أن يقف مبهوتاً منبهراً أمام هذه القدرة التي تعطي بلا حدود مكفولة بقوله: ﴿كُنْ فَيَكُوْن﴾ لا يمسه فيها نصب ولا يمسه فيها لغوب، قدرة تفوق تصور الإنسان، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية 88]، دلالة معنى الآية مرتبط بما قبلها[1]، في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [سورة النمل، الآية 87]، ومرتبط بما بعدها في قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ۞ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النمل، الآيات 89-90].

قال جوهري طنطاوي معلقاً على قوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي... ﴾ قال: إن هذه الآية بديعة الوضع محكمة الصنع، والآية إذ فسرت بأن الأرض دائرة حول الشمس والجبال بالطبع سائرة معها ونراها الآن جامدة، وهي في الحقيقة جارية جرياً سريعاً جداً، فإن ذلك يناسب قوله: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فهذا هو الإتقان، فالقيامة تخريب، والإتقان يناسب هذا التفسير[2].

قال ابن عاشور: وليس في كلام المفسرين شفاء لبيان اختصاص هذه الآية بأن الرائي يحسب الجبال جامدة ولا بيان وجه تشبيه سيرها بسير السحاب ولا توجيه للتنزيل بقول تعالى ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فلذلك كان لهذه الآية وضع دقيق ومعنى بالتأمل خليق، فوضعها أنها وقعت موقع الجمل المعترضة بين الجمل وبيانه من قوله ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ بأن يكون من تخلل على دقيق صنع الله تعالى في أثناء الإنذار والوعيد

---

(1) ينظر: جامع البيان: 21/11. والجامع لأحكام القرآن: 243/13.

(2) ينظر: الجواهر في تفسير القرآن الكريم، الشيخ طنطاوي جوهري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر، ط2، 1350هـ: 252/13.

وجمعاً بين استدعاء للنظر وبين الزواجر والنذر كما صنع في جملة ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أو هي معطوفة على جملة ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ وجملة ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ معترضة بينهما لمناسبة ما في جملة المعطوف عليها من الإيماء إلى تمثيل الحياة بعد الموت، ولكن هذا استدعاء لأهل العلم والحكمة لتتوجه أنظارهم إلى ما في هذا الكون من دقائق الحكمة وبديع الصنعة، وهذا من العلم الذي أودع في القرآن، ليكون معجزة من الجانب العلمي ليدركها أهل العلم، كما كان معجزة في جانبه النظمي. فإن الناس كانوا يحسون أن الشمس تدور حول الأرض في دورانها نظام الليل والنهار، ويحسبون أن الأرض ساكنة. واهتدى بعض علماء اليونان إلى أن الأرض هي التي تدور حول الشمس في كل يوم وليلة دورة تتكون منها ظلمة نصف الكرة الأرضية تقريباً وضياء النصف الآخر؛ وذلك ما يعبر عنه بالليل والنهار، ولكنها كانت نظرية مرموقة النقد، وإنما كان الدال عليها قاعدة أن الجرم الأصغر أولى بالتحرك من الجرم الأكبر المرتبط بسيره، وهي علة إقناعية، لأن الحركة مختلفة للمدارات، فلا مانع من أن يكون المتحرك الأصغر حول الأكبر في رأي العين وضبط الحساب، وما تحققت هذه النظرية إلا في القرن السابع عشر بوساطة العالم الإيطالي غاليلي، والقرآن يدمج في ضمن دلائله الجمة، وعقب تكوين النور والظلمة دليلاً رمزاً، ولهذا الاعتبار غير أسلوب الاستدلال الذي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ فجعل هنا بطريق الخطاب ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾ [1].

فإن صنع الله المتقن الذي نراه جلياً في صفات الكون يدل دلالة واضحة على أن الفاعل المريد هو الله الذي لا شريك له، تقف أمام عظمته عقول المدركين، وتطيش أمام عظمة صنعه جهابذة المحققين.

وفي الإشارة إلى بديع صنعه يقول تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد، الآية 4].

(1) ينظر: التحرير والتنوير: 50/20.

وقد استنبط أبو المعين النسفي دليل الإتقان والاختراع من معايير هذه الآية[1]، وقوله ﴿مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي قرى متدانيات، ترابها واحد وسماؤها واحد، وفيها زروع وجنات، ثم جنات من الثمار والتمر فيكون البعض حلواً، ويكون البعض حامضاً، والغصن الواحد من الشجرة قد تختلف التمرة في الصغر والكبر، والطعم، واللون، وإن انبساط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد، وفي هذا أدل دليل على وحدانيته وعظم صمديته، والإرشاد لمن ضل عن معرفته، فإنه به سبحانه يقول: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته، وإدارته وأنه مقدور بقدرته، وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع إذ لو كان ذلك بالماء والتراب، والفاعل له الطبيعة دفع الاختلاف، وقيل: إنه من تربة سبخة مع تجاورهما وهذا أيضاً من دلالات كمال قدرته جل وعز عما يقول الظالمون[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ۞ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة النمل، الآيات 59-64].

فقوله ﴿اللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فالله الذي ذكرت شؤونه خير أم ما يشركونه به من الأصنام، ومرجع الترديد إلى التعريض بتكبيت الكفرة من جهته تعالى وتسفيه معتقداتهم والتهكم بهم، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ والمراد التبكيت، ولمزيد التأكيد والتشديد، والانتقال من التبكيت تعريضاً إلى التصريح به خطاباً على الوجه الأظهر، ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي نوعاً منه هو المطر، ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي بساتين محدقة

(1) ينظر: بحر الكلام في علم التوحيد: 14 – 16.
(2) ينظر: جامع البيان: 79/8. والكشاف: 349/2. والجامع لأحكام القرآن: 28/9.

ومحاطة بالحوائط ذات بهجة؛ أي ذات حسن ورونق يبتهج به النظار، ﴿مَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي ما صح وما أمكن لكم ﴿أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ فضلاً عن ثمرها وسائر صفاتها البديعة ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أي أإله كائن مع الله الذي ذكر بعض أفعاله، هل يمكن أن ينازعه أحد من الذين ادعيتموهم بالألوهية، وتجعلوا له أنداداً وشركاء مع أنه تعالى تفرد بالخلق والتكوين؟ وهنا الإنكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقيق المنكر دون النفي، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ إضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوء حالهم، ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً﴾ أي مستقراً وجعل خلالها أوسطها أنهاراً جارية ينتفعون بها؛ وجعل لها رواسي؛ أي جبال ثوابت تمنعها أن تميد، ﴿جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي العذب والمالح، برزخاً مانعاً من الممازجة(1).

وهذه الظاهرة أشار إليها وحيد الدين خان أن هذه الظاهرة كانت معروفة لدى الإنسان القديم ولكننا لم نكشف قانونها إلا بعد عشرات من السنين؛ فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانوناً ضابطاً للأشياء السائلة يسمى "قانون المط السطحي" وهو يفصل بين السائلين لأن تجاذب الجزيئات يختلف من سائل لآخر، لذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله، وقد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾، وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء، كما لم تتعارض مع المشاهدة الحديثة، ويقول ونستطيع بكل ثقة أن نقول: إن المراد من البرزخ إنما هو قانون "المط أو التمدد السطحي" الذي يعود في الماءين والذي يفصل أحدهما عن الآخر(2).

وقوله: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ في الوجود أو في الإبداع لهذه البدائع على ما مر ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي شيئاً من الأشياء، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره.

ثم يعرض الأسلوب القرآني آيات الالتجاء إليه سبحانه مع ذكر المنة عليهم؛ قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾؛ أي خلفاء فيها بأن ورثكم سكناها وخولكم عمرانها،

---

(1) ينظر: الكشاف: 155/3. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 18/2. ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: 218/3.

(2) ينظر: الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ترجمة: ظفر الإسلام خان، تحقيق: د. عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية، ط1، 1390هـ - 1970م: 142.

﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ الذي يفيض على الأنام كافة هذه النعم الجسام، ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؛ أي في ظلمات الليل فيها على أن الإضافة للملابسة، ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهو المطر ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ نفي لأن يكون معه إله آخر، ﴿تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقرير وتحقيق له وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار للإشعار بعلة الحكم؛ أي تعالى وتنزه بذاته المنفردة بالألوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال، ونعوت الجمال والجلال، المقتضية لكون كل المخلوقات مقهورة تحت قدرته، ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن وجود ما يشركونه به تعالى لا مطلقاً؛ فإن وجوده مما لا مرد له، بل عن وجوده بعنوان كونه إلهاً أو شريكاً له تعالى أو عن إشراكهم(1).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ ۞ أَأَنْتُم تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۞ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنْتُم تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُم الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنْ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُم النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۞ أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ۞ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾ [سورة الواقعة، الآيات 58-73].

والأسلوب القرآني في هذه الآيات يوظف دلالات ومعاني الالتزام والتبكيت في خطابه للكفرة، فقوله ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ﴾ أي تقذفون في الأرحام من النطف ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ أي تقدرونه وتصورونه بشراً سوياً، ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ من غير دخل شيء فيه؛ قيل: إن "أم" في الآية منقطعة، وهي بمعنى "بل" أي أنحن الخالقون؟ أي على سياق الاستفهام للتقرير، وقيل: "أم" متصلة ومجيء ﴿الْخَالِقُونَ﴾ بعد ﴿نَحْنُ﴾ بطريق التأكيد لا بطريق الخبرية أصالة، وهذا ما يخص خلق الإنسان، وقد تحدى القرآن المعاندين الذي أشركوا مع الله، وأبطل مزاعمهم، وقوله ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ﴾ أي تبذرون حبه وتعملون في أرضه ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أي تنبتونه نباتاً، ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ أي المنبتون

(1) ينظر: الكشاف: 155/3. وإرشاد العقل السليم: 293/5.

لا أنتم، ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أي هشيماً متكسراً متفتتاً بعدما أنبتناه وصار بحيث طعمتم في حيازة غلاله، ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون من سوء حاله إثر ما شاهدتموه على أحسن حال يكون، أو تندمون على ما تعبتم فيه وانتفعتم عليه، ثم يأتي السياق القرآني في الإخبار عن المطر وكيف أنزله الله عذباً فراتاً، وخص الشرب، لأنه أتم المقاصد المنوطة به، وقوله ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ له بقدرتنا، ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ أي ملحاً زعافاً لا يمكن شربه، وما في السياق القرآني بذكر النار في قوله ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي تقدحونها من الزناد، ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ لها بقدرتنا، والتعبير خلقها بالإنشاء المبني عن بديع الصنع المعرب عن كمال القدرة والحكمة[1]، فالأسلوب القرآني في عرضه لهذه المعاني يصحح مفهوم الاعتقاد عند الناس للتفكر والتأمل فيما حولهم لإقامة العقيدة الحق والإيمان بالله الواحد الأحد.

---

(1) ينظر: الكشاف: 57/4. ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: 218/4. وإرشاد العقل السليم: 198/8.

المطلب الرابع: مطابقة الحقائق العلمية لما جاء في القرآن

القرآن ليس كتاباً يبحث في جزئيات العلم الكثيرة والمتفرعة، ولكنه يشير إشارات لطيفة في سياق التوجيه لإقامة الدليل والبرهان على الخالق العظيم، والقرآن كتاب هداية، جاء ليقيم الحجة على الناس، وليعرفهم عقيدتهم ودينهم، والقرآن عندما يلمح لمثل هذه الحقيقة العلمية يعرضها بصورة بعيدة عن التقنيات اللفظية لهذا العلم أو ذاك؛ فهو يعرض الموضوع بشكل يثير الدهشة لدى المتلقي، وعلى وجه الخصوص عندما يلاحظ هذه المطابقة بين القرآن والحقائق العلمية والأسلوب القرآني في عرضه للآيات يجعل المتلقي متشوقاً لمعرفة المقاصد والمرامي، ويدرك فهم هذه الإشارة أو تلك، وهذا الكلام الذي يعني بالقرآن من الناحية العلمية يأتي للاستئناس، وأما التأويل لبعض الآيات التي جاء بها القرآن مستساغة من حيث العرض والدقة فيه، وتعميق معنى هذه الإشارات التي اكتشفت حديثاً، حيث أصبح المهتمون به في الآونة الأخيرة كثراً، وليس من ضير في تفسير الآيات التي تخص هذا المعنى إذا توفرت فيها شروط التفسير، راجعاً إلى ما كتبه العلماء عن هذه الشروط، بحيث لا تلوى أعناق النصوص لهذا الغرض أو ذاك، وإشارة إلى الأحكام والإتقان لهذا الكون، لا بد من الإشارة إلى بعض من هذه الإشارات كونها من الأدلة التي تشير إلى أن الله قد أتقن كل شيء صنعه، فإنه لا خلل ولا ارتجاف في ميزات خلقه سبحانه فإنه سائر وفق السنن الكونية التي وضعت بنظام دقيق بأمر خالق مبدع مختار.

فإن علماء الفلك يؤكدون من خلال البحوث والدراسات التي أقيمت في هذا الشأن أن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار والمحيطات في سائر المعمورة، وهذا تقريب؛ فمنها ما هو أكبر بقليل من الأرض وأكثرها أكبر من الأرض بملايين المرات، وهناك أعداد كبيرة تتحرك بسرعة خارقة، وبعضها يواصل رحلته وحده، منها ما يسير مثنى مثنى، ومنها ما يتحرك على شكل مجموعات، وهذه الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى، ويتألف هذا الكون الذي نعيش فيه من مجموعات كثيرة من الكواكب والنجوم وتسمى "مجاميع النجوم"، وكلها في حركة دائبة دائمة، وقد ذكر علماء الفلك أرقاماً هائلة في بعدها عن بعضها وفي سرعة حركتها ودورانها، وأقرب كوكب إلى الأرض يبعد حوالي (240) ألف ميل، وهو يدور حول الأرض ويكمل دورته في مدة تستغرق تسعة

وعشرين ونصف يوم، وتبعد الشمس من الأرض (93000000) ميلاً، وهي تدور بسرعة (1000) ألف ميل في الساعة في دائرة قطرها (190) مليون ميل، وتستكمل هذه الدورة مرة واحدة في سنة كاملة، وتوجد كواكب أخرى تدور مع الأرض حول الشمس بسرعة فائقة، ويؤكد العلماء أن هذا الكون فضلاً عن احتوائه على أعداد هائلة من "مجاميع النجوم" يتسع من كل جوانبه كالبالون المتخذ من المطاط حين ينفخ فيه الأطفال(1)، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [سورة الذاريات، الآية 47].

والشمس وهي تدور حول نفسها على الحاشية الخارجية للمجرة، وهي تتباعد عن هذه الحاشية الخارجية بمقدار (12) ميلاً في كل ثانية، وتتبعها في هذه العملية كل النجوم الداخلية في النظام الشمسي، وهكذا تسير جميع السيارات إلى جانب أو آخر مع دورانها الخاص طبقاً لنظامها الخاص لا تحيد عنه ولا تتصادم مع بعضها بعضاً على الرغم من سرعتها الهائلة، فمنها ما يسير (80) ميلاً في الثانية، ومنها (33) ميلاً في الثانية، وحركة الأرض حول الشمس منضبطة تمام الانضباط بحيث لا يمكن أن يحدث أدنى تغيير في سرعة دورانها، وأما القمر فإنه يتبع حركة الأرض ويدور في فلك مقرر ومنضبط مع تفاوت يسير جداً بعد كل ثمانية عشر عاماً ونصف العام بدقة عالية، وتلك هي حالة جميع الأجرام السماوية، وتؤكد الدراسات الفلكية أن مجرات النجوم يتداخل بعضها ببعض فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة في مجرة أخرى، ثم تخرج منها بسياراتها من تلك المجرة دون حدوث أي تصادم بين سيارات المجرتين(2)، فسبحان من قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس، الآيات 38-40].

فإن هذا النظام العجيب الموجود في العوالم الكبرى هو نفسه في عالم الذرة بصورته الكاملة، وهو العالم الصغير بالنسبة لنا، مع عجزنا عن مشاهدة فضاء "النظام الضوئي"

---

(1) ينظر: الإسلام يتحدى: 148. والتفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن، حنفي أحمد، دار المعارف – مصر: 56-62. وينظر: أصول الدين الإسلامي: 88-90.

(2) ينظر: الإسلام يتحدى: 59. والتفسير العلمي للآيات الكونية: 67-68. وأصول الدين الإسلامي: 90.

لصغر حجمه المتناهي، فهي تحتوي على نظام الــدوران العجيــب الموجــود في النظــام الشمسي، ويتمثل في دوران الألكترون الجزئي السلبي في الذرة حول بروتــون الجزئــي الإيجابي منها، فهذه الروعة من بناء الله تعالى في نظام الذرة ومدارها، وكيف جعلها الله في نظام مع المجموعة الشمسية في دورانها الذي لا يمكن أن يتصور ولا في الخيال !!!

إنه إتقان الصنع من صانع مريد قادر على كل شيء، وهذه الصورة توضح عظمتــه سبحانه، والمطلع على ما كتبه العلماء حول الأرض وما فيها من دلائل الترتيب والإتقــان والاتزان التي لها حتى صلحت للحياة، فضلاً عما فيها من جماد وأنهــار وبحــار ونبــات وحيوان وإنسان ومخلوقات أخرى تدعو إلى العجب العجاب، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّــةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 38].

والأرض وما فيها على ضخامتها إنما هي ذرة تسبح في هذا الفضاء الواسع والهائــل، وتجدر الإشارة إلى تكوين الأرض، فقد كشف العلم عن معلومات متعلقة بمقدار حجمها وكثافتها وبعدها عن الشمس ودوراتها المتعددة وسرعة هــذه الــدورات، وأوضــاعها المختلفة، فلو كان حجمها أكبر مما هو عليه أو أصغر، أو كانت كثافتها أكثــر أو أقــل لاختل أمر الحياة؛ لأن الله تبارك وتعالى جعل حجمها متناسباً مع سرعتها، ودورتها وثقلها متناسباً مع قوة جذبها، فلو زاد الحجم أو نقص لتغيرت السرعة والمدة، ولو قل جذبها قل منها الأوكسجين، ولو كان حجمها كحجم القمر مثلاً لقلت جاذبيتها، فلا تمسك مــاء ولا هواء، ويترتب على ذلك اشتداد البرودة ليلاً حتى يتجمد كل شيء، واشتداد الحرارة نهاراً حتى يحترق ما عليها، وعلى العكس لو تضاعف حجمها فصار مثل الــشمس مــثلاً لبلغت جاذبيتها مئة وخمسين، ولاقترب غلافها الهوائي حتى يصير منها على بعــد أربعــة أميال فقط بدل خمس مئة ميل، ولارتفع الضغط الجوي إلى معدل (طن واحد على كــل بوصة) وذلك يؤدي الى استحالة الحياة ونشوء الأحياء، ولولا الدورة اليومية لما كان هناك ليل ولا نهار، وزيادة سرعتها حول نفسها (ألف ميل في الساعة) أو لو قلت فكانت (مئة ميل في الساعة) لأصبح طول النهار (مئة وعشرين) ساعة، ولاحترقت زروعها في لهيــب النهار، وذوت في زمهرير الليل، واختل ميزان العمل في النهار والراحة والنوم في الليل[1].

---

(1) ينظر: الإسلام يتحدى: 149-150.

ولو كانت الأرض غير مائلة في دورانها حول الشمس في مدارها (قدرها العلماء بثلاثة وعشرين درجة) لتعطلت الفصول الأربعة المتنقلة على الأرض، ولأصبح وسط الأرض صحراء تحترق صيفاً دائماً، وأصبح شمالها وجنوبها تحت ركام الثلج، ولو زادت درجة ميلها عند الدوران عما هي عليه لأصبحت المنطقتان المعتدلتان كالقطبين، إما ليل طويل وشتاء طويل، أو في نهار طويل وصيف طويل فدرجة ميلها هي درجة محكمة لهذا التنظيم تتناسب معه، وقد أودع الله فيها ما يصلح الحياة من نبات على اختلاف أشكالها وألوانها وفصائلها وماء بخصائصه المتنوعة التي كشف العلم عنها، وقد جعله الله أصلاً للحياة وضرورة من ضرورات استمرارها والحفاظ عليها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 30].

وقد أودع الله أسراره العظيمة في الإنسان والحيوان والنبات؛ فلو التفت الإنسان إلى نفسه وتأمل أعضاءه وخلاياه وما بينهما من تناسق وتكامل، كما بينته الآيات الكريمة لأدرك دقة التقدير وإحكام التدبير مالا ينقضي منه العجب[1].

وهذه الأدلة من أكثر الأدلة التي ركز عليها علماء الإسلام في التأكيد لوجوده سبحانه وتفرده في الخلق والإيجاد، فهو الواحد الذي لا شريك له يقول الكندي (ت 339هـ): "إن في نظم هذا العالم وترتيبه وفعل بعضه في بعض وانقياد بعضه لبعض وتسخير بعضه لبعض وإتقان هيئته على الأمر الأصلح في كون كل كائن، وفساد كل فاسد، وثبات كل ثابت، وزوال كل زائل، لأعظم دلالة على أرقى تدبير ومع كل تدبير مدبر، وعلى أحكم حكمة ومع كل حكمة حكيم"[2].

---

(1) ينظر: الجواب الإلهي: 90. العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث، د. سعد الدين صالح، دار الصفا- القاهرة، ط2، 1411هـ-1991م: 136. وينظر: العلم يدعو إلى الإيمان، كريسي مورسون، ترجمة: محمد صالح الفلكي، ط4: 55. وينظر الأدلة على وجود الله، متولي شعراوي، المكتبة القيمة- القاهرة: 27، وينظر: في الوجود الإلهي، د. عبد العال أحمد عبد العال، بحث منشور في مجلة الدراسات الإسلامية، المعهد العالي الإسلامي، 1413هـ- 1993م: 117.

(2) ينظر: رسائل الكندي الفلسفية: 215/1. وينظر: القرآن والنظر العقلي: 167.

المطلب الخامس:

الأسلوب القرآني في بيان معنى التوحيد والوحدانية

الوحدة: كون الشيء بحيث لا ينقسم، وتتنوع أنواعاً خص الاصطلاح كل نوع منها باسم تسهيلاً للتعبير، وهي في النوع مماثلة، وفي الجنس مشاكلة، وفي الكيف مشابهة، وفي الكم مساواة، وفي الوضع موازاة ومحاذاة، وفي الأطراف مطابقة، وفي النسبة مناسبة، وتطلق ويراد بها عدم التجزئة والانقسام، ويكثر إطلاق الواحد بهذا المعنى، وقد تطلق بإزاء التعدد والكثرة ويكثر إطلاق الأحد والفرد بهذا المعنى، وحدة الباري وحدة، ذاته والواحد معنيان، أحدهما: ما قامت به الوحدة، وهو كون الشيء بحيث لا ينقسم إلى أمور متشاركة في الماهية، ويقابلها الكثيرة، والواحد بهذا المعنى لا ينقسم ولا يتجزأ، وهو الواحد الحقيقي، ويوصف به البسيط في أحد معنييه، كالجوهر الفرد عند الأشعرية، والنقطة عند المهندسين، والجوهر المفارق عند الحكماء، والثاني ما لا نظير له في ذاته، ولا شبيه له في أفعاله، وصفاته، وليس في الوجود من يتصف بالمعنيين سوى الله تعالى، لأن ما لا يتجزأ من الموجودات كالجوهر الفرد، ينضم إلى مثله وأمثاله، وما لا نظير له منها كالعرش والكرسي، وكل ما انحصر نوعه في شخصه، كالشمس والقمر، فإثبات النظر له ممكن، والباري سبحانه يستحيل عليه التجزئة والانقسام، فلا مثل له ولا نظير ولا شبيه، شهدت به الأدلة القطعية[1].

والتوحيد هو الحكم بأن الشيء واحد، والعلم بأنه واحد، قال صاحب القاموس: التوحيد: الإيمان بالله وحده، والله الأوحد والمتوحد، ذو الوحدانية[2]، والوحدانية: بفتح الواو مصدر بمعنى الوحدة، وقيل: نسبة إلى الحدة، التاء فيها للتأنيث اللفظي، والألف والنون زائدتان، للتأكيد أو للمبالغة، والياء للنسبة للوحدة، ونظير ذلك، ربانيته، وروحانيته، وجسمانيته في النسبة إلى الرب والروح والجسم، لا على الآخر طريق تعلق قدرته به، فلا يقدر على مخالفته، وهذا عجز، وهذا يسمى "برهان التوارد" لما فيه من تواردهما على أثر واحد.

---

(1) ينظر: الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت 1094هـ)، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، موسسة الرسالة، ط2، 1419هـ-1998م: 910.

(2) ينظر: القاموس المحيط: 344/1، مادة (وحدّ).

برهان التمانع

وإن اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد العالم، والآخر إعدامه، فلا جائز أن ينفذ مرادهما، لئلا يلزم منه اجتماع الضدين، ولا جائز أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، وثم دليل الوحدانية، وهذا يسمى "برهان التمانع" لتمانعهما وتخالفهما.

وقد استنبط العلماء هذا الدليل من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1] [سورة الأنبياء، الآية 80]، ودلالة الآية الكريمة تشير إلى أن لو كان فيهما جنس[2] الآلهة غير الله لم توجد، لكن عدم وجودهما باطل لمشاهدة وجودهما، فبطل ما أدى إليه، وهو وجود جنس الآلهة غير الله، فثبت أن الله واحد، وهو المطلوب، فليس المحال الجمع فقط، بل المحال جنس الآلهة غير الله و"إلا" في سياق الآية اسم لمعنى "غير" وليست أداة استثناء لفساد المعنى حينئذ، لأن المعنى: "لو كان فيهما آلهة ليس فيهم الله لفسدتا"؛ فيقتضي بمفهومه أنه لو كان فيها آلهة فيهم الله لم تفسدا، وهو باطل، والمراد بالفساد عدم الوجود، والظاهر أن الآية حجة صعبة، وهو التحقيق.

وقد ذهب الباجوري في تحفته إلى مخالفة السعد التفتازاني من أنها حجة إقناعية؛ أي يقنع بها الخصم[3].

والوحدانية لها ثلاثة معان:

أولاً– وحدة الذات: ويراد منها نفي الكم المتصل؛ وهو تركيب الذات من أجزاء، والكم المنفصل، وهو وجود ذات تشبه ذاته سبحانه وتعالى؛ أي وجود المماثلة في الذات.

ثانياً– وحدة الصفات: وتنفي عن الصفات الكم المتصل، وهو التعدد في صفاته من جنس واحد كقدرتين أو إرادتين فأكثر، والكم المنفصل وهو أن يكون لغير الله صفة تشبه صفته تعالى كقدرة مثل قدرته.

---

(1) ينظر: نهاية الإقدام في علم الكلام، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: الفر جيوم، مكتبة زهران: 92. وينظر: معالم أصول الدين، فخر الدين الرازي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية: 75. وينظر: المواقف: 279.

(2) ينظر: أصول الدين: 85.

(3) ينظر التمهيد: 46. وشرح الأصول الخمسة: 278. وأصول الدين: 85. والإرشاد: 53. ومحصل أفكار المتقدمين: 193. وطوالع الأنوار عن مطالع الأنظار، ناصر الدين البيضاوي (681هـ)، تحقيق: عباس سليمان، المكتبة الأزهرية– القاهرة، ط1، 1411هـ–1991م. وتحفة المريد: 59. والعقائد الإسلامية في ضوء العلم والعقل والوحي: 43.

ثالثاً– وحدة الأفعال: وهي تنفي الكم المنفصل، وهو عدم المشارك له فيها أو وجود فعل يماثل فعله تعالى[1].

وأما مدرسة ابن تيمية (ت 728هـ) فإنهم يذهبون في تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام غير ما ذكر آنفاً، هي:

أولاً: توحيد الألوهية: ومعناه: إفراد الله بجميع أنواع العبادة مثل ما تضمنته الآيات: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ ۞ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون].

ثانياً: توحيد الربوبية: ومعناه: اعتقاد أن الله سبحانه خالق للسماوات والأرض ومن فيهن، ومالك لأمرهما، فهو رب العالمين، ومليكهم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [سورة الرعد، الآية 16].

ثالثاً: توحيد الأسماء والصفات: ومعناه الإيمان بجميع الصفات التي وصف الله بها نفسه من غير تأويل أو تشبيه، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 180]. ويرون أن وحدة الألوهية متضمنة لوحدة الربوبية دون العكس، وحجتهم أن من لا يقدر على الخلق يكون عاجزاً، والعاجز لا يكون إلهاً، قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 191]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ﴾ [سورة النحل، الآية 17][2].

ويرى صاحب كتاب تفسير آيات العقيدة، أنه لا فرق بين الاتجاهين في تفسير المقصود بالوحدانية المتمثلة بالمدرسة الكلامية والمدرسة السلفية المتمثلة بابن تيمية رحمه الله ومن جاء بعده، ويرون أنهم يمثلون منهج السلف في قضايا العقيدة[3]، وهذا الجمع بين

---

(1) ينظر: حاشية الدسوقي على أم البراهين: 89 – 90. وينظر: تحفة المريد على جوهرة التوحيد: 89.

(2) ينظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، حافظ بن أحمد الحكمي، ط1، 1377هـ– 1957م: 54/1. ولمحات من الفكر الكلامي: 138. ومنهج القرآن الكريم في الدعوة إلى التوحيد، أحمد حسن، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية: 83. والعقيدة في القرآن، د. عبد السلام ألتونجي، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ط1، 1395هـ– 1976م: 184.

(3) ينظر: تفسير آيات العقيدة: 138.

المدرستين لا بأس به حيث إنهم يستندون في تأصيل قضايا العقيدة إلى الكتاب والسنة إلا أن هناك خلافاً في الطرح والمنهجية مع وحدة الهدف، في تنزيهه سبحانه، عن التعطيل والتشبيه، وهو المراد.

وقد عرض الأسلوب القرآني قضية التوحيد والوحدانية من خلال توظيفه للمعاني في سياق الآيات القرآنية وعلى ثلاثة أنواع هي: الآيات المثبتة للوحدانية، والآيات التي تتحدث عن نفي الشريك، والآيات التي تتحدث عن نفي الولد والصاحبة.

أولاً- الآيات المثبتة للوحدانية

وقد جاءت في سياق آيات كثيرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران، الآية 18].

الشهادة: حقيقتها خبر يصدق به خبر مخبر، وقد يكذب به خبر آخر. وإذ قد كان شأنه للتصديق والتكذيب في الحقوق كان مظنة اهتمام المخبر به، والتثبت فيه، فلذلك أطلق مجازاً على الخبر الذي لا ينبغي أن يشك فيه، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [سورة المنافقون، الآية 1]، وذلك على سبيل المجاز المرسل بعلاقة التلازم، فشهادة الله، تحقيقه ووحدانيته بالدلائل التي نصبها على ذلك، وشهادة الملائكة بتحقيقهم ذلك فيما بينهم وتبليغ بعضهم ذلك إلى الرسل، وشهادة أولي العلم تحقيقهم ذلك بالحجج والأدلة، وإطلاق الشهادة على هذه الأخبار بالأخبار أو المخبر بالمخبر، وشهد بمعنى: بين وأقام الأدلة؛ شبه إقامة الأدلة على وحدانيته في إيجاد المخلوقات ونصب الأدلة العقلية بشهادة الشاهد بتصديق الدعوة في البيان والكشف على طريق الاستعارة، بين ذلك الملائكة بما نزلوا به من الوحي على الرسل وما نطقوا به من المحامد، وشهادة الله بمعنى الدلالة ونصب الأدلة، وشهادة الملائكة وأولو العلم بمعنى آخر؛ وهو الإقرار، وقوله: ﴿قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾؛ أي شهد بوحدانيته وقيامه بالعدل، وتمجيد وتصديق نشأ عن شهادة الموجودات بذلك، فهو تلقين الإقرار[1].

(1) ينظر: التحرير والتنوير: 186/3. وأولى ما قيل في آيات التنزيل: 12/2.

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [سورة النحل، الآية 2] ودلالة الآية الكريمة تشير إلى أن دعوة الرسل قد قامت على أساس التوحيد وتنزيه الله من الشركاء والأنداد، فإن عقائد الناس قد التبست بباطل الشرك، وعبادة الأنداد، وقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾؛ أي بالوحي والقرآن فإنه به تحيى القلوب الميتة بالجهل، ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾؛ أي: من أمره أو من أجله، ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ أي الأنبياء والرسل، ﴿أَنْ أَنذِرُوا﴾؛ أي أعلموا، وهو من: نذرت بكذا: علمته، ﴿أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أن الشأن لا إله إلا أنا فاتقون؛ أي خوفوا أهل الكفر والمعاصي بأنه لا إله إلا أنا، وأن حاصله التوحيد الذي هو منتهى كمال القوة العلمية، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى الكمالات العملية، وأن النبوة عطائية، والآيات التي يعدها دليل وحدانية من حيث إنها تدل على أنه تعالى الموجد لأصول العالم وفروعه، على وفق الحكمة والمصلحة، ولو كان له شريك لقدر على ذلك فيلزم التمانع[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 25] فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإن ذكر من قبلك من حيث إنه خبر لاسم الإشارة فخصوص بالموجود بين أظهرهم؛ وهي الكتب الثلاثة[2].

ثانياً – نفي الشريك

والآيات التي تتحدث عن نفي الشريك كثيرة في القرآن الكريم[3]، وقد عرضها الأسلوب القرآني في الإشارة إلى التوحيد والعقيدة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ [سورة النساء، الآية 48]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ [سورة النساء، الآية 116].

---

(1) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 548/1. ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: 280/2.
(2) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 70/2.
(3) ينظر: الآية 100 من سورة الأنعام، والآية 22 من سورة الإسراء.

الآيتان تشيران إلى عدم الغفران لمن يموت على الشرك، فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ كلام مستأنف لما قبله من الوعيد، وتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان ببيان استحالة المغفرة بدونه، والمراد بالشرك في الآيتين مطلق الكفر، المنتظم لكفر اليهود والنصارى انتظاماً أولياً، فإن الشرع قد نص على إشراك أهل الكتاب قاطبة، وقضى بخلود الكفرة في النار، و﴿يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ عطف على خبر "إن"، وذلك إشارة إلى الشرك وما فيه من معنى البعد مع قربه في الذكر، للإيذان ببعد درجته، وكونه في أقصى درجات القبح؛ أي ويغفر ما دونه في القبح من المعاصي صغيرة أو كبيرة، ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي لمن يشاء أن يغفر له ممن اتصف به فقط، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾، وقد أظهر الأسلوب القرآني لفظ الجلالة (الله) في موضع الإظهار والأصل فيه أن يكون مضمراً لزيادة تقبيح الإشراك، وتفظيع حال من يتصف به، ﴿فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾؛ أي افترى واختلف، وارتكب إثماً لا يقدر قدره، ويستحقر دونه جميع الآثام، فلا تتعلق به المغفرة قطعاً، وأما قوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾؛ أي ضل عن الحق، فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة كما أنه افتراء وإثم عظيم[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَد وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَه إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَه بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض سُبْحَانَ اللَّه عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 91]، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ۝ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾[سورة الإسراء،الآيتان42- 43].

يقول صاحب كتاب حجج القرآن في باب حجج أهل التوحيد على وحدانية الله تعالى: "إن الملوك إذا تزاحموا في الملك تخاصموا، يقصد كل واحد منهم صاحبه الذي ينازعه، فيمانعه ويدافعه، فلو كان مع الله آلهة بزعمكم لقصدوه قبيلاً قبيلاً، ولطلبوا إلى ذي العرش سبيلاً، تعالى الله عن ذلك علواً عظيماً جليلاً، وعلى هذا يكون المعنى في الآيتين الكريمتين"[2]؛ فإن دلالة المعاني فيهما تدلان وبصورة واضحة جلية على وحدانية الله، وأنه لا شريك له في ملكه، وان الملك والتصريف في هذا الملك له وحده.

---

(1) ينظر: إرشاد العقل السليم: 187/2.

(2) حجج القرآن: أبو الفضائل أحمد بن محمد بن المظفر الرازي الحنفي، دار الرائد – بيروت، ط2، 1402هـ- 1982م: 12.

ثالثاً: نفي الولد والصاحبة

وظف الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة الكثير من الآيات التي تدل سياقات المعاني فيها على نفي الولد والصاحبة عن الله سبحانه وتعالى، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [سورة النساء، الآية 171].

فدلالة المعاني في الآية الكريمة تشير إلى نفي الولد والصاحبة عن الله سبحانه، والخطاب في الآية موجه لأهل الكتاب من النصارى في عدم تجاوز الحد في أمر الدين، وهو إفراطهم في شأن المسيح، وادّعائهم ألوهيته ووصفه بالصفات الإلهية، وقوله: ﴿وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَ الْحَقَّ﴾؛ أي لا تصفوا الله بما لا يليق من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد، فإن المسيح إنما هو رسول من رسل الله، وليس ابن إله كما زعمتم، بل هو كلمته ألقاها إلى مريم، وقد خلق بكلمته تعالى "كن" بغير واسطة أب ولا نطفة، بل هو ذو روح مبتدئة من الله، وهو أثر نفخة جبريل في صدر مريم، حيث حملت بتلك النفخة بعيسى، وإضافة الروح إليه سبحانه إضافة تشريف وتكريم، ثم أمرهم بالإيمان بوحدانيته، ونهاهم عن التثليث، وهو قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾ والمقصود بالثلاثة: "الله، المسيح، مريم" أو "الله ثلاثة، أي الأب، والابن، وروح القدس" فأمرهم بالتوحيد لأن الإله منزه عن التركيب، وقصر التوحيد عليه سبحانه بقول ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ونفى عنه الولد[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً﴾ [سورة الجن، الآية 3] والمعاني في الآية تظهر توحيد الله سبحانه عن طريق نفي الصاحبة والولد عنه، والكلام صادر عن لسان الجن، والتعالي في الآية يعني شدة العلو، فقد جعل الأسلوب القرآني شدة العلو كالمتكلف في العلو، لخروج علوه على غالب ما تعارفه الناس فأشبه التكلف، والجد (بفتح الجيم) هي العظمة والجلال، وهذا تمهيد وتوطئة لقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ

(1) ينظر: صفوة التفاسير: 409/1.

صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً﴾، لأن اتخاذ الصاحبة للافتقار إليها لأنسها وعونها، والالتذاذ بصحبتها، دال كذلك من آثار الاحتياج، والله تعالى الغني المطلق، وتعالى جده بغناه المطلق، والولد يرغب فيه للاستعانة والإنس به، مع ما يقتضيه من انفصاله من أجزاء والديه، وكل ذلك من الافتقار والانتقاص، وأما الاقتصار في بيان قوله: ﴿تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ على انتفاء الصاحبة عنه والولد، ينبئ بأنه كان شائعاً في علم الجن ما كان يعتقده المشركون أن الملائكة بنات الله، واعتقاد المشركين هذا ناشئ عن تلقين الشيطان، وهو من الجن، ولأن ذلك مما سمعوه من القرآن[1] مثل قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [سورة الأنعام، الآية 101].

وقد جمعت سورة الإخلاص هذه المعاني؛ أي إثبات الوحدانية، ونفي الشريك والولد، والصاحبة، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾.

ومن أهم أغراض هذه السورة المباركة إثبات وحدانية الله تعالى وأنه لا يقصد في الحوائج غيره، وتنزيهه عن صفات المحدثات وإبطال أن يكون له ابن، وإبطال المولود أن يكون إلهاً، وقد استنتج الأسلوب القرآني الآية بفعل الأمر "قل" لإفادة إظهار العناية بما بعد فعل القول بأنه كلام يراد إبلاغه للناس بوجه خاص منصوص فيه على أنه مرسل بقول يبلغه، وصغير الشأن لإفادة الاهتمام بالجملة بعده وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ اسم بمعنى واحد[2]، وقد فرق الإمام الغزالي بين الواحد والأحد معقباً على قوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الرحمن الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة، الآية 163] فقال: يقال: الإنسان شخص واحد، وصنف واحد، والمراد به أنه جملة واحدة، ثم يقول: ويقال: ألف واحد، فالواحد المشار إليه من طريق العقل والحس هو الذي يمتنع مفهومه عن وقوع الشركة فيه، والأحد هو الذي لا تركيب فيه ولا جزء له بوجه من الوجوه، فالواحد نفي الشريك والمثل، والأحد نفي الكثرة في ذاته، وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، الصمد الغني المحتاج إليه غيره، وهذا دليل على أنه أحدي الذات، وواحد لأنه لو كان له شريك في ملكه لما كان صمداً غنياً يحتاج إلى شريكه في المشاركة أو التثنية، ولو كان له

---

(1) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 428/4. وينظر: التحرير والتنوير: 222/29.

(2) ينظر: التحرير والتنوير: 612/30. وأولى ما قيل في آيات التنـزيل: 270/9.

أجزاء تركيب واحد لما كان صمداً يحتاج إليه غيره بل هو محتاج في قوامه ووجـــوده إلى أجزاء تركيبه وحده، فالصمدية دليل على الوحدانية والأحدية[1].

قال صاحب نظم الدرر: إن الأحد من النعوت المتوغلة في الـــسلب تعقيبـــاً علـــى السورة، ولما تعلم بيان هويته سبحانه على هذا الوجه أنهاه بالأحدية المعلمة بالتنـــزه عـــن القسمة والنظير[2].

(1) ينظر: جواهر القرآن: 55.
(2) نظم الدرر: 588/8.

المبحث الثالث

تعظيم الخالق بأسمائه وصفاته طريق إلى عبوديته

يشتمل على تمهيد وخمسة عشر مطلباً:

تمهيد

تتجلى عظمة الله سبحانه في خلقه، فهذا الكون جميعه جاء على وفق نظام دقيق، كل شيء فيه قد حسب حسابه، ففيه ظهرت ظاهرة العمل المتقن التي تدل على إبداع الصانع، فالسماوات والأرض وما فيهن جاء تكوينهم بدقة متناهية، وكأن الحاسب أحصاها، والمهندس وضعها وفق معايير لا تخطئ ومقاييس لا تقبل إلا هي، وهذا النسق في الأبعاد والمسافات، وهذه الحركة اللائبة الدائمة بحيث يرى الرائي هذه النجوم مسمرة بالسماء وهي تتحرك حول نفسها، وآخر تحركها في المجرة، بحيث لا يطغى أحدها على الآخر، وأما زمنها ففوق الخيال مع أنه حقيقة لا تشوبها شائبة ولا يعتريها ضعف، لا تتصادم بل تجري وفق سنن قد سنها قادر مختار ويحكمها قوانين هائلة في نظامها حجماً ومساحة ومسافة، لا تفتر حركتها ولا يتوقف سيرها، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس، الآيات 38-40].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية 88].

وهذه الصورة العجيبة المذهلة ترى الجبال شاخصة أمام الناظر كظاهرة فيها من الدقة وإبداع الصنع ما يجعلك -أيها الإنسان- تقف مبهوتاً أمام هذه العظمة في الخلق والإيجاد، فهل يمكن أن يخطر ببال أحد أن هذه العظمة في الصنع تأتي من فراغ أو بمجرد صدفة أو خلق الطبيعة نفسها؟!

فإنه لا يمكن لعاقل أن يقبل هذا فظاهر هذا العمل الكبير الضخم يتطلب قدرة عظيمة تدل بداهة على أن من قام بهذا العمل الكبير والمتناسق، والذي لا نرى فيه تفاوتاً، ولا فواصل مخلة بدقته وجماله وكمال صنعته، فالذي قام بهذا العمل الهائل لا بد أن تكون لديه قدرة هائلة تكفي للقيام به، ولا بد أن يتصف بصفات العظمة والاقتدار اللامحدودة، بحيث يقدر على كل شيء يوجد من العدم ويجوز له عمل كل شيء يليق بعظمته وكبريائه، قال تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 54].

فهذا الخلق هو أثر من خلق الله، وهو دليل صريح عليه، والكون يدل علـــى هيئتـــه الموجد وكبريائه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَـــهُ كُـــنْ فَيَكُـــونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يس، الآيات 82-83].

والأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة وتوحيد الخالق قد نعت الله ســـبحانه وتعـــالى بنعوت الجلال والجمال والعز والكمال، والقدرة والقوة والكبرياء والعظمة، قال تعـــالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [سورة الرعد، الآية 9].

فالله وحده هو المستحق للعبادة والثناء والتسبيح والتبجيل ولا يستعان إلا بـــه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يلجأ إلا إليه فإنه الواحد الأحد.

حفل القرآن الكريم بذكر صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، وصفات الله هي صفات الكمال المطلق، وأسماؤه عظيمة جليلة فهي تدل على عظيم جليل، وسنبين في مبحثنا هذا هذه الصفات ومتعلق أسمائها، وكيف وظفها الأسلوب القرآني في التدليل علـــى العقيـــدة والتوحيد.

المطلب الأول: صفة الوجود والأسماء التي تتحقق بها

صفة الوجود: إن كل ما في هذا الوجود يدل على وجوب وجود الخالق، وقد فاقت الأدلة والبراهين على ذلك بالبداهة والعقل، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 14]، وقال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [سورة إبراهيم، الآية 10].

والوجود: نقيض العدم وإدراك معناه من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى بيان لأن كل ذي إدراك يدرك وجود نفسه كما يدرك انعدام كثير من الأشياء غير الموجودة[1].

الأسماء الحسنى التي تتحقق بها صفة الوجود

أولاً – الحق ومعناه الحكم الثابت: أي الواجب الذي لا شك فيه وهو ضد الباطل، ومعنى كونه سبحانه حقا بمعنى أنه المتحقق الثابت أزلاً وأبداً، قال تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [سورة يونس، الآية 32]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 116].

الشاهد في آية سورة يونس قوله: ﴿ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ﴾ فالحق صفة له تعالى؛ أي ربكم الثابت الربوبية المتحقق الألوهية تحقيقا لا ريب فيه[2]، وأما الشاهد في آية سورة المؤمنون قوله: ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ النافذ أمره ونهيه في ملكوته وألوهيته لذاته أو الثابت في ذاته وصفاته.

ثانياً – النور أي ظاهر الوجود وظهوره بما نصبه من الدلائل على وجوده في كل شيء؛ قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [سورة النور، الآية 35].

وقد عبر الأسلوب القرآني عن المنور بنفس النور تنبيهاً على حدة التنوير، وشدة التأثير إيذاناً بأنه تعالى ظاهر بذاته، وكل ما سواه ظاهر بإظهاره، كما أن النور نير بذاته[3].

---

(1) ينظر: إرشاد العقل السليم: 142/4.
(2) ينظر: إرشاد العقل السليم: 44/6.
(3) ينظر: إرشاد العقل السليم: 175/6.

ثالثاً – الظاهر؛ أي الظاهر وجوده وكمال صفاته بما أظهر من الدلائل والبراهين في مخلوقاته على وجوده؛ قال تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد، الآية 3]، ومعنى الظاهر في الآية: الظاهر وجوده لكثرة دلائله[1].

رابعاً – الباطن؛ أي الباطن بحقيقة ذاته، فالعقول والحواس عاجزة عن إدراكه بمقتضى تكوينها، فلا تدرك حقيقته؛ قال تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد، الآية 3]، ومعنى الباطن في الآية حقيقة ذاته فلا تكتنفها العقول ولا تدركها الحواس، أو هو الغالب على كل شيء في العالم بباطنه والدوام الأولى والأخيرة للجمع بين الوصفين، والواو المتوسطة للجمع بين الوصفين[2].

(1) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 452/2. والجلالين: 452/4.
(2) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 450/2. والجلالين: 452/2.

المطلب الثاني:

صفة القدرة والأسماء الحسنى التي تتحقق بها

القدرة: الإدراك بداهة بأن الذي تصدر عنه الموجودات الكونية لا بد أن يكون ذا قوة وقدرة، وإذا لم يتصف بهما لا يمكن تصور صدور العالم عنه.

والقدرة هي: صفة وجودية من شأنها أن يكون لها أثر كإيجاد الأشياء الممكنة أو إعدامها، أو التصرف في الموجودات بجمعها أو تفريقها أو تحويلها[1]، قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الحديد، الآية 3]، أي من الإحياء والإماتة وغيرهما من كل ممكن، ومعنى قدير: أي بالغ القدرة إلى حد لا يمكن الزيادة عليه[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ [سورة الكهف، الآية 45]، أي مقتدراً أزلاً وأبداً فلا تظنوا أن ما تشاهدون من قدرته حادث[3].

والقدرة تتعلق بالممكنات، وقدرته سبحانه وتعالى ليست كقدرة البشر لأن قدرته تعالى قدرة كاملة تتعلق بجميع الممكنات غير مستمدة من شيء إذ هي من صفات الألوهية، أما قدراتنا فمحدودة ناقصة مستمدة من غيرها إذ هي من صفات المخلوقات.

الأسماء الحسنى التي يتحقق بها صفة القدرة

أولاً: القوي؛ أي ذو القوة الكاملة فلا يعجزه أمر ممكن في إيجاد أو إعدام ولا يمسه نصب ولا يلحقه ضعف، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [سورة هود، الآية 66]؛ أي وحده القوي فهو يغلب كل شيء[4].

ثانياً: المتين؛ أي ذو المتانة الكاملة، والمتانة أبلغ من مطلق القوة لأنها القوة الزائدة، والمتين هو الذي له كمال القوة التي لا تعارضها ولا تشاركها ولا تدانيها قوة كما لا

---

(1) ينظر: الاقتصاد في الاعتقاد: 44، ورسالة التوحيد، محمد عبده (ت 1323هـ)، مطبعة محمد صبيح وأولاده – الأزهر، 1385هـ/1965م: 30.

(2) ينظر: نظم الدرر: 435/7.

(3) ينظر: المصدر نفسه: 472/4.

(4) ينظر: المصدر نفسه: 551/3.

يعرض لها عجز ولا تعب قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات، الآية 58]، ومعناه: شديد القوة، وقرئ ﴿الْمَتِينِ﴾ بالجر، صفة للقوة[1].

ثالثاً: القادر؛ ومعناه ذو القوة الكاملة، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [سورة الأنعام، الآية 65]. ومعنى القادر في الآية الكريمة: هو الذي عرفتموه قادراً؛ وهو الكامل القدرة[2].

رابعاً: المقتدر؛ أي ذو القدرة الكاملة، والمقتدر أبلغ من القادر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [سورة القمر، الآية 54-55]؛ أي شامل القدرة بالغها إلى حد لا يمكن إدراكه لغيره سبحانه[3].

خامساً: الواجد؛ ومعناه ذو الجدة الكاملة، وهي الغنى لاستغنائه الكامل عن جميع خلقه فلا يحتاج إلى معين، وللواجد معنى آخر هو: القادر على التصرف بكل شيء وفق مراده لأن كل شيء حاضر لديه مملوك له، وقيل: معناه الذي لا يضل عنه شيء، ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم، ولكنه مجمع عليه[4].

سادساً:العزيز من: عز يعز عزاً، وعزة بكسرها، وعزازة: صار عزيزاً والشيء: قل فلا يكاد يوجد فهو عزيز[5]، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [سورة هود، الآية 66]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [سورة الشورى، الآية 19]، فقوله: ﴿الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾؛ أي القادر على كل شيء، الغالب عليه[6].

سابعاً- المقيت؛ وقيل: معناه: مقتدر، وقيل: حافظ وشاهد، وحقيقته قائم عليه يحفظه[7]، قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً﴾ [سورة النساء، الآية 85].

---

(1) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 424/2. والجلالين: 424/2.

(2) الكشاف: 26/2.

(3) ينظر: نظم الدرر: 369/7.

(4) ينظر: الأسماء والصفات، أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، 1992 م: 60. العقيدة الإسلامية وأسسها: 162.

(5) القاموس المحيط: 182/2 مادة (عز).

(6) ينظر: محاسن التأويل، محمد جمال القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، عيسى البابي الحلبي، ط1، 1378هـ - 1958م: 3462/9.

(7) ينظر: المفردات في غريب القرآن: 414، مادة (قوة).

ثامناً – مالك الملك: الملك؛ بضم الميم: هو التصرف بالأمر والنهي؛ فمعنى مالك الملك هو الذي تنفذ مشيئته في ملكه كيف يشاء، لا مرد لقضائه، ولا يكون ذلك إلا من كمال القوة والمتانة والعزة والغنى[1].

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [سورة آل عمران، الآية 26].

تاسعاً– الملك هو الله تعالى، ملك الملوك، وهو مالك يوم الدين، وهو مليك الخلق: أي ربهم ومالكهم والملك والمليك، والمالك: ذو الملك[2]، قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [سورة طه، الآية 114]، ويخشى وعيده، والحق في ملكوته يستحقه في ذاته[3].

عاشراً – الوارث وقد وصف الله تعالى نفسه من حيث إن الأشياء كلها صائرة إليه تعالى[4]، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [سورة الحجر، الآية 23]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [سورة مريم، الآية 40]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الحديد، الآية 10]، ومعنى ﴿الْوَارِثُونَ﴾: أي الباقون بعد فناء الخلق قاطبة، المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك[5].

---

(1) ينظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة، دار القلم – دمشق، ط2، 1985م: 163.

(2) ينظر: لسان العرب: 492/10، مادة (الملك).

(3) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 62/2.

(4) المفردات في غريب القرآن: 519 مادة (ورث).

(5) ينظر: إرشاد العقل السليم: 72/5.

المطلب الثالث: صفة الإرادة

الإرادة: صفة من شأنها تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه في العقل، كالوجود والعدم، والمادية والمعنوية، والطول والقصر، والليونة والصلابة، والقبح والجمال، والذكاء والبلادة، وهنّ متقابلات هذا التقابل يفيد بأنها متنافيات؛ فالوجود يقابله العدم، والمادة يقابلها المعنى، والطول يقابله القصر، والليونة يقابلها الصلابة، وهكذا، وهي الممكنات[1].

وأما ما ورد من آيات في إثبات هذه الصفة فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل، الآية 40]، فالآية تدل على أن تنفيذ الإيجاد لا يكون إلا بعد تخصيص الإرادة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [سورة الشورى، الآية 29]، الآية تدل على أن الجمع بقدرته لا يكون إلا بعد المشيئة، وقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [سورة البروج، الآية 16]، فالإنسان إذا لاحظ أن الله فعال لما يريد ويشاء ويختارهم ثم يراقب ذلك في نفسه باستمرار ثم يضع بين عينيه أن إرادة الله غالية، وأن مشيئة كل ذي مشيئة تابعة لمشيئته سبحانه وتعالى، وأن من يلاحظ ذلك ويراقبه في حياته يعمل دائما على أن يرضى ويحب ما أراده الله له ورضيه من غنى أو فقر، من لذة أو ألم، من سعة أو ضيق في الرزق مع سعيه في الدفع والرفع ما أمر الله أو أذن بدفعه أو رفعه، ثم يريح نفسه بالرضى عن مراد الله مع سؤاله الله حيث كان ويعلم، مع الرضى أن لا قدرة له ولا لغيره على تحقيق مراد لم يرده الله، وهنا يصل العبد إلى التسليم لأمر الله وهو بلوغ السعادة العظيمة في الدنيا والآخرة [2].

---

(1) ينظر: إتحاف المريد شرح جوهرة التوحيد، عبد السلام بن إبراهيم اللقاني، مطبعة السعادة – مصر، (د.ت): 65. وينظر: أصول الدين الإسلامي: 155. والعقيدة الإسلامية وأسسها: 167. والعقائد الإسلامية: 45.

(2) ينظر: العقيدة الإسلامية وأسسها: 167. وينظر: أصول الدين الإسلامي: 156.

المطلب الرابع:

صفة العلم وما يتحقق بها من الأسماء الحسنى

صفة العلم: صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، متعلقة بجميع الجائزات، والمستحيلات على وجه الإحاطة على ما هي به من غير سبق خفاء، فهي صفة كاشفة غير مؤثرة، فهو يعلم الأشياء أزلاً على ما هي عليه، وكونها وجدت في الماضي أو موجودة في الحال وتوجد في المستقبل، وهذه الأطوار في المعلومات لا توجب تغيراً في تعلق العلم، فالمتغير إنما هو صفة المعلوم لا تعلق للعلم لها، وعلمه سبحانه غير مكتسب، ولا من نظر واستدلال كما هو الشأن في البشر[1]، وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم وظفها الأسلوب القرآني في الإخبار عن صفة العلم لله سبحانه، فقد وصف الله نفسه بأنه عليم خبير، وبأنه محيط بكل شيء علماً، وبأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض، وبأن علمه يتناول ما كان وما هو كائن وما سيكون، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [سورة النساء، الآية 32]، وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [سورة الأعراف، الآية 89]، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة الأنعام، الآية 59].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة سبأ، الآية 3].

الأسماء الحسنى التي يتحقق بها صفة العلم

أولاً: العليم: ذو العلم الكامل، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الحجر، الآية 86] ومعناه: أن ربك هو الذي خلقهم وخلق كل شيء وهو عالم بهم وبتدبيرهم[2].

---

(1) ينظر: أصول الدين: 90. وتحفة المريد شرح جوهرة التوحيد: 83. وتفسير آيات العقيدة: 174.

(2) ينظر: جامع البيان: 51/8. والعقيدة الإسلامية وأسسها: 169.

ثانياً: اللطيف: أي ذو اللطف الكامل، واللطف: هو قوة النفوذ إلى مواطن الأشياء وخفيات الأمور مهما كانت دقيقة، فيعود بهذا المعنى إلى صفة العلم معنى أن الله لطيف؛ أي عالم بخفيات الأمور ودقائقها، لا تخفى عليه منها خافية، قال تعالى: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك، الآية 14]؛ أي اللطيف بعباده والخبير بهم بأعمالهم[1].

ثالثاً: الخبير: أي ذو الخبرة التامة، والخبرة نوع من العلم؛ وهي العلم بالخبايا الباطنة، فهو يعلم خفايا الأمور وبواطنها، فما من شيء في باطن الأرض ذرة فما دونها، ولا في السماء وما فيها إلا يعلمها، والعلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة، قال تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام، الآية 103].

فدلالة الآية تشير إلى لطف الله؛ فإن الأبصار لا تحيط به سبحانه وهو يحيط بالأبصار[2].

رابعاً: الشهيد: أي ذو الشهادة التامة لكل شيء يمكن مشاهدته، والشهادة نوع من العلم مع الحضور، فمعنى الشهيد: العالم بالأشياء علم شهود وحضور، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [سورة النساء، الآية 33]، فدلالة معنى الشهيد في الآية: أي ذو شهادة[3].

خامساً: المحاسب أخذ من "الحساب" وهو العلم بالأعداد على اختلاف أحوالها، ولذا فإنه يحاسب على كل صغيرة وكبيرة: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ [سورة النساء، الآية 86]، وقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ [سورة النساء، الآية 6].

ودلالة معنى قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ أي أن الله كان حسيباً على كل شيء مما تعملون – أيها الناس– من الأعمال في طاعته ومعصيته[4].

ودلالة معنى قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ أي كفى بالله كافياً من الشهود يشهدهم، قال السدي: حسيباً: شهيداً[5].

---

(1) ينظر: جامع البيان: 6/29.
(2) ينظر: المصدر نفسه: 299/7.
(3) ينظر: المصدر نفسه: 57/5.
(4) ينظر: المصدر نفسه: 191/5.
(5) ينظر: جامع البيان: 162/4.

سادساً: المحصي: أي المحيط بكل موجود جملة وتفصيلاً، فلا تخفى عليه ذرة من ذراته، كما لا يخفى عليه حالة من حالاته، فيرجع إلى كمال علمه تعالى وعمومه؛ أي من الإحصاء وهو الإحاطة بحساب الأشياء، وما شأنه التعداد ويرجع إلى كمال علمه تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يس، الآية 12]، ودلالة معنى الآية أن كل شيء محصى عند الله في كتاب، أو أن كل شيء أو هو كائن أحصيناه[1].

سابعاً: الواجد إذا كان من الوجدان وهو العلم أخذاً من قولهم: وجدت فلاناً فقيهاً: أي علمت كونه فقيهاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [سورة النور، الآية 39]، أي علمه، وعلى هذا يرجع هذا الاسم الى صفة العلم، وهو غير موجود في القرآن ولكنه مجمع عليه، قال الحليمي[2]: ومعنى الواجد هو الذي لا يضل عنه شيء ولا يفوته شيء[3].

ثامناً: السميع: وهو الكاشف لكل موجود يصفه السمع وكشف الأشياء بالسمع نوع من العلم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة المائدة، الآية 76]؛ أي أن الله سميع لاستغفاركم[4]، وبهذا ثبت اسم السميع له سبحانه[5].

تاسعاً: البصير: أي الكشاف لكل موجود بصفة البصر، وكشف[6]، الأشياء بالبصر نوع من العلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة غافر، الآية 20].

عاشراً: الرقيب: أي الذي يراقب الأشياء وهو عليم بها، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فيعود هذا الاسم إلى صفة العلم، قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ

---

(1) ينظر: المصدر نفسه: 155/22.
(2) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الشافعي (ت 403 هـ)، ينظر: ترجمته، سير أعلام النبلاء: 141/13.
(3) ينظر: الأسماء والصفات، 60. وينظر: العقيدة الإسلامية وأسسها: 171.
(4) ينظر: جامع البيان: 316/6.
(5) ينظر: تحفة المريد: 75.
(6) ينظر: تحفة المريد 75.

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظاً﴾ [سورة الأحزاب، الآية 52]؛ أي حافظاً مهيمناً فاحذروا مجاوزة حدوده وتخطي حلاله إلى حرمه[1].

الحادي عشر: المهيمن: إذا كانت الهيمنة بمعنى الرقابة والمشاهدة، فيكون معنى المهيمن قريباً من معنى الرقيب، ويعود إلى صفة العلم، ومن هذا المعنى ما جاء في قوله تعالى يصف القرآن: ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [سورة المائدة، الآية 48]، أي شاهداً على الكتب السابقة، وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم، قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذي لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [سورة الحشر، الآية 23][2].

الثاني عشر: الواسع إذا كان الواسع في علمه فيكون معناه العالم المحيط علمه بجميع المعلومات كلياها وجزئياها، الموجود منها والمعدوم، وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم، وقيل: المراد سعة الصفات وعظمها وأنه لا حد لكمالها تنتهي إليه[3]، قال تعالى: ﴿وَلِلَّه الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآية 115].

الثالث عشر: المؤمن إذا كان مأخوذاً من الإيمان وهو التصديق، فالمؤمن هو البالغ منتهى العلم اليقين في كل شيء، فليس لديه في أي معلوم موجود أو معدوم ظنون ولا شكوك[4]، فيعود هذا الاسم إلى صفة العلم، فالله سبحانه هو المؤمن لأنه العليم في كل شيء من حقيقته، قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذي لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ﴾ [سورة الحشر، الآية 23].

---

(1) ينظر: الإرشاد إلى قواطع أدلة الاعتقاد: 151. وإرشاد العقل السليم: 111/7.
(2) ينظر: الإرشاد إلى قواطع أدلة الاعتقاد: 127. وينظر: الأسماء والصفات: 84. والعقيدة الإسلامية وأسسها: 172.
(3) المصدر نفسه.
(4) ينظر: العقائد الإسلامية وأسسها: 173.

المطلب الخامس:

صفة الحياة والأسماء الحسنى التي تتحقق بها

صفة الحياة: صفة أزلية توجد صحة العلم والإدارة، وباقي صفات المعاني والمعنوية، وليس معنى الحياة في حقه تعالى ما يقوله الطبيعي من قوة الحس، ولا قوة التغذية، ولا قوة التابعة لاعتدال النوع، كما أن حياة الله بلا روح؛ بخلاف حياة الحادث فإنها بالروح، وضدها الموت[1].

والحياة لا تتعلق بشيء أي أمر موجود أو معدوم والمراد بالشيء هنا المعنى اللغوي الشامل للموجود والمعدوم ويصح أن يكون هنا المعنى الاصطلاحي، ويقال: إذا كانت لا تتعلق بالموجود، فأولى ألا تتعلق بالمعدوم فليست الحياة من الصفات المتعلقة لأنها صفة مصححة للإدراك أي مصححة لمن قامت به أن يتصف بصفات الإدراك ولا تقتضي أمراً زائداً على قيامها بمحلها[2]، وحياة الله أزلية أبدية خلافاً للإنسان فإن حياته لها بداية ولها نهاية، وحياة الله جل وعلا حياة صمدية مستقلة[3]، وقد وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه حي، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾ [سورة الفرقان، الآية 58].

وهناك اسم واحد ورد في القرآن الكريم يتحقق به معنى صفة الحياة لله تعالى وهذا الاسم هو "الحي"، أي ذو الحياة والحياة صفة وجودية من شأنها أن تكون أساساً لصفتي العلم والإرادة، قال تعالى: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة، الآية 255]، وقوله: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة فاطر، الآية 65]، ودلالة معنى قوله: ﴿الْحَيُّ﴾ أي المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية، وتوجيه القرآن لمعنى الحي أنه هو الممد للحياة، والحياة صفة كمال يسعى لها العقلاء فلا بد من اتصافه سبحانه بالحياة، وكيف لا يتصف بها وهو الذي يمنحها[4]؟.

---

(1) ينظر: شرح الخريدة البهية، سيدي أحمد الدردير (ت 201هـ) وحاشية الصاوي عليه، مطبعة الاستقامة، مصر، 78. وينظر: المسايرة للكمال بن الهمام (ت 861هـ)، والمسامرة بشرح المسايرة: لأبي شريف القدسي (ت 906 هـ) وشرح: قاسم بن قطلو بغا (ت 79هـ) وحاشية محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر: 69.

(2) ينظر: تحفة المريد: 86-87.

(3) ينظر: العقيدة الإسلامية وأسسها: 175.

(4) ينظر: إرشاد العقل السليم: 283/7.

المطلب السادس:

صفة مخالفة الحوادث والأسماء التي تتحقق بها

لقد أكد الأسلوب القرآني في عرضه لعقيدة التوحيد أن صفاته تخالف الحوادث فالله لا يشبهه شيء من خلقه، فليس له صاحبة ولا ولد، ومستغنٍ عن الخير، وعن دوام الحياة بالتغذية والاستراحة في الهجود والنوم، ولا يعتريه نصب أو تعب، ولا يحده الزمـــان، ولا تحده الجهة أو المكان لأنه سبحانه هو خالق هذه الأشياء كلها، فكيف يتصور بأنه محتـــاج إليها؟ وقد كان الله ولا شيء معه، ولو كان الله سبحانه يشبه شيئا من خلقه، لكان مثلها في الاحتياج، وهو غني تعالى عنها علواً كبيراً، وهذا يسمى بـــ "صفة مخالفة الحـــوادث"، قال تعالى: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [سورة البقرة، الآيـــة 255]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرِ﴾ [سورة الشورى، الآيـــة 11]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَـــهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص]، ودلالة معاني هذه الآيات تـــشير إلى أن الله لا يـــشابهه شيء من خلقه ولا تعتريه صفات النقص البشرية، فإنه كامل الصفات ولا يماثلـــه فيهـــا أحد(1).

الأسماء التي يتحقق بها معنى صفة مخالفة الحوادث

أولاً: السلام: أي ذو السلامة من النقص في ذاته وصفاته وأفعاله؛ فهو سالم من كل ما لا يجتمع عقلاً مع معنى الألوهية والربوبية كمشابهة الحوادث، والمعلوم أن كل ما دون الله يعتوره النقص في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا يمكن أن تكون هناك مشابهة بين الخـــالق والمخلوق حقيقة ولو في وجه من الوجوه، قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَ هُـــوَ الْمَلِـــكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ﴾ [سورة الحشر، الآية 23](2).

ثانياً: القدوس: من أبنية المبالغة النادرة مأخوذ من "القدس" يضم الدال وإســـكانها، وتعني الطهارة؛ ومعنى القدوس: المنـــزه عن صفات النقص التي لا تليق لكبريائه ســـبحانه

---

(1) ينظر: الاقتصاد في الاعتقاد: 22-33. وتحفة المريد: 57. والعقيدة الإسلامية وأسسها: 183. وأصول الدين الإســـلامي: 120- 141. وتفسير آيات العقيدة: 172/1.

(2) ينظر: الإرشاد إلى قواطع الانتقاد: 146. والأسماء والصفات: 53.

وتعالى والمنـــزه عن الحدوث، والمنـــزه عن أن يدركه حس أو يحيط به عقل، أو وهـــم، وهو أبلغ من السلام، قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُـدُّوسُ الـسَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [سورة الحشر 23] [1].

ثالثاً: الغني: مأخوذ من الغنى؛ وهو عدم الحاجة إلى شيء، والله هو الغني فلا يحتـــاج إلى شيء في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله، والكل مفتقر إليه، وهو يخالف الحـــوادث لأنها محتاجة إليه وهو غني عنها، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر، الآية 15].

ودلالة معنى الآية الكريمة أن الله هو المستغني على الإطـلاق، المـنعم علـى سـائر الموجودات[2].

رابعاً: الصمد: وهو على معنى أنه لا يطعم، فهو غير محتـاج إلى الغـذاء، وغـيره محتاج، وإذا كان المعنى أنه الذي يصمد إليه في الحوائج؛ أي يقصد فيها، ومـن معانيهـا: السيد القائم بذاته[3]، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص، الآيات 1-4].

خامساً: الأول والآخر الأول أنه لا بداية له، والآخر أنـه[4] لا نهايـة لـه؛ قـال تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾ [سورة الحديد، الآية 3].

---

(1) ينظر: الإرشاد إلى قواطع الاعتقاد: 146، والأسماء والصفات: 55.

(2) ينظر: الأسماء والصفات: 53. وأنوار التنـزيل وأسرار التأويل: 270/2. والجلالين: 270/2.

(3) ينظـر: الإرشـاد إلى قواطـع الاعتقـاد: 154. والأسمـاء والـصفات: 50. وأولى مـا قيـل في آيـات التنـزيل: 271/9.

(4) ينظر: العقيدة الإسلامية وأسسها: 198.

المطلب السابع: صفة القدم والبقاء

القدم في حقه تعالى: الأزلية، والتي هي كون وجوده غير مستنتج أي غير مسبوق بعدم، فإن ذلك وصف الحادثات[1]، ومعنى القدم أن وجود الله غير مسبوق بالعدم[2]، والبقاء معناه أن الله أبدي، ليس لوجوده آخر، فيستحيل أن يلحقه العدم والفناء[3]، ودليل القدم والبقاء قوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد، الآية 3]، وأما دليل البقاء فقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة القصص، الآية 88]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن، الآيات 26-27].

المطلب الثامن: صفة السمع والبصر

السمع صفة أزلية شأنها إدراك كل مسموع وإن خفي، فهي صفة تنكشف بها المسموعات من غير آلة، فلا يعزب عن سمعه وإن خفي[4]، ولا تحجب سمعه بعد وضدها الصمم، والبصر صفة أزلية شأنها إدراك كل مبصر وإن لطف[5]، وهي صفة تنكشف بها المرئيات من غير آلة، فلا يغيب عن بصره مرئي، وإن دق ولا يدفع رؤيته ظلام.

ويرى الباجوري والسنوسي أن السمع والبصر يتعلقان بكل الموجودات تعلقاً زائداً عن العلم، وأما ما يراه سعد الدين التفتازاني فإنه يقول: إن صفة السمع تتعلق بالمسموعات، وصفة البصر بالمبصرات، فلا تتعلقان عندئذ بكل الموجودات[6] تعلقاً زائداً من العلم.

أما المعدومات فلا تتعلقان بها بالاتفاق؛ إذ لا يعقل ذلك وإلا كانت من قبيل الموجودات.

---

(1) ينظر: المسامرة عن المسايرة، 22. وتحفة المريد: 54-55. وأصول الدين الإسلامي: 118.
(2) ينظر: المسامرة عن المسايرة: 22.
(3) ينظر: المسامرة: 24. وتحفة المريد: 54. وأصول الدين الإسلامي: 119.
(4) ينظر: المسامرة: 68. وتحفة المريد: 85.
(5) ينظر: تحفة المريد 85.
(6) ينظر: تحفة المريد: 85. وأصول الدين الإسلامي: 189.

وأما دليل إثبات السمع والبصر فهناك الكثير من الآيات القرآنية التي تتحدث عن هاتين الصفتين[1]؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحج، الآية 75]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، الآية 11]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [سورة طه، الآية 46].

المطلب التاسع: صفة الكلام

صفة أزلية قائمة بذاته تعالى منافية للسكوت والآفة هو بها أمر ناه مخبر، فإذا عبر عنها بالعربية في القرآن أو بالسريانية في الإنجيل، أو بالعبرية في التوراة[2]، وهي متعلقة بالواجبات والممكنات والمستحيلات تعلق دلالة وبيان أو أمر ونهي، وكلامه سبحانه ليس بحرف ولا صوت يقومان بذاته أو بغيره، بل هو المعنى العام القائم بالنفس (وهذا ما قرره علماء الكلام من أهل السنة والجماعة) المعبر عنه بالعبارات المتغيرة المغاير للعلم والإرادة لأنه تعالى قد يخالفهما، فإنه تعالى أمر أبا لهب بالإيمان مع علمه بأنه لا يؤمن وامتناع إرادته لما يخالف علمه[3]، وكان لتحديد هذه الصفة اختلاف كبير بين الفرق الإسلامية، فمنهم من نفى ومنهم من أثبت ومنهم من فرق بين الكلام اللفظي والنفسي، وليس من موضوعنا الخوض في مثل هذا الجدل في تحديد صفة الكلام، وإنما كيف أثبت القرآن هذه الصفة، دون الإشارة إلى كونها نفسية، أو لفظية أو منفية بل أثبتها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [سورة النساء، الآية 164]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [سورة الأعراف، الآية 143]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ [سورة الشورى، الآية 51].

---

(1) ينظر: شرح الإمام سعد الدين التفتازاني (ت 791هـ)، على متن العقائد للشيخ نجم الدين أبي خفص، عمر بن محمد النسفي (ت 537هـ).

(2) ينظر: إتحاف المريد: 101. وينظر: تحفة المريد: 98-59. وكبرى اليقينيات الكونية: 124.

(3) ينظر: طوالع الأنوار من مطالع الأنظار؛ ناصر الدين البيضاوي (ت 681هـ)، تحقيق: عباس سليمان، المكتبة الأزهرية – القاهرة، ط1، 1411هـ-1991م: 189. ينظر: التحقيق التام في علم الكلام: 76.

المطلب العاشر: صفة التكوين

صفة التكوين: صفة أزلية مغايرة للقدرة يوجد بها ويعدم بها غير أنها إذا تعلقت بالوجود تسمى "إيجاداً" وإن تعلقت بالإعدام تسمى "إعداماً"، وإن تعلقت بالحياة تسمى "إحياء" وهكذا بقيت صفات الأفعال التي اعتبروها قديمة، لأنها هي صفة التكوين، وهي قديمة، وقد أثبتها الماتريدية من أهل السنة، وقد نفاها الأشاعرة، وجعلوا صفات الأفعال هي متعلقات القدرة التنجيزية الحادثة، وفرق الماتريدية بين القدرة والتكوين، وقالوا إن القدرة صفة مؤثرة في صحة وجود المقدور، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل، الآية 40]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة يس، الآية 82]، فعبر سبحانه عن تكوينه للأشياء بأن يقول ﴿كُنْ﴾ وهو مجاز عن سرعة الإيجاد دال على إيجاده تعالى للأشياء وتكوينه عند تعلق إرادته بلا تراخ ولا تعذر، وليس بمعنى تعلق القدرة المقارنة بالإرادة، والأشاعرة يرجعونها إلى صفة القدرة[1].

الأسماء الحسنى التي تعود إلى صفات الأفعال

صفات الأفعال هناك من فرق بين صفات الذات وصفات الأفعال؛ فأما صفات الذات فهي ما وصف الله به، ولا يوصف بضده، وقام بذاته أو اشتق من معنى قائم بذاته، كالقدرة، والعلم، وأما صفات الأفعال، وهي ما يجوز أن يوصف الله بضده، اشتق من خارج ذاته سبحانه وتعالى، ومن معنى خارج عنها، وسميت بذلك لأنها مشتقة من فعل الله عز وجل، مثل (الخلق، والرزق، والإحياء، والرأفة، والرحمة، وغيرها)، وقد اختلف أهل السنة في التفريق بين صفات الذات وصفات الأفعال؛ فمنهم من رأى أن لا فرق بين صفات الذات وصفات الأفعال كما ورد ذلك عن السلف، ومنهم من رأى أن صفات الأفعال حادثة، لأنها ليست سوى تعلق القدرة بالحادث؛ وهم الأشاعرة.

---

(1) ينظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين: 186. وطوالع الأنوار: 191.

ومنهم من رأى أنها قديمة لصفات الذات، ويجمعونها في صفة التكوين إلا أنهم خرجوا قولهم دفعاً للاعتراض، فإنهم قالوا بقدم صفة التكوين وأن ما يترتب عليها حادث، وليس ذلك مشعراً بالتناقض، لأن علم الله وقدرته تتعلق بالحوادث؛ وهذا قول الماتريدية[1].

وتجدر الإشارة إلى أن أفعال الخالق سبحانه متصفة بصفات كمال لا تحصى تمثل حقيقة كمال الخالق في ذاته وصفاته.

ومن صفات الأفعال للخالق سمي "خالقاً" لأنه صدر عنه الخلق، وهو فعل من أفعاله، الرزاق: وسمي الرزاق لأنه هو الذي يرزق عباده وذلك فعل من أفعاله، العفو: فإنه يتجاوز عن سيئات عباده وذلك فعل من أفعاله، المعز: لأنه ينصر ويرفع من يشاء من عباده، وذلك فعل من أفعاله، وإن جميع أفعاله سبحانه هي خلق لأنه إذا أراد شيئاً فيقول له: كن، فيكون، وهناك ستون اسماً لله تعالى يعود كل واحد منها إلى صفة من صفات أفعاله، تصنف على الوجه الآتي:

أولاً: ما يدخل في باب الخلق والإيجاد

الحكيم: قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، الرشيد: قال تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ [سورة الكهف، الآية 10]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾ [سورة الكهف، الآية 17]، الخالق: قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [سورة الحشر، الآية 24]، البارئ: قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [سورة الحشر، الآية 24]، البديع: قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [سورة البقرة، الآية 117]، المصور: قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [سورة الحشر، الآية 24]، الهادي: قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه، الآيات 49-50].

المبدئ، المعيد: قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [سورة البروج، الآية 13]، الباعث: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

---

(1) ينظر: التوحيد (شرح الفقه الأكبر) أبو منصور الماتريدي، تحقيق: فتح الله خليف، دار الجامعات المصرية: 47-49. وإشارات المرام: 214.

[سورة النمل، الآية 36]، وفي معنى آخر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 36]، المحيي المميت: قال تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِ وَيُمِيتُ﴾ [سورة الأعراف، الآية 158]، الجبار: قال تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [سورة الحشر، الآية 23].

القهار: قال تعالى: ﴿هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [سورة الزمر، الآية 4]، القيوم: قال تعالى: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة، الآية 255]، الحفيظ: قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سورة سبأ، الآية 21]، المؤمن المهيمن: قال تعالى: ﴿الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ﴾ [سورة الحشر، الآية 23].

ثانياً: ما يدخل في باب رزق المخلوقات الحية

الرزاق: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات، الآية 58]، المقيت: قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً﴾ [سورة النساء، الآية 85]، المغني: قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمِ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [سورة النور، الآية 32]، القابض الباسط: قال تعالى: ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية 245].

ثالثاً: ما يدخل في باب العطاء والإنعام

الوهاب: قال تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [سورة ص، الآية 9]، البر: قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الطور، الآية 28]، الكريم: قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [سورة الانفطار، الآية 6]، الواسع: قال تعالى: ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، الآية 115].

رابعاً: ما يدخل في باب الرأفة والرحمة

الرحمن: قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللهَ أَوْ ادْعُوا الرحمن أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [سورة الإسراء، الآية 110]، الرحيم: قال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الرحمن الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة، الآية 163]، الفتاح: قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة سبأ، الآية 26]، اللطيف: قال

تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة يوسف، الآية 100]، الرؤوف: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآية 143]، الودود: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [سورة البروج، الآية 14].

خامساً: ما يدخل في باب الولاية والنصر

الوالي والولي: قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الشورى، الآية 9]، الوكيل: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [سورة آل عمران، الآية 173] الحسيب: قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ [سورة النساء، الآية 6]، الصمد: قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [سورة الإخلاص، الآيات 1-2]، المجيب: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [سورة هود، الآية 61].

سادساً: ما يدخل في باب علامة المكلفين بخالقهم

الملك: قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [سورة طه، الآية 114]، الحكم: قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [سورة الأنعام، الآية 114].

العدل: قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [سورة الكهف، الآية 49]، المقسط: قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران، الآية 18]، الحميد: قال تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة الحج، الآية 64]، الشكور: قال تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التغابن، الآية 17]، التواب: قال تعالى: ﴿إِلاَ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة، الآية 160].

الغفور: قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ [سورة الإسراء، الآية 25]، الغفار: قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [سورة طه، الآية 82]، العفو: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ

لَعفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [سورة الحج، الآية 60]، الحليم: قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾ [سورة الأحزاب، الآية 51]، الصبور: قال تعالى: وهذا الاسم غير وارد في القرآن الكريم ولكنه مجمع عليه ذكر الإجماع عليه البيهقي[1].

المنتقم: ذو انتقام: قال تعالى: ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [سورة إبراهيم، الآية 47].

سابعاً: الأسماء الحسنى التي تعود إلى صفات الأفعال

الخافض الرافع: قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَات مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام، الآية 83]، المعز والمذل: قال تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [سورة آل عمران، الآية 26]، المقدم والمؤخر.

الجامع: قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [سورة آل عمران، الآية 9].

المانع: قوله ﷺ في الحديث القدسي: "لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت"[2].

النافع الضار: قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً﴾ [سورة الرعد، الآية 16][3].

المطلب الحادي عشر: صفات الحمد والتمجيد لله تعالى

إن الله وحده هو المستحق للثناء والعظمة والجلال والكبرياء وهو المستحق للتمجيد بمنتهى السؤدد، والشرف الحقيقي، وقد ورد في حمد الله وتمجيده، وإظهار عظمته وجلاله من الأسماء ثلاثة عشر اسماً، وهي:

الكبير: قال تعالى: ﴿أَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سورة الحج، الآية 62]، المتكبر: قال تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [سورة الحشر، الآية 23]، العلي: قال تعالى: ﴿أَنَّ اللهَ

---

(1) ينظر: الأسماء والصفات: 75.

(2) رواه البخاري (808): 289/1. صحيح ابن خزيمة (742): 365/1. صحيح ابن خزيمة: محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري (ت 311هـ)، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، 1390هـ - 1970م.

(3) ينظر: الأسماء والصفات: 33. والعقيدة الإسلامية وأسسها: 196. وينظر: آيات تفسير العقيدة: 191.

هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سورة الحج، الآية 62]، المتعالي: قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [سورة الرعد، الآية 9]، الجليل: قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن، الآية 78]، العظيم: قال تعالى: ﴿وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة، الآية 255]، الكريم: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الآنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [سورة الانفطار، الآية 6]، الماجد: مأخوذ من المجد، وهو بلوغ غاية الشرف، المجيد: قال تعالى: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [سورة هود، الآية 73]، الحسيب: قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾ [سورة النساء، الآية 6]، ذو الجلال والإكرام: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن، الآية 27]، الصمد: قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ﴾ [سورة الإخلاص، الآيات 1-2]، الحميد: قال تعالى: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [سورة هود، الآية 73]، من خلال هذه الصفات والأسماء نشاهد أنوار الله وجلاله[1]، قال تعالى: ﴿وَللهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 180]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللهَ أَوْ ادْعُوا الرحمن أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [سورة الإسراء، الآية 110].

وقوله تعالى: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [سورة طه، الآية 8]، وقد قال رسول الله ﷺ: "ان لله تسعة وتسعين اسماً أعطى مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة"[2].

المطلب الثاني عشر: القضاء والقدر

من المسائل التي تتعلق بصفاته تعالى مسألة القضاء والقدر، وكيف عرضها القرآن الكريم، وما يتفرع عنها من خلق أفعال العباد وهذه المسألة من المسائل التي كثر فيها الجدل بين الفرق الإسلامية وتناولها العلماء بالبحث والدراسة على اختلاف اتجاهاتهم، ولا

---

(1) ينظر: العقائد الإسلامية: 24.

(2) رواه البخاري (2585)، 981/2. ورواه مسلم: باب أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (2677)، 2063/4. ابن حبان (807): 87/3. الترمذي (3506)، 530/5.

تزال مثار اختلاف وجدل واسعين بين الباحثين، لدقتها، وكثرة النصوص والأدلة الواردة فيها.

القضاء والقدر في اللغة

القضاء: جاء لمعان عديدة منها، الحكم، والأمر، والإيجاب، أما دليل معنى الحكم، قوله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [سورة النساء، الآية 65]، وأما دليل الأمر والإيجاب، فقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَ تَعْبُدُوا إِلاَ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء، الآية 23]، وقد جاء أيضاً بمعنى الإعلام، والإخبار، والإبلاغ، ودليله قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ [سورة الإسراء، الآية 4]، وقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [سورة الحجر، الآية 66]، وجاء بمعنى الخلق، والتقدير، والإيجاد على وجه الاتقان والاختراع وإتمام الشيء والفراغ منه، ودليله قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [سورة فصلت، الآية 12].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ﴾ [سورة القصص، الآية 29]، وجاء بمعنى الإرادة، قال تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة البقرة، الآية 117].

فمما ورد يتبين أن معاني القضاء تدور حول الحكم بالشيء وأداته وتقديره والفراغ منه والإعلام به(1).

القدر: وقد ورد لمعان عدة منها الشيء المقدر الصادر على فعل الفاعل القادر كما علمه، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر، الآية 49].

ويأتي لمعنى التقدير، والترتيب، والتنظيم، ووضع الشيء في مكانه المناسب، قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [سورة فصلت، الآية 10]،

---

(1) ينظر: لسان العرب: 186/15، مادة "قضى". وشرح الأصول الخمسة: 77. والمحيط بالتكليف، عبد الجبار الهمداني، تحقيق: عمر السعيد عزمي، الدار المصرية: 42. وينظر: التحقيق التام في علم الكلام: 133-134. العقيدة في ضوء الكتاب الكريم والسنة المطهرة: 95-96.

ويأتي معنى العلم المحيط لمقادير الأشياء وجميع أحوالها التي تكون عليها قال: ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنْ الْغَابِرِينَ﴾ [سورة النمل، الآية 57].

ويأتي بمعنى القضاء والكتابة في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ [سورة الأحزاب، الآية 38]، فالقدر يدور حول بيان كمية الشيء ومقداره[1].

القضاء والقدر في الاصطلاح

عرّفه الأشاعرة بأنه إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه، فيما لا يزال وهي من صفات الذات.

وعرفوا القدر: بأنه إيجاد الله للأشياء على قدر مخصوص معين، وتقدير معين في ذواتها، وأحوالها على وفق ما أراده الله في القضاء وهو من صفات الفعل[2]، وأما الماتريدية فقد عرفوا القضاء على أنه إيجاد الله الأشياء مع زيادة الأحكام والاتفاق، وهو راجع لصفات الفعل.

وعرفوا القدر بأنه تحديد الله أزلاً كل مخلوق يحده الذي يوجد عليه من حسن وقبح، ونفع وضر، إلى غير ذلك، وهو من صفات الذات[3]، والفرق بين التعريفين بأن الماتريدية قد عكسوا بأن جعلوا تعريف القضاء للقدر والقدر للقضاء خلافاً للأشاعرة، وهم متفقون على سبق علم الله لمقادير الأشياء وأزمانها وكل ما يتعلق بها، ثم إيجادها بقدرته على وفق الإرادة والعلم.

مما سبق يمكن القول بأن الله سبحانه علم أزلاً بجميع أفعال العباد وكل ما يتعلق بالمخلوقات، وعلم أنها سوف تقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، خصصها بإرادته على وفق علمه وأوجدها حين أوجدها فيما لا يزال على القدر المخصوص والوجه المعين الذي سبق العلم به، وخصصته الإرادة، وهنا لا علاقة للقضاء والقدر بالجبر مطلقاً، فعلمه سبحانه أزلي بالأشياء بما فيها أفعال العباد، ووقوع هذه

---

(1) ينظر: المفردات: 395. وإتحاف المريد: 144. وتحفة المريد: 110. وفي نور العقيدة الإسلامية، د. محمد سعيد أحمد المسيري، دار الطابعة المحمدية، ط1، 1411هـ -1990م: 155.

(2) ينظر: إتحاف المريد: 107.

(3) ينظر: النظام الفريد لتحقيق جوهرة التوحيد، محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة - مصر، ط2، 1375هـ - 1985م: 140.

الأشياء على وفق العلم من موجبات ألوهيته، وتجريده من ذلك يعد نقصاً في صفاته، وقد علم أن علمه صفة كاشفة غير مؤثرة تكشف الأمور على ما هي عليه، أو على ما ستوجد عليه في المستقبل(1).

قال الإمام النووي فيما يورده عن الخطابي(2): وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه.

وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من اكتساب العبد وصدورها عن تقدير منه، وخلقه لها خيرها وشرها(3).

وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه، والمخالفون في هذه المسألة هم القدرية، وقد نشأ على يد غيلان الدمشقي(4)، ومعبد الجهني الكلام في نفس علم الله سبحانه بالكائنات، وزعموا "أنه لا قدر والأمر أنف"(5)؛ أي لا سبق لعلم الله به، وإنما يعلمه بعد وقوعه، وجاء على منوالهم المعتزلة الذين أثبتوا علم الله بالأفعال قبل وقوعها، ولكنهم أنكروا القضاء والقدر في الأفعال الاختيارية الصادرة عن العباد.

وأما إثبات القدر في القرآن الكريم فقد وردت آيات تدل على أن الله سبحانه عالم، مريد قادر، وهي نفسها قد استدل بها على إثبات القدر فضلاً عن كل الآيات التي تثبت أن كل ما يصيب الإنسان وما يجري في هذا الكون مكتوب في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾ [سورة التوبة، الآية 2]، وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [سورة الفرقان، الآية 2]، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾

---

(1) ينظر: شروح صحيح مسلم، الإمام النووي، مطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ - 1972م: 154/1. وشرح العقيدة الطحاوية: 270. وشرح جوهرة التوحيد، إبراهيم الباجوري، تحقيق: محمد أديب الكيلاني، وعبد الكريم تقان، مكتبة الغزالي - حماة، 1392هـ - 1972م: 241، وكبرى اليقينيات الكونية: 160.

(2) أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، له "معالم السنن"، "بيان إعجاز القرآن"، (ت 388هـ)، ينظر: سير أعلام النبلاء: 3/13. والأعلام: 273/2.

(3) ينظر: شرح النووي لصحيح مسلم: 154/1.

(4) هو غيلان بن مروان مولى سيدنا عثمان، كان يعرف بغيلان القدري، قتله الوليد بن عبد الملك، ينظر: الملل والنحل: 30/1.

(5) هو أول من قال بالقدر، وقال بخلق القرآن، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي سنة 80هـ، ينظر: الملل والنحل: 30/1. والأعلام، قاموس لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت، ط5، 1980م: 264/7.

[سورة الأحزاب، الآية 38]، وقوله ﷺ: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره"[1].

المطلب الثالث عشر: أفعال العباد

اتفق أهل الملة جميعاً على أن الله تعالى خالق للعباد، وأفعاله الاضطرارية كانتفاضة الحمى وحركة القلب والمعدة، وحركة المرتعش، وأن مذهب أهل السنة أن الله خالق لأفعال العباد الاختيارية خيرها وشرها، وأن للعبد فيها كسباً، فإذا وجد في القرآن والسنة ما يشير إلى نسبة الفعل الاختياري إلى العبد فمنشؤه النظر إلى ما له فيه من الكسب، وإذا وجد في القرآن أو السنة نسبة الأفعال إلى الله تعالى، فهو بالنظر إلى حقيقة الحال، وأنه سبحانه الخالق لكل شيء[2].

وقد اختلف أهل الملل في مسألة خلق الأفعال، فذهب الجبرية ويقال لهم: الجهمية أصحاب الجهم بن صفوان[3]، إلى الغلو في إثبات القدر حتى قالوا: إن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة، ولا حرية له بل هو كريشة في مهب الريح تسيرها الأقدار حيث شاءت، فهو مجبور على أفعاله، ويدلون بحججهم حسب فهمهم وتأويلهم للآيات المعطية لهذا المعنى عندهم، مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات، الآية 96]، علق على هذه الآية فإن الخطاب هنا ليس من الله إلى خلقه ولكن الحقيقة أن الخطاب من سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام التي ينحتونها بأيديهم، فهم وأصنامهم من خلق الله فلا يصح أن يعبدوها لأنهم صانعوها وهم والأحجار والأخشاب التي ينحتونها من خلق الله، ويتضح هذا من الآية السابقة لهذه الآية، وقد أورد لهم صاحب حجج القرآن مئتي حجة فيما ذهبوا إليه[4].

---

(1) رواه مسلم في صحيحه: (9). رواه الترمذي (2535). ورواه النسائي (4904)، سنن النسائي، النسائي، (ت 303)، دار إحياء التراث العربي، (د.ت).

(2) ينظر: النظام الفريد تحقيق جوهرة التوحيد: 141.

(3) الجهم بن صفوان، ويكنى بأبي محمد، كان مولى لبني راسب، وقد ظهر مذهبه في مدينة (كرمز)، ينظر: الملل والنحل: 109/1. وميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين أبي عبيد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت 748هـ)، مطبعة السعادة – مصر، ط1، 1325هـ: 197/10. وينظر: الأعلام: 141/2.

(4) ينظر: حجج القرآن: 13-30.

وذهب المعتزلة ومن قبلهم القدرية إلى رأي مخالف بل هو على العكس من هذا الرأي، فقد أعطوا للإنسان الحرية الكاملة في فعله الاختياري، وأثبتوا له القدرة المستقلة في إيجاده وفصلوا بين القدرة الإلهية والقدرة الإنسانية، ويعد معبد الجهني أول من قال بحرية الإرادة آخذاً قوله عن "غيلان الدمشقي" وعلى هذا فإن المعتزلة قرروا أن أفعال العباد مخلوقة له بقدرة خلقها الله فيه، وأنها غير داخلة في مقدورات الله تعالى، كما أن مقدوراته غير داخلة في مقدوراقم وقرروا أن القدرة تكون قبل الفعل، وأنها صالحة للضدين، واستدلوا على ذلك بأدلة عقلية، وقد أكثروا من ذلك[1].

الكسب

اتخذ أهل السنة والجماعة مسألة الكسب مذهباً وسطاً بين القائلين أن الإنسان لا اختيار له، وهم "الجبرية" الذين قالوا بأن العبد مجبور على فعله مؤكدين عموم خلق الفعل لله دون التفصيل، وبين القائلين باختيار العبد لفعله، لكنهم اختلفوا في تحديد مسألة الكسب وبيان معناها.

أولاً – رأي الإمام الباقلاني (ت 403هـ)

فقد ذهب إلى أن قدرة الله تتعلق بأصل الفعل، وقدرة العبد بصفته والصفة كونها طاعة أو معصية، وغيرها من الأوصاف التي لا توصف بها أفعاله سبحانه قال الباقلاني: ويجب أن يعلم العبد أن له كسباً، وليس مجبوراً بل مكتسب لأفعاله من طاعة ومعصية، لأنه تعالى قال لها ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ يعني ثواباً وطاعة، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ يعني عقاباً ومعصية[2]، ثم يستدل على صحة ذلك بما يشعر به العاقل من تفرقة بين الارتعاش وبين حركة العضو الإرادية، ثم يقول: "فأفعال العباد وهي كسب لهم وهي خلق الله تعالى، فما يتصف به الحق لا يتصف به الخلق، وما يتصف به الخلق لا يتصف به الحق"[3]، ورأي الباقلاني لا يتفق مع الأصول الأشعرية في عدم إسناد أي أثر لقدرة العبد في إيجاد الفعل.

---

(1) ينظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، ط2، 1389هـ – 1969م: 198/1. والاقتصاد في الاعتقاد: 45. وأصول الدين: 135. وغاية المرام: 206. لمحات من الفكر الكلامي: 214.

(2) ينظر: الإنصاف في ما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، مكتب الثقافة الإسلامية، 1369هـ – 1950م، 40.

(3) ينظر: الإنصاف: 41. ونهاية الإقدام: 76.

ثانياً – رأي أبي إسحاق الإسفرائيني (ت 418هـ)

إن ذات الفعل وصفاته تقع بالقدرتين والمؤثر بالفعل بمجموع قدرة الله وقدرة العبد، وبذلك يكون قد جوز اجتماع مؤثرين على أثر واحد[1]، وقد خرج السعد التفتازاني هذا القول فقال: "وأما الأستاذ فإن أراد أن قدرة العبد غير مستقلة بالتأثير، وإذا انضمت إليها قدرة الله تعالى صارت مستقلة بالتأثير بتوصيل هذه لإيمائه على ما قدره البعض، فقريب من الحق وإن أراد أن كلاً من القدرتين مستقلة بالتأثير فباطل"[2].

ثالثاً– رأي الإمام الجويني (ت 478هـ)

ورأي الإمام الجويني يترجم الموقفين الأول هو ما ذكره في كتابه الإرشاد، وهو موقف لا يختلف عن موقف الأشاعرة عموماً، فقد قال: "اتفق سلف الأمة قبل ظهور البدع والأهواء واضطراب الأداء إلى أن الخالق المبدع رب العالمين ولا خالق سواه، ولا مخترع إلا هو، فهذا هو مذهب أهل الحق، فالحوادث كلها حدثت بقدرة الله تعالى، ولا فرق بين ما تعلقت قدرة العباد به، وبين ما تفرد الرب بالاقتدار عليه ويخرج عن مضمون هذا الأصل، أن كل مقدور لقادر، فالله قادر عليه، وهو مخترعه ومنشؤه"[3]، وهذا ما ذهب إليه في إثبات الكسب للعبد على طريق الأشاعرة، وأما ما ذهب إليه في العقيدة النظامية، حيث يقول: قدرة العبد مخلوقة لله تعالى باتفاق العالمين بالصانع والفعل المقدور بالقدرة الحادثة واقع قطعاً، ولكنه مضاف إلى الله تبارك وتعالى تقديراً وخلقاً، فإنه وقع بفعل الله تبارك وتعالى وهو القدرة، وليس القدرة فعلاً للعبد، وإنما هي صفته، وهي ملك الله تبارك وتعالى، وخلق له، وإذا كان موقع الفعل خلقاً لله فالواقع به مضاف خلقه إلى الرب خلقاً وتقديراً[4].

---

(1) ينظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين: 194، وطوالع الأنوار: 197، شرح المقاصد: سعد الدين التفتازاني، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، منشورات الشريف الرضي، ط1، 1989م: 223/4.

(2) ينظر: شرح المقاصد: 224/4. وإشارات الملام: 255.

(3) الإرشاد: 187.

(4) العقيدة النظامية، الإمام الجويني (ت 478هـ)، تحقيق محمد زاهر الكوثري، مكتبة كليات الأزهر، ط1، 1398هـ – 1978م: 46-47.

وقد وجه نقد شديد لهذا الرأي من قبل الأشاعرة ذلك بأن هذه الآراء ما قيلت إلا في معرض الجدل، فإنما "قالوا هذا في مناظرة مع المعتزلة جر إليها الجدل"(1).

وقد قال الإمام ابن القيم في كتابه شفاء العليل مادحاً موقف الجويني فقال: "إنه توسط حسن بين الفريقين، وأنه أقرب إلى الحق مما قاله الأشعري، وابن الباقلاني ومن تبعهما"(2).

رابعاً – رأي الغزالي (ت 505هـ)

وقد قال: "القول بالجبر محال باطل والقول بالاختراع اقتحام هائل، وإنما الحق إثبات القدرتين على فعل واحد"(3)، وهذا إشكال بتوارد مؤثرين على شيء واحد، وقد رفع الإشكال بقوله: إذا اختلفت القدرتان، واختلف وجه تعلقهما، فتوارد التعليقين على شيء واحد غير محال، فتعلق قدرة الله بالفعل على وجه الإيجاد والخلق وتعلق قدرة العبد بالفعل على جهة الكسب(4)، ولذا قال أهل السنة: إن أفعال العبد الاختيارية واقعة بقدرة الله، والعبد كاسب لها، وهو مدار التكليف والثواب والعقاب، ولأجله أرسلت الرسل وبسببه كان المدح والذم، وقد استدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة، الآية 286]، وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [سورة الروم، الآية 41]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [سورة الشورى، الآية 30].

مما ورد من أقوال العلماء مسألة الكسب يتبين أن معظمهم قد اختاروا القول الذي ذهب إليه: "أبو الحسن الأشعري"، وقد أقاموا عليه الأدلة النقلية والعقلية.

وأما الماتريدية فلهم موقف تميزوا به عن موقف الأشاعرة بعض الشيء برغم اتفاقهم معهم على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وأن قدرة العبد لا تأثير لها في خلق الفعل، يقول أبو منصور الماتريدي: "ثبت أن حقيقة ذلك الفعل الذي هو للعباد عن طريق

---

(1) ينظر: حاشية الدسوقي: 167. وإتحاف المريد: 76.

(2) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدرة والحكمة والتعليل، ابن قيم الجوزية (ت 701هـ)، تحقيق: محمد بدر الدين الحلبي، المطبعة الحسينية – مصر، ط1، 1323هـ – 1972م: 122.

(3) الاقتصاد في الاعتقاد: 47.

(4) الاقتصاد في الاعتقاد: 47. وإشارات المرام: 252.

الكسب ولله من طريق الخلق"[1]، وهذا الموقف يتعلق بالإرادة والاختيار، وإرادة العباد باعتبارها عملاً قلبياً مخلوقة لله تعالى، فعند الأشاعرة كقدرتهم وأفعالهم وعند الماتريدية لها معنيان الأول: إرادتهم الكلية فهي مخلوقة لله تعالى، والثاني: إرادتهم الجزئية وهي غير مخلوقة وأمرها بأيديهم، وهي ما يملكونه من أفعالهم المنسوبة إليهم، قال الأمام أبو حنيفة: "إن الاستطاعة التي يعمل بها العبد المعصية، هي بعينها تصلح لعمل الطاعة، وهو مغاقب في صرف الاستطاعة التي أحدثها الله فيه وأمره بأن يستعملها في الطاعة لا في المعصية، قصر فيها إلى المعصية، لا على إحداث الاستطاعة"[2]، فذلك الصرف هو الاختيار والكسب المعبر عنه بالعزم المصمم أو الإرادة الجزئية، وهو مدار التكليف والعقاب، وقد تعرض أصحاب هذا القول إلى نقد من قبل المدرسة الماتريدية نفسها[3]. ومن هذا العرض نصل إلى تعريف الكسب وهو: ما يقع به المقدور بلا صحة انفراد القادر به وما يقع به المقدور في محل قدرته، ومقارنة القدرة في محلها من غير تأثير، والخلق: هو ما يقع به المقدور مع صحة انفراد القادر به، وما يقع به المقدور لا في محل قدرته[4]، ويترتب على ذلك أن الكسب لا يوجب وجود المقدور بل يوجب من حيث هو كسب اتصاف الفاعل به، وأن الخلق يلزم وجوده ووجود المخلوق، ولا يصح اتصاف الخالق به.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك آراء أخرى في مسألة خلق الأفعال منها رأي ابن رشد وابن تيمية، أما ابن رشد (ت 595 هـ) فيقول: إن الحل يكمن في التعارض الموجود بين الأدلة بنوعيها، وهو أن الله تعالى خلف للعبيد قدرة يقدر بها على الأضداد ولكنها ليست مطلقة، وإنما مقيدة بالأسباب الخارجية التي أودعها الله في الكون فيقول جواباً عن التعارض الموجود بين المسموع والمعقول الظاهر من مقصد الشارع ليس هو لتفريق هذين الاعتقادين، وإنما قصده الجمع بينهما على التوسط الذي هو الحق في هذه المسألة، وذلك يظهر أن الله تبارك وتعالى قد خلق لنا قوى نقدر بها أن نكتسب أشياء هي أضداد، لكن لما كان الاكتساب لتلك الأشياء ليس يتم لنا إلا بمواتاة الأسباب التي سخرها الله لنا من

(1) التوحيد، شرح الفقه الأكبر: 228-254. وبحر الكلام: 40. وينظر: الماتريدية دراسة وتقويماً، أحمد بن عوض الله الهيبي الحربي، دار العاصمة، الرياض، ط1، 1412هـ - 1991م: 438.
(2) الاقتصاد في الاعتقاد: 47.
(3) المصدر نفسه.
(4) الاقتصاد في الاعتقاد: 47.

خارج، وزوال العوائق عنها كانت الأفعال المنسوبة إلينا تتم بالأمرين جميعاً[1]، ويفهم من هذا الكلام أن الأفعال التي تصدر عن إرادة العبد بإرادته، والأسباب الخارجية باعتبارها فاعلة لمسبباتها، والفعل الإنساني هو محصلة تفاعل الإرادة مع ما يحيط بها من أسباب خارجية مسيراً على نظام محدد بحسب ما قدرها خالقها.

وأما ابن تيمية فإنه يقول: إن الحق هو الإيمان بالقدر خيره وشره، وشمول قدرة الله تعالى وإرادته وإن الله خلق العبد وكل ما فيه من قوى، وإن العبد يفعل ما يشاء بقدرته ومشيئته في ذلك، ومما ينبغي أن يعلم أن مذهب سلف الأمة قولهم: الله خالق كل شيء، وربه ومليكه وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه على كل شيء قدير، وأنه هو الذي خلق العبد هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً، ونحو ذلك أن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة، قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [سورة التكوير، الآية 28]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [سورة الإنسان، الآية 19][2].

بعد هذا الاستعراض للأقوال في مسألة القضاء والقدر وخلق أفعال العباد، وبين تعدد الآراء وتنوعها في المدرسة الواحدة كل ذلك يؤكد أن المسألة في غاية التعقيد، وهي صعبة المنال شائكة الطريق، والظاهر مما ورد أننا مأمورون بالإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، وأنها من قضايا الغيب التي يجب الاستسلام لها والإيمان بها إيماناً تاماً لا يزعزع وهذا الإيمان له أثر كبير في عقيدة الإنسان وحياته ومن هذه الآثار ما يأتي: الإيمان له أثر كبير في عقيدة الإنسان وحياته، فمن هذه الآثار:

أولاً: يوصلنا إلى الإيمان بعلم الله وقدرته وإرادته ونؤمن بما يلائم عظمته وجلاله ونصدق كتابه الكريم وبأحاديث رسوله العظيم وما تضمنه من قضاء الله وقدره.

ثانياً: إن الإيمان بالقضاء والقدر يعصمنا من الغرور إذا ما حالفنا النجاح والظفر فقد تسول للظافر نفسه أنه يجده قد ظفر يطغى وينسى أن يشكر الله ربه كما فعل قارون إذْ بطر وأشر وزعم أنه كسب المال الكثير بعمله ونسي حق الله فيه فجعله الله نكالاً لغيره.

---

(1) ينظر: مناهج الأدلة: 227. ومقدمة الكتاب في نقد مدارس علم الكلام: 120.

(2) الرسائل والمسائل: 142/5. وينظر: ابن تيمية، حياته وعصر أوامره وفقهه، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي: 306-308. ولمحات في الفكر الكلامي: 225.

ثالثاً: إن الإيمان بالقضاء والقدر يبعد عنا الضعف واليأس والسخط إن نزل مكروه أو حدث إخفاق؛ لأن المؤمن بالقضاء يصبر على ما نزل به ويستمد من صبره قوة على فعالية عوامل القنوط والاستسلام للأحزان، فيستأنف حياته في جد وثمر وبعزيمة قوية وأمل متجدد وقلب منفتح.

رابعاً: إن الإيمان بالقضاء والقدر يبعث في النفس كثيراً من الفضائل لأن المؤمن بالقضاء شجاع؛ إذ إنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما سبق من علم الله من موت أو حياة ومن سلامة أو مرض ومن نفع أو ضرر ومن فقر أو غنى.

خامساً: المؤمن بالقضاء والقدر عزيز النفس لا يذل لأحد ولا يدنس ضميره أو كرامته لقاء ثمن لأنه يعتقد أن النفع والضر بيد الله، وقد سبق به علمه وقضاؤه؛ فلو اجتمع الأنس والجن على أن ينفعوه أو يضروه فإنهم لا يستطيعون شيئاً سوى ما سبق به علم الله وقضاؤه، والمؤمن بالقضاء راض دائماً مستبشر دائماً متفائل من جميع حالاته، لأنه مطمئن إلى رحمة الله ولطفه وعدله.

المطلب الرابع عشر: الإيمان بالله عز وجل لغة واصطلاحاً

الإيمان لغة فهو: ضد الكفر، والإيمان بمعنى التصديق وضده التكذيب؛ يقال: آمن به قوم وكذب به قوم[1]، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [سورة يوسف، الآية 17]، أي بمصدق، ومعنى التصديق: الإذعان للحكم وقوله والاعتراف بكونه صادقاً، والأصل فيه: الأمن والذي هو ضد الخوف؛ وكأن حقيقة قولنا: أمن فلان أنه نفي عنه خوف التكذيب والمخالفة[2]، وأما الإيمان في عرف أهل الشرع فقد اختلف العلماء في تحديد معناه على خمسة أقوال:

الأول: مذهب جمهور المحققين من الأشاعرة والماتريدية، فيذهبون إلى أن الإيمان هو التصديق بما علم مجيء النبي ﷺ ضرورة تفصيلاً فيما علم تفصيلاً، وإجمالاً فيما علم إجمالاً.

الثاني: مذهب الكرامية ويذهبون إلى أن الإيمان إقرار باللسان بالشهادتين.

الثالث: مذهب الخوارج وجماعة من المعتزلة منهم "العلاف"[3]،و"عبد الجبار"[4] وقد ذهبوا إلى أن الإيمان هو الطاعات مطلقاً سواء كانت مفروضة أو نافلة.

الرابع: مذهب الجبائي[5]، وأكثر معتزلة البصرة، الذين ذهبوا إلى أن الإيمان هو الطاعات المفترضة دون النوافل.

الخامس: مذهب جماعة من أهل السنة، وجماعة من المعتزلة، وكثير من أهل الحديث الذين يقولون: إن الإيمان هو التصديق بالجنان، والعمل بالأركان، والجنان بفتح الجيم القلب والأركان بمعنى الجوارح[6].

---

(1) لسان العرب: 21/13، مادة (أمن). وينظر: إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الحسيني الزبيدي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1406- 1986: 366/2.

(2) ينظر: النظام الفريد تحقيق جوهرة التوحيد: 47.

(3) هو أبو الهذيل محمد بن الهذيل، من أئمة المعتزلة، ولد في البصرة واشتهر بعلم الكلام (ت 235هـ) ينظر: تاريخ بغداد: 366/3. لسان الميزان 413/5. والكلام: 131/7.

(4) عبد الجبار قاضي القضاة أحمد بن عبد الجبار الهمداني من شيوخ المعتزلة، (ت 415هـ)، ينظر: تاريخ بغداد: 113/11. ولسان الميزان: 386/3. والأعلام: 273.

(5) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجنابي، من أئمة المعتزلة، ورئيس علماء الكلام في عصر، نسبت إليه الطائفة الجيانية (ت 303هـ)، ينظر: وفيات الأعيان: 1/ 480. والأعلام: 256/7.

(6) ينظر: إتحاف السادة المتقين: 380/2. والنظام الفريد: 48.

أما عند الغزالي فقد قال: ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول: من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف أن مستقره الجنة، والثلاثة المقصورة عنده هي: التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان[1].

وثمرة الخلاف في ذلك أن المصدق بقلبه يجرى عليه حكم الإسلام والإيمان أم لا؟ وهل يكتفي بلفظ كلمة الإيمان التي هي الشهادتان ليجري عليه أحكام الإسلام، ويحكم بكونه مؤمناً؟ والجواب على ذلك ما أورده عبد السلام اللقاني فقد قال: قال محققو الأشاعرة والماتريدية وغيرهم، العمل الذي يترتب على هذا الإيمان ولأن الإيمان الصادق لا ينال بالتمني كإيمان معظم أبناء هذا العصر حيث نجد فيه المسلم المؤمن الذي لا يقيم الصلاة، والمسلم المؤمن الذي لا يؤدي الزكاة، والمسلم المؤمن الذي يدخل في رمضان ولا يصوم ويملك الزاد والراحلة ولا يحج، فالإيمان لا يتحقق إلا بالعمل ولا ينال حقيقة إلا بما يقره اللسان ويثبت في الجنان ويصدقه العمل بالأركان، وهذا هو الإيمان بالله عز وجل، والنطق من القادر شرط في إجراء أحكام المؤمنين الدنيوية عليه، لأن التصديق القلبي وإن كان إيماناً إلا أنه باطن خفي فلا يدله عن علامة ظاهرة تدل عليه لتناط به تلك الأحكام، وهذا فهم الجمهور كما ادعاه، وعليه فمن صدق بقلبه و لم يقر بلسانه لا لعفو منعه، ولا لإباء، بل اتفق له ذلك فهو مؤمن عند الله غير مؤمن في أحكام الشرع الدنيوية، ومن أقر بلسانه و لم يصدق قلبه كالمنافق فالعكس، حتى نطلع على باطنه فنحكم بكفره، وأما الآبي فكافر في الدارين، والمعذور مؤمن فيهما[2].

ويترتب على ذلك أننا نجري أحكام الإسلام عليه فنزوجه منا، ونأكل ذبيحته، وندفنه في مقابر المسلمين، ونقبل شهادته، وإلى غير ذلك من الأحكام[3].

ومن رأى أن ما ذهب إليه تحقيق الأشاعرة والماتريدية هو الراجح لأن الإيمان بالله عز وجل الذي يصدقه.

---

(1) إتحاف السادة المتقين: 380/2.

(2) ينظر: إتحاف المريد بشرح جوهرة التوحيد: 53-54.

(3) ينظر: المصدر نفسه: 54.

الزيادة والنقصان في الإيمان

وقد اختلف أهل الشأن على قولين: الأول بأن الإيمان تصديق بالغ حد الجزم والقبول والإذعان والرضى، وهذا لا يتصور فيه الزيادة والنقصان، وعللوا ذلك بأنه إن نقص عن أن يبلغ هذا الحد، لم يكن إيماناً وإن بلغه لم تتصور الزيادة عليه، وأما زيادة إيمان الملائكة عن إيمان آحاد الناس، فليست الزيادة في حقيقة الإيمان، ولكن المراد بالزيادة الدوام عليه والثبات، وقالوا: إن النبي ﷺ يفضل من عداه باستمرار تصديقه، وعصمة الله له من التردد والشكوك، فجعلوا دوام الإيمان وكونه متوالياً غير منقطع هو الزيادة فيه، وأما إيمان أبي بكر والصحابة، فيعتبرون أن إيمانهم كان إجمالاً في البداية، وكان الله يفرض عليهم الفرض بعد الفرض فيؤمنون به، فكلما زاد متعلق فرض زاد إيمانهم، ومعنى زيادة الإيمان عندهم، فالمراد بها زيادة الثمرة، وإشراف ذي الإيمان في القلب بعد أن كان الإيمان بقوة الدليل أصبح الإيمان مشاهداً معايناً، وهذا مذهب أبي حنيفة، وهو اختيار إمام الحرمين الجويني(1).

أما أصحاب القول الثاني فقد قالوا: إن الإيمان يزيد وينقص، وهو اختيار الإمام الشافعي وأهل الحديث، والأشاعرة، والمعتزلة، وزيادة ونقص الإيمان سواء أكان الإيمان هو التصديق وحده أم الطاعات أم مجموع التصديق والإقرار والعمل، فإذا كانت زيادة الإيمان ونقصه، بأن الإيمان هو الطاعات أو مجموع التصديق بالجنان، والإقرار باللسان والعمل بالأركان، فالقول بزيادته ونقصه لا يحتاج إلى استدلال، لأن المشاهدة والأخبار المتواردة يدلان دلالة قاطعة على أن يعطي المكلفين أكثر طاعة من غيرهم، فيكون إيمان من كثرت طاعته زائداً على إيمان من قلت طاعته، بل الشخص الواحد تكثر طاعته أحياناً وتقل طاعته أحياناً أخرى، وهو في الحين الذي تكثر طاعته يزداد إيماناً عنه في الحال التي تقل فيه طاعته، وأما إذا فسر الإيمان بالتصديق فالحاجة إلى الاستدلال أشد.

ويرى الإمام فخر الرازي أن هذا الاختلاف في زيادة الإيمان ونقصه خلاف لفظي لا حقيقي بين العلماء، ويرد ذلك بقوله: إن القائلين بزيادة الإيمان ونقصه هم القائلون بأن الإيمان عبارة عن تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان، فتكون زيادته ونقصه

---

(1) ينظر: الجوهرة المنبثقة في شرح وصية الإمام الأعظم أبي حنيفة، ملا حسين بن إسكندر الحنفي، مطبعة مجلس دائرة المعارف – حيدر آباد – الدكن، ط1، 1321هـ: 149. وينظر: الإرشاد: 399.

باعتبار أحد أجزائه وهو العمل، فإن كثرت الطاعات زاد الإيمان، وان نقصت الطاعات نقص الإيمان.

وأما الفريق الآخر فيقولون بأن لا زيادة ولا نقصان في الإيمان، ولو أن الفريق الأول فسر الإيمان بما فسره الفريق الثاني لقال بمثل ما قال به الأول، ولو فسر الثاني الإيمان بما فسر به الأول لقال بمثل ما قال: وقاله أيضاً إمام الحرمين الجويني[1].

والحاصل أن ما ذهبوا إليه من الخلاف هو إرادة الحق إن شاء الله، ولكن ما ورد في الآيات، صريح في زيادة الإيمان ونقصه، قال صاحب الجوهرة:

ورجحت زيادة الإيمان بما تزيد طاعة الإنسان
ونقصها بنقصه وقيل: لا وقيل: لا خلف، كذا قد نقل

قال الباجوري في شرحه للجوهرة: ورجح جماعة من العلماء - وهم جمهور الأشاعرة - القول بزيادة الإيمان[2]، وقد نقل صاحب الجوهرة قول الإمام البخاري الذي قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص محتجين على ذلك بالعقل والنقل، ثم ذكر الاحتجاج بالعقل فقال: أما العقل فلأنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة - بل المنهمكون على الفسق والمعاصي - مساوياً لإيمان الأنبياء والملائكة، واللازم باطل، كذا الملزوم[3].

وقد وظف الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة آيات في بيان زيادة الإيمان ونقصه قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً﴾ [سورة آل عمران، الآية 173]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [سورة الأنفال، الآية 2]، وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [سورة التوبة، الآية 124]، وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ [سورة الأحزاب، الآية 22]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [سورة الفتح، الآية 4]، وقوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾ [سورة المدثر، الآية 27].

---

(1) ينظر: إتحاف المريد: 67. وتحفة المريد: 43. والنظام الفريد: 73.
(2) ينظر: إتحاف المريد: 65. وتحفة المريد: 49.
(3) ينظر: إتحاف المريد: 66، وتحفة المريد: 43.

المطلب الخامس عشر: العبادة ومما يزيد في الإيمان

والمقصود منها عمل الطاعات واجتناب السيئات؛ أي الوقوف عند الأمر، والنـــهي، وقد وظف الأسلوب القرآني في عرضه لعقيدة التوحيد كل المعاني التي من شـــأنها تهيئـــة النفس الإنسانية لاستقبال العقيدة وهي في غاية القناعة والقبول، بل إن النفس الإنـــسانية تصبح في غاية التشويق لسماع الذكر الحكيم، ولذا كان المشركون يحاولون منع النـــاس عن سماع القرآن لأنهم أدركوا أثره في النفوس والقلوب والعقول قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا القرآن وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [سورة فصلت، الآية 26]، فإن المشركين طالبوا بأن يعارضوا القرآن بالخرافات من الرجـــز والـــشعر، والتـــصدية، والمكاء، لعلمهم ببلاغته وبرهانه الذي لا يدع مجالاً للشك فيمـــا يعرضـــه مـــن أخبـــار وأحكام[1].

وقد ضمن الأسلوب القرآني جملة من المعاني والأفكار التي من شأنها رفـــع الإنـــسان فكراً وعقلاً لتوجيهه لعبادة رب العالمين والإفراد له بالألوهية منها إصلاح القلب: وعملية إصلاح القلب تتضمن أولاً: الإيمان وهو كما مر التصديق الكامل بما جاء به سيدنا محمد ﷺ، وهذا أول درجات الإصلاح لأن القلب إذا اطمأن أمن، والعقل إذا دوهم بـــالحجج استسلم وأذعن، وقد قرن الأسلوب القرآني بين الإيمان والعمل الصالح في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الآنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـــوا الـــصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، وثانياً: الإخلاص وهو ثمرة الإيمـــان فإن الإيمان لا يكمل ولا يستقيم إلا إذا كانت الأعمال خالصة لله، قال تعالى: ﴿فَاعْبُـــدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة الزمر، الآية 2]، وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة غافر، الآية 14]، قال الغزالي: الإخـــلاص تطهـــير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة، وتطهير السر وهو باطن القلب عما سوى الله وهي طهارة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والغاية القصوى في عمل السر أن الإنسان

---

(1) ينظر: إرشاد العقل السليم: 11/8.

ينكشف له جلال الله تعالى وعظمته، ولن تحل معرفة الله تعالى بالحقيقة في السر ما لم يرتحل ما سوى الله تعالى عنه[1].

الخوف والرهبة والخشية والخضوع

هذه كلها من أعمال القلوب، فالخوف من الله والرهبة منه، والخشية في حضرته، والخشوع بين يديه، هو استجابة حقيقية لأمره، واجتناب نواهيه.

والخوف لغة: هو الفزع، وخافه يخاف خوفاً، والخوف[2]: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب كاستشعار الخوف من الأسد، وإنما يراد به الكف عن المعاصي، واختيار الطاعات، ولذلك قيل: لا يعد خائناً من لم يكن للذنوب تاركاً، والخوف من الله هو الحث على التحرر[3]، قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة السجدة، الآية 16].

وأما الرهبة: فهي الخوف مع تحرز واضطراب[4]، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 90].

والخشية: خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم[5] بما يخشى منه قال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرحمن بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [سورة ق، الآية 33]، وقال:﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [سورة عبس، الآيات 8-10]، والخشوع هو الضراعة، قيل إذا ضرع القلب خشعت[6] الجوارح، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ [سورة الإسراء، الآية 109]، قال صاحب كتاب قوت القلوب:

---

(1) ينظر: إحياء علوم الدين: 483/2.
(2) لسان العرب: 99/9 مادة (خوف).
(3) المفردات: 162، مادة (خوف).
(4) المفردات: 204، مادة (رهب).
(5) المفردات: 149، مادة (خشي).
(6) المفردات: 180، مادة (خشع).

الخوف اسم جامع لمقامات المتقين، ثم يشتمل على أصل طبقات خمسة في كل طبقة ثلاثة مقامات:

المقام الأول: من الخوف، وهو التقوى، وفي هذا المقام، المتقون، والصالحون، العاملون.

المقام الثاني: هو الحذر، وفي هذا المقام، الزاهدون، والورعون، والخاشعون.

المقام الثالث: هو الخشية وفي هذا طبقات العاملين، والعابدين، والمحسنين.

المقام الرابع: الوجل، وهذا للذاكرين، والمخبتين، والعارفين.

المقام الخامس: وهو الإشفاق، وهو للمصدقين، والشاهدين، والمحبين وخصوص المقربين(1)، وعلى هذا يكون خضوع وخشوع القلب مفاده الخوف والرهبة، والخشية من الله تعالى، وهذا لا يتحصل إلا باستعظام الخالق سبحانه.

عبادة الجوارح: والعبودية إظهار التذلل، والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير وهو للإنسان، والحيوانات، والنبات، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [سورة الرعد، الآية 15]، وعبادة بالاختيار وهي لذوي النطق(2)، وهي المأمور بها نحو قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية 21].

فالأوامر والنواهي والطاعة هي العبادة فالنطق بالشهادتين عمل جارحة (وهو اللسان) والصلاة عمل البدن وهي عبادة والوضوء عبادة وكذلك الصوم، والزكاة، والحج، والأمر بالمعروف عبادة، والنهي عن المنكر عبادة، وهو في مقام التعليم العام للناس، وأعمال البر كلها عبادة وحفظ الجوارح من الوقوع في المعاصي عبادة وترك اقتراف الآثام عبادة وإماطة الأذى عن الطريق عبادة.

وقد خاطب الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة عقل الإنسان وفكره، وقد خاطبه بأسلوب بسيط سلس يقف الإنسان أمامه مبهوتاً خاضعاً لما فيه من قوة تأثير فيه،

---

(1) ينظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي (ت 386 هـ)، مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر، ط1، 1381هـ - 1961م: 489/1.

(2) المفردات: 319 مادة "كبد".

فيستجيب لداعي الإيمان وتتحرك جوارحه في إطاعة الخالق العظيم، وتوحيده، والتوجه إليه في السراء والضراء، والتوكل في السر والعلن، والخضوع التام بين يديه، والاستسلام لأمره، والرضا بقضائه وقدره.

الفصل الثالث

الأسلوب القصصي وضرب المثل واستعمال الوسائل البلاغية في عرض العقيدة

المبحث الأول: المثل القرآني في عرض العقيدة.

المبحث الثاني: القصة القرآنية في عرض العقيدة.

المبحث الثالث: الوسائل البلاغية في عرض العقيدة.

المبحث الأول
المثل القرآني في عرض العقيدة

ويشتمل على تمهيد وستة مطالب:

المطلب الأول: تعريف المثل لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: أنواع المثل.

المطلب الثالث: المثل في التوظيف القرآني.

المطلب الرابع: أهمية المثل القرآني.

المطلب الخامس: مميزات المثل القرآني.

المطلب السادس: أغراض المثل القرآني.

تمهيد

المثل في كلام العرب

القرآن الكريم نــزل في جزيرة العرب وخاطب قاطنيها وسكانها بلغتهم التي ألفوهــا وعاشوا معها وتأثروا بها، وقد خاطبهم النبي ﷺ بنفس لغتهم كما أرسل من قبله من الأنبياء والمرسلين، كل بلغة قومه ليكون أكثر تأثيراً وأقوى حجة في تثبيت عقيدة التوحيد، ودعــوة الإله الواحد ليخرجهم من ظلمات الكفر والشرك إلى بودقة الصدق والإيمان، وقــد أخــبر سبحانه عن هذا المعنى كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة إبراهيم، الآيــة 4].

إن طبيعة الحياة في الجزيرة العربية جعلت استعمال الأمثال من الأساليب المحببة الــتي كانت تجري على ألسنة المتكلمين في المواقع الحربية، والندوات الأدبيــة، وغيرهــا مــن المناسبات[1]، فإذا ضرب المثل اشتهر بين الناس وانتشر بصورة كبيرة وسريعة واســتعمله الناس بحسب مقتضى الحال.

ونظراً لأهمية المثل وأثره في النفوس والقلوب والعقول فقد وظف الأسلوب القــرآني المثل ضمن سياقاته وأنساقه التي جاء بها في كتاب الله سبحانه في عرض العقيدة (عقيــدة التوحيد) والحديث عن ذات الله سبحانه والتدليل على تفرده بــالخلق والإيجــاد تحقيقــاً لربوبيته، والاتجاه إلى عبادته وحده دون سواه تحقيقاً لألوهيته.

وقد وظف الأسلوب القرآني في عرض العقيدة المثل في القرآن الكريم بطريقة حازت السبق بين لهجات العرب في الإيجاد، واستولت علــى عقــولهم وقلــوبهم وأذهــانهم في الإعجاز، فانجذبوا إليها، طوعاً وكرهاً لحلاوتها وقوة سبكها ودقة نظامها، فمنهم من آمن ومنهم من كفر مدعياً السحر والكهانة، وكل الحجج الواهية الأخرى لطمــس نــور الله سبحانه.

إن المثل في كلام العرب "يحتل أهمية عظيمة لا تقابلها أهمية أخــرى، ولــه وظيفــة لا تنكر فائدتها، وله تأثير عجيب في قلوب السامعين للمعنى الذي يتركه في الــنفس مــن

(1) ينظر: أمثال القرآن لابن قيم الجوزية، تحقيق موسى بناي علوان العليلي، مطبعة الزمان - بغداد، 1407هـ -1987م: 14.

الشبه الحاصلة بين المناسبتين، لذا قال إبراهيم النظام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام إيجاز في اللفظ، وإصابة في المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكتابـــة"[1] فـــإن الكلام إذا ما اجتمع مثلاً كان أوضح للمنطق وأثبت للحجة، وأنقى للـــسمع، وأوســـع لتشعب الحديث.

وقد ذكر الأسلوب القرآني عند عرضه لعقيدة التوحيد أن في القرآن أمثالاً من كـــل فصيل ما قاله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [سورة الكهف، الآية 54]، فإن هذه الأمثال متوزعة في ســـياقات وأنساق الخطاب القرآني هنا وهناك، وقد تكون أمثالاً غير مصرح بها أي أن الإشارة فيها وتركيب المعاني يصب نحو المثل، وأما الأمثال المصرح بها فقد سيرها الله سبحانه للنـــاس وضربها للعالمين من أجل تثبيت الحجة وإقامة الدليل وعرض المعاني والأفكار القرآنية بأعلى صيغة من التأثير والإقناع، والذي يُمعن النظر في سياقات المعاني القرآنية المكونـــة للمثـــل القرآني ويجد المشكلة له لغرض قد أحاط بجميع مناحي الحياة والموت وشمل الكون ومحتواه لغرض العبرة والتذكر للناس، وأنه قد كشف الغايات المجهولة والتواريخ الغامضة للأمـــم السابقة، والقرون الغابرة، ولا سيما في معالجة قضية التوحيد وإقامة المشروع العقائـــدي لتكوين بيئة صالحة لعبادة الله سبحانه، وقد بلغت تلك الأمثال القرآنية أعلى درجات الفن في الصياغة والإقناع من أجل تحقيق الاستجابة النفسية التي يسعى إليها الأسلوب القرآني.

(1) أمثال القرآن: 11.

المطلب الأول: تعريف المثل لغة واصطلاحاً

المثل لغة: ذكر اللغويون عدة معانٍ للفظة "المثل"؛ وأهم ما ذكروا من معانيها: الشبه والمثل (بالكسر) والنظير، والصفة، والعبرة والحجة والآيات والحديث، والمثال والحذو[1].

إن أقرب المعاني التي يخرج إليها معنى "المثل" لغوياً هو المثل والشبه، وهو أوسع ألفاظ التشبيه دلالة؛ فهو يشمل كل تلك المعاني التي ذكرها أهل المعاجم فهو يشمل المشابهة في عدة أمور يستوعبها لفظ آخر وهي: الجوهر، والكيفية، والكمية، والقدر، والمساحة، وغيرها...

قال الراغب الأصفهاني: "المثل عبارة عن المشابه لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة، وذلك أن يقال فيما يشارك في الجوهرة فقط، والشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط، والمساوي ما يشارك في الكمية فقط، والشكل فيما يشارك في القدر والمساحة فقط"[2].

المثل اصطلاحاً: صورة حية ماثلة واقعي أو متخيل، مرسومة بكلمات معبرة موجزة، يؤتى بها غالباً لتقريب له من طريق الاستعارة أو التشبيه مع وجود علاقة المشابهة بين الحالتين، الأولى والثانية والصيرورة والتداول بين الناس، وعدم التغيير في لفظه الموضوع له.

المطلب الثاني: أنواع المثل

للمثل أنواع ثلاثة هي: أولاً المثل الموجز، وثانياً المثل القياسي، وثالثاً المثل الخرافي، والذي يهمنا في بحثنا هو المثل القياسي.

إن المثل القياسي هو شيء وصفي أو قصصي أو صورة بيانية لتوضيح فكرة ما عن طريق التشبيه والتمثيل، ويسميه البلاغيون التمثيل المركب؛ وهو تشبيه ضمني لتقريب صورة المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين إلى الآخر أو اعتبار أحدهما بالآخر، لغرض التأديب والتهذيب، أو التوضيح والتصدير، وهذا النوع فيه إطناب إذا قورن بالنوع السابق، وأكثر أمثلة القرآن منه[3]، وقد وظف المثل القياسي في سياقات القرآن الكريم

---

(1) ينظر: الصحاح للجوهري: 1816/5. ولسان العرب لابن منظور: 131/14. والقاموس المحيط:49/4.

(2) المفردات في غريب القرآن. الراغب الأصفهاني: 462.

(3) ينظر: أمثال القرآن، ابن قيم الجوزية، تحقيق: موسى بناي علوان العليلي، مطبعة الزمان، بغداد، 1407هـ/1987م: 13.

لبسط الموعظة وتثبيت الحجة وإقامة الدليل، والزجر والوعد والوعيد والتنبيه للاستفادة من تجارب الأمم البائدة، والاعتبار بما جرى وحل بها لتجنب نفس المآل والمصير.

المطلب الثالث: المثل في التوظيف القرآني

إن دلالة المثل في التوظيف القرآني تتوزع في أربعة معان هي:

1- الوجه الأول منها: يعني شبه ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ﴾ يعني الأشباه ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية 43]، يعني نصفها كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً﴾ [سورة النحل، من الآية 75] يعني: وصف شبيهاً، وقال: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾ [سورة الفتح، من الآية 29]، يعني: شبههم.

2- الوجه الثاني: مثل يعني: التسيير، فذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [سورة البقرة، من الآية 214] يعني: سير الذين خلوا من قبلكم من الملأ؛ يعني مؤمني الأمم الخالية.

3- والوجه الثالث: مثل يعني: عبرة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً﴾ [سورة الزخرف، من الآية 56]، يعني: وعبرة (للآخرين) يعني: لمن بعدهم كقوله لعيسى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [سورة الزخرف، من الآية 59]، يعني: عبرة لبني إسرائيل.

4- الوجه الرابع: مثل يعني عذاباً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلاً ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾ [سورة الفرقان، من الآية 39]، يعني: وصفنا له العذاب، فإنه نازل بهم في الدنيا؛ يعني الأمم الخالية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية 45]، يعني: وصفنا لكم عذاب الأمم الخالية؛ يخوف كفار مكة[1].

وهذه المعاني قد حددت استخدامات المثل في السياقات القرآنية، وقد أشار إلى ذلك الزركشي بقوله "ولما كان المثل السائر فيه غرابة، استعير لفظ المثال للحال أو الصفة أو القصة، إذا كان لها شأن وغرابة"، وقد ضرب الزركشي لهذه المعاني المستعارة والمختارة الأمثلة والشواهد القرآنية فوضع النقاط على الحروف، وقال: "أما استعارته للحال،

(1) الأشباه والنظائر: 207/1.

فكقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [سورة البقرة، الآية 17]؛ أي: حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً.

وأما استعارته للوصف فكقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [سورة النحل، الآية 60]؛ أي الوصف الذي له شأن، وكقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾ [سورة الفتح، الآية 29]، وكقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً﴾ [سورة البقرة، الآية 264]، وكقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾ [سورة العنكبوت، الآية 41]، وكقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [سورة الجمعة، الآية 5].

وأما استعارته للقصة، فكقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [سورة الرعد، الآية 35]؛ أي فيما قصصنا عليك قصة الجنة العجيبة، ثم أخذ في بيان عجائبها[1].

فإن المثل في القرآن قد استعير لكل شأن ذي بال، ولكل حدث مستغرب ولكل قصة أريد بها العبرة، ولكل وصف لم يتعارف عليه العرب من ذي قبل، ولكل معنى لم تستطع الأفهام سبر غوره، وتخصيص فحواه إلا بتقريبه تنظيراً وتمثيلاً حتى تداوله الناس، واستوعبته العقول، وهو بهذا التحديد بشأن المثل في اللغة من وجه، والمثل في الاصطلاح من وجوده، فالمشابه والتنظير والإبانة من اللغة في التبادر إلى إدراك معنى اللفظ، والعظة والعبرة، باعتبارهما دواعي لضرب المثل.

والناظر في الأسلوب القرآني في ضرب المثل في التنبيه على العقيدة والمواضع الأخرى التي تعرض إليها القرآن نجد أن المثل القرآني قد زاد على معطيات المفردات التي وظفها في سياقات ضرب المثل بما له من رصيد مجازي، وأفق استعاري وطبيعة تشبيهية مضافاً إلى الاستعمال في المورد الحقيقي.

والمتتبع لسياقات وأنساق وصيغ القرآن الكريم نجد أن الأسلوب القرآني جعل صيغة المثل القرآني تمتاز بأنها لا تنقل عن حادثة معينة أو واقعة متخيلة، أعيد تكريرها تمثيلاً

(1) البرهان في علوم القرآن: 488/1.

وضرب موردها تنظيراً، وإنما ابتدع المثال ابتداعاً دون حذو احتذاه وبلا مورد سبقه، فهو تعبير فني جديد ابتكره الأسلوب القرآني حتى عاد صيغة منفردة في الأداء والتركيب والإشارة[1]، وأظهر المفردات تقويماً للمثل القرآني وشيوعاً في دلالة لفظ "مثل" وتأتي على الإفراد والجمع وحسب ما يتطلبه السياق وحده للمعاني والأفكار في إشارات المعاني والدلالات القرآنية، وهو الاستعمال الظاهر في القرآن، وقد يستغني الأسلوب القرآني عن ذكر المادة في بعض الآيات للدلالة عليها في الحرف العاطف، كقوله تعالى:﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنْ السَّمَاءِ﴾ [سورة البقرة، الآية 19]، أو لظهورها في المثل، كقوله تعالى:﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَ نَكِداً﴾ [سورة الأعراف، الآية 58]، أو لتضافر الروايات بأن هذه الآية من الأمثال كقوله تعالى:﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [سورة البقرة، الآية 266].

وتجدر الإشارة إلى أن الأسلوب القرآني قد اختار مادة (الضرب) لقسم كبير من الآيات مقترنة بتلك الأمثال، والضرب فيه معنى الشبيه، والمثل والمثال والوصف والبيان والضرب والمثل مترادفان، وكل ذلك يأتي من طبيعة المادة القرآنية التي تستدعي أحياناً طرح المعاني والأفكار والمطاليب بطريقة تختلف عن مادة أخرى وبحسب ما يتطلبه المعنى ووحدة المعاني والأفكار، وفيه يلحظ أن الأسلوب القرآني في عرضه للمعاني يستعمل اللفظ ذا الدلالات المتعددة وكأنه يمد البيان العربي بمزيد من الزخم اللغوي في احتمال الوجوه الممكنة، وقد تجلى الإيجاز في المثل القرآني بظاهرتين هما[2]: قصر اللفظ على المعنى المراد والحذف والاختصار، وهو المسمى بـ "إيجاد الحذف"، فمن النوع الأول ما وظفه الأسلوب القرآني من أمثال للتدليل على الحقائق الهائلة العظيمة، والأمور العقلية على حد سواء، فقد تكون الحقيقة هائلة لا تحيط بها العقول، ولكن المثل الذي يتحدث عنها يأتي في غاية الإيجاز نظراً لقوة الدليل وثباته ولتماسك الحجة واستقرارها في العقول والقلوب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [سورة آل

---

(1) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، محمد حسين الصغير، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط1، 1987 م: 68.
(2) ينظر:الصورة الفنية في المثل القرآني: 222.

عمران، الآية 59]، فهذا التعبير الموجز قد أغنى عن الخوض الطويل في كيفية خلق آدم وعيسى عليهما السلام وبيان الأدلة التفصيلية، أما البدهيات فلا تستدعي أكثر من لفت النظر وجلب الانتباه، والإيجاد عادة يحقق ذلك كقوله تعالى:﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [سورة الأنعام، الآية 122].

ويلحظ دقة الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة في هذه الآية الكريمة وكيف جعل من حمل عقيدة التوحيد نوراً يمشي به الإنسان ليصل إلى الهدف المنشود، ولعل وضوح الإيجاد في البدهيات يشير إلى قوله تعالى:﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [سورة هود، الآية 24]، فقد قام الأسلوب القرآني بتحديد حال المؤمنين وبيان حال الكافرين عن طريق الألفاظ: الأعمى، والأصم، والبصير، والسميع، فضلاً عن إيضاح سمات أهل الجنة مع فروقها عن صفات أهل النار.

أما الأمور العقلية "فإنها تقرع بالدليل وتدمغ بالبرهان فيظل الذهن شاخصاً نحوها بأوجز عبارة كقوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [سورة الحج، الآية 73]، ويلحظ دقة الأسلوب القرآني وإيجازه من خلال البيان الموجز الذي أغنى عن الدخول في تفصيلات تعدد الآلهة عند البشر وبطلان ذلك بما استدل عليهم من عجزها وهوانها، "وأمثال القرآن تختلف عن غيرها من الأمثال ليس باندراجها ضمن السياق النصي للقرآن فحسب، وإنما بوصفها كانت وما زالت تتصف الجدة، إذ لم يطرأ عليها شيء من الابتذال الاستعمالي فظلت محافظة على خصوصيتها"[1].

(1) الإشارة الجمالية في المثل القرآني، عشتار داوود محمد، أطروحة دكتوراه مقدمة الى كلية التربية، جامعة الموصل لسنة 1424هـ - 2004م: 34.

المطلب الرابع: أهمية المثل القرآني

قال الزمخشري: "لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت لخصم الإله وقمع لسَوْرة الجامح الأبي، ولأمر ما أكد الله في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ، وكلام الحكماء، قال تعالى:﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 43].

وقد عد الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال: ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته المثبتة لاجتناب معصيته وترك الغفلة عن الحفظ والازدياد من نوافل الفضل[1].

"والتمثيل على أربعة أوجه: أحدها إخراج ما لا يقع عليه الحس إلى ما يقع عليه، وثانيهما إخراج ما لا يعلم ببدهية العقل إلى ما يعلم بالبدهية، وثالثهما إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، ورابعها إخراج ما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة"[2].

وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار، والتقرير، وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يمكن نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر[3]، قال تعالى:﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 43].

ونقل السيوطي عن عز الدين بن عبد السلام قوله: "إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب، أو على إحباط عمل أو على مدح أو ذم أو نحوه فإنه يدل على الأحكام"[4].

---

(1) البرهان في علوم القرآن: 486/1.

(2) المصدر نفسه.

(3) البرهان في علوم القرآن: 489/1. وينظر: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1407هـ - 1987م: 284.

(4) الإتقان في علوم القرآن: 283.

وهذا يدل على أن الحكم الشرعي يمكن استنباطه واستخراجه من الأمثال بحسب النظر في أدلته التفصيلية، وهذا يتوقف على معرفة المجتهد به، لهذا عده الشافعي واجباً من الواجبات التي يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن، وقد ذكرنا قول الشافعي آنفاً.

والشافعي رحمه الله قد استدل على وجوب المعرفة الجزئية والكلية فيما ضرب في القرآن من الأمثال باعتبار كونها أدلة على الطاعة، ومشخصات على اجتناب المعاصي، ولعله قد استفاد من ذلك أن جزءاً كبيراً من الأحكام الشرعية يمكن استخراجه ضمناً[1]، من جملة هذه الأمثال التي أجلت وبينت بعض الأحكام الشرعية، وقد طرح الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة عن طريق ضرب المثل جملة من المسائل والمواضيع في علم الكلام والعقائد، وقام بعرض بعض المبادئ والأسس إشارات ودلالات فقهية، فضلاً عن التفكر والنظر واستخلاص العبر وترصد لمحات الدعوة والترغيب في دين الله تعالى.

والظاهر من معطيات ودلالات ما قدمنا هنا أننا نجد بعض آيات الأمثال فيها أحكام شرعية، وهذه الأحكام تستنبط من آيات الأمثال استنباطاً لأن وظيفة الآية في الأمثال تختلف عن وظيفة آيات الأحكام والتشريع حيث إن لكل آية مقصداً وهدفاً ومغزى وبحسب ما يتطلبه السياق ووحدة المعاني والأغراض، فالتصوير[2]، هو صيغة آية المثل، والتشريع هو صيغة آية الأحكام، فهناك فرق واضح بينهما، فقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآية 261]، يختلف في أسلوبه وعرضه عن أسلوب قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة،الآية 183].

والناظر في أساليب القرآن يجد أن الاختلاف في العرض والنتائج والمستلزمات والضروريات يعود إلى الهدف والغاية من الموضوع وليست طريقة الأداء، فمشاكل المثل وأداء غرضه جاء بصيغته المعينة التي تمثله، والذي يتوافق مع التشريع ويعاضده يأتي بصيغة أخرى؛ فالمهمة الأولى للمثل ليست مهمة تشريعية في إيجاد الأحكام وبيان القضايا الفقهية، ولكنها مهمة ثانوية قد نهض بها المثل، وقد استلت الأحكام منها من قبل العلماء بعد أن أعملوا الفكر وشحذوا الذهن وقاسوا بالأمثال والدليل الصريح الموافق معها والمشابه لها "وهذه الأحكام والمسائل التشريعية تضاف إلى التراث الإسلامي، وهي

(1) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني: 89.

(2) وقد ذكرنا أن أمثال القرآن كلها قياسية لاحتوائها على التصوير.

شذرات بغاية الدقة، ولمسات تكشف عن جهة هؤلاء الأعلام في الاستنباط والتخريج وخدمتهم في تلقي الأوامر الشرعية عن طريق الاستنتاج والموازنة"[1]، والاستنباط والقياس على أدلة تشريعية أخرى.

المطلب الخامس: مميزات المثل القرآني

عالج الأسلوب القرآني جميع ما يعرض للإنسان من أمور وطرق كل المواضيع والأحوال التي تقع على الإنسان وعلى اختلاف مسمياتها ومتطلباتها وكل ذلك صب في بودقة التذكير، والإرشاد، والتفكر، والنظر، والعقيدة وبناء الإنسان، وغيرها...

ومن مميزات المثل القرآني في عرض العقيدة أن الأسلوب القرآني جعل المثل عنصراً أساسياً في تركيب صياغة الجمل فيه، والمعنى العام لا يتم إلا به، فالأسلوب القرآني في صياغته للأمثال وفي عرضه للأفكار والمتطلبات في سياق الآيات القرآنية لا يقصد بالتشبيه باعتباره تشبيهاً، بل باعتباره حاجة فنية تبنى عليها ضرورة الصياغة والتركيب[2]، فالتمثيل من خلال الأسلوب القرآني في عرض عقيدة التوحيد، والتنبيه على الإله الواحد يعد عنصراً بيانياً يكسب النص روعة واستقامة ويوصله إلى أعلى درجات الإقناع والتأثير من خلال تقريب الصورة والهدف المنشود فضلاً عن كونه عنصراً ضرورياً لأداء المعنى القرآني متكاملاً من جميع الوجوه، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران، الآية 59].

فالناظر في أسلوب القرآن هنا يلحظ كيف يعرض لنا محاججة عقلية ذاتية من خلال إعمال الذهن والتفكر في هذا الجانب الاجتماعي، وهو الغالب في أسلوب القرآن عند طرح عقيدة التوحيد، فصورة التشبيه هنا والمعنى الدلالي الذي يخرج منها يوحي بأدلة قطعية تقطع الشبه عن المحاججين بخلق عيسى عليه السلام دون أب مع اعترافهم بخلق آدم عليه السلام دون أب أو أم فإن "ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر، ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر؟ وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون في عيسى بسبب مولده ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب،

---

(1) الصورة الفنية في المثل القرآني: 170.

(2) ينظر: كتاب الطراز، يحيى بن حمزة العلوي، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، مطبعة دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1415هـ - 1995م: 154.

وأهل الكتاب هؤلاء كانوا يقرون بنشأة آدم من التراب، وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني، دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى، ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة خاصة على حين أن العنصر الذي به صار آدم إنساناً هو ذاته العنصر الذي به ولد عيسى من غير أب، وهو عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك، وإن هي إلا الكلمة "كن" تنشأ ما تراد له النشأة "فيكون"[1]، فإن جاء به الأسلوب القرآني في عرض العقيدة من خلال توظيف التشبيه حاجة ضرورية لإقامة الدليل الدافع وإثبات الحجة بالبرهان القاطع الذي لا يساوره شك. وقد تولدت هذه الدلالات وهذه المعاني من تشبيه الغريب بالأغرب، والبعيد بالأبعد، فإذا اعترف العقل والقلب والفكر بالأغرب والأبعد، كان الاعتراف والإقرار بالغريب والبعيد أولى، لأن عيسى عليه السلام قد أشبه آدم عليه السلام بأحد الطرفين، وهو الخلق دون أب، ولكن آدم زاد عليه بالطرف الآخر[2]، فالأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة هنا يجلي ببساطة هذه الحقيقة، حقيقة عيسى عليه السلام وحقيقة آدم عليه السلام، وحقيقة الكون كله، وتدخل هذه المعاني إلى النفس بيسر وسهولة ووضوح، حتى ليعجب الإنسان ويسأل عقله وفكره عن سبب إثارة هذا الجدل في خلق عيسى وما رافق ولادته علماً أنه جرى مجرى حوادث وموافقات السنن الكونية الكبرى سنة الخلق والنشأة جميعاً وتبرز هنا طريقة الأسلوب القرآني في عرض العقيدة من طريق مخاطبة الفطرة[3]، بالمنطق الفطري الواقعي البسيط في أعقد القضايا[4]، وأخطرها ألا وهي قضية التوحيد؛ فإن تهذيب النفوس تهيئتها وترقيق الطباع وتقويمها هو أحد أهداف الأسلوب القرآني في عرض العقيدة من أجل تحقيق الاستجابة النفسية التي يسعى إليها القرآن، ومجال ذلك هو الترغيب في الشيء أو التنفير منه، وهذان الأمران يدخلان نفس الإنسان دون استئذان، يقول ابن الأثير "إنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس خيالاً حسناً يدعو إلى الترغيب فيها،

(1) في ظلال القرآن: 405/1.
(2) ينظر: الكشاف: 433/1.
(3) وسوف نتكلم على مخاطبة الفطرة في المبحث الأول من الفصل الرابع إن شاء الله.
(4) ينظر: في ظلال القرآن: 405/1.

وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتاً في النفس. خيالاً يـدعو إلى التنفير عنها[1].

المطلب السادس: أغراض المثل القرآني

عالج الأسلوب القرآني عن طريق ضرب المثل مجموعة من المواضيع الـتي تناولـت العقيدة والتوحيد ومجالات أخرى متنوعة تمثلت في الحديث عن عقيدة المؤمنين، وعقيـدة الكافرين، وعقيدة المنافقين، ومنها ما تكلم على الحياة بما فيها من جبال وأنهـار وزروع، ومنها ما تكلم على الموت وأهواله وأرض المحشر وما يرافقها من فزع وخطوب فضلاً عن الحديث حول الإنفاق والحث على فعل الخير والمبادرة إلى فعل الطاعـات وقـد عـرض الأسلوب القرآني من خلال ضرب المثل هذه الموضوعات بأعلى درجات الفن والـصياغة طارقاً كل ما من شأنه أن يفيد الإنسان ويقنعه ويؤثر فيه ويدفعه إلى التفكر وشحذ الذهن وقياس الأمور والنظر الثاقب في جزئيات الأمور لتحقيق الاستجابة النفـسية والفكريـة والعقلية التي يسعى إليها الأسلوب القرآني. ويعد توظيف المثل في الإخبار عـن العقيـدة والتوحيد من أهم الأغراض التي طرقها الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة عـن طريـق ضرب الأمثال والاستدلال علي العقيدة والإله الواحد بأمور مدركة ومستيقنة وواضحة، ولا تحتاج من الإنسان إلا قليلاً من التفكر والنظر وعقد مقارنات ومقابلات بين الـصور التي يعرضها الأسلوب القرآني وهو يعرض لموضوع هو الأهم والأخطـر علـى صـعيد الموضوعات الأخرى التي وردت في تشبيهات القرآن الكريم.

فما ورد في عقيدة التوحيد قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَـاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 41]، فالآية الكريمة تشير إلى حقيقة واضحة لفساد اعتقاد مـن اتخذ أولياء دون الله سبحانه وصرفوا لهم العبادة والدعاء؛ أي "ما اتخذه متكلاً ومعتمداً في دينهم وقوله من دون الله بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القـوة وهـو نـسيج العنكبوت"[2].

---

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة، 1939م: 394/1.

(2) الكشاف: 206/3. وينظر في ظلال القرآن: 2737/5.

فالأسلوب القرآني يعرض عقيدة التوحيد عن طريق ضرب المثل لهؤلاء الكافرين الذين اتخذوا آلهة دون الله سبحانه، فعبادتهم واهية واهنة مثل بيت العنكبوت، ودعاؤهم غير الله ادعاء خائر، والمعبود ضعيف والتجاؤهم إلى غير الله التجاء كالتجاء المهووسين الذين يشبهون العنكبوت عندما يلتجئ لبيت لا يقيه من مكروه، ولا يحميه من مطر أو إعصار، وكما لا ينفع هذا البيت أحداً فكذلك لا تنفع المشركين عبادتهم للأوثان وولايتهم للأشخاص، فهي مثل هذا البيت في التهافت في ذلك؛ لأن المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع، وبه يحصل دفع المضار، فمن لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء[1]، وكذلك الأشخاص والقيم الأخرى فهي واهنة متداعية عاجزة عن حماية نفسها وصياغة وجودها. ومثل هذا لا يعتمد عليه ولا يعتد به، وهؤلاء العاكفون على أصنامهم الباطلة المتخبطون بأهوائهم يسيئون صنعاً ويحسبون أنهم محسنون مهتدون، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ [سورة الكهف، الآيات 103-105]، فهؤلاء المشركون يبذلون جهودهم في بناء الأوهام واتخاذ الأنداد لله تعالى، فهم في عمل لا جدوى معه وجهد ضائع لا تعويض عنه؛ وقد شبه الأسلوب القرآني حالهم بحال العنكبوت التي تتعب نفسها وتجهدها وتشغل حالها ووقتها باتخاذ بيت يفتقد إلى مقومات البيت بل إلى أبسط مقوماته فليس فيه لا قاعدة يستند إليها، ولا جدران له ولا سقف يحميه، ولا مكانة له ولا إحكام وهو يشبه عبادتهم في الضعف والصنعة والهشاشة، والأسلوب القرآني هنا عرض للتصور العقائدي الصحيح والمنهج السليم في عبادة الإله الواحد عن طريق التدليل على ضعف آلهة المشركين ووهنها، ويهدف من خلال ذلك إلى تزهيد الناس في هذه الآلهة وتنفيرهم منها "وجموع التشبيهات الواقعة في التنزيل فإن لها مقاصد عظيمة ومطمئنة وأغراضاً دقيقة يعقلها من كان في هذه الصناعة بأوفر حظ وكان له فيها أدنى ذوق وحام حول تلك الدقائق بذهن صاف من كدرة البلادة"[2]. فالأسلوب في عرض العقيدة فضلاً عن توظيف الظواهر الطبيعية نحو

(1) ينظر: مفاتح الغيب: 69/25.
(2) كتاب الطراز: 552.

السنن الكونية، عمد إلى الكائنات الحية من الحيوانات فوجد فيها ملاءمة لضرب الأمثال وتصوير الأحداث ومسايرة الواقع المعاصر في الحال أو الاستقبال فاختار أوهنها لضعف العبادة ووهنها وهي العنكبوت، وتجدر الإشارة إلى أن هذا التوظيف من قبل القرآن لهذه الكائنات الضعيفة أثار حفائظ المشركين والكفار واليهود ودفعهم إلى إنكار ضرب الأمثال في القرآن، واستغربوا الأمر، وهم بذلك يترصدون بالمسلمين ويتحينون الفرصة للطعن في هذا القرآن. وقد بلغ إنكارهم ذروته حينما ضرب القرآن المثل بالبعوضة فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية 26]، وقد كانوا مستغربين لضرب العنكبوت مثلاً سيق ذكر العنكبوت وذكر البعوضة في القرآن[1]، فقال الكافرون والمشركون واليهود: وما هذا من الأمثال؟ وأطلقوا القول نفسه عند نزول قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [سورة الحج، الآية 73]، فجمع ذكر الذباب والعنكبوت في المثلين، وأمامهم ضرب البعوضة مثلاً فضلاً عن ذكر الكلب والحمار في موضعين آخرين في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [سورة الأعراف، الآية 176]، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الجمعة، الآية 5]، وقد استغل هؤلاء الكافرون هذه الفرصة للإنكار والتشكيك وبثه بين الناس للنيل من القرآن ولكن إنكارهم ومكرهم قد باء بالإخفاق منذ لحظته الأولى ذلك لأن ضرب المثل مصلحة من المصالح، وهذه المصلحة قد تدعو إلى التمثيل بالحقير من الأشياء كما تمثل بالعظيم منها، والنتائج تكون واحدة عند الغاية، والعاقل إذا سمع التمثيل استبان له الحق[2]، وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وغيرها لتصوير مشاهد الحياة الإنسانية، فإن دعوى إنكار ضرب المثل من خلال الأدلة والبراهين دعوى متناهية لا تقوم على نهج وأساس سليمين، ولهذا فإن الأسلوب

(1) ينظر: أسباب النزول: 256.
(2) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني: 97.

القرآني في ضرب المثل لا يستحي ولا يقلل من قدره سبحانه من ضرب الأمثال بأدنى مخلوقاته بعوضة أو دونها، لأن التمثيل مسوق لتقرير واقع وكشف حقيقة من أجل وضع الإنسان أمام التصور الصحيح حاثاً إياه للتبصر والنظر وقياس الأمور وصنع المقارنات ليصل إلى الهدف المنشود والغايات المقصودة، وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [سورة الحج، الآية 73]، والآية الكريمة تشير إلى حقيقة التوحيد والإله الواحد من خلال الإشارة إلى ضعف الآلهة التي يعبدها الكافرون، فإن خلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل، لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز، سر الحياة فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل، ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل، والآلهة التي يدعونها لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه سواء كانت أصناماً أو إناثاً أو أشخاصاً[1]. ونلحظ دقة الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة من خلال تقرير العبرة في مخاطبة الناس والعبرة في ضرب الأمثال ليست بأدواتها وآلاتها، وإنما بمكنوناتها، فالله سبحانه يعلم ما في البعوضة والذباب من سر الإعجاز في التركيب الجسماني فوق ما توصل إليه العلم الحديث، فإن حقائق القرآن لا تنتهي ولا تنضب، ولعل في هذه الكائنات من إبداع وتحدٍّ وإعداد وإنجاز خلقي ما لا نشاهده بأكبر الأجسام ضخامة وكبراً، والله سبحانه هو المبدع في جميعها[2]، فالله سبحانه يشير إلى حمق هؤلاء الكافرين وقد "جهلهم غاية التجهيل بأن أشركوا إلهاً قدر على المقدرات كلها، وتفرد بإيجاد الموجودات بأسرها تماثيل هي أعجز الأشياء، وبين ذلك بأنها لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلها لو اجتمعوا له، بل لا تقوى على مقاومة هذا الأقل الأذل وتعجز عن ذبه عن نفسها، واستنقاذ ما يختطفه من عندها"[3]، ولا قدرة لها على حماية نفسها فكيف غيرها؟! والأجسام الصغيرة لهذه الكائنات على ضآلتها ونحافتها وصغرها، ما زالت مؤشرات منبهة

---

(1) ينظر: الكشاف: 22/3. الجامع لأحكام القرآن: 97/12. في ظلال القرآن: 2444/4.
(2) ينظر: الإشارة الجمالية في المثل القرآني: 83.
(3) الصورة الفنية في المثل القرآني: 99.

على التحدي المتكامل، وهي دلائل ناصعة تحث الإنسان على التفكر ليجد نفسه أمام عظمة الخالق وجبروت البارئ المصور وقد "عدَّ الناس منذ ضرب لهم كتاب الإسلام هذا المثل أربعة عشر قرناً، وما يزال المثل القرآني يتحدى كل جبروت الغزاة وعبقرية العلماء وما يزال على الذين غرهم الغرور بما حقق إنسان العصر الحديث من معجزات العلم أن ينسخوا ذلك بأن يجتمعوا فيخلقوا ذباباً أو يستنقذوا شيئاً سلبتهم إياه هذه الحشرة الضئيلة التي تقتلها ذرة من هواء مشبع بمبيد الحشرات، وتستطيع مع ذلك أن تسلب مخترع المبيد حياته هينة خاطفة تحمل إليه جرثومة داء مميت"[1].

فالأسلوب القرآني يختار المفردات والسياقات المناسبة في المكان المناسب من أجل التأثير في العقول والقلوب عند عرضه للعقيدة، فإن كان الموضوع الذي يضرب له المثل عظيماً جليلاً كالحق والإسلام ضرب مثله بالنور والضياء وإن كان ما يضرب له المثل حقيراً ضعيفاً كالأصنام والتماثيل مثله بما يماثله ويشابهه كالذباب والبعوض.

فالأمثال أدوات للتنوير والتبصير، وليس في ضرب الأمثال ما يعاب وما من شأنه الاستحياء من ذكره، والله سبحانه يريد بها اختبار القلوب وامتحان النفوس ليميز الله الخبيث من الطيب بعد أن عرض لهم ما فيه تبصرة للإفهام وتجلية للعقول بأبسط عبارة وأعظمها تأثيراً دلالة وبلاغة وصياغة.

ومما ورد في الإشارة إلى العقيدة عن طريق ضرب المثل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الروم، الآية 28]، والأسلوب القرآني في سياق هذه الآية الكريمة يعرض للعقيدة والتوحيد عن طريق ضرب المثل لشيء واقع ومعاصر لحياة هؤلاء الجاحدين الكافرين؛ فإنهم يأبون أن يكون لهم شريك من عبيدهم ويتحاشون أن يساويهم مملوك في حقوقهم وأموالهم، ولا يتحاشون من وضع الشريك لله عز وجل "وضرب هذا المثل لمن كانوا يتخذون من دون الله شركاء خلقاً من خلقه جناً أو ملائكة أو أصناماً أو أشجاراً وهم لا يرتضون أن يشاركهم مواليهم في شيء مما تحت أيديهم من مال، ولا يسوون عبيدهم بأنفسهم في شيء من الاعتبار يبدو أمرهم عجباً يجعلون لله شركاء من عبيده وهو الخالق والرزاق

(1) القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار العلم للملايين - بيروت، 1972م: 87.

وحده، ويأنفون أن يجعلوا لأنفسهم من عبيدهم شركاء في مالهم، ومالهم ليس من خلقهم إنما هو من رزق الله، وهو تناقض عجيب في التصوير والتقدير"[1]. وهذا المثل الذي صاغه الأسلوب القرآني عرض للتصور العقائدي الصحيح بتشبيه واضح بسيط حاسم لا مجال للجدال فيه، وهو يرتكز إلى المنطق البسيط وإلى العقل المستقيم، فالأسلوب القرآني بين ضلال الكافرين وحمقهم من خلال سياق الآية الكريمة "فهذه الهيئة المشبهة المشبه بها هيئة قبيحة مشوهة في العادة لا وجود لأمثالها في عرفهم، فكانت الهيئة المشبهة منفية منكرة، ولذلك أدخل عليها استفهام الإنكار والجحود لينتج أن الصورة المزعومة للأصنام صورة باطلة بطريق التصوير والتشكيل إبرازاً لذلك المعنى الاعتقادي الباطل في الصورة المحسوسة المشوهة الباطلة، ولذلك عقب بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي نفصل الدلائل على الاعتقاد الصحيح تفصيلاً كهذا التفصيل وضوحاً بيناً"[2].

فهذا المثال يشير إلى وحدانية الله والعقيدة الصحيحة بعرض الأدلة والبراهين على ذلك بالعقل المفكر والنظر الصائب، وفيه إشارة إلى اضطراب عقيدة الكافرين ووضوح وثبات عقيدة الموحدين[3]، وقد انتهج الأسلوب القرآني عند عرض العقيدة منهجاً عقلياً في الاستدلال، وقد طرق لذلك الاستدلال مجالات عدة تدور حول إبطال الباطل، وإبراز الحق ورفعه وعلوه، ودفع الشبه، وإقامة الدليل القاطع، وإدلاء الحجة والبرهان، فإن استعمال الأمثال في الكلام أنجح مطلباً ومذهباً "لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكناً فهو يحتاج إلى ما يدل على صحته والمثل مقرون بالحجة، ألا ترى أن الله عز وجل لو قال لعباده: إني لا أشرك أحداً من خلائقي في ملكي لكان ذلك قولاً محتاجاً إلى أن يدل على العلة فيه ووجه الحكمة في استعماله، فلما قال: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [سورة الرعد، الآية 28]، كانت الحجة من تعارفهم مقرونة بما يخبرهم به من أنه لا شريك له في ملكه من خلقه لأنهم عالمون أنهم لا يقرون أحداً من عبيدهم على أن يكون فيما ملكوه مثلهم، بل يأنفون من

---

(1) في ظلال القرآن: 2766/5. وينظر: روح المعاني: 37/21.
(2) التحرير والتنوير: 86/21.
(3) ينظر: منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام: 83.

ذلك ويدفعونه، فإن الله سبحانه أولى بأن يتعالى عن ذلك"[1]، ونلحظ دقة الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة من خلال تصوير حال هؤلاء الكافرين المشركين، فهم فيما كانوا يعبدون من الحجارة أو الجن أو الملائكة أو الكواكب، لم يرتضوا لعبيدهم أن يساووهم في شيء أو يكونوا شركاء لهم في الأموال والأولاد، فكيف يرتضون الشريك؟ فيجب إذا ما قيست الحالة قياساً بشرياً عقلياً أنهم كما لم يرتضوا لعبيدهم المشاركة في الأموال والمساواة في الأغراض، مع خوفهم هذا المعنى، وحذرهم من الشريك المنازع، ألا يرتضوا لربهم شريكاً، ولا لخالقهم نداً، فأنى يعدل به أحد من خلقه وقد أقرهم بالحجة على أنفسهم في مثل هادف يأبى مشاركة المماليك للأحرار، والعبيد للسادة، خوف الجور في الحكم، والتعالي بالأموال واقتناص الممتلكات[2]؟ وقد وصل الأسلوب القرآني من خلال عرضه العقيدة بهذا التصور إلى أعلى درجات الإقناع والتأثير لأنه يعتمد في بنائه على الاستدلال العقلي المستمد من واقع الإنسان وحاله والمعطيات الموجودة حوله، وهذا النهج المنطقي في التصور والإدراك يعد من أرقى مناهج الاحتجاج العقلي في ميادينه كافة منذ أن استنبط الإنسان مقدمات الأحداث والحقائق الثابتة والبدهيات للاستدلال والبرهنة على نتائجها.

ومما جاء في التدليل على العقيدة من خلال ضرب المثل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل، الآية 75].

والمثال مأخوذ من واقعهم فقد كان لهم عبيد مملوكون لا يملكون شيئاً ولا يقدرون على شيء، وهم لا يسوون بين العبد المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف، فكيف يسوون بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد أو شيء مما خلق، وكل مخلوقاته له عبيد؟ "وقد بين الأسلوب القرآني معنى العقيدة الصحيحة من خلال بيان ضعف الأوثان وقلة حيلتها، ومن خلال سياق هذه الآية الكريمة يتميز التعبير الرمزي عن الأوثان والأصنام، والتمثيل الحسي للعجز والقدرة، والتطور في خصائص الأسلوب الاجتماعية، ببداهة من

(1) نقد النثر، قدامة بن جعفر، تحقيق طه حسين، وعبد الحميد العبادي، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة، 1933م: 57.
(2) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني: 365.

التعبير والإقناع، فإن من كان مملوكاً عاجزاً لا يقدر على الإنفاق والتصرف، قد غلت يداه، وكبلت قواه ليس كمن هو سيد أمره، وملك نفسه ورجل ثروته وماله، يتصرف في ذلك أنى يشاء فهل يستوي هذا وهذا؟ وفي ذلك دلالة واضحة على أن الله سبحانه مالك الأمر وهو المتصرف به، وأن الأصنام جامدة لا نبض لها ولا عقل ولا إرادة، فكيف تدعون أنها تتصرف بكم وتتحكم بكم؟! وقد وضع الأسلوب القرآني هؤلاء الكافرين على حجة ناصعة لا تقبل الشك وقضى بها على دعوة الإشراك الباطلة ودعوة غير الله سبحانه.

إن الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة عن طريق ضرب المثل يميل الى التعبير الرمزي[1]، عن حقيقتي الكفر والإيمان بهذا الأسلوب المنتزع من واقع العالم المعاصر للدعوة الإسلامية فيصوره أمراً حسياً قابلاً للفهم المتبادل بين القوى المتناحرة كافة ويعود إليه في موضعين الأول في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة النحل، الآية 76]، وهذا المثل يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذي لا يدري شيئاً ولا يعود بخير، والرجل القوي المتكلم الآمر بالعدل، العامل المستقيم على طريق الخير، ولا يسوي عاقل هذا وذاك، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر بالمعروف، الهادي إلى صراط مستقيم[2]؟! وقد استغنى هؤلاء الكافرون وعلموا بداهة أن الله يأمر بالعدل والإحسان وهو على الخط الواضح والنهج البين، وأن الأصنام لا حول لها ولا قوة؛ فهي حجارة خرساء صماء، وقد علم الناس أن الآمر بالمعروف والهادي إلى السنن غير الرجل الأخرس الذي لا يعي، وغير الأبكم الذي لا يعقل صنعاً وبلادة، فكيف - والحالة هذه - يتساوى الصنم وهو العاجز الواهن بالله وهو الخالق البارئ المصور؟! إذاً لا يستويان قط، وبهذا الاستدلال أقام الأسلوب القرآني الحجة الدامغة على هؤلاء المشركين في بطلان اعتقادهم وعبادتهم، وقد عاد الأسلوب القرآني إلى ضرب هذا النوع من المثل زيادة في التوكيد كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً

(1) ينظر: منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام: 85.
(2) ينظر: في ظلال القرآن: 2183/4.

سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر، الآية 29]، والأسلوب القرآني يشير في سياق الآية الكريمة إلى مثل جديد للتدليل على التوحيد والعقيدة السليمة فالله سبحانه يضرب المثل هنا للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه، وهو بينهم موزع ولكل منهم فيه توجيه، ولكل منهم عليه تكليف، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه، وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه، ويكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح، فإنهما لا يستويان فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق والذي يخضع لسادة متشاكسون معذب مقلقل لا يستقر على حال ولا يرضى واحدا منهم فضلاً عن أن يرضي الجميع[1]. فهذه الصورة التي يصفها الأسلوب القرآني لرجل يتخاصم فيه الشركاء ويتشاجرون بشدة، فهم بين آخذ وراد، ودافع ومانع، وهو بينهم موزع الأداء، مزعزع الاستقرار، لا يدري ما يصنع، فلكل فيه رأي، ولكل عليه تكليف، وهو في ظلمة من أمره، لا ينقذه عقل ولا يشفع له تفكير، فكل يريد إفراده بالخدمة وإيثار المنفعة، وهو يعد ولا يفي، أو يغني لكنه يعجز عن الإتمام، فتتقاذفه الأهواء في دوامة صراع نفسي مرير، وهذا مثل المشرك أو الكافر، أما المؤمن فهو الذي يتوجه لسيد واحد ومالك مقرر لا يتعدى أمره ولا يتجاوز ضرورته ولا يخلط بخدمة أحد سواه، ومن كان هذا شأنه فقد ظفر بعواقب أمره، ونال غاية خدمته[2].

"وهذه المثل تصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال، فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى، لأن بصره أبداً معلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوي به الطريق، ولأنه يعرف مصدراً واحداً للحياة والقوة والرزق، ومصدراً واحداً للنفع والضرر ومصدراً واحداً للمنح والمنع، فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد يستمد منه وحده، ويعلق يديه بحبل واحد يشد عرقه ويطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ عنه بصره، ويخدم سيداً واحداً يعرف ماذا يرضيه

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن: 3049/5. وينظر التفسير الفريد: 2673/4.
(2) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني: 289.

فيفعله، وماذا يغضبه فيتقيه، وبذلك تتجمع طاقاته كذلك وتتوحد، فينتج بكل طاقاته وجهده وهو ثابت القدمين على الأرض متطلع إلى إله واحد في السماء"[1].

أما الذي جعل مع الله إلهاً آخر فإنه يعيش مرهق الأعصاب قلق النفس، خائر القوى لا يملك القدرة في تحديد اتجاهاته ولا في ضبط حدوده، ولا تنتهي لواعجه وآهاته، فهو دائم الحيرة وفي وحدة وعزلة قاتلة، وفكر شارد مشوش، فلا يدري ماذا يعبد وما هي نتائج عبوديته، وهو يغالط هواه، ويخدع فطرته وسفينة أوهامه لا تصل به إلى ميناء، ولا يقوده ربان تلعب به الأمواج وتهدر عليه الشبهات، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [سورة محمد، الآية 3]، إن هذه الأمثال التي يسوقها الله سبحانه في القرآن لتوضح للناس ما أنبهم عليهم، وتكشف الغامض أمامهم، وتقنعهم بما يساق لهم من الدليل الواضح والبرهان الصحيح، الناتج عن الموازنة الحسية أو المعنوية الدقيقة التي لا تدع مجالاً للشك والظن لوضوحها ومطابقتها للواقع.

فالأسلوب القرآني جعل من المثل أحد طرق الإخبار عن العقيدة لما له من أثر في نفوس الناس، ولما له من قوة في بسط الحجة وإقامة الدليل والبرهان، ولقد أكد القرآن تجسيد هذه الفكرة في سياقاته مدعماً إياها بأدلتها القطعية، فقال تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [سورة الفرقان، الآية 33]، فقد مد الله نبيه ﷺ بالحجج البالغة في هذا القرآن فكلما فتحوا باباً من الاحتجاج المدعى فتح عليهم باباً مثله، وكلما جادلوا بالباطل رفض جدلهم، فالحجة الواهية تذوب وتسقط أمام الحجة الثانية، والبرهان المتزلزل يقابل بالبرهان الراسخ، والباطل يدمغ بالحق، والحق هو غاية القرآن وهدفه ومقصوده، والأسلوب القرآني يأتي به مثلاً واضحاً، أصلب عوداً من دعواهم، وأعمق حجة من ذرائعهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَ مُبْطِلُونَ﴾ [سورة الروم، الآية 58]، ففي الآية إشارة إلى إزالة الأعذار بما فوق الكفاية من الأعذار، وأنه لم يبق من جانب الرسول أي تقصير، فإن طلبوا شيئاً آخر فذلك عناد، ولكن الله سبحانه ألزمهم الحجة بأن ضرب لهم في القرآن من كل مثل، قطعاً لجدلهم ودفعاً لنوازعهم ولكنهم يصرون جهلاً ويكيلون القول جزافاً فيكذبون كل آية ويدعون البطلان على من

(1) في ظلال القرآن: 3049/5.

صدق وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم، والكذب لا يحتاج إلى دليل لأنه رغبة معينة تصدرها دوافع نفسية، والمغالطة لا تطلب البرهان، لأنها تزييف الوقائع بأساليب البهتان والجهل والعناد.

وقد استطاع الأسلوب القرآني عند عرضه للعقيدة بطريق ضرب المثل أن ينتزع من المشركين أنفسهم اعترافاً ضمنياً يصدق القرآن ودعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأنه ليس قول البشر، وهذا الاعتراف الذي وقع ضمناً وباللازم، ذلك أنهم عندما سمعوا القرآن نسبوا السحر الى ما استمعوه منه، واعتبروا النبي رجلاً مسحوراً كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ [سورة الفرقان، الآية 8]، فقال سبحانه عنهم في سورة أخرى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [سورة الإسراء، الآية 48]، ونتيجة لإحساسهم الغريب بسحر هذا البيان في القرآن وكلام البشر ليس فيه إحساس غريب فهم قد أقروا شاؤوا أم أبوا بظهور إعجازه ووضوح دلالته ولكنهم أخطؤوا القصد، وجاروا في الحكم بضرب الأمثال للنبي صلى الله عليه وسلم بالسحر تارة، وبالكهانة أخرى وبالشعر سواهما.

المبحث الثاني

القصة القرآنية في عرض العقيدة

ويشتمل على ثمانية مطالب:

المطلب الأول: القصة في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: أغراض القصص القرآني.

المطلب الثالث: أنواع القصص القرآني.

المطلب الرابع: فوائد القصص القرآني.

المطلب الخامس: التكرار في القصص القرآني.

المطلب السادس: الوحي من أسس القصص القرآني.

المطلب السابع: ما يجب في حق الرسل من القصص القرآني.

المطلب الثامن: المعجزات في القصص القرآني.

المطلب الأول: القصة في اللغة والاصطلاح

القصة في اللغة: تتبع الأثر يقول ابن منظور: "قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء"[1]، ثم تطور هذا الأصل إلى أن "القص فعل القاص إذا قص القصص، والقصة معروفة، والقاص الذي يأتي بالقصة من قصها"[2].

هذا التطور في الأصل هو المصطلح حيث يتتبع القاص أحداث قصته شيئاً بعد شيء، أما الدليل القرآني فهو وجود القصة فيه، والتي تقابل معرفة العرب بالقصص في واقع حياتهم الأدبية، فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب وعلى طريقهم في التعبير، وتحداهم في أقوى خصائصهم المميزة بلاغة اللفظ وفصاحة اللسان، وأن العرب عرفوا من صور التعبير الأدبي ما جعل القرآن أليفاً إليهم واضحاً عندهم، دليلاً بلاغياً ضخماً على الوحي والرسالة[3]، فالمعروف كما قال الباقلاني صاحب إعجاز القرآن وعلماء عصره العباسيون، وليس القرآن شعراً ولا نثراً وإنما هو قرآن"[4].

وقد كان لجوء القرآن الكريم إلى القصص دليلاً واضحاً على أنه كان يعرف أنها الطريق الأمثل الذي ينفذ به إلى عقول الناس وقلوبهم فليس معقولاً أن يخاطب الكتاب الكريم الناس بأداة جديدة عليهم، وأسلوب لم يعهدوه من قبل، وقد جاء الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة والتصور العقائدي الصحيح عن طريق القصص بأعلى درجات الفن والصياغة والإقناع والتأثير، وقد جاء ليقاوم عقائد فاسدة وليقاوم مبادئ فاسدة وليقاوم قصورات وأفكار عقائدية فاسدة، وهذه العقائد بما تحمله من مبادئ ومثل يظن معتنقوها ومعتقدوها أنها الحق تمثل تراثاً وإرثاً كبيرين يملآن عقول الناس وقلوبهم وتفكيرهم، فكان على القرآن أن ينتزع هذه العقائد نزعاً وأن يزيلها ليحل محلها عقيدة الحق والمنهج السليم[5]. وقد كانت سياقات وأنساق القصص تتمتع بحرية كاملة في معالجة جميع

---

(1) لسان العرب: 72/7.

(2) ينظر: لسان العرب: 73/7.

(3) ينظر: الظاهرة القرآنية والعقل، علاء الدين المدرس، ط1، مطبعة العاني – بغداد، 1986 م: 64.

(4) ينظر: إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط4، دار المعارف – القاهرة: 286.

(5) ينظر: القرآن الكريم معجزة ومنهاج، محمد متولي شعراوي، مطبعة دار الندوة الجديدة – بيروت، 1405هـ - 1984م: 139.

أغراض القرآن العامة[1]، فضلاً عن التوجه العقائدي، وقد كان الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة في سياق معاني ومدلولات القصص القرآني "أحد الأساليب التي حملها القرآن يحاج الناس، وليقطعهم عن الجدل، والمحاكمة والقصص نسيج من الصدق الخالص، وعصارة من الحقيقة المصفاة لا تشوبه شائبة من وهم أو خيال، إنه يبنى من لبنات الواقع بلا تزييف ولا تمويه"[2]، فالغاية والهدف والمتطلب من توظيف القصص في القرآن الكريم ليس مجرد الإعلام بما حدث من أخبار الأمم والشعوب الغابرة بالتتبع الصادق لأخبارها، وإنما الغاية أن يكون هذا القصص نفسه هادياً للمؤمنين إلى الطريق الصحيح الذي يتبعون به خطا من سلف من المؤمنين الذين اختاروا الهدى والعقيدة الصحيحة على نظرية علمية صائبة قائمة على علم يقين ثابت لا تشوبه شبهة ولا يعتريه ظن أو رجم بالغيب، نابذين الضلالة والإلحاد وفساد الاعتقاد، وبناءً على ما سبق فإنه لا بد من "فهم أسلوب القرآن في إيجازه ومجازه وكنايته وإشاراته"[3]، خاصة عند حديثه عن العقيدة وإقامة التوحيد فضلاً عن وجود العبرة في القصص القرآني بشكل عام، وهو أمر مقصود في سياقات وأنساق القرآن، وقد أشار إلى ذلك في مواضيع كثيرة عنه قوله تعالى: ﴿فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 176].

وقد جعل الأسلوب القصصي في القرآن مصارع الأقوام الغابرة مطارق على قلوب الكافرين لعلهم يؤمنون والمواضيع التي بثها الله عز وجل في القصص القرآنية كثيرة، وأبرزها العقيدة؛ ذلك "إن الإنسانية تتشابه في جميع مراحلها المختلفة في حاجاتها الرئيسية التي ينبغي إدراكها في حياتنا أفراداً وجماعات، وكما أن أمراض الفرد والجماعة واحدة في جميع مراحل الإنسانية وعصورها كذلك فإن الخطوط العريضة في العلاج واحدة نظراً لكون المرض واحداً"[4]، فعند تتبع القصص القرآني نجد أمراض الإنسانية الأولى، وفي المقابل نجد الحل والعلاج الإلهي لهذه الأمراض "والقصة القرآنية لون مختلف من أساليب القصص، فهي ليست ضرباً من الأقصوصة أو القصة القصيرة أو الحكاية المتعارف عليها

---

(1) ينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ط9، دار المعارف - القاهرة، 1980م: 87.

(2) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم ويوسف، عبد الكريم الخطابي، ط2، دار المعرفة - بيروت، 1175هـ: 8.

(3) سيكولوجية القصة في القرآن، الدكتور التهامي نقرة، المطبعة التونسية - تونس، 1974م: 27.

(4) البيئة والتكييف وموقف الإسلام منها، عابد توفيق الهاشمي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية - بغداد، ع2، 1968م: 27.

بين النقاد ورجال الأدب، فهي لا تحمل في كلياتها كل العناصر التي بدأت لفيض من النقاد المحدثين على اشتراطها في القصة"(1).

المطلب الثاني: أغراض القصص القرآني

لقد عالجت القصة القرآنية مجموعة من الأغراض والمتطلبات المتنوعة وأسهمت من خلال هذه الأغراض والمتطلبات في بناء شخصية الإنسان ووجهته الوجهة الصحيحة لتصل به إلى بر الأمان، وكان من أهم هذه الأغراض إثبات الوحي والرسالة، وبيان أن الدين كله من عند الله من عهد نوح عليه السلام إلى عهد محمد ﷺ وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله الواحد رب العالمين، وبيان أن الدين كله موحد الأسلوب فضلاً عن أنه كله من عند إله واحد، وبيان أن رسائل الأنبياء في الدعوة موحدة وأن الدين قائم على أساس واحد، وبيان الأصل المشترك بين دين محمد ﷺ ودين إبراهيم عليه السلام بصفة خاصة ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة، وكان من أغراض القصة القرآنية أيضاً بيان أن الله ينصر أنبياءه في النهاية ويهلك المكذبين، وذلك تسلية وتثبيتا لمحمد ﷺ. وكان من أغراض القصة القرآنية تصديق التبشير والتحذير، وبيان نعم الله على أنبيائه وأصفيائه، والتنبيه لبني آدم الى غواية الشيطان، وإبراز العدوان الخالد بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، فضلاً عن بيان قدرة الله سبحانه على الخوارق(2)، وبيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة والحكمة الإلهية البعيدة الغنية، وقد لفت القرآن الكريم بأسلوبه القصصي النظر الى التاريخ ليكون مصدراً من مصادر القص الذي تهدف معاينة ودلائله إلى أخذ العبرة والنظر في العواقب كما أخبر القرآن عن ذلك في مواضيع كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية 137]، والقرآن الكريم لا يقدم "قصصه" وصوره ومشاهداته لمجرد ترف ذهني أو إشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والصور والمشاهدات، ولا لنزعة أكاديمية فيه تسعى الى تتبع ما حدث فعلاً بأكبر قدر من الأمانة ودون إكثارات للمدلولات الكبرى لهذا الذي حدث وإشاراته الأخلاقية، فإن القرآن يجيء بمعطياته التاريخية تلك من أجل أن

(1) الإيقاع القصصي في القرآن، أحمد عبد الله خلف الجبوري، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، 1421هـ - 2000م: 17.

(2) ينظر: التصوير الفني في القرآن: 120-128.

يحرك الإنسان صوب الأهداف التي رسمها الإسلام، ويبعده في الوقت ذاته عن المزالق والمتعرجات التي أدت بمصائر الكثير من الأمم والجماعات والشعوب كما يجيء بها من أجل أن يبرز الفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والإسلامية[1]، والقرآن الكريم يدرك ميل الإنسان وحبه وتطلعه للقصة ويدرك ما لها من تأثير فطري في القلوب والأسماع، فاستخدم كل أنواع القصة: القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها، والقصة الواقعية التي تعرض نموذجاً لحالة بشرية، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك النموذج، والقصة التمثيلية التي لا تمثل واقعة بذاتها ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة من اللحظات وفي أي عصر من العصور، ومن النوع الأول كل قصص الأنبياء وقصص المكذبين بالرسالات، وما أصابهم من جراء هذا التكذيب؛ وهي قصص تذكر بأسماء أشخاصها وأماكنها وأحداثها على وجه التحديد والحصر موسى وفرعون، عيسى وبني إسرائيل، صالح وثمود، هود وعاد، شعيب ومدين، وإبراهيم وإسماعيل...

ومن النوع الثاني قصة بني آدم الطَّيِّلاً، ومن النوع الثالث قصة صاحب الجنتين[2]، وقد وظفت هذه القصة في إقناع الإنسان من خلال دفعه بما تحويه هذه القصص من أفكار ودلالات ومعانٍ، وحتى ما بينها من إشارات إلى التفكر والتدبر بما سمع، "ومما يلفت النظر في قصص القرآن الكريم أنها إيجابية متفائلة والانطباع الذي تتركه في نفس القارئ انطباعاً ينسجم مع غاياتها في تكوين الشخصية الإسلامية والمجتمع الإسلامي، فهي دائمة التوجيه ولفت النظر إلى انتصار الخير على الشر، فمهما يكن للإنسان جبروت وسطوة فإنه قائم إلى زوال، وتبدو النظرة الإيجابية المتفائلة في منهج القصة القرآنية في طي الصفحات المثيرة الفزع في حياة الأنبياء وأصحابهم والاكتفاء بالإشارة إليها إشارة عابرة، وتولد في النفس بأساً ولا تثير رعباً، بل إن القرآن الكريم حين عرض أخبار بعض الأنبياء الذين انتهت حياتهم بالقتل أقفل هذا الجانب و لم يعرج عليه، فقد قص علينا كثيراً من أخبار زكريا ويحيى عليهما السلام، ولكنه لم يشر إلى نبأ قتلهما و لم يلفت الأنظار إليه، ذلك لأن قص

---

(1) ينظر: الوصف في القصة القرآنية: 17.

(2) ينظر: منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ط7، دار الشروق – بيروت، 1403هـ – 1983م: 193.

أحداث القتل هذه قد يوقظ الفتنة النائمة ويغري السفهاء بارتكاب الجرائم أعداء الدعوة إلى الدعاة[1].

والنفس الإنسانية معرضة لأن تتبع الهوى إن لم تتمسك بالأمر الإلهي والهدي النبوي، ولذلك كان القرآن شفاء للنفوس من الوقوع في براثن الشرك والظلم واليأس والرجعية والضلال المبين[2].

لقد طرق الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة وفي التوجيه لعباده التوحيد كل الطرق التي من شأنها أن تؤثر في الإنسان وتحثه على التفكر والتدبير في الاستدلال على المعبود، وقد جاء الأسلوب القرآني بالقصص القرآني ليجعل منه ومما فيه من عبر وعظات دليلاً على صدق دعوة الرسول وصدق ما دعا إليه في إقامة التوحيد والعقيدة الحق، وقد كان من هذا القصص القرآني أن بنى عقيدة قوية على أنقاض ما هدمه من خرافات وأباطيل رانت على القلوب، وتمكنت من العقول واغتالت الإنسانية عن فطرها، وعن الأديان السماوية السابقة أجيالاً، وقد ارتبطت دعوة القصص إلى هذه العقيدة في ثلاثة اتجاهات وهي[3]:

أولاً: التعريف بالله وصفاته وأفعاله تعريفاً مفصلاً، حتى كان العباد يحسون به في أعماقهم، وهو على عرشه يكلم ملائكته، ويدبر الأكوان ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاهم، ويعلم ما تكنه صدورهم وتخفيه سرائرهم، يأمر وينهي ويرضى ويسخط ويرحم، ويجيب دعوة المضطر، ويفك العاني، وينصر المظلوم، ويأخذ الظالم، ويسوق الأقدار إلى مواقيتها، ويجريها على نظامها.

ثانياً: التعريف بالطريق الموصل إلى صراطه المستقيم، والإيمان برسله الدالين على هذا الطريق، المعرفين بمسالك الحق والخير.

ثالثاً: التعريف بالمآل بعد الموت وهو اليوم الآخر وما يتضمنه من بعث وحساب وعقاب وثواب وجنة ونار[4]، والمخاطبون بهذه المعاني والأفكار القرآنية مدعوون إلى معرفة هذه الحقائق والإيمان بها، وهم ليسوا سواء في ملكاهم العقلية واستعداداهم الفطرية،

---

(1) ينظر: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، نقلاً عن مجلة الخضر: 193.

(2) التحليل النفسي في القصص القرآني، د. محمد حسن الشرقاوي، مجلة الفيصل: عدد 96، 1985 م: 701.

(3) ينظر: سيكولوجية القصة في القرآن: 423.

(4) ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية (ت 751هـ)، مطبعة دار الكتاب العربي - بيروت، 1392هـ - 1972م: 223.

ولا في تطوراتهم وأخلاقهم وطباعهم، ذلك أن النتيجة التي تحصل إنما تحصل من تأثير عامل معين فيهم، وهذا العامل المؤثر يختلف باختلاف الأشخاص والأقوام، بل يختلف حتى في الشخص الواحد من حين لآخر، فمنهم من يتأثر بنوعية وجدانه، واستهواء عاطفته، وإيقاظ شعوره فتلتقي مشاهداته في الخارج مع تأملاته الباطنية ويهتدي إلى المعرفة، وكأن وحياً أشرق عليه، وهو ما يسميه علماء النفس "حدساً" ويسميه الشعراء "إلهاماً" ويسميه الصوفية "كشفاً وإشراقاً"، ومنهم الجدليون الذين لا يذعنون لغير البرهان، ولا يقنعون بغير الحجج العقلية وما يستخدم فيها من قياس واستقرار وتمثيل، ومنهم أهل الذوق البياني الذين ينجذبون لفنون القول، والكلمات التي أتقن تنظيمها وسبكها، ودعمت بالصور التشخيصية والرسوم البيانية والتعبيرات التمثيلية وغيرها من الأساليب التي تنقل الحقائق إلى الآخرين في إطار فني جذاب كما أن فيهم المتعصب لنظم مورثة تعززها عدة عوامل من معتقدات وخرافات، وعادات نمت على مدى السنين، حتى رسخت وكادت تستعصي على كل معالجة مركزية منطقية، وهؤلاء لا يجدي معهم البرهان، وإنما الإقناع المبني على العاطفة، لأن غاية البرهان ذيوع الحقيقة فقط بصورة مستقلة عن الشخص، أما غاية الإقناع فتسخير عقل المخاطب وتعجيزه حتى لا يقدر على الاعتراض لأنه لم يبق عنده ما يعترض به، وفيهم العنيد الذي يحاول أن يستر ضعفه بالعناد الأعمى الخالي من النقد العقلي والتفكير لمجرد المخالفة والمعارضة أوجب للظهور، وهؤلاء قد يؤثر فيهم التخويف والتهديد، وفيهم أيضاً السطحيون الذين لهم فاعلية الإرادة برغم سذاجتهم فيصدقون المستحيل، ويثبتون أو ينفون كل شيء بحسب الدوافع المؤقتة فيهم، دون أن يهتموا بالتناقض في معتقداتهم التي يعتبرون الخروج عنها برغم مخالفة وتكذيب الواقع لها ضرباً من النزق والمغامرة، وهؤلاء قد تسخر عقولهم لقلوبهم عن طريق الكشف الذي يهيئهم لتقبل العقيدة الجديدة[1].

ولهذا فإن الأسلوب القرآني قد راعى جميع هذه المستويات في عرضه للعقيدة، وقد كانت جمل القرآن وسياقاته على أعلى درجات الفن والصياغة، ولهذا فقد أثرت في جميع هذه المستويات والذائعات المتعددة المتنوعة، فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا يتفننون في أساليب الدعوة في القصص القرآني، ويأتي ذلك من طبيعة الأقوام المرسل إليها

---

(1) ينظر: سيكولوجية القصة في القرآن: 423.

الرسول أو النبي، فقد يقتضي الحال والمقام[1] معالجة فكر القوم المرسل إليهم بطريقة وأسلوب تختلف عن طريقة أسلوب دعوة قوم آخرين، فمرة كانوا يخوفون أقوامهم، ومرة يبشرونهم، وأحياناً يذكرونهم بنعم الله عليهم، وآونة ينذرونهم عذاب الله وبطشه، وحيناً آخر يعرضون عليهم الخوارق الحسية وفي القصص الذي يروي أخبار الإنسانية الأولى من الأمم الخالية، كعاد، وثمود، نجد الأنبياء يعتمدون في ترهيب أقوامهم على الإنذار بالعقاب العاجل بالدنيا أكثر من إنذارهم بالعقاب الآجل في الآخرة كما كانوا يفترضون في ترغيبهم على التذكير بما يمن الله عليهم في الدنيا من أنعام وبنيين وجنات وعيون، ولعل مرد ذلك أن رؤية عقولهم لا تمتد إلى ما بعد الحياة التي يحيونها، فقد نفى قوم هود أن يكون بعد الموت بعث أو حساب، وكان جوابهم لنبيهم لما أنذرهم بعذاب يوم القيامة ﴿إِنْ هَذَا إِلاَ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾[2]، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ۝ إِنْ هَذَا إِلاَ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ۝ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآيات 132-138]، فإن الأسلوب القرآني يتنوع تبعاً لما يتطلبه السياق ووحدة المعاني، واختلاف الأشخاص وملكاتهم وقدراتهم، فالأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة عن طريق القصص القرآني يخاطب العاطفة عن طريق الشعور ويقنع العقل عن طريق الحس، ويجلب الأسماع والقلوب بالتعبير الفني البديع.

إن قصص القرآن تناسق في منهجه التربوي مع منهج القرآن فهو تطبيق بالمثال الحي لهذا المنهج المتكامل ذلك أن القرآن قصصه ومواعظه وتوجهاته العقائدية والتشريعية وحدة متناسقة وإن تنوعت طرقه في التبليغ والتعليم قصد الإمعان في التأثير ويتجدد نشاط النفس بتجدد انتقاله في السورة الواحدة من غرض إلى آخر، مع وجود ارتباط وثيق بالمحور العام الذي يجمع تلك الأغراض على اختلافها؛ فإن للقصص القرآني تأثيراً في إشاعة العقيدة، وأسلوبه القصصي يعتبر من أنجح الأساليب التقويم والهداية، "وقد روى القرآن أخبار الأمم السالفة فقدمها إلى القلب والشعور بطرق مثيرة الخبر، صارفة عن نوازع الشر، تحمل في

(1) وسوف نتكلم على موضوع "مقتضى الحال" في البحث الثاني من الفصل الرابع.

(2) ينظر: جامع البيان: 97/19. والكشاف: 123/3. التفسير الفريد: 2282/3.

طياها بذور الإيمان"[1]، ومن ناحية أخرى فإن القصة على اختلاف أنواعها كانت و لم تزل رفيقة الإنسان في جميع المراحل التاريخية التي مر بها معبرة عن تطلعاته، وآلامه، والآمة كاشفة عن نظرته في الحياة وفلسفته فيها، وإن ما تناوله القصص القرآني من أحداث في صياغة قصصه هي على الأغلب وقائع تاريخية تهدف إلى بيان من حركة التاريخ وبلورة المبادئ الأساس لهذه الحركة وهي "أبرز خصائص في القصص القرآني سواء كان ذلك في الصور الواقعية أو الصور المجازية وإن هذه الحركة تكون حسية خارجية في الأحداث والشخصيات والفضاء ومعنوية داخلية في الشخصيات، وهي متكاملة النمو مستوية متناسقة الأجزاء، تقوم المجازية فيها على التشبيه أو الاستعارة أو الكناية، مما يوجد فيها التكثيف في الأفكار والمشاعر، وهي لم تتشكل بقصد إيصال المعنى إلى المتلقي وحصول الفهم عنده وحسب بل تعدت ذلك إلى التأثير فيه بالحركة واللون والإيقاع والإيحاء"[2]، ولهذا فقد صاغها القرآن صياغة ربط من خلالها عقد المعاني بالمحسوسات مما وسم القصة القرآنية بسمات فنية منحتها الحركة والحياة.

(1) ينظر: سيكولوجية القصة في القرآن: 9.

(2) البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، عماد عبد يحيى، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، 1412هـ - 1992م: 373.

المطلب الثالث: أنواع القصص القرآني

جاء الأسلوب القرآني في سياقات القصص القرآني بنوعين من القصص: نوع ورد انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [سورة يوسف، الآية 3].

ويسرد هذا الجانب القصصي أخبار الأنبياء والرسل والأمم الغابرة وما لقيه الرسل من تكذيب وصد، وما حاق بالأمم الكافرة من ألوان العذاب والتنكيل والاستئصال.

وقد سبق هذا النوع من القصص كما مر ذكره لتحقيق أغراض وأهداف دينية، كإبراز جوهر الرسالات السماوية الداعية إلى الوحدانية وبيان الرسول في دعوتهم سلسلة واحدة من آدم عليه السلام وحتى محمد ﷺ، وما من نبي إلا وجاء بجوهر هذه الدعوة إلى التوحيد الخالص، بل تكاد تكون العبارة واحدة في الصياغة والمعنى(1)، فالعبارة القرآنية ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وردت على لسان الأنبياء بلا استثناء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية 59]، وقوله تعالى في الحديث عن هود عليه السلام ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 65]، وقوله في الحديث عن صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الأعراف، الآية 73]، وقوله في الحديث عن شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف، الآية 85]، وهكذا فإن دعوة الرسل وتوجههم جعل من التوحيد والتنبيه على الإله الواحد هو المطلب الأول في دعواهم وان تنوعت الحالات التي أرسلوا ليعالجوها في أقوامهم(2). أما النوع الثاني من القصص القرآني فإنه يتم جانباً إشارياً رمزياً يتعلق بأحداث وقصص قد وقعت للمسلمين تحتاج إلى القول الفصل، وتنتظر نزول القرآن

---

(1) ينظر: القصة الرمزية في القرآن الكريم، محمد قطب عبد العال، بحث منشور في مجلة القافلة، عدد 8، مجلد 37، 1989 م: 10.

(2) ينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف، ط9، 1980م: 150.

الكريم ليبين فيها الحكم والتشريع وكشف حقائق الموقف وأسراره [1]، كما حدث في حديث الإفك ومناورات اليهود في المدينة، وغزوات النبي ﷺ، "وثمة نوع من القصص الإشاري الرمزي جاء مبثوثاً في القصص التاريخية يحمل معنى رمزياً عميقاً يستدعي البحث والتأويل لإدراك المغزى والهدف الديني"[2]، وذلك لأن الكلام المسؤول "يحمل متخفية في أطوائه لا يبدو منها إلا رموز وإشارات خفية"[3]، ولعل قصة البقرة خير نموذج لهذا النوع من القصص الرمزي. "لقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها وفي طريقة عرضها وتصوير حوادثها لمقتضيات الأغراض الدينية في قالب فني يثير العواطف والانفعالات ويحرك النفوس البشرية حتى تستفيق إلى ما في دعوة النبي ﷺ من مبادئ ومثل وأهداف تتعلق بالعقيدة الصحيحة، وتتجه إلى خلق النموذج المتكامل في شؤون الدين من حيث اليقين والطاعة، وفي شؤون الدنيا من حيث التمسك بأهداف الفضيلة وغايات الإخلاص وطريق الخير والعمل لبناء الفرد والجماعة وتقويم المجتمع وتنقية السلوك"[4]، من كل الشوائب التي تلوث فكر الإنسان وعقله وتدفع به إلى دياجير الظلم والمزالق المهلكة، والقصة القرآنية "طريقة من طرق التعبير في القرآن تشترك مع غيرها من الأنماط التعبيرية الأخرى في الأهداف العامة. فهذا الكتاب المقدس ككتاب ديني يرشد الناس إلى صراط مستقيم، ويعبد لهم طريق الحياة الفاضلة، ويبني من الكيان البشري نماذج تلتحم بكل ما هو جميل ونبيل، وكل ذلك في تلاحم وانسجام وتمام في النسق، فالأجزاء المتقدمة والمتأخرة والأهداف الأخلاقية والنصوص التشريعية توضع جنباً إلى جنب في نفس السورة بطريقة فنية معجزة"[5]، والمشاهدة التي يصورها الأسلوب القرآني عن طريق القصة القرآنية تمتاز بالحركة والبقاء، وهذه الحركة في معناها الشامل هي التي تجعل المشاهد في القصة حية والأحداث نابضة، والمواقف المختلفة متفاعلة، والأسلوب القرآني يعرض ويبرز

---

(1) ينظر: الإيقاع القصصي في القرآن، أحمد عبد الله خلف الجبوري، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، 1421هـ - 2000م: 19.

(2) القصة الرمزية في القرآن الكريم، محمد قطب عبد العال، بحث منشور في مجلة القافلة، العدد 8، 1989م: 149.

(3) القصص القرآني، في منطوقه ومفهومه، مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم ويوسف، عبد الكريم الخطابي، ط2، دار المعرفة - بيروت، 1175هـ: 341.

(4) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، د. فتحي أحمد عامر، مطبعة المعارف، الإسكندرية - مصر، 1976 م: 228.

(5) ينظر: التصوير الفني في القرآن: 150.

هذه المعاني والصور طريق الوصف الدقيق المصور، كوصف نوح عليه السلام في أغراض قومه عن دعوته، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ [سورة نوح، الآية 7]، وأحياناً يبرز هذه المعاني والصور عن صياغة المفردات الكلمات[1]، المشحونة بالمعاني المعبرة عن المشاعر والانفعالات والأحوال النفسية، كما قال تعالى على لسان مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيّاً﴾ [سورة مريم، الآية 18]، وكقوله تعالى على لسانها وهي تعاني آلام المخاض: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾ [سورة مريم، الآية 23].

وأحياناً يعبر عن هذه المعاني والصور عن طريق إبراز الصراع الذي يأتي مع المغزى العام للقصة وصراع الخير والشر، والحق والباطل، وصحة الاعتقاد وفساد الاعتقاد، والإيمان والضلال، ويكون حيناً صراعاً مادياً كموقف موسى عليه السلام مع السحرة لما رمى عصاه ورموا عصيهم، وحيناً صراعاً نفسياً كموقف إبراهيم عليه السلام من الكوكب والقمر، والشمس، بعد أن أعمل فكره وعقله في إيجاد مبدع لهذا الكون، وما أبان له فكره وعقله من خطأ ما كان يتوهم والتعبير الفني وصياغة المعاني وسبكها في أسلوب القرآن في عرضه للقصص "لا يخرج في جملته عن كونه تعبيراً عن النفس، وهو كتعبير النفس بالسلوك العلمي في واقع الحياة"[2]، والتعبير القرآني تصويري يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها فتستحيل القصة حادثاً يقع ومشهداً يجري[3]. والمتأمل في مشاهد قصص القرآن يلاحظ أن القصص القرآني في النزول قد خلا من الحوار الذي يعد من أهم الوسائل التي يستعان بها لتقديم الشخصيات والكشف عن أفكارها ومشاعرها، وتسهم في رسمها؛ وذلك لأن القصة في العهد الأول قد اعتمدت على الإشارة السريعة واللمحة الخاطفة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۞

---

(1) ينظر: التعبير والأسلوب، د. علي جواد الطاهر، د. قحطان رشيد، د. جلال الخياط، مطبعة جامعة بغداد، ط1، 1980م: 40.

(2) سيكولوجية القصة العلمية في القرآن: 351.

(3) ينظر: الشكل القصصي في القرآن، نبهان حسون السعدون، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، 1420هـ - 1999م: 55.

وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [سورة الفجر، الآيات 6-14]، وسورة الفجر هي التاسعة في ترتيب النزول[1]. وهذه المعاني التي سبقت في هذه الآيات الكريمات والتي وظفها الأسلوب القرآني في الإخبار عن هؤلاء المكذبين جاءت بطريقة مناسبة لإشارة الوجدان، وإيقاظ الفكر ويتدرج "أسلوب الدعوة المكافئ النفوس المهيئة للاطلاع والمعرفة نحا أسلوب القصة إلى الطول والتفصيل لبيان عقيدة التوحيد، وحقيقة الرسالة وقضية البعث، وهذه الموصوفات تمثل وجهاً من أوجه الصراع بين الحق الذي يدعو إليه القرآن والباطل المناهض له، مما دعا إلى دخول عنصر الحوار المعبر عن حركات الذهن والنفس والخواطر"[2]، وثمة ملامح مشتركة في حوار القصص القرآني والتي طرح من خلالها أهداف ومقاصد القرآن الكريم، وأهمها وأعلاها هو التوحيد، وهذه الملامح هي:

الأول: تكرار مقولات محددة مقننة في أكثر من قصة، من ذلك ما ذكرنا في تكرار العبادة ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ من سورة الأعراف[3].

الثاني: مجيء الحوار طريقة لحكاية أقوال الشخصيات على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لأعلى الصيغة التي صدرت فيها تلك الأقوال ليكون الإعجاز البياني فيها إعجازاً للقرآن نفسه، لا إعجازاً لمتونها وهذا واضح في حوار الشخصيات التي لا تتكلم العربية، كشخصيات قصة موسى مثلاً، وسنسحب الحكم نفسه على الشخصيات التي تتكلم العربية، ذلك أن لغة الحوار في القرآن أعلى بياناً مما هو قائم في واقع لغة المتحاورين.

الثالث: الإتيان من الحوار في القصص القرآني بما يحقق الغرض من القصة، ويلخص فكرتها ويعرض جوهرها خدمة للدعوة الإسلامية فحوارات نوح عليه السلام مثلاً توازي المدة الزمنية التي عاشها مبلغاً دعوته، ومثل ذلك بقية الحوارات التي وردت في قصص غيره من الأنبياء.

---

(1) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 52/1.

(2) البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، عمار عبد يحيى، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، 1412هـ - 1992م: 356.

(3) وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

الرابع: لم يكن الحوار في القصص القرآني دائماً بين البشر، كما هو المألوف في القصص البشري، بل اشتركت فيه مصادر مختلفة أخرى، فمن الحوارات ما كان بين الله والملائكة(1)، وبين الله سبحانه والإنسان(2)، وبين الله سبحانه وإبليس(3)، وبين الإنسان والملائكة(4)، وبين الإنسان والحيوان(5)، والملاحظ أن جميع هذه الحوارات بفحواها مما تطمئن إليه العقول وتستجيب له المشاعر، أما كيفياتها فهي مما لا قدرته قدرات البشر الفعلية لسكوت القرآن عن بيان أحوالها(6)، والمتأمل في الحوار الذي صاغه الأسلوب القرآني في القصص يجد أن الأنبياء بعامة في حوارهم مع أقوامهم أو مع الطغاة يجنحون إلى الرفق في الخطاب واللين بالقول، في حين نجد في عبارات خصومهم الشدة والعنف والعناء والمكر. فمن أمثلة حوار الأنبياء قول موسى عليه السلام لفرعون متمثلاً أمر به في قوله تعالى: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [سورة النازعات، الآيات 18-19]، وقد خرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر و لم ينسب فعل التزكية إليه، بل نسبه إلى فرعون وذكر لفظ "التزكي" دون غيره لما فيه من البركة والخير والنماء، وجعل من نفسه كالدليل بين يدي فرعون بسبر أمامه إلى ربه(7)، استدعاء لإيمانه به وقد خلقه ورزقه ورباه صغيراً يافعاً وكبيراً(8)، ومثل هذا اللون من الحوار كثير في القصص القرآني أيضاً كما في حوار ابراهيم عليه السلام مع أبيه(9)، وحوار نوح مع قومه(10)، وحوار الرجل المؤمن مع قومه في سورة يس(11)، وحوار لوط مع قومه(12)، وغيره من الأنبياء

---

(1) ينظر: الآيات 29-33 من سورة البقرة.
(2) ينظر: الآية 259 من سورة البقرة.
(3) ينظر: الآيات 10-17 من سورة الأعراف.
(4) ينظر: الآيات 20-23 من سورة ص.
(5) ينظر: الآيات 20-28 من سورة النمل.
(6) ينظر: التعبير والأسلوب: د. علي جواد الظاهر، د. قحطان رشيد، د. جلال الخياط، مطبعة جامعة بغداد، ط1، 1980م: 40.
(7) ينظر: البنى والدلالات في لغة القصص القرآني: 360.
(8) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: 3/132-133.
(9) ينظر: الآيات 42-45 من سورة مريم.
(10) ينظر: الآيات 2-20 من سورة نوح.
(11) ينظر: الآيات 20-25 من سورة يس.
(12) ينظر: الآيات 78-80 من سورة هود.

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد سبق هذا القصص لإثبات النبوات بالوحي، والتصديق بما أرسلوا، ونلحظ أيضاً الحوار الذي حكاه القصص القرآني عن خصوم الأنبياء كما قال تعالى على لسان فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الشعراء، الآية 27]، وقوله: ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية 29]، ويلحظ من القول الأول أن فرعون استنكف من أن يجعل نفسه داخلاً في دعوة موسى، وأن يكون مقصوداً بها، إلى تحويل ما خاطبه به موسى إلى جلسائه، ورفض في القول الثاني أن يقبل الهدى، واستعلى على موسى وهدده بأن يجعله من المسجونين[1].

(1) ينظر: جامع البيان: 70/19. والتفسير الفريد: 2251/3.

المطلب الرابع: فوائد القصص القرآني

لقد امتن الله سبحانه على رسوله محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ﴾ [سورة يوسف، الآية 3]، ودلالة لفظ ﴿أَحْسَنَ﴾ أن القصص القرآنية التي وردت في الكتاب الحكيم لم تسق مساق الإحماض، وتجديد النشاط وما يحصل من استغراب تلك الحوادث من خير أو شر، لأن غرض القرآن أسمى وأعلى من هذا، ولو كان من هذا مساوئ كثيرة من قصص الأخبار الحسنة الصادقة، فما كان جديراً بالتفضيل على كل جنس القصص(1).

وقد ذكرنا فيما سبق أن القرآن وظف كل ما من شأنه أن يؤثر في قلوب الناس وعقولهم من أجل تحقيق العقيدة الحق وإقامة التوحيد ونبذ ما سوى الله سبحانه من آلهة، فتحقق بذلك الاستجابة النفسية والعقلية والقلبية التي يسعى إليها القرآن، وقد أشرنا إلى أن ليس الغرض من سوق هذه القصص قاصراً على حصول العبرة والموعظة مما تضمنته القصة من عواقب الخير أو الشر، ولا على حصول التنويه بأصحاب تلك القصص في عناية الله بهم أو التنويه بأصحابها فيما لقوه من غضب الله عليهم كما تقف عنده أفهام القابضين بظواهر الأشياء وأوائلها، بل الغرض من ذلك أسمى وأجل، فإن في ذلك القصص لعبراً جمة، ولذا نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويعرض عما عده ليكون تعرضه للقصص منزهاً عن قصد التفكه بها من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها، لأن معظم الفوائد الحاصلة منه لها علاقة بذلك التوزيع هو ذكر وموعظة لأهل الدين فهو بالخطابة أشبه، وللقرآن أسلوب خاص هو الأسلوب المعبر بالتذكير وبالذكر في آيات يأتي تفسيرها، فكان أسلوبه قاضياً للوطرين، وكان أجل من أسلوب القاصين في سوق القصص لمجرد معرفتها لأن سوقها في مناسباتها يكسبها صفتين: صفة البرهان وصفة البيان، ونهج من مميزات قصص القرآن نسج نظمها على أسلوب الإيجاز ليكون شبهها بالتذكير أقوى من شبهها بالقصص، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: 64/1.

قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ﴾ [سورة القلم، الآيات 26-28]، فقد حكيت مقالته هذه في موقع تذكير أصحابه بها لأن ذلك مخرج حكايتها وتحكى في أثناء قوله تعالى:﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [سورة القلم، الآية 17]، وقوله تعالى:﴿فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ [سورة القلم، الآية 22].

ومن مميزاتها طي ما يقتضيه الكلام الوارد كقوله تعالى:﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ [سورة يوسف، الآية 25]، فقد طوى ذكر حضور سيدها وطرقه الباب وإسراعها إليه لفتحه، فإسراع يوسف عليه السلام ليقطع عليها ما توسمه فيها من المكر به لتري سيدها أنه أراد بها سوءاً، وإسراعها هي لضد ذلك لتكون البادئة بالحكاية[1]، فتقطع على يوسف عليه السلام ما توسمته فيه من شكاية فدل على ذلك ما يعده من قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ [سورة يوسف، الآية 25].

ومنها أن القصص القرآني ثبت بأسلوب بديع، إذ ساقها في مظان الاتعاظ بها مع المحافظة على الغرض الأصلي الذي جاء به القرآن من تشريع وتفريع، وقد كانت صياغة الأسلوب القرآني لهذه السياقات والأنساق القرآنية التي شكلت القصص القرآني على أعلى درجات الإقناع والتأثير، وقد عد ابن عاشور عشر فوائد للقصص القرآني وهي:

الفائدة الأولى: إن قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء وأيامهم وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحدياً عظيماً لأهل الكتاب، وتعجيزاً لهم بقطع حجتهم على المسلمين، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة هود، الآية 49]، فكان حملة القرآن بذلك أحقاء بأن يوصفوا بالعلم الذي وصفت به أحبار اليهود، وبذلك انقطعت صفة الأمية عن المسلمين في نظر اليهود، وانقطعت ألسنة المعرضين بهم بأنهم أمة جاهلية.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: 65/1.

الفائدة الثانية: إن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الأنبياء بشرائعهم، فكان اشتمال القرآن على قصص الأنبياء وأقوامهم تكليلاً لهامة التشريع الإسلامي بذكر تاريخ المشرعين، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية 146]، وأسلوب القرآن في هذا الغرض لا يتعرض إلا لحال أصحاب القصة في رسوخ الإيمان وضعفه لذلك من أثر عناية إلهية أو خذلان، وفي هذا الأسلوب لا تجد في ذكر أصحاب هذه القصص بيان أنسابهم أو بلدانهم، إذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم أو إيمانهم، وكذلك مواضع العبرة[1]، في قدرة الله تعالى في قصة أهل الكهف: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ [سورة الكهف، الآية 9]، فإن القرآن لم يذكر أنهم من أي قوم وفي أي عصر وكذلك في قوله: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [سورة الكهف، الآية 19]، فلم يذكر أية مدينة هي لأن موضع العبرة هو انبعاثهم ووصول رسولهم إلى المدينة.

الفائدة الثالثة: ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتب المسببات على أسبابها في الخير، والشر، والتعمير والتخريب لتقتدي الأمة وتحذر، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل، الآية 52]، وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا في الفضيلة وزكاء النفوس أو غير ذلك.

الفائدة الرابعة: ما فيها من موعظة المشركين بما لحق الأمم التي عاندت رسلها وعصت أوامر ربها حتى يرعووا عن غلوائهم ويتعظوا بمصارع نظرائهم وآبائهم وكيف يورث الأرض أولياءه وعباده الصالحين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يوسف، الآية 111]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 105]، وهذا في القصص التي يذكر فيها ما لقيه المكذبون للرسل كقصص قوم نوح، وعاد، وثمود، وأهل الرس، وأصحاب الأيكة.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: 66/1.

الفائدة الخامسة: إن في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة وذلك أسلوب لم يكن معهوداً عند العرب، فكان مجيئه في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية شديد التأثير في نفوس أهل اللسان وهو من إعجاز القرآن، إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع، ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه، ومثاله حكاية أحوال الناس في الجنة والنار والأعراف.

الفائدة السادسة: إن العرب بتوغل الأمية والجهل فيهم أصبحوا لا تهتدي عقولهم إلا بما يقع تحت الحس، أو ما ينتزع منه ففقدوا فائدة الاتعاظ بأحوال الأمم الماضية وجهلوا معظمها وجهلوا أحوال البعض الذين علموا أسماءهم، فأعقبهم ذلك إعراضاً عن السعي لإصلاح أحوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك من قبلهم[1]، فكان في ذكر قصص الأمم توسيع لعلم المسلمين بإحاطتهم بوجود الأمم ومعظم أحوالها، وقد ذكر القرآن حالهم وأشار إلى غفلتهم قبل الإسلام في قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [سورة إبراهيم، الآية 45].

الفائدة السابعة: تعويد المسلمين على معرفة سعة العالم وعظمة الأمم والاعتراف لها بمزاياها حتى تدفع عنهم وصمة الغرور، كما وعظهم الله سبحانه عند الحديث عن مصائر الأقوام، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 101]، فإذا علمت الأمة جوامع الخيرات وملائمات حياة الناس تطلبت كل ما ينقصها مما يتوقف عليه كمال حياتها وعظمتها.

الفائدة الثامنة: أن ينشئ في المسلمين همة السعي الى سيادة العالم كما ساده أمم من قبلهم ليخرجوا من الخمول الذي كان عليه العرب؛ إذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضاً فكان منتهى السيد منهم أن يغنم صريعه، ومنتهى أمل العامي أن يرعى غنيمة، وتقاصرت هممهم عن تطلب السيادة حتى ألم بهم الحال إلى أن فقدوا عزتهم فأصبحوا كالأتباع لغيرهم[2].

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: 67/1.
(2) ينظر: المصدر نفسه: 67/1.

الفائدة التاسعة: معرفة أن قوة الله تعالى فوق كل قوة، وأن الله ينصر من ينصره وأنهم إن أخذوا بوسيلتي البقاء والاستعداد والاعتماد، سلموا من تسلط غيرهم عليهم، وذكر العواقب الصالحة لأهل الخير، وكيف ينصرهم الله تعالى كما جاء على لسان يونس عليه السلام: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآيتان 87-88].

الفائدة العاشرة: أنها يحصل منها بالتتبع فوائد في تاريخ التشريع والحضارة وذلك يفتق أذهان المسلمين[1]، ويدفعهم إلى العمل ويوقد جذورهم بالنشاط، وقد تماشت فوائد القصص القرآني مع متطلبات جميع العقليات والتوجهات، وكانت كالسراج تنير بصائر الأمم وتفتح أمامها صفحات الكون والخليقة والتاريخ البشري بأحلى حلة وأعلى صياغة وبناء[2]، وتأثير.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: 67/1.
(2) ينظر: التعبير والأسلوب: 41.

المطلب الخامس: التكرار في القصص القرآني

من المعلوم أن القرآن نـزل منجَّماً في ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة، وكانت المرحلة الأولى للوحي بمكة، وقد كان جل ما نـزل من القرآن في هذه المرحلة يهدف إلى إنشاء عقيدة التوحيد ونشرها في قوم لم يكلفوا قط بشريعة لوجودهم في فترة من الرسل بين جدهم إسماعيل عليه السلام ومحمد ﷺ؛ وهي مدة تزيد على ثلاثة آلاف سنة[1]، قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة السجدة، الآية 3]، وتطاول الدهور والوراثة والمحاكاة وتعاقبهم تأصلت فيهم عقيدة الشرك واستحكمت، فأصبح من العجب أن يقال لهم: الله الواحد، كما أخبر عن ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص، الآية 4]، وقد اقتضت حكمة الله ألا تبقى الخوارق المادية هي الدعامة الأساس للتصديق بنبوة محمد ﷺ، وبما يدعو إليه رغم إلحاح المنكرين والجاحدين في مطالبته بالآيات الحسية كما حكى القرآن عنهم في أكثر من موضع.

ولا شك أن مناشدة القرآن للعقل والحس بالنظر في الكون والنفس، والوقوف على أخبار الماضين لما يوضح سر انتهاء النبوة ببعثة خاتم المرسلين حتى لا تبقى الخليقة معتمدة إلى الأبد على من يرشدها من الرسل إلى العقيدة الصحيحة[2]، وهذا الأمر جد مهم في إثبات النبوات وتلقيها الوحي من مصدر وسراج واحد، فكان في النبوة وختمها معاً شرف للإنسان بصفاته لرسالات السماء وتكريم له ببلوغه مرحلة الرشد.

"والتكرار في القصص القرآني سمة بارزة في القرآن الكريم، إذ ترد القصة الواحدة في معظم الحالات مكررة في مواضيع شتى، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها غالباً إنما هو تكرار لبعض حلقاتها"[3]، وتكرار القصة في القرآن وثيق الصلة بمنهجه القصصي إذ هو يخدم غرضين في آن واحد:

الأول: غرض فني يتمثل في تجدد أسلوبها إيراداً وتصويراً، والتفنن في عرضها إيجازاً وإطناباً، والتنوع في أدائها لفظاً ومعنى.

---

(1) ينظر: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الآلوسي، مطبعة القاهرة – مصر، ط2، 1342هـ: 109.

(2) ينظر: التجديد الديني في التفكير الإسلامي، محمد إقبال، القاهرة – مصر، 1955م.

(3) ينظر: سيكولوجية القصة في القرآن: 115.

الثاني: غرض نفسي بما له من تأثير في النفوس؛ لأن التكرار ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها[1].

وقد كان التكرار في القرآن موجهاً بشكل مباشر إلى صميم العقيدة أكثر من سواها، كالمعاملات والأحكام، وكان تأكيده لحقيقة التوحيد بتكريره إياها في صور متنوعة وإبرازها في القصص والأمثال على الخصوص من أهم العوامل في تقريرها وترسيخها.

"والقرآن لم يكرر من القصص أو حلقاتها إلا ما كان أشد تجاوباً مع بيئة الدعوة، وأكثر استجابة لأهدافها، وخدمة لأغراضها مثل قصص آدم، ونوح، وإبراهيم، ولوط، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى عليهم الصلاة والسلام، ومما يؤيد ذلك أننا لا نجد تكراراً في غير قصص الأنبياء كقصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين، كما أنه يكرر بل لم يذكر من قصص الأنبياء إلا ما يقوي عزيمة الرسول وأصحابه ويثبت قلوبهم وينير سبيلهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [سورة هود،الآية 119].

والناظر في الأسلوب القرآني في عرضه للقصص يلحظ أن الغرض الأول والهدف الأسمى في المراد من هذه القصص سواء أكان ظاهرياً أم إشارياً (إحصائياً) هو تثبيت العقيدة وإقامة صرح التوحيد فضلاً عن أهداف ومقاصد وأغراض القرآن الأخرى، وإذا نظرنا إلى بعض مواطن التكرار في القصص القرآني تبين لنا بعض من أسرار التكرار، ومبرراته، وأسبابه، فلقد تكررت قصة آدم وإبليس[2]، لأنها قصة الإنسانية كلها في صراعها المتجدد بين قوى الخير والشر، وتكررت قصة نوح[3]، لأنه الرائد الأول للرسل، وديانته أقدم الديانات فكان أول رسول بعث لأهل الأرض وكان قومه يعبدون الأصنام دهراً طويلاً كالعرب، وقد جعل الله ذرية نوح عُمَّاراً لهذه الأرض وخلفاء، وشاء ذكره في الأجيال إلى آخر الزمان كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي

---

(1) المصدر نفسه: 118.

(2) ينظر: سورة البقرة الآيات (29-38)، وسورة الأعراف الآيات (11-28)، وسورة الحجر الآيات (25-40)، وسورة الإسراء الآيات (60-65)، وسورة الكهف الآية (50)، وسورة طه الآيات (116-123)، وسورة ص الآيات (67-85).

(3) ينظر: سورة الأعراف الآيات (59-64)، وسورة يونس الآيات (72-74)، وسورة هود الآيات (26-50)، والأنبياء الآيات (27-28)، وسورة المؤمنون الآيتان (24-31)، والعنكبوت (106-123)، والصافات (76-83)، والقمر (10-17).

الآخرينَ سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الصافات، الآيات 77-79]، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى فيه سورة كاملة وهي سورة نوح.

وتكررت قصص عاد وثمود ومدين مع أنبيائهم هود وصالح وشعيب، لأنهم أقوام عرب تربطهم صلة بالحياة والظروف والتقاليد التي كانت عليها البيئة النبوية ويروى عن أبي ذر في صحيح ابن حيان في ذكر الأنبياء والرسل: أن النبي ﷺ قال: أربعة من العرب: ثمود وصالح وشعيب، ونبيك يا أبا ذر[1]، وكذلك تكررت قصة إبراهيم، ولوط، وموسى وهذا التكرار لم يقصد به الإعجاز البياني بقدر ما قصد به التأثير النفسي والعقلي والوجداني، لما يعلم الله سبحانه من تفاوت في مدارك البشر وأمزجتهم؛ إذ منها ما ينفذ الى الحقيقة ومنها ما يسيطر عليه الوهم تحت سلطان الأفكار الموروثة، ومنها ما يصل به برود العاطفة إلى جمودها رغم المثيرات العاصفة، جاء في رسائل إخوان الصفا: "إنك تجد من يكون جيد التخيل، دقيق التميز، سريع التصور، قوي الذاكرة، ومنهم من يكون بطيء الذهن، أعمى القلب، ساهي النفس"[2]، فاختلاف المدارك وطبائع العقول سبب بلا شك في اختلاف ما تنتهي إليه هذه العقول، وهل يتصور أن عقلاً شاعرياً تسيطر عليه العاطفة يتفق عند دراسته لموضوع ما مع عقل منطقي رياضي يربط الأسباب بالنتائج ربطاً محكماً[3].

ولما كانت ظاهرة التكرار للمعاني المقدرة للعقيدة شائعة في القرآن كله وإن كانت في قصصه أشد ظهوراً فإن بحث هذه الظاهرة في خصوص القصص القرآني لا يستقيم ولا يتجه إلا بالنظر إلى هذا القصص في إطاره العام وهو القرآن، باعتبار أنه صورة للدعوة الإسلامية متناسقة الأجزاء، متكاملة العناصر.

ومن ناحية أخرى فإن التعميق في تلك يتطلب معرفة الظروف النسبية التي كانت تحيط بصاحب الدعوة وأتباعه مما لاقوا من صدود ومقاومة وتنكيل وبمن يدعون إلى الله وما عرفوا به من تعصب وعناد واستخفاف، وكل أولئك وهؤلاء كان يقص عليهم القرآن[4].

(1) ابن حبان: 77/2. مورد الظمآن: (94)، 53/1. صحيح ابن حبان: (361)، 77/2.
(2) ينظر: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، مطبعة القاهرة – مصر، 1928م: 374/3.
(3) ينظر: رسائل إخوان الصفا: 382/3.
(4) ينظر: سيكولوجية القصة القرآنية: 129.

فضلاً عما في القصص القرآني من أمثال وعبر جاءت في سياق تسلية النبي وأصحابه عن طريق التذكير بما لاقى الأنبياء وأتباعهم من أذى وجحود أقوامهم، وثباتهم على الحق، ومصابرتهم في سبيل دعوة التوحيد، وصرف الناس إلى عبادة رب الأرباب حتى كانت العاقبة لهم والدائرة على أعدائهم، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة يوسف، الآية 110]، فلم تكن مسألة التذكير برسالات الرسل والأنبياء السابقين بالنسبة للنبي محمد ﷺ موضوعاً ثانوياً، وإنما عبرة للجاحدين ومثلاً للمؤمنين، وهذه العبر والأفكار قد تكررت في عدة سور بأساليب مختلفة من أجل تحقيق الهدف المنشود وهو تمكين هذه السنن في النفس الإنسانية وتثبيتها في القلب، حتى تقوي داعية الإصلاح عند المصلح[1]، فلا يجد اليأس سبيلاً إليه، وقد كان من تربية الله ورعايته لنبيه محمد ﷺ أن قص عليه سير الأنبياء ما يسليه لأن نفوس المفسدين في كل زمان متقاربة ووسائلهم في محاربة الحق متشابهة، قال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة فصلت، الآية 43].

والقرآن لم يقتصر في مثل هذه المقامات التي يثبت فيها القلوب ويقوي العزائم على ذكر قصة واحدة لأحد الأنبياء يستدل بها، بل قدم طائفة من قصص الأنبياء قصد توكيد هذه الحقيقة وتقرير أنها من سنن الله التي لا تختلف؛ من ذلك قوله تعالى:﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ۞ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۞ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة الأنبياء، الآيات 66-69].

ومن مقاصد التكرار ترهيب الجاحدين[2]، وإنذارهم بما جرت عليه سنة الله في المكذبين لرسله ولا أدل على صدق السنن الإلهية من حدوثها مراراً في ظروف مماثلة، وأزمان متباعدة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۞ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۞ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ

(1) ينظر: الثمرة من شجرة الإيمان، سعيد النورسي، ط1، مطبعة الزهراء - الموصل، 1406هـ - 1985م: 81.

(2) ينظر: سيكولوجية القصة القرآنية: 131.

الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۞ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الحجر، الآيات 80-84].

كما أن من مقاصد تكرار القصة ضمن مجموعة من القصص بيان وحدة الأديان في أصل العقيدة ووحدة الدعوة إليها من الرسل[1]، وتشابه أقوامهم في موقفهم منها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 25].

وقد ارتبطت معاني القصص القرآني وأفكارها مع المنهج السماوي في الدعوة إلى الله، وأسلوب القرآن في ذلك كدعوة نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى مشيراً إلى وجوه الحكمة في إطلاق وقائع تلك الدعوات من قيود الزمان والمكان، وما مرت من مراحل عبر تاريخ الإنسانية مسايرة لتطورها ورشدها، وملائمة لوعيها وإدراكها، وما تحمله من مهارات ودرايات واستعداد فطري.

المطلب السادس: الوحي من أسس القصص القرآني

ذكرنا فيما سبق كيف جعل القرآن من العرض القصصي كل ذلك ليكون أداة في التوجيه والإقناع وبسط الموعظة وتثبيت الحجة، وكان من جملة ما أثبته القصص القرآني عن طريق الوحي في أن رسالات الأنبياء جميعهم تنبع عن سراج واحد؛ وهو على ثلاث طرق: إما وحي وإما وراء حجاب وإما أن يرسل رسولاً كما قال تعالى:﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [سورة الشورى، الآية 51].

والوحي في معناه العام هو إبلاغ الإنسان ما تود أن يصل إليه بطريق التصريح وإما بطريق التلميح، وقد عرفت العرب معنى الوحي على أنه كتابة أو إشارة أو إلهام أو اتفاق خفي أو وسيلة يصل بها الكلام إلى الشخص المقصود[2].

ولم يخرج معنى الوحي في القرآن الكريم عن هذه المعاني المعروفة، وقد ورد في ثمانين آية من القرآن الكريم، وفي معظم هذه الآيات كان معنى الوحي هو ما أبلغه الله تعالى

---

(1) ينظر: منهج الدعاة إلى الله في رحاب سورتي الكهف والقصص، د. محمد صالح الخضري، مطبعة دار النقائض – عمان، ط1، 1418هـ - 1998م: 27.

(2) ينظر: لسان العرب: 379/15. التطور الدلالي: 447.

أنبياءه ورسله لنشره في الناس، وقد ورد الوحي في القرآن الكريم في بعض الآيات بمعناه اللغوي أي إيصال المعنى إلى الآخرين بوسيلة من الوسائل؛ قال تعالى في الحديث عن زكريا عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ [سورة مريم، الآية 11]، ومن المعروف أن زكريا عليه السلام كان صائماً عندما خرج على قومه من المحراب، وكان صومه عن الكلام لا الطعام؛ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ۝ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ [سورة مريم، الآيتان 10-11]، ويكون الوحي أيضاً بين أفراد الناس بعضهم مع بعض، وقد جاء بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 112].

وكذلك سمى الله عز وجل وسوسة الشيطان لبعض الإنسان وحياً، وذلك ما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 121].

ولكن الوحي عرف واشتهر بين المسلمين على أنه وحي الله عز وجل لرسله، وإذا أطلقت الكلمة الآن انصرف الذهن إلى هذا المعنى بالرغم من أن المعنى اللغوي والمعنى الإسلامي للكلمة متشابهان، إلا أن تخصص الوحي بوحي الله عز وجل إنما جاء من جهة تخصيص القرآن وجعله معنى إسلامياً مشهوراً[1]، وأساس علم الأنبياء هو الوحي، وهؤلاء الرجال المصطفون من أبناء آدم تتلقفهم العناية من نشأتهم الأولى لتقيهم أضرار الطبيعة البشرية، وترقى بهم صعداً في مدارج الكمال، وترشيح قلوبهم الكبيرة لاستقبال ما يفد به الملأ الأعلى عن الله سبحانه، فإذا بالحكمة تسيل من ألسنتهم، والأسوة الحسنة تقتبس من أعمالهم، والنزاهة المطلقة تقترب بأحوالهم واتجاهاتهم، وهذا الوحي الذي تشرق به المعرفة على قلوب الأنبياء أنواع ومراتب يبدأ بالرؤية الصالحة في النوم، ورؤيا الأنبياء ليست من أضغاث الأحلام التي تترجم بها النفس عن رغباتها المكبوتة في صور مهوشة

---

(1) ينظر: التطور الدلالي: 440.

متقطعة كما يحدث لجماهير الناس، فإن الكمال البشري الذي وصل إليه النبيون يجعل قلوبهم يقظة ولو نامت أبدانهم؛ بعكس الدهماء الذين تنام قلوبهم ليلاً ونهاراً فهي في غفوة لا تصحو منها ولو نشطت أبدانهم وراء أغراضها الصغيرة،أما أفئدة الأنبياء فكأجهزة الاستقبال[1]، المعدة لالتقاط الأنباء في كل حين فتسجل ما يقذف الملك فيها، ثم لا تلبث أن تعيده في الناس أجمعين، وقد كانت الرؤيا الصالحة أول مطالع الوحي في حياة النبي محمد ﷺ، وأول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد ظل ﷺ موصول القلب بالله في يقظاته وهجعاته إلى الرمق الأخير من حياته[2].

ومن الوحي عن طريق الرؤيا حديث قصة إسماعيل ونزول الأمر الإلهي بذبحه قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الصافات، الآية 102]، ويكثر أن يكون الوحي إلهاماً في اليقظة بوساطة الملك فيرسخ هذا المعنى الملهم في قلب النبي فيتكلم الحق.

وقد نزل القرآن وحياً بألفاظه ومعانيه جميعاً فعلم منه الرسول ﷺ ما لم يكن يعلم، وكان حظ جبريل في ذلك مجرد النقل وتوصيل القرآن من لدن خبير بصير؛ قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [سورة الشعراء، الآيات 193-195].

وقد ينزل الوحي بتكليم الله لعبده مباشرة من غير وساطة كما تم لموسى قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة القصص، الآية 30]، وقد ورد في سياق القرآن ذكر تكليم الله سبحانه[3]، لموسى عليه السلام خاصة من قبل الله بعد ذكر الأنبياء الذين أوصى الله سبحانه إليهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ۞ وَرُسُلاً قَدْ

---

(1) ينظر: عقيدة المسلم، محمد الغزالي، دار الكتاب الحديثة بمصر، مكتبة المثنى ببغداد، ط5، 1379هـ - 1960م: 99.
(2) عقيدة المسلم: 200.
(3) ينظر: جامع البيان: 27/4. والجامع لأحكام القرآن: 15/6. والكشاف: 582/1.

قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً ۞ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِأَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [سورة النساء، الآيات 163-165].

والذي ينظر في سياق القصص القرآني وما حملته من معان ودلالات وإشارات في التنبيه على الوحي والتوكيد له وإثباته وكونه من الله الواحد، وعلى الرغم من وضوح هذا التصور في العقول والقلوب وإثباته فيهما فإننا لا ندري كيفية تكليم الله لأنبيائه وهو أمر لا ندري كنهه، وهو ليس على النحو الذي يجري بين المتخاطبين من تكاشف ومشافهة، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۞ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى، الآيتان 51-52].

وقد بينت في ثنايا القصص بمبدأ الوحي ليس مما يتعاظم على العقول إدراكه[1]، وما روى القرآن الكريم وما روي في الحديث عن النبي ﷺ كثير في مسألة الوحي؛ فإن أحاديث بدء الوحي - وهي كثيرة - تصور اتصال الوحي بالنبي محمد ﷺ، وهي الأساس الذي تترتب عليه جميع الحقائق الدينية بعقائدها وتشريعاتها وفهمها واليقين بها هما المدخل الذي لا بد منه إلى اليقين بسائر ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من أخبار غيبية وأوامر تشريعية؛ ذلك أن حقيقة الوحي هي الفيصل الوحيد بين الإنسان الذي يفكر بعقله ويشرع برأيه، والإنسان الذي يبلغ عن ربه دون أن يغير أو ينقص أو يزيد[2]، فإن العقل إذا قاده الوحي أنار له الطريق وبدد له الظلمات فأبصر غايته، وحدد خطواته وعرفه معالم طريقه، وصحبه القلب في طوافه، ويتلقى عنه كل مدركاته فيحيلها إلى عواطف وأحاسيس تشيع في النفس روعة وجلالاً، ومن خلال هذا الشعور بالروعة والجلال يرى المرء خالقه الواحد الأحد المتفرد بالعظمة والجلال، تلك الفطرة مركزة في النفس البشرية منذ أخذ الله عليها هذا الميثاق[3]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 172].

---

(1) ينظر: عقيدة المسلم: 201.

(2) ينظر: جامع البيان: 27/4. والجامع لأحكام القرآن: 15/6. والكشاف: 582/1.

(3) ينظر: الظاهرة القرآنية والعقل: 65.

لقد أثبت القرآن ومن خلال عرضه القصصي لسير الأنبياء والمرسلين صدق دعوة الأنبياء وأن دعوتهم تصدر من سراج واحد، وقد أرسلهم الله لتعريفهم به سبحانه ودعوتهم لعبادته وحده، وقد بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ونصحوا الأمة وجاؤوا بمعجزات باهرات تدل على صدقهم فأصبح تصديقهم واجباً ومناصرتهم فرضاً والاقتداء بهم لازماً وتكذيبهم كفراً.

والناظر في سياق القصص القرآني يرى أن الله سبحانه أرسل نبياً بعد نبي أو رسولاً بعد رسول لمقتضيات ومتطلبات كثيرة منها:

أولاً: أن تكون دعوة الرسول المتقدم قد اندرست أو أصابها ما أصابها من انحراف أو نسيان، فتظهر الحاجة إلى عرض رسالته على الناس من جديد، فيرسل رسولاً آخر ليقوم بالمهمة نفسها التي قام بها الرسول الذي تقدمه في الزمن[1].

ثانياً: أن تكون رسالة النبي المتقدم غير تامة، فيرسل الله رسولاً آخر لإتمامها.

ثالثاً: أن تكون رسالة النبي المتقدم منحصرة في أمة خاصة وتكون أمم أخرى بحاجة إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إذا أرسله الله إلى الناس كافة وجعل رسالته خالدة باقية إلى أن تقوم الساعة[2]، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 107]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [سورة الأحزاب، الآية 40]، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَ بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [سورة غافر، الآية 78].

ومن خلال استقراء آيات القرآن نلحظ أن القرآن ذكر لنا عدداً من هؤلاء الأنبياء والمرسلين وهم: آدم، إدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهرون، ويونس، وداوود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليهم جميعاً؛ أما ذو الكفل فقد اختلف فيه فعده بعضهم من الرسل و لم يعده غيرهم، فإذا كان ذو الكفل رسولاً فيصير عدد الرسل في القرآن الكريم خمسة وعشرين رسولاً، والأنبياء والرسل

---

(1) ينظر: العقيدة الإسلامية، إبراهيم النعمة، مطبعة الزهراء – الموصل، ط2، 1422هـ – 2001م: 36.
(2) ينظر: شرح العقيدة الإسلامية: 156.

ليسوا بدرجة واحدة في الفضل، بل هم درجات، وقد فضل الله بعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ [سورة الإسراء، الآية 55]، وأفضل الرسل هو محمد ﷺ.

وهناك من الرسل من يسمون بأولي العزم لأنهم تحملوا أكثر من غيرهم في تبليغ رسالة الله فقد كانت عزائمهم قوية وجهادهم متعباً[1]، وابتلاؤهم شديداً، وهؤلاء أولو العزم من الرسل خمسة هم[2]: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ [سورة الأحزاب، الآية 7][3]، والإيمان بالرسالات وبالرسل حقيقة لا تحتاج إلى برهان ودليل، وهي من الأمور الغيبية؛ فإن رسالات السماء تؤمن بالغيب؛ إذ مقتضى كلمة "رسل" أن يكون هناك من رب العالمين، وهو من الغيب، بل كل غيب تبع له، فالرسالات من حيث الأصل كلها تؤمن بالغيب، ولا يوجد مصدر موثوق للاعتماد عليه في إثبات هذا سوى القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ، وقد حدثنا القرآن الكريم عن الأمم السابقة وكيف أن الرسل جاءها للإيمان بالغيب كما قال تعالى على لسان أنبيائه نوح وهود وصالح وشعيب[4]؛ قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [سورة الأعراف، الآية 59]، فالأنبياء جميعاً دعوهم واحدة ودينهم واحد وإن اختلفت الشرائع بينهم، ولهذا ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة أخي عيسى ابن مريم"[5]، وقال: "ذكرت دعوة أخي سليمان"[6]، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ [سورة آل عمران، الآية 19]، فالإسلام هو دين الأنبياء جميعاً.

---

(1) ينظر: الظاهرة القرآنية والعقل: 141.

(2) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية: 158.

(3) منهج الأنبياء في الدعوة الى الله، محمد سرور بن نايف زين العابدين، دار الأرقم - الكويت، ط3، 1409هـ -1988م: 21.

(4) ينظر: الإيمان بالغيب: 38.

(5) رواه أحمد: 262/5. المستدرك: (3566)، 453/2، المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت 405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1411هـ - 1990م.

(6) السلسلة الصحيحة: 59/4.

المطلب السابع

ما يجب في حق الرسل في القصص القرآني

من خلال الإشارات والمعاني المستنبطة من سياقات القصص القرآني نجد أن الأنبياء عليهم السلام قد اتصفوا بصفات معينة؛ ولا يمكن ان تنتفي أية صفة كانت من هذه الصفات التي نذكرها وهي:

أولاً: العصمة، ودلالة العصمة على أنها محفوظة ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بأية معصية كانت؛ فهم لا يقترفون ولا يقعون فيما يتنافى والخلق الكريم، والأمور الأصيلة، ولا يتركون واجباً، ولا يفعلون محرماً[1].

ثانياً: الصدق، وقد أكدت القصص القرآنية عدالة الأنبياء فيما يقولونه؛ فإن الكذب يستحيل عليهم، ولا يمكن أن يصدر منهم لأنهم ينقلون وحي الله إلى الناس[2].

ثالثاً: الأمانة؛ وقد بينت القصص القرآنية أمانة الأنبياء في تبليغ رسالة الله من غير تحريف أو تبديل أو إخفاء شيء لأن ذلك خيانة[3].

رابعاً: الفَطَانة؛ وهي حدة الذكاء وعمق الفهم والإدراك وفِرَاسة الأشياء وقوة العقل ورجاحته، ومعالجة الأمور والقضايا بنظرة فكرية واضحة بحيث يجعلون المقابل يفقد كل ما هي له من مهارات وقابليات في محاجحة الأنبياء والوقوف ضدهم، فتلين لهم قلوب الجبابرة والمعاندين[4].

خامساً: التبليغ، وقد أكدت القصص القرآنية أن الرسل قد أتموا ما أمروا به من تبليغ الرسالة وإتمامها، وعدم كتم أي شيء منها حتى لو لحقه وأصابه أذى كبير بعد تبليغه، ويستحيل عليهم كتم أمر قد أمر الله سبحانه بتبليغه[5]، وقد خاطب القرآن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ﴾ [سورة المائدة، الآية 67].

---

(1) ينظر: الكليات: 645. وينظر: تفسير آيات العقيدة: 284.

(2) ينظر: منهج القرآن في عرض العقيدة: 256. وينظر: الكليات: 645.

(3) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية: 140. وينظر: الكليات: 646.

(4) ينظر: موقف الرسول ﷺ من أهل العقائد الأخرى، د. عبد اللطيف محمد العبد، مطبعة مدكور- القاهرة: 1397هـ- 1977م: 34.

(5) ينظر: إيماننا الحق بين النظر والدليل: 143.

سادساً: السلامة من العيوب المنفرة فالرسل لا يصابون بمرض منفر لأن ذلك يحـــول بينه وبين الاتصال بالناس، أما ما ذكر عن سيدنا أيوب عليه السلام من أنه أصيب بمرض منفـــر فهو من الأمور الباطلة التي لا يعتد بصدقها[1].

(1) ينظر: الشكل القصصي في القرآن الكريم: 523.

المطلب الثامن: المعجزات في القصص القرآني

المعجزات هي الآيات والبراهين التي يظهرها الله سبحانه على أيدي أنبيائه ورسله للدلالة على صدق دعواهم. والمعجزة في دلالة معناها الأول كانت تدل على مظهره العجز، ثم نقلت للأمر الخارق الذي هو سبب في إظهار العجز[1].

أما المعجزة من حيث منظور علماء العقيدة فهي فعل يظهر على مدعي النبوة بخلاف العادة في زمان التكليف موافقاً لدعواه، وهو يدعو الخلق إلى معارضته ويتحداهم أن يأتوا بمثله فيعجزوا عنه، يتبين صدق من يظهر على يديه[2]، ومن خلال سياقات القصص القرآني وما ورد فيها من معجزات على أيدي أنبياء الله إن المعجزة هي ظهور أمر معين، سواء كان قولاً أو فعلاً أو تركاً، مخالف للعادة على يد مدعي النبوة والرسالة، موافق لدعواه، مقرون بالتحدي.

والمعجزة نوعان: حسية كأن تكون فعلاً لله تعالى أو ما يقوم مقامه من الترك والقول مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى، فالفعل كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ والترك كعدم إحراق سيدنا إبراهيم عليه السلام أو معنوية القرآن الكريم؛ لأن تصديق مدعي الرسالة إنما هو من عند الله فلا يحصل بما ليس من قبله[3]، وتكون المعجزة خارقة للعادة؛ فإحراق النار لما مسته يقال له: عادة، وعدم إحراقها لشيء مسته خرق لتلك العادة، وتظهر على يد مدعي النبوة أو الرسالة، وتكون المعجزة مقرونة بدعوى النبوة حقيقة أو حكماً بأن تأخرت بزمن يسير فلا تكون متقدمة على الدعوة، ولا متأخرة تأخراً يعلم أنها لا تتعلق بها[4]، ومن خلال سياقات القصص القرآني ندرك أن المعجزة من قبيل الممكنات التي لا يحيل العقل إمكان وقوعها لأن الأمر الخارق للعادة ممكن في نفسه ممتنع في العادة أي لم تجر العادة بوقوعه كانقلاب العصا حية؛ فإمكانها ضروري وإبداعها ليس أبعد من إبداع خلق الأرض والسماء وما بينهما، فالله سبحانه فاعل مختار وهو مسبب الأسباب والروابط بينها وبين مسبباتها وخالق القوانين والنواميس الكونية لا يعجزه ولا يمتنع عليه أن يخرق هذا

(1) ينظر: القاموس المحيط: 181/2.
(2) ينظر: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من فرق الهالكين، ابن المظفر الإسفرائيني (ت 471هـ)، تحقيق كمال الحوت، مطبعة عالم الكتب، 1403هـ - 1983م: 104.
(3) ينظر: تفسير آيات العقيدة: 308.
(4) المصدر نفسه: 309.

القانون، فتظهر المعجزة على يد من يشاء من عباده لتكون آية ودليلاً على صدقه وبرهاناً على صدق دعوته[1].

والناظر في القصص القرآنية يجد أن ما أجراه الله سبحانه من معجزات على أيدي من بعث من رسل الله وأنبيائه هو تفضل منه وإحسان؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [سورة الرعد، الآية 38]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَ بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [سورة غافر، الآية 78]، وقد اقتضت حكمة الله أن تقسم هذه المعجزات بين أنبياء الله ورسله بما يتناسب ودعوة النبي المرسل، وليس للنبي أو الرسول اختيار في إيثار بعض المعجزات على بعض، وليس له أن يستبد بمعجزة، فإن طرح الإتيان بمعجزة كانت إحدى مسائل المحاججات التي استعملها المكذبون في رد دعوة الرسل؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعاً۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَ بَشَراً رَسُولاً﴾ [سورة الإسراء، الآيات 90-93].

والقرآن يحكي حال الرسول بعد أن اقترح عليه الكفار جملة من المطالب والمشتهيات بقصد الاستهزاء به وإمعاناً منهم في الكفر والعناد، فبينت مقولة الرسول أنه كسائر الرسل الذين كانوا يأتون[2]، أقوامهم بما يظهره الله على أيديهم على ما يناسب مقتضى الحال ويلائم الهدف المنشود، ومن المعلوم أن هؤلاء المعاندين لم يطلبوا هذه المعجزات لغرض الإيمان وإنما لغرض الاستهزاء بالنبي وإصراراً منهم على الكفر والشرك، وهذا ما بينته[3]، آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سورة الأنعام، الآية 7].

---

(1) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية: 158.
(2) ينظر: سيكولوجية القصة القرآنية: 39.
(3) ينظر: جامع البيان: 161/9. والكشاف: 466/2. والجامع لأحكام القرآن: 328/10-332.

وتبين من خلال القصص القرآني أن أهم ما جاءت به الإشارات والمعاني والدلالات في هذه القصص هو إرساء العقيدة وإقامة التوحيد فضلاً عن التنبيه والتدليل على صدق دعوة الرسل والأنبياء، وأن ما أوحي إليهم يصدر من سراج واحد وأنهم بشر يصيبهم ما يصيب البشر من المرض والنسيان الذي لا علاقة له بتبليغ الدعوة، وقد أرسلوا ليعرفوا الناس بربهم ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ويبشروا المؤمنين بنعيم مقيم في الآخرة وينذروا الجاحدين الكافرين بعذاب بئيس وليقيموا الحجة على الخلق أجمعين، قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِأَلاَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [سورة النساء، الآية 165]، والإيمان بالرسل جميعاً فرض واجب، وهو من أركان الإيمان والإيمان بهم لا يقبل التبعيض، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة البقرة، الآية 285]، وقد ختمت النبوة والرسالة بسيدنا محمد ﷺ، فلا نبي بعده ولا رسول، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [سورة الأحزاب، الآية 40].

فمن فرق بين رسل الله فآمن ببعض وكفر بالآخرين، أو صدّق ببعضهم، وكذب بعضاً آخر كان من الكافرين بنص القرآن الكريم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ۞ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾ [سورة النساء، الآيتان 150-151].

المبحث الثالث

الوسائل البلاغية في الأسلوب القرآني في عرض العقيدة

ويشتمل على تمهيد وخمسة مطالب:

المطلب الأول: التشبيه.

المطلب الثاني: الاستعارة.

المطلب الثالث: الكناية.

المطلب الرابع: المجاز.

المطلب الخامس: صورة من الوصف القرآني.

تمهيد

ليس من شك في أن أسلوب القرآن الوصفي كان أحد الأساليب التي وظفها في عرض العقيدة عن طريق مخاطبة النفس الإنسانية بمجموعة من الصور والمشاهد[1]، التي من شأنها أن تضع أمام الإنسان دلائل وبراهين تتفق وتوجهه الفكري والنظري وتتوافق مع ما يحمله من موروث بشتى أنواعه والجانب الوصفي في القرآن مهم جداً وهو أحد جوانب إعجازه فضلاً عن جوانبه الأخرى التي رؤي أنها من دلائل الإعجاز أيضاً، كإنبائه عن الغيب وسلامته من الاختلاف واحتوائه على العلوم الدينية والأحكام التشريعية وعجز الزمان على إبطال شيء منه، وهذا التنوع الأسلوبي بهذه الأوجه الإعجازية وإن صحت إلا أنها لا تطغى على الجانب الأول في الإعجاز؛ وهو الأسلوب الذي أعجز البلغاء والفصحاء عن أن يأتوا بمثله مع تحدي القرآن لهم في أكثر من موضع، والأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة يعمد عند التعبير عن المعاني والصور التي يريد أن يبينها؛ يعمد إلى الانزياح عن معاني الألفاظ المعجمية إلى معان مجازية ترتبط بالمعاني الأصلية بروابط ظاهرة أو خفية، وهذه الأساليب تشمل التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، وهذه مكونات علم البيان، وقد وظفها القرآن في أسلوبه الوصفي في عرضه للعقيدة، وجعل منها إشارات ودلالات للتدليل على الإله الواحد عن طريق مخاطبة العقول والقلوب وشحن الذهن من أجل تحقيق الاستجابة النفسية التي يسعى إليها القرآن، وهذه الأساليب: (التشبيه، الاستعارة، الكناية، المجاز)، هي "عمل إرادي من صنع المتكلم وإدراكه، وهي وسيلة التعبير الجميل يصل به صاحبه إلى المعنى المراد بألفاظ منتقاة، ولكن هذه الألفاظ تتخذ طريقاً آخر في التعبير والغرض منه الانتقال بالتركيب إلى معان لا تؤديها عندما تأتي منفردة كما هو الحال في "المثل والقول، والتركيب الاصطلاحي أو التركيب اللغوي"[2]، فالتشبيه هو "العقد على أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حال"[3]، وهو "صفة الشيء بما قارنه أو شاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته لأنه إن ناسبه من

---

(1) ينظر: فن الوصف، إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط3، 1980م: 8.

(2) المصطلح اللغوي، د. محي الدين توفيق إبراهيم، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد (37)، الجزء الأول: 226.

(3) النكت في إعجاز القرآن، الرماني، علي بن عيسى (ت 356هـ)، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، في ثلاث رسائل في إعجاز القران، دار المعارف - مصر، 1968م: 85.

جميع جهاته لكان إياه"[1]، أما الاستعارة فهي "أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتـدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى الاسم المشبه به فتعيره الشبه وتجريه عليـه"[2]، وأمـا الكناية فهي "أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنى عن الأمر بغيره يكني كنايـة، وتكـنى: تستر من: كنى عنه: إذا وارى أو من الكتابة"[3]، وأما المجاز فهو "الانتقال من مكـان إلى آخر، وأخذ هذه المعنى واستعمل للدلالة على نقل الألفاظ من معنى إلى آخـر"[4]، وقـد حفلت آيات القرآن بتوظيف هذه الفنون البيانية على صور رائعة تزخر بالحياة ومعبرة عن أجمل المعاني والأفكار ومصورة إياها أجمل وأبلغ إصابة وكل ذلك مساق للتـدليل علـى عقيدة التوحيد والحض على عبادة الإله الواحد وقد شكلت ظاهرة بارزة فيه.

(1) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد علي محمد العلوي، أبو الفضل إبراهيم، مصر- مطبعة البـابي الحلـبي، 1391هـ - 1971م: 186.

(2) الإيضاح في علوم البلاغة، للإمام القزويني، دار الكتاب العربي - بيروت، (د.ت): 56/2.

(3) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقـي - بغـداد، 1407هـ -1987م: 154/3.

(4) المصدر نفسه: 193/3.

المطلب الأول: التشبيه

التشبيه: اعتمد الأسلوب القرآني على التشبيه أكثر من اعتماده على المجازات والكنايات، وتكون الطبيعة في تشبيهات القرآن عنصراً مهماً، وتقع في الغالب مشبهاً بها، وقد تنوعت هذه التشبيهات القرآنية، فمنها المفردة؛ وهي ما كان التشبيه فيها حاصلاً باعتبار صورة بصورة أو معنى بمعنى من غير زيادة كقوله تعالى في وصف السماء يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [سورة المعارج، الآية 8]، ومنها المركبة؛ وهي التي ينتزع فيها وجه الشبه من أمور متعددة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنـزلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة يونس، الآية 24] [1]، والآية الكريمة تبين أن مثل الحياة الدنيا في سرعة الذهاب مثل ما على الأرض من أنوع النبات؛ فقد شبهت الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته حتى خالط بعضه بعضاً[2]، وفي تشبيه الحياة الدنيا بالماء أمران: أحدهما: أن الماء إذا أخذت منه فوق حاجتك تضررت وإن أخذت قدر الحاجة انتفعت به، فكذلك الدنيا، وثانيهما: أن الماء إذا طبقت كفك لتحفظه لم يحصل فيه شيء؛ فكذلك الدنيا، فليس المراد تشبيهها بالماء وحده[3]، بل تشبيه بهجتها في قلة الدوام والبقاء والاستمرار بفناء النبات وانتهائه بعد طراوة ونضارة[4]، ومن خلال هذا التشبيه تتجه عقيدة التوحيد، فإن هذا الوصف لما على الأرض من النبات وفنائه يشبه حال الإنسان لأنه أيضاً إلى زوال، وقد وظف الأسلوب القرآني عناصر الطبيعة هذه في هذا التشبيه المركب المنتزع من أمور متعددة جمع بعضها مع بعض بدقة عالية لتصوير هذا المشهد المتعدد الصور والألوان في بيان حال الدنيا وزينتها[5]، ونلحظ قوة الاتصال بين طرفي التشبيه من حيث الدقة في

---

(1) ينظر: سورة الكهف، الآية 45.

(2) معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: 154/3.

(3) المصدر نفسه.

(4) ينظر الكشاف: 233/2. والتحرير والتنوير: 141/11.

(5) ينظر: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة مجيد الأطرقجي، منشورات وزارة الثقافة والفنون، دار الحرية للطباعة – بغداد، 1978م: 79-80.

اختيار مادة المشبه به، وقد أخرج هذا التشبيه هذه المعاني ظاهرة على نحو عميق، وعمل بصورة حيوية على إجلاء المعنى وتقريره في النفوس لتحريك العقول والقلوب، فإن القرآن يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، كما يعبر بها عن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، ثم يرتقي بالصورة التي رسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة[1]، فتكون على أعلى مرتبة في التأثير والإقناع والوصف وسيلة من وسائل القرآن الفعالة في تحقيق مقاصده وأغراضه وفي إظهار المعاني وتقريبها، فقد تظهر فيه المعاني الذهنية أو المجردة في صور حسية رائعة، ومنه قوله تعالى في تصوير مشهد من مشاهد يوم القيامة: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 104]، لقد لجأ القرآن من أجل تجسيد يوم الحشر وأهواله وما يتخلله من مظاهر إلى الوصف ليرسم صورة متكاملة لهذا اليوم؛ ومن هذه الصورة طي السماء كما يطوي السجل الكتاب، والسجل: هو الصحيفة؛ أي طياً كطي الصحيفة على ما يكتب، وليس كما يظن أن المقصود هو الجلد الذي يغطي دفتي الكتاب في وقتنا هذا، لأن الكتب بشكلها الحالي لم تكن معروفة عند نزول القرآن بل كانت تلف لفاً[2]، فحالة طي السماء هي المشبه، وحالة طي الكتب هي المشبه به، ووجه الشبه أن الكتاب إذا طوي اختفت معالم الكتابة التي فيه وبذلك يتبين أن المراد إبطال السماء ونقض بنيانها وإعدام جملتها وهذا المعنى يعرفه العرب كما في قولهم: "طوى الدهر إلى فلان"[3].

إن هذا الوصف لمشهد من مشاهد يوم القيامة يشير إلى عظمة الله سبحانه فكيف لهذه السماء على أبعادها السحيقة أن تطوى وتلف كما تطوى الصحيفة الكتاب؟!! لا أحد يستطيع ذلك إلا من أوجدها فليس المقصود من هذا الوصف ليوم الحساب بيان مشهد من مشاهد الحشر وحسب، بل بيان قدرة الله سبحانه وأنه الإله الواحد المعبود بحق "فليس المعنى القريب الذي يؤخذ منه اللفظ لأول وهلة، ولكن المراد المعاني الإضافية والدلالات الثانية"[4]، التي تنبع من تشكيلة هذا الوصف القرآني والأسلوب القرآني في

(1) التصوير الفني في القرآن: 62.
(2) ينظر: الكشاف: 585/2. وفي ظلال القرآن: 2399/4.
(3) ينظر: الوصف في القرآن الكريم، يونس جاسم: 28.
(4) التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، عبد الفتاح لاشين، دار الجميل للطباعة – الفجالة، 1400هـ - 1980م.

عرضه للأفكار والمعاني "ينتقي ألفاظه ويختار كلماته لما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالاتها، فيستخدم كل كلمة بدقة بحيث تؤدي معناها المراد في إحكام شديد يكاد السامع يؤمن بأن هذا المكان خلقت له هذه الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تؤدي المعنى الذي أفادته أختها"[1]، فهو يختار أصفاها جرساً وأدقها تعبيراً، وأحلاها نغماً وأورد كل لفظ في مكانه المناسب ببراعة فائقة.

المطلب الثاني: الاستعارة

وقد وظفت في سياقات القرآن الكريم في تصوير مشاهد وأحداث متنوعة منه قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 168].

القطع: هو الصرم وإبانة الشيء من شيء[2]، وهذا هو الأصل فيها، ثم أطلقت على كل شيء فيه تفريق وتشتيت، قال الراغب: "القطع إما أن يكون مدركاً بالبصر أي أنه يكون حسياً أو يكون مدركاً بالبصيرة كالأشياء المعقولة نحو: قطع الطريق"[3]، ومعنى قطعناهم: أي فرقناهم[4].

لقد شكل هذا الوصف القرآني عن طريق الاستعارة صورة حية في بيان تجمع اليهود على شكل جماعات وتفرقهم في الأرض، وفي ذلك إخبار عن الغيب في الزمن كله، حيث لا توجد أرض مسكونة إلا ويعيش فيها اليهود كتلة واحدة معزولين عن بقية أهل الأرض، وقد ضرب الله سبحانه بين اليهود وبين الأمم الأخرى قطيعة نفسية فرضت عليهم صداماً دائماً مع الغير وصداماً وبين الأمم أخلاقياً واقتصادياً وفكرياً دفع بهم إلى صراع مكتوم فيما بينهم كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الحشر، الآية 14]، ودلالة معاني الآية الكريمة تشير إلى حصر معنى التفرق فيهم، وقوله: ﴿أُمَماً﴾ فيه إعجاز آخر أثبته الواقع؛ إذ إنهم

---

(1) صفاء الكلمة، عبد الفتاح لاشين، مطبعة دار المريخ – الرياض، 1403هـ – 1983م: 62.
(2) مقاييس اللغة: 101/5.
(3) المفردات: 616.
(4) ينظر: تفسير غريب القرآن: 147.

يعيشون في كل بقاع الأرض كتلة متجمعة في السكن والعمل والقيادة[1]، وقد دل الوصف القرآني في سياق الآية الكريمة على معنى دلالي تمثل في إزالة الاجتماع ونفيه وقد استعمل القرآن لفظة "التقطيع" بدل "التفريق" في وصف هؤلاء اليهود، "لأن التقطيع يشير إلى معنى نفسي دقيق يخص الوشائج التي تقوم بين الجماعة الواحدة القائمة في مكان والمجتمعة في أرض واحدة"[2]؛ وذلك يعني انعدام الروابط وتفككها بين هذه الجماعات اليهودية التي تعيش في مواطن متفرقة.

المطلب الثالث: الكناية

الكناية في القرآن الكريم هي إحدى الوسائل التي استخدمها في أسلوب الوصف في الحديث عن المواضيع التي طرقها، والكناية وسيلة حيوية في سياق واتساق الوصف القرآني كونها من الأساليب الإيحائية؛ فهي لا تدل على المعنى بصورة مباشرة، وإنما تحرك الذهن والعقل والخيال للوقوف على المعنى المقصود.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء، الآية 42]، الآية الكريمة تشير إلى مشهد الذل والصغار الذي يحيق بالكافرين يوم القيامة، فهم يتمنون أن تفتح الأرض وتبتلعهم[3]، بل إنهم يريدون أن يكونوا تراباً فيستوون معها حتى يصيروا شيئاً واحداً[4]، أو أنهم "يدخلون فيها حتى تعلوهم"[5]، فلا يظهر منهم شيء ولا يرى، والكناية في الآية عن موصوف وهو "الغير"[6].

إن الأسلوب القرآني من خلال وصفه في سياق هذه الآية يصور الحالة النفسية لهؤلاء المجرمين في مشهد من مشاهد يوم الحساب، وقد جاء التمني بـ "لو" على لسان هؤلاء

(1) ينظر: الإعجاز القرآني في وصف اليهود، د. أحمد الكبيسي، بحث منشور ضمن بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، 1410هـ - 1990م: 41.

(2) الاستعارة في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب جامعة الموصل، لسنة 1988م: 85.

(3) ينظر: الجامع أحكام القرآن: 129/5. وصفوة التفاسير: 276/1.

(4) مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 210هـ)، تحقيق: محمد فؤاد سركيس، ط2، دار الفكر، مكتبة الخانجي، 1390هـ - 1970م: 228/1.

(5) إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين بن محمد الدامغاني (ت 478هـ)، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، ط1، دار العلم للملايين، 1390هـ - 1970م: 31.

(6) ينظر: التحرير والتنوير: 59/5.

الكافرين ليعطي دلالة إضافية تشير إلى بعد تحقيق مبتغاهم، لتعميق شعورهم بالحزن والأسى فيتمنون أن يغيروا في الأرض كما قال تعالى في موضوع آخر: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً﴾ [سورة النبأ، الآية 40]، وقيل: إن البهائم تصبح تراباً فيتمنون أن يكونوا مثلها(1).

وهذا التصوير القرآني يصف بدقة هول حساب الكافرين وصفاً دقيقاً يصور حالتهم النفسية الممتلئة خجلاً وندامة وحزناً ومهانة في ساحة العرض بمشهدها العظيم الذي تشهده الرسل والأمم، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً﴾ [سورة النساء، الآية 41]، فهم مكشوفون في ساحة العرض لا تخفى منهم خافية، وجمال الوصف القرآني يتمثل في تصوير عمق الضلالة النفسية والشعورية التي يجليها، ويفتح أمام العقل مجالاً للتأمل في تصوير حال الكافرين ويحث الإنسان على التبصر والابتعاد عن الوقوع في مثل هذا الموقف عن طريق التوجه إلى الإله الواحد ونبذ ما سواه وإقامة العقيدة الحق.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [سورة الرعد، الآية 40]، الخطاب في الآية موجه إلى أهل مكة؛ والمعنى: أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها شيئاً فشيئاً حتى يتم الأمر بفتح مكة نفسها(2).

فالنقص يبدأ بالأطراف "لأن طرف الشيء أضعف من قبله ووسطه"(3)، ويتجلى موقع "أطراف" و"ننقصها" في هذا التعبير الدقيق "فالأطراف توحي بنظرة شمولية لشكل الأرض و"ننقصها" توحي بفكرة آلية عن طبيعة انتقاص الأطراف وهاتان حقيقتان علميتان بنظرية دحر القطبين وحركتهما"(4).

---

(1) ينظر: الكناية في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب جامعة الموصل، 1995م: 148.

(2) ينظر: جامع البيان، 175/8. وصفوة التفاسير: 87/2.

(3) البرهان في علوم القرآن: 115/3.

(4) تطور البحث الدلالي (دراسة في النقد اللغوي والبلاغي)، د. محمد حسين الصغير، مطبعة العاني – بغداد، ط1، 1408هـ - 1988م: 72.

إن هذا الوصف القرآني يصور معنى الغلبة والنصر على سبيل التمثيل بالصورة الحسية عبر عنها القريب، أما المعنى المكني عنه البعيد فهو يلتقي مع هذا المعنى من حيث أن النصر والغلبة للمسلمين والدماء والهلاك للكافرين، وقد أظهرت معاني هذا السياق الوصفي الدلالة على عظمة الله سبحانه وإرادته القوية التي تفعل فعلها في الأمم القوية حين تبطر وتتكبر فتنقص من قوتها وثرائها[1]، كما حل بقوم عاد وثمود وفرعون، فمهما بلغت حضارتها المادية من رقي وتطور فإنها لا تقف أمام قوة الله سبحانه.

وفي الآية الكريمة تعريض بالإيماء بأهل مكة بزوالهم وانحسار أرضهم وفتحها من قبل المسلمين، وفي ذلك إشارة إلى عذاب آخر يصيب الكافرين من انحسار أرضهم بعدما كانت واسعة وتحول أرضهم إلى دويلات صغيرة لا قوة لها بعد أن كانت منيعة وعالية الشأن، فإن يد الله القوية لبادية الآثار فيما حولهم، فهي تأتي الأمم القوية الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد فتنقص من قوتها وقدرتها وتحصرها في رقعة ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وذات امتداد، وإذا حكم الله عليها بالانحسار فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

المطلب الرابع: المجاز

المجاز: ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ [سورة المزمل، الآية 14]، والآية الكريمة تصور مشهداً من مشاهد يوم القيامة، فالأرض والجبال ترجفان من هول ذلك اليوم[2]، "والأصل أن الأرض مرجوفة لا راجفة، وهو من باب المجاز، والرادفة مردوفة لا رادفة، وحفرة القبر محفورة لا حافرة، كذلك الخاسرة، والساهرة"[3].

إن العدول عن هذا الأصل إلى الإسناد المجازي فيها جميعاً ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم، وهو من سعة القرآن في التصرف في المفردات والسياقات سواء أكان في موضع الوصف أو في غيره، وقد قرن الأسلوب القرآني في وصفه هذا المشهد من مشاهد القيامة

(1) ينظر: الكناية في القرآن الكريم: 314.

(2) ينظر: الكشاف: 177/4. وفي ظلال القرآن: 3747/6.

(3) التفسير البياني للقرآن، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) (ت 1418هـ) ط2، دار المعارف – مصر، 1393هـ – 1973م: 131/1.

بين رجف الأرض ورجف الجبال زيادة في تهويل ذلك الرجف وشدته، فهذه الجبال التي هي رواسي للأرض كما قال في موضع آخر: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ [سورة النبأ، الآيتان 6-7]، تضطرب وتتحرك وتنقلع من مكانها فتصبح الجبال من شدة الرجفة رملاً سائلاً تحت الأرجل من شدة الزلزلة كما قال عنها سبحانه: ﴿وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾.

فإذا كانت تلك الرجفة تدك، فما حال أهل الأرض عند ذاك؟! وقد حققت الوصف في هذه الآية هذه المعاني بدلالة حسية مؤثرة.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [سورة الزلزلة، الآيتان 1-2]، والآيتان الكريمتان تشيران إلى مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة، والزلزلة: الحركة والاضطراب الشديد[1].

وقد جسدت "إذا" عنصر المفاجأة في هذا الوصف القرآني، وقد أسند الأسلوب القرآني الزلزلة إلى الأرض عن طريق المجاز، وقد زاد تجسيد هذا الوصف جرس الألفاظ وإيقاعها الشديد "فالقرآن يعني بالجرس والإيقاع المعنى، وهو لذلك يتخير الألفاظ تخيراً يقوم على أساس من تحقيق الموسيقا المتسقة مع جو الآية وجو السياق"[2].

وقد استعمل الأسلوب القرآني في وصفه ليوم الحساب هنا الفعل المبني للمجهول لوصف وتصوير زلزال الأرض، واستخدم مع الإخراج الفعل المبني للمعلوم، وبناء الفعل للمجهول في هذه الآية، وفي السورة بشكل عام هو لتركيز الفعل للانتباه إلى الحدث نفسه، ودلالة على الطواعية أو التلقائية التي يستغنى بها عن الفاعل[3].

فإن التأكيد لحركة الكون بعناصره المتعددة من خلال إسناد قيم من الأفعال إلى عدد من عناصر الطبيعة قد أضعف صفات حية وحركية على تلك العناصر فأصبحت من خلال التوظيف القرآني صوراً فاعلة فريدة لها منزلة في الحسن والجمال.

---

(1) المصدر نفسه: 81/2.

(2) الجرس والإيقاع في التعبير القرآني، كاصد ياسر الزيدي، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد 9، 1992م: 335.

(3) ينظر: التفسير البياني للقرآن: 131/1.

وقد جاء فعل الإخراج مسنداً إلى الأرض عن طريق المجاز، فالإخراج إنما هو من أفعال الله حقيقة، وقد زاد هذا الإسناد التراكيب معنى وقيمة تعبيرية من الأثقال وهي الكنوز وأجسام البشر[1].

إن ما وظفه القرآن من معان في سياقاته في الوصف هو من أجل التدليل على العقيدة والإشارة إلى الحقائق الإلهية، والقرآن كتاب هداية وإرشاد وتوجيه، فضلاً عن كونه الأنموذج الأمثل لتكوين أمة قوية راسخة في مفاهيمها وقيمها، فالأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة والموضوعات القرآنية الغيبية، فإنه لم يهتم بالمغيبات من الأمور، ويركز عليها آياته، لا يغفل عما هو أشد التصاقاً وأعظم تأثيراً في حياة الأفراد والجماعات من المقاصد والأغراض، وإنما يتناول كل ما هو ذو أهمية للنفوس البشرية من قريب أو بعيد، فضلاً عن إعطائه المفهوم الصريح الواضح عن دقيق الأمور وجليلها التي تهم الإنسان الذي هو خليفة الله في أرضه، ولإبلاغ منهج الرسول الذي ختمت ببعثته الرسالات السماوية فضلاً عن كونها رسالة شاملة وعامة لمن يعقل من الثقلين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ۞ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآيتان 106-107].

والوصف القرآني والموضوعات التي طرقها والتي سخرت لبيان العقيدة الصحيحة إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وقد لعب الوصف دوراً رئيسياً في بلورة التوجه الفكري والنفسي للإنسان، وهذا من شأنه أن يدفعه للتفكر ومزيد من النظر والإمعان، وقد استطاع الوصف القرآني إبراز ما دق وعظم من الأمور في وصفه وتصويره لمختلف الموضوعات من أجل تحقيق أهدافه السامية، ومقاصده النبيلة التي كانت فتحاً في عالم الفكر والعقيدة، ولم يتوان الأسلوب القرآني عن ذكر ضعيف الأمور وحقيرها من ذكر جسيم الأمور وأضخمها؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية 26]، وروى ابن عباس[2]، "أن هذه الآية نزلت في اليهود لما

(1) ينظر: الكشاف: 275/4. والتفسير الفريد: 3341/4.
(2) ينظر: جامع البيان: 177/1. وتفسير المنار: 227/1.

ضرب الله الأمثال في كتابه بالذباب والعنكبوت وغير ذلك مما يستحقر، كما في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [سورة الحج، الآية 73]، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 41]، فلما سمع اليهود ذلك قالوا: إن الله تعالى أعظم وأجل من أن يضرب الأمثال بمعنى هذه المحقرات، فرد الله تعالى عليهم بهذه الآية، إذ إنه لا يعنيه شيء من تلك المخلوقات على تفاوتها عظمة وحقارة قدر ما يعنيه تحقيق ما وظفت له من تحقيق[1]، أهداف معينة وتثبت معاني وأفكار مقتضاة والناظر في الوصف القرآني في هذا الشأن يلحظ أن الأسلوب القرآني يعمد إلى وصف الأمور العظيمة كالإسلام بالضياء والنور، وأما إن كان ضعيفاً وحقيراً كالأصنام فإنه يصفه بصفات حقيرة ضعيفة كالذباب والبعوض وهو بهذا يعظم من شأن المؤمنين الموحدين، ويحقر شأن الكافرين المشركين.

(1) ينظر: التفسير الفريد: 32/1. وصفوة التفاسير: 44/1.

المطلب الخامس: صور من الوصف القرآني

أ- وصف المؤمنين

والمؤمنون كان لهم نصيب من الوصف القرآني فقد جعل منهم نماذج إيمانية رفع الله منزلتها وأعلى مقامها، وخلد ذكرها وهم المستخلفون في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً ورضي عنهم ورضوا عنه وأعد لهم مغفرة وأجراً عظيماً.

وقد وصف القرآن رجالاً على مرار التاريخ، وجعل منهم صورة حية أمام النبي محمد ﷺ تسلية له وأخبره عن إيماهم ومواقفهم وثباهم وتضحياهم منهم الأنبياء ومنهم دون ذلك مرتبة من مراتب الإيمان، وقد ساق القرآن وصف هؤلاء المؤمنين ليثبت فؤاد النبي ويبين له ثمرة ثباهم، فكان محمد ﷺ أثبت من في الأرض وأشجعهم، وكان جبلاً شاهقاً في كل شيء، ديناً وخلقاً وإقداماً، وقد تعلم[1]، الصحابة رضوان الله عليهم منه الثبات منذ اليوم الذي قال فيه: "والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه"؛ فكان الله سبحانه الغاية لدى الصحابة، والرسول قدوهم، والقرآن دستورهم، والجهاد سبيلهم، والموت في سبيل الله أسمى أمانيهم[2].

فبفضل عقيدة التوحيد جعلت الحفاة العراة عباد الأصنام والحجر والوثن والشجر جبالاً وحولتهم جحافل دانت لهم فارس والروم وغيرها من المماليك وجمعتهم بعد تمزق، وأعزهم بعد ذل، وأغنتهم بعد فقر، وألفت بين قلوبهم بعد عداء فأصبحوا بنعمة الله إخواناً فتحوا بها قلوب العباد قبل البلاد، بأخلاقهم الكريمة وسيرهم الحميدة، فأصبحوا أساتذة البشرية جمعاء، وما زال ذكرهم والثناء غضاً طرياً باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد قال تعالى في مدحهم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ

(1) ينظر: وصف القرآن لأصحاب رسول الله، قوام الدين عبد الستار الهيتي، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين، بغداد، 1404هـ - 1984م: 71.

(2) ينظر: منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام: 22.

شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [سورة الفتح، الآية 29]، فإنها "صورة عجيبة يرسمها القرآن بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لإبراز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة، فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيشُ بها ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللهِ وَرِضْوَاناً﴾، ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسماتهم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [1].

ودلالة الآية الكريمة تشير إلى إثبات صفة الرسالة للنبي محمد ﷺ، ثم وصف وتصوير أصحابه المؤمنين، وهذا الوصف لأصحاب النبي تناول الحالات الثابتة في حياتهم، ودلالة التكريم لهم واضحة في سياق معاني الآية، فكما أن القرآن وصف ما هو وثيق الصلة بالفكر كإثبات الخالق وتوحيده وإثبات البعث، فإنه يهتم كذلك بالنفس الإنسانية ويعمل على تربيتها والاستعلاء بها إلى آفاق سامية من التهذيب والتدريب[2].

فالأسلوب الوصفي في هذه الآية بين عظيم قدر هؤلاء المؤمنين وعلو شأنهم، وقد ثبت ذكرهم ومجدهم في كتابه العزيز الخالد وتبقى ذكراهم ومواقفهم وثباتهم صورة حية للأجيال[3]، تستمد منها طاقاتها وتضعها أمامها كي تسير مسيرتها محاولة الوصول إلى شواطئها لتحقيق معنى الإيمان كالزرع في تطوره ونمائه وتآزر أعضائه وأجزائه ترقياً من حال إلى حال ومن صورة إلى صورة.

ب- وصف المنافقين

ومن خلال الوصف القرآني للمنافقين يلحظ أن القرآن قد وضع حداً واضحاً بين الإيمان والنفاق، ويعمل الوصف لهؤلاء المنافقين على دفع العقول والقلوب للابتعاد والنأي عن جميع صور النفاق وأشكاله، وقد أبرز القرآن هذه المعاني بأعلى درجات التأثير والإقناع؛ ومنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ ۞ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن: 3331/6. والتفسير الفريد: 2915/4.
(2) ينظر: في ظلال القرآن: 3333/6. وصفوة البيان: 228/2.
(3) ينظر: جامع البيان: 146/1. وصفوة البيان: 38/1.

يَرْجِعُونَ ۞ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنْ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۞ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة، الآيات 17-20].

فهذا التصوير والوصف لأعمال المنافقين في وصفين رائعين: الوصف الأول في تصوير حالهم في حيرتهم وضلالهم بحال الذي أطفئت ناره التي أوقدها فظل في ظلام دامس لا يرى شيئاً حوله، ووصفهم في الصورة الثانية بمن أصابه مطر شديد فيه ظلمات ورعد شديد يصك الآذان، وبرق لامع يذهب بالأبصار ويختطفها اختطافاً، وقد وضع أصابعه في أذنيه خوفاً من أن تصيبه صاعقة من صواعق ذلك الرعد القاصف والبرق اللامع.

وهذه الصورة التي يصفها الأسلوب القرآني للنفس الملتوية المريضة المعقدة المقلقلة تشير إلى الاضطراب التي تحمله نفوس المنافقين، وهؤلاء المنافقون لم يعرضوا عن الهدى ابتداء مثل الكافرين، ولم يصموا أسماعهم عن السمع، وعيونهم عن الرؤية، وقلوبهم عن الإدراك، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى بعدما استوضحوا الأمر وتبينوه، وقد عطلوا آذانهم فهم "صم" وعطلوا ألسنتهم فهم "بكم" وعطلوا عيونهم فهم "عمي" فلا رجعة لهم إلى الحق، ولا أوبة لهم إلى الهدى، ولا هداية لهم إلى النور[1].

أما وصف مشهد الصيب والمطر، والرعد والبرق، فإنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب، فيه ضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة، وهذا الوصف القرآني لهذه الصورة لتخبط المنافقين متجسدة بالصيب الهاطل إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه إلى الخطوات المروعة الوجلة، التي تقف عندما يخيم الظلام.

إن هذه الحركة وهذا الوصف لها ليرسم عن طريق التأثير الإيحائي حركة التيه والاضطراب والقلق، والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون، بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين، بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة، بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيئون إليه من ضلال وظلام[2]، وهذا الوصف الحسي يرمز لحالة نفسية،

(1) ينظر: في ظلال القرآن: 46/1. والتفسير الفريد: 26/1.
(2) ينظر: في ظلال القرآن: 46/1. والتفسير الفريد: 172/1.

ويجسم صورة شعورية، وهو أحد أساليب القرآن العجيبة في تجسيم أحوال الناس ومشاعرهم وأفكارهم كأنها مشهد محسوس وتنبض فيها الحياة.

ج- وصف الكافرين

أما وصف الكافرين فإن الأسلوب القرآني وصفهم بصفات متنوعة ورسم لهم صورة رائعة تعبر عن دواخلهم ومكنونات نفوسهم؛ فمرة وصفهم وصور حالهم كالحمر الهاربة من أسد هصور فتاك كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنْ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۞ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [سورة المدثر، الآيات 49-51].

والقرآن إذ يصور بهذا الحال ويصورهم على هذا النحو ليبين ويعبر عن شدة إنكارهم للحق، وصدورهم عن الخير، وعن التذكرة والتذكرة في الآية يعني "العظة" والمراد هو القرآن[1]، وقد جاءت هذه الآيات بعد أن عرض الأسلوب القرآني موقفهم في الأخرى قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۞ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۞ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۞ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۞ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [سورة المدثر، الآيات 42-47].

فإن كان الحال كذلك في الآخرة فما بال الكفار عن القرآن المذكر بالله سبحانه معرضين لا يتدبرون ما فيه ولا يتفهمونه[2]؟!

فضلاً عما في وصفهم وتصوير حالهم بالحمر من مقدمة وازدراء وتهجين لحالهم وحال كل من يكفر بالله سبحانه ويشرك به، فإن "الشرك نفسه ظنون وأوهام لا دليل لهم عليه"[3]، وقد خاطب القرآن هؤلاء المشركين في مواضع كثيرة وبين لهم عجز الآلهة التي يدعون وأنهم لا خير فيهم، وأنهم من مخلوقات الله الكبير المتعال، وبين أن من الحماقة أن ينصرف الإنسان عن الخالق القادر الذي بيده مقاليد السماوات والأرض إلى المخلوق العاجز الضعيف الذي لا يملك مصير نفسه؛ منه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة المائدة، الآية 76]،

---

(1) ينظر: جامع البيان: 168/29. وفي ظلال القرآن: 1362/6. والتفسير الفريد: 3314/4.
(2) ينظر: جامع البيان: 168/29. وفي ظلال القرآن: 1362/6. والتفسير الفريد: 3314/4.
(3) تفسير آيات العقيدة: 146.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [سورة يونس، الآية 18].

د- وصف الجنة

إن من المواضيع التي وصفها القرآن وقربها إلى الذهن والفكر والخيال هو تصوير الجنة وما أودع الله سبحانه فيها من اللذات والمتع الحسية وغيرها، وهذا الوصف لها هو في الحقيقة دعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد للحصول على هذه الجنة فضلاً عما وصفه القرآن من أمور فيها، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[1]" اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة السجدة، الآية 17].

والجنة كما هو ظاهر من نص القرآن درجات قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية 163]، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "في الجنة مئة درجة؛ ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش، فإذا سألتموه فاسألوه الفردوس"[2].

وقد وصف القرآن الجنة وما فيها ففيها أنهار من ماء ولبن وخمر وعسل كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [سورة محمد، الآية 15].

ولهم فيها أشجار وثمار وقد وصفها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [سورة الإنسان، الآية 14].

---

(1) رواه البخاري، في باب ما جاء في صفة الجنة أنها مخلوقة: 234. ينظر: المستدرك (3549): 428/2. صحيح ابن خزيمة: 190/3.

(2) أخرجه الإمام أحمد برقم: (22187، 22232). المستدرك: (267)، 153/1. والبيهقي في البعث والنشور: 248.

وقد وصف القرآن[1]، أيضاً طعام أهل الجنة وشرابهم كما في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [سورة الزخرف، الآيات 71-73].

وقد وصف القرآن ثياب أهل الجنة وحللهم كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ [سورة الكهف، الآية 31].

وقد وصف القرآن مساكن أهل الجنة وغرفهم، وهذه الغرف التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين لا تضيق بأهلها كما تضيق في الدنيا، فهي غرف من فوقها غرف مبنية لا عور لها قال تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [سورة الزمر، الآية 20][2].

أما نساء الجنة فقد وصفهن القرآن بأحلى صورة وأجمل تصوير قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۞ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ۞ عُرُباً أَتْرَاباً ۞ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [سورة الواقعة، الآيات 35-38]، وهذه الحياة أبدية لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم الله سبحانه عذاب الجحيم.

هـ- وصف جهنم

صور القرآن جهنم ووصفها بلغة قوية وإيقاع جميل، وقد وصفها بعدة أوصاف؛ فهي تارة متعطشة شرهة تطلب ضحاياها في ظمأ لا يعرف الري، وشره لا يعرف الاكتفاء كما بين ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [سورة ق، الآية 30]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ ۞ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [سورة الملك، الآيتان 7-8]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ

---

(1) ينظر: لسان بيانية في نصوص من التنزيل: 126.
(2) ينظر: منهج القرآن في عرض العقيدة: 448.

بالسَّاعَة سَعيراً ۞ إذَا رَأَتْهُم منْ مَكَان بَعيد سَمعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفيراً ۞ وَإذَا أُلْقُوا منْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنينَ دَعَوْا هُنَالكَ ثُبُوراً﴾ [سورة الفرقان، الآيات 11-13].

فهذا عالم تعمره "السعير" التي تفور من الغيظ فيسمع لها شهيق وزئير تلهب جذوها هذه الأفواج من الداخلين فيها[1].

وقد أطنب القرآن في وصف جهنم ففيها يوثق إليها المعذبون كما قال تعالى: ﴿إنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤصَدَةٌ ۞ في عَمَد مُمَدَّدَة﴾ [سورة الهمزة، الآيتان 8-9].

وجهنم أيضا مرصاد للطاغين، ومآب لهم يخلدون فيها أحقاباً طويلة لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً، ولهم فيها "مهاد"، قال تعالى: ﴿إنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مرْصَاداً للْطَّاغينَ مَآباً ۞ لاَبثينَ فيهَا أَحْقَاباً ۞ لاَ يَذُوقُونَ فيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً﴾ [سورة النبأ، الآيات 21-24]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ منْ جَهَنَّمَ مهَادٌ وَمنْ فَوْقهمْ غَوَاشٍ وَكَذَلكَ نَجْزي الظَّالمينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 41].

وقد جسد الوصف القرآني جهنم وصورها، والقارئ لكتاب الله يجد صورة كاملة في وصف الجحيم وأهله وما يتقلبون فيه من أوان الحياة القاسية، حتى الأوصاف الدقيقة[2]، كما قال في لباس أهل النار: ﴿هَذَان خَصْمَان اخْتَصَمُوا في رَبِّهمْ فَالَّذينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثيَابٌ منْ نَار يُصَبُّ منْ فَوْق رُءوسهمُ الْحَميمُ﴾ [سورة الحج، الآية 19]، فضلاً عن وصف طعامهم؛ قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إلاَ منْ ضَريعٍ ۞ لاَ يُسْمنُ وَلاَ يُغْني منْ جُوعٍ﴾ [سورة الغاشية، الآيتان 6-7]، وهذا الطعام لا يستساغ له غصة؛ قال تعالى: ﴿إنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحيماً ۞ وَطَعَاماً ذَا غُصَّة وَعَذَاباً أَليماً﴾ [سورة المزمل، الآيتان 12-13].

فضلاً عن شجرة الزقوم قال تعالى: ﴿إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم طَعَامُ الأَثيم ۞ كَالْمُهْل يَغْلي في الْبُطُون ۞ كَغَلْي الْحَميم﴾ [سورة الدخان، الآيات 43-46].

---

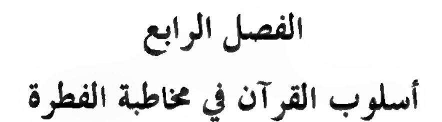
(1) ينظر: جامع البيان: 4/29. والتحرير والتنوير: 23/29.

(2) من وحي القرآن، د.إبراهيم السامرائي، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، ط1، 1401هـ - 1981م: 156.

أما شرابهم فهو حميم أو صديد، قال تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [سورة إبراهيم، الآيات، 16-17].

وهذا العالم الواسع يتولى أمره ملائكة وزبانية غلاظ شداد لا تأخذهم بأهل النار رحمة؛ قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم، الآية 6].





الفصل الرابع

أسلوب القرآن في مخاطبة الفطرة

المبحث الأول: مخاطبة الفطرة.

المبحث الثاني: مراعاة مقتضى الحال.

المبحث الثالث: استعمال الألفاظ المألوفة.

المبحث الأول: مخاطبة الفطرة

ويشتمل على تمهيد وستة مطالب:

المطلب الأول: حقيقة الفطرة.

المطلب الثاني: أثر الفطرة في الإيمان.

المطلب الثالث: وجوب المعرفة في إثبات وجود الله.

المطلب الرابع: كيف خاطب القرآن الفطرة.

المطلب الخامس: كيف خاطب القرآن العقل.

المطلب السادس: علاج القرآن الفطرة الفاسدة بالنموذج والقدوة.

تمهيد

يعد دليل الفطرة من الأدلة المهمة في قضية العقيدة، فقد خاطب القرآن في آيات كثيرة منه الفطرة، فإن الإنسان يولد صفحة بيضاء، لا تشوب قلبه شائبة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [سورة النحل، الآية 78]، ودلالة معنى الآية تشير إلى الصفاء والنقاء الذي يتصف به الإنسان عند خروجه إلى الدنيا، وقد منّ الله عليه بأن جعل له منافذ إلى هذه الحياة؛ وهي أسباب لكسب المعلومات، فجعل له الحواس، وقد أشارت الآية إلى أهمها، وهي: السمع، والبصر، والأفئدة؛ أي العقول التي تميز بين الأشياء، ولكنها تأتي إلى الدنيا وهي خالية من كل تشكيل، فعند ولادة الإنسان تتلقفه البيئة التي ينشأ فيها ويتربى، فيأخذ معارفه في محيطه الذي يعيش فيه، فإن كان هذا المحيط نظيفاً قائماً على أسس ومبادئ صحيحة نشأ على تلك الأسس والمبادئ، وإن نشأ على أسس ومبادئ غير صحيحة نشأ عليها.

إن دراسة الفطرة الإنسانية بكل أبعادها يعطينا بعداً معرفياً لمعرفة كيفية توجيه الناس إلى عبادة الخالق سبحانه فإنها من أهم المعارف، وأسمى العلوم، وأعلاها، إذ إن حياة الإنسان ترتكز عليها، فسعادته في الدنيا والآخرة مرهونة بهذه المعرفة، ولما كانت الفطرة من الأدلة المهمة والأساس في معرفة خالقها وتوحيده، واستقامة القلب على هذا التوحيد هذه الاستقامة هي المنظومة العقائدية التي بها سعادة الإنسان وشقاوته، والتوحيد هو من أهم الأمور التي على الإنسان معرفتها، والإحاطة بها، أما إذا ران على القلب عقائد فاسدة فإن فطرته رغم كل ذلك تبقى صافية نقية، وسرعان ما ينتبه الإنسان إلى حاله، فيرجع في ساعة الشدة والعسرة إلى خالقه ومولاه.

إن من الأمور المسلم بها عند علماء التربية والأخلاق أن الطفل يولد على فطرة التوحيد، وعقيدة الإيمان بالله، وعلى أصالة الطهر والبراءة، فإذا تهيأت له التربية المنزلية الواعية والخلطة الاجتماعية الصالحة، والبيئة التعليمية المؤمنة نشأ على الإيمان الراسخ، والأخلاق الفاضلة، والتربية الصالحة وهذه الحقيقة من الفطرة الإيمانية قد قررها القرآن العظيم، وأكدها الرسول الكريم ﷺ وأثبتها علماء التربية والأخلاق[1].

(1) ينظر: تربية الأولاد في الإسلام، ناصح عبد الله علوان، دار السلام للطباعة والنشر- حلب، ط3، 1401هـ-1981م: 152/1.

المطلب الأول: حقيقة الفطرة

الفطرة: ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به، وقيل: فطر كل إنسان على معرفته، بأن الله رب كل شيء وخالقه[1]، وفطر الله الخلق، هو إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال، فقوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [سورة الروم، الآية 30] إشارة عنه تعالى إلى ما فطر، أي: أبدع وركز في الناس من خلق الإيمان، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [سورة الأعراف، الآية 9][2]، والفطرة المعنية هي إثبات الوجود الإلهي في النفس البشرية، والمقصود بها ما يشعر به كل إنسان داخل نفسه من ميل إلى اعتقاد الحق، وإرادة الخير والإقرار بوجود إله خالق للكون مدبر له-ولو لم يستخدم طرق البرهنة المختلفة-وإن كان يحتاج إلى أن يلتفت إلى نفسه ويجردها من الغفلة ويتحرر من سلطان الهوى والوهم، ليحس به قوياً واضحاً، وهذا الإحساس بوجود الإله الخالق شعور مشترك بين بني البشر جميعاً[3].

والفطرة لا تخص الإنسان بل تشمل الحيوان، والنبات والجماد، فقد أشار القرآن الكريم إلى أن هذه الكائنات تسبح بحمد الله تبارك وتعالى، وهي دلائل شاخصة على وحدانيته، ومقرة بربوبيته قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [سورة الإسراء، الآية 4]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سورة سبأ، الآية 10]، فدلالة معاني الآيتين المذكورتين تشير إلى أن الجمادات والنبات والحيوان، تعرف ربها معرفة تتناسب مع ما وهب الله لها من إمكانات لا ندركها نحن البشر[4].

---

(1) ينظر لسان العرب: 65/5، مادة (فطر).

(2) ينظر: المفردات: 382، مادة (فطر).

(3) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية: 79. ينظر: معارج القبول بشرح سلم للوصول إلى علم الأصول: 63/1. ودلائل التوحيد، 22. والإسلام عقيدة وشريعة: محمود شلتوت، دار الشروق، ط16، 1412هـ-1992م: 23-24. ولمحات في الفكر الكلامي: 12. والعقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث: 75. والعقيدة الإسلامية وأسسها: 96. وينظر: المعرفة في التصور الإسلامي، الدافع الذاتية والخارجية، د. الشاعر، بحث منشور في حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، العدد العاشر، 1413هـ-1992م: 132.

(4) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي، دار الرحمة - مصر: 324/2.

وقد وردت آيات في القرآن الكريم تشير إلى الفطرة منها، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 11]، فظاهر الآية يدل على أن الله سبحانه قد أخذ ميثاقاً على أرواح بني آدم بأنه هو ربهم، وأنها أقرت بربوبيته وشهدت بوحدانيته، وأظهرت معرفته سبحانه في عالم الذر قبل وجودها في هذا العالم بأزمان لا يعلم مداها إلا الله سبحانه، وهنا السر الذي تحمله كل نسمة تأتي إلى هذا العالم وهي تحمل ميثاقها الذي أخذه الله عليها، وهذا الميثاق الذي به تقر بوجود الله وتعترف بوحدانيته، ويرى القرطبي أن معنى الآية ما أخذت من المواثيق من العباد يوم الذر، وقال: هذه آية مشكلة، وأشار إليها بالإشكال في معناها وما هو المراد منها، ثم سرد ما تكلم فيه العلماء في تأويلها وأحكامها[1]، وقد ذهب إلى أن معنى الآية أن الله أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض، وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ دلهم بخلقه على توحيده، لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له رباً واحداً، فقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ودل ذلك على أنه قام ذلك مقام الإشهاد عليهم والإقرار منهم، كما قال تعالى حين خاطب السماوات والأرض فقال: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت، الآية 11]، وقيل: إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وإنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها، وقد استدل القرطبي بهذه الآية أن من مات صغيراً دخل الجنة لإقراره في الميثاق الأول، ومن بلغ العقل لم يغنه الميثاق الأول، وعلى هذا فإن أطفال المشركين في الجنة،وهو القول المحقق عنده[2].

ويرى ابن كثير أنه تعالى استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله ألا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم، ثم يورد آية سورة الروم في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [سورة الروم، الآية 30]، فالدلالة في معنى الآية تشير إلى الفطرة التي

---

(1) ينظر: أحكام القرآن: 316/7.

(2) ينظر: أحكام القرآن: 317/7. ومعارج القبول: 40/1. وعقيدة التوحيد في الرسالات السماوية من خلال النصوص القرآنية، د. رشيد عزيز محمد، دار التوفيق النموذجية – القاهرة، ط2، 1408هـ–1688م: 43.

فطر الله الناس عليها، فالله سبحانه استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هنا بأنه ربهم، وأن المراد بهذا الإشهاد أنه فطرهم على التوحيد[1].

وذهب الزمخشري إلى أن الإشهاد في الآية هو من قبيل التمثيل والتخييل، ومعنى ذلك أن الله سبحانه نصب للناس الأدلة على ربوبيته، ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي أودعها فيهم وجعلها مميزة بين الضلال والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم، وقال لهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾، قالوا: بلى، أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك، وباب التمثيل واسع في كلام الله سبحانه[2].

وقد رد عليه ابن المنير معترضاً على إيراده كلمة "التخييل" ومقراً له بإيراده كلمة التمثيل قائلاً: إن الشرع أقر به، وقال: إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف المعقول يجب إقراره على ما هو عليه؛ فلذلك أقره الأكثرون على ظاهره وحقيقته، ولم يجعلوه مثالاً، وأما كيفية الإخراج والمخاطبة فالله أعلم بذلك[3]. وذهب البيضاوي مذهب الزمخشري بأن الإشهاد من باب التمثيل [4].

وقد وافق البقاعي على ما ذهب إليه الزمخشري، والبيضاوي، فقال: ولما كان كأنه قيل: لم فعل ذلك؟ قيل: دلالة على أن المتقدم إنما هو على طريق التمثيل، بجعل تمكينهم من الاستدلال كالاستشهاد[5]؛ يقول صاحب الظلال: إنها قضية يعرضها الأسلوب القرآني في هيئة مشهد محل طريقة القرآن الغالبة، وإنه لمشهد فريد، مشهد الذرية المتكونة في عالم الغيب السحيق المستكنة في ظهور بني آدم جميعاً، تؤخذ في قبضة الخالق المربي فيسألهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ فتعترف بالربوبية، وتشهد بالعبودية، وتقر بالوحدانية، وهي منثورة كالذر، مجموعة في قبضة الخالق العظيم، ثم يقول: إنها قصة البشرية المحكومة بناموس التوحيد، وهذا الناموس هو ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها، ميثاق مودع في

---

(1) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 260/2.
(2) ينظر: الكشاف: 149/2.
(3) ينظر: الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، أحمد بن المنير الإسكندري المالكي، دار المعرفة – بيروت، (د.ت): 129/2.
(4) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 376/1.
(5) ينظر: نظم الدرر: 148/3.

كيانها، وفيه تشهد الخليقة بربوبية الله الواحد ذي الإرادة المنشئة للناموس الواحد الـــذي يحكمها ويصرفها، فلا سبيل إلى الاحتجاج بعد ميثاق الفطرة وشهاداتها[1].

وهناك أقوال ذكرها القرطبي في تباين معنى الفطرة وهي:

القول الأول: الفطرة هي الإسلام، قاله أبو هريرة، وابن شـــهاب الزهـــري، وهـــو المعروف عند عامة السلف من أهل التأويل، واحتجوا بالآية السابقة، والحديث الذي رواه أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:"ما من مولود إلا يولد على الفطرة"، وفي رواية: على الملة - فأبواه يهودانه وينصرانه، ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: إن شئتم فاقرؤوا قوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَـــا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، وفي رواية: "حتى تكونوا أنتم تجدعونها، قالوا: يا رسول الله، أفرأيـــت من يموت صغيراً؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين"[2]، وعضدوا ذلك بحديث عياض بـــن حمار المجاشعي، أن رسول الله ﷺ قال للناس يوماً: "ألا أحدثكم بما حدثني الله في كتابـــه؟ أن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين، وأعطاهم المال حلالاً لا حرام فيه، فجعلـــوا ممـــا أعطاهم حلالاً وحراماً ...."[3] الحديث.

وعلى هذا فيكون معنى الحديث أن الطفل خلق سليماً من الكفر على الميثاق الـــذي أخذه الله على ذرية حين أخرجهم من صلبه، وإنهم إذا ماتوا قبل أن يدركوا ففي الجنـــة، أولاد مسلمين كانوا أو أولاد كفار.

القول الثاني: أن معناها: البداءة التي ابتدأهم الله عليها، أي على ما فطر.

القول الثالث: وهو قول طائفة من أهل الفقه والنظر: الفطرة: هي الخلقة التي خلـــق عليها المولود في المعرفة بربه.

القول الرابع: الفطرة تعني: أن الله كتب الجنة والنار على فريقين من الناس، إن كـــل إنسان يكتب ويقضى عليه إما إلى جنة أو نار، قال القرطبي "قلت: هذا القول (الرابع) مع القول الأول مناسب للمعنى[4]. قال ابن عطية: "والذي يعتمد عليه في هذه اللفظـــة أنهـــا الخلقة فالهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدة ومهيئة لكي يميـــز بهـــا مـــصنوعات الله،

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن: 1392/3.

(2) ينظر: صحيح البخاري: (1359)، 209/3.

(3) ينظر: شرح صحيح مسلم: 209/17، كتاب البر والصلة والآداب، باب كل مولود يولد على الفطرة.

(4) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 29/14.

ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه، ويؤمن به؛ فكأنه تعالى قال "أقم وجهك للدين" هو الحنيف، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فطر البشر ولكن تعرضهم العوارض"(1).

والظاهر أن ما ذهب إليه القرطبي في الجمع بين الأقوال وإبراز المعنى القريب بل المطابق إلى حد ما ذهب إليه جمهرة من أهل العلم بأن الفطرة هي سلامة الصدور ونظافتها، وأنها صفحة بيضاء، وهذا ما أشار إليه حديث النبي ﷺ الآنف الذكر، وقد جاءت اللفظة صريحة واضحة في الكتاب والسنة.

من هنا يدرك الإنسان أن الفطرة هي الحنيفية السمحة والتي تأتي على معنى سلامة الصدور؛ قال تعالى: ﴿إِلاَ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء، الآية 49] ويعزز هذا ما ذهب إليه أهل التحقيق من العلماء عند مفاجأة الإنسان عن خلق السماوات والأرض لا يجد بداً من الاعتراف بوجود قوة قادرة مختارة مبدعة أوجدت هذا الكون، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الزخرف، الآية 9] وحين يكون الإنسان في حالة ضنك وضيق شديدين فإنه سرعان ما تنكشف له عقيدة التوحيد في مكنون صدره، وهو في أوحال الكفر قد غشته، وطمست معالم الإيمان لديه، فإذا كان في لجة البحر وأيقن الهلاك، أو في ضيق من سلطان جائر، أو في أي شدة فإنه يجأر بالدعاء إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً﴾ [سورة يونس، الآية 12]، وقد سمي هذا الشعور الذي يحسه الإنسان ويشعر به في وجدانه نحو الالتجاء إلى الله في الشدائد "الدليل الوجداني أو النفسي"(2).

ومن اللطائف ما نقله الآلوسي في تفسيره "أن بعض الناس قال لبعض الأئمة: أثبت لي وجود الله تعالى ولا تذكر لي الجوهر والعرض؟ فقال له: هل ركبت البحر؟ فقال: نعم، قال: فهل عصفت به الريح؟ قال: نعم، قال: فهل أشرفت السفينة على الغرق؟ قال: نعم، قال: فهل يئست من نفع من في السفينة ونحوهم من المخلوقين لك؟ وإنجائهم بما

(1) ينظر: المحرر الوجيز: 336/4.

(2) ينظر: دلائل التوحيد: 24. والإسلام عقيدة وشريعة: 23. والعقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث: 76. ومنهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام: 55.

أنت فيه إياك؟ قال: نعم، قال: فهل بقي قلبك معلقاً بشيء غير أولئك؟ قال: نعم، قال: ذلك هو الله عز وجل، فاستحسن ذلك"[1].

وقيل لرابعة العدوية: إن فلاناً أقام ألف دليل على وجود الله، فابتسمت ضاحكة وقالت: دليل واحد يكفي، قيل: وما هو؟ قالت: لو كنت ماشياً وحدك في الصحراء، وزلت قدماك فسقطت في بئر ولم تستطع الخروج منها فماذا تصنع؟ قال: أنادي: يا الله، قالت: ذاك هو الدليل"[2]. وفي الحكم العطائية "إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك في الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون هي الإثارة التي توصل إليك؟"[3].

ويؤكد هذه المعاني في أن الفطرة مركوزة في النفس البشرية ما حصل لفرعون مع شدة عتوه وكفره وادعائه الألوهية مع الله سبحانه، فإنه في ساعة الغرق ظهرت فطرته حين التجأ إلى الله عندما أشرف على الغرق، قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة يونس، الآيتان 90-91]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [سورة لقمان، الآية 32] يقول صاحب اللطائف: "إذا تلاطمت عليهم أمواج بحار التقدير تمنوا ان تلفظهم تلك البحار إلى سواحل السلامة، فإذا جاء الحق بتحقيق مناهم عادوا إلى رأس خطاياهم"، ثم قال:

وكم قد جهلتهم ثم عدنا بحلمنا ... أحباءنا كم تجهلون ونحلم[4]

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ [سورة الإسراء، الآية 67]، وقد علق الآلوسي على

---

(1) روح المعاني: 115/5.

(2) ينظر: منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام: 58.

(3) غيث المواهب العلمية في شرح الحكم العطائية، أبو عبد الله النفري الرندي (ت 792 هـ)، تحقيق: عبد العليم محمود، ومحمود بن الشريف، مطبعة السعادة، 1410هـ-1990م: 32/2.

(4) لطائف الإشارات، الإمام القشيري، تحقيق، إبراهيم بسيوني، مركز تحقيق التراث، ط2، 1983م: 136/3.

آية سورة لقمان قائلاً، إن هؤلاء الذين يدعون إنما فعلوا ذلك لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد[1]. وتوجيه كلامه بأن الخوف جلا قلوبهم، وأخرج منها حظ الظلم بحيث صاروا من القرب من الله في صفاء الفطرة ما يجعل التجاءهم إلى الله تعالى في غاية خلوصهم إلى التوحيد، ومما سبق يتبين معنى حقيقة الفطرة التي أودعها الله في النفس الإنسانية، وأنها دليل قائم مع الإنسان ترشده إلى ربه وخالقه.

---

(1) ينظر: روح المعاني: 106/21.

المطلب الثاني: أثر الفطرة في الإيمان

إن وجود الخالق أمر ثابت وحقيقة ليس بالمقدور إنكارها إلا من باب المكابرة، والشعور بوجوده أمر فطري في الأنفس، ومسألة تأثير الفطرة في الإيمان حقيقة قد أشار القرآن إليها.

إن أول شعور يشرق في أعماق الإنسان إذا تأمل في نفسه والكون من حوله، شعوره بوجود قوة كبرى مهيمنة على هذا الوجود تمنحه التدبير والتنظيم، وتتصرف فيه بالحياة والموت والبناء والفناء، والتغير والتطور، والحركة والسكون، وجميع أنواع التغيرات التي فيها من الحكمة والدقة، وهي تجري فيه ما يذهل العقل فيقف معترفاً بوجوده سبحانه.

إن الإنسان ليجد في نفسه شعوراً بهذه الحقيقة، ويجد في قلبه إيماناً عميقاً سواء أقام الدليل والبرهان على صدق هذا الشعور أو لم يقم، فدليل الفطرة، ودليل البداهة شاهد حق يسبق الشواهد التي تقام بالأدلة النظرية، وحسب الإنسان في إيمانه واعتقاده بشيء ما أن يوافق شعوره الفطري وإحساسه البديهي.

إن سلامة الفطرة وصفاء الإحساس الخفي من أهم الوسائل الأساسية في شعور الإنسان بكثير من البدهيات، واكتسابه لكثير من المعارف الحقة التي يعرفها الإنسان في أطوار حياته، يقول الشيخ عبد الرحمن حبنكة بعد ذكره مسالك العلم اليقيني حيث يقول في المسلك الرابع الذي سماه "مسلك الإضاءة الفطرية والإشراف الروحي": "فإننا نرى أن هناك كثيراً من الأفكار التي تصل إلى مرتبة العقيدة الراسخة بما لها من تأثيرات تصل إليها دون أن تمر بمراحل الإدراك الحسي، فالعلم فالاعتقاد، ودون أن تمر بمراحل الاستنتاج العقلي، فالعلم، فالاعتقاد ودون أن تمر بمراحل الخبر الصادق، فالعلم، فالاعتقاد، ولكنها تتخذ طريقاً آخر إلى مراكز الاعتقادات، فقد تتخذ طريق الإضاءة الفكرية والإشراف الروحي دون أن يستطيع صاحبها إقامة الدليل المادي على ما يعتقد به، وكثيراً ما يكون صادق الفطرة والإشراف بدليل مواقفه إشرافه الخاص لنتائج مسالك الآخرين البرهانية اليقينية، بل ربما ذوقه وإحساسه بحقائق الأشياء أدق وأوضح من إحساس المستنتج استنتاجاً فكرياً، ذلك باعتبار أن هذا المسلك إذا صدق صاحبه فيه ووضح لديه وضوح الذائق العارف، كان إشرافه نابعاً من صفاء نفس وطهارة قلب، وتجرد عن شوائب المادة، والشهوات، والأنانية، فيستشف صاحبه من لمحات الغيوب الربانية بعض المنح الربانية له الخاصة به، وهذا المسلك إذا كان الاعتماد فيه على الفطرة السليمة في الحدود التي يشترك

بها وبالتذوق عن طريقها كافة الناس أو أكثرهم، فهو مسلك صادق النتائج قطعاً، وتقام به الحجة نظراً لتوافق فطر الناس في تذوقه ومعرفته"[1].

ويقول صاحب "مفتاح السعادة" في تحقيق أثر الفطرة في الإيمان: "اعلم أن كل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق، لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف، وتلك الخاصية قد عبر الله عز وجل عنها بالأمانة التي حملها الإنسان، وأبت عن حملها السماوات والأرض والجبال"[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [سورة الأحزاب، الآية 72]، وإذا قلنا: إن الشعور الفطري في الإنسان بوجود القوة الكبرى التي تهيمن على الكون، وهي خالقة عليمة حكيمة.

أما الدلائل الصادقة على وجود الخالق فهناك أدلة كثيرة تعرض للإنسان في واقع حياته في تكوينه الفطري، حيث الموافقة لشعوره الفطري ما هو كائن فعلاً، أو ما يجب أن يكون بشكل لا يقبل الزيادة عليه أو النقصان منه بأي مقدار قلّ أو كثر، مهما تقدمت البحوث العلمية والكشوف التجريبية. إن كثيراً من علومنا ومعارفنا ليس لها دليل في أنفسنا غير شعورنا الفطري بها، ومهما تقدمت العلوم والمكتشفات فإنها لا تزيدنا شيئاً غير ما توصلنا إليه بفطرتنا[3].

وهناك أمثلة كثيرة مما هو أمامنا لا يمكننا إقامة الدليل على صيرورتها لكننا نشعر بها، فمثلاً: الطفل يلقم ثدي أمه بفطرته لأول مرة بعد ولادته دون تعليم معلم، ودون أن يدركه بعقله، والأم تشعر بعاطفة الأمومة سواء علمت بأنها تحافظ على طفلها بالتربية والرعاية أو لم تعرف، فكلنا يسعى على معاشه بإحساس الفطرة والغريزة حتى عند عدم إدراكها لهذا الحس، وكذلك شعورنا بالجوع فنأخذ الطعام أو العطش فنأخذ الماء، أو البرد والحر فننفيهما، ونحس بالشهوة فيها لطعام أو شراب على اختلاف أنواعه، ونحن لا نعلم بأنها ضرورية لبناء أجسامنا، وحاجة الجسم تدفعنا من حيث ندرك ذلك أم لا، وهذا الشعور المختلف الذي تشعر به فطرياً يدفعنا إلى معالجة ذلك كله مما يؤيد وجود فطرة

---

(1) ينظر: العقيدة الإسلامية وأسسها: 50.

(2) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أحمد بن مصطفى الشهير بـ "طاش كبري زادة"، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، 1405هـ-1985م: 325/3.

(3) ينظر: العقيدة الإسلامية وأسسها: 97. وتفسير آيات العقيدة: 94/1.

تدفعنا إلى الإيمان، ومن هذه الإحساسات الفطرية الصادقة فينا إحساس الإنسان بوجود الخالق، وتلهفه دائماً لمعونته وإمداداته، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النمل، الآية 62].

وشعور الإنسان بحاجة هذا الكون الكبير في نظامه واتساقه، وما فيه من إبداع، وحياة وموت إلى قدرته وعلمه، وحكمته سبحانه، إنه شعور فطري تشترك بالإحساس به جميع الخلائق المدركة على اختلاف نزعاتها، ومستويات ثقافاتها، في البيئات البدائية، وفي المدن المتحضرة، وفي منتديات المثقفين، إنه شعور مشترك بين جميع الناس، يقوم في نفس الطفل الصغير، والإنسان البدائي، والإنسان المتحضر، والجاهل والعالم والباحث، والفيلسوف، والعبقري والخبير، فكل هؤلاء يشعرون بشعور مشترك أن الله حق، وأنه القابض على ناصية كل شيء العليم بكل شيء، الحكيم المريد، وهذه صبغة الله في كل مخلوق مدرك، وفطرته التي فطر الناس عليها[1]، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [سورة إبراهيم، الآية 10]، وقال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية 138]، يقول الدكتور فاضل السامرائي: "من الحق أن نبيت أننا لسنا نعتمد في إيماننا على دليل مخصوص أو برهان محدود، بحيث إن نقض أو انتقض، انتقض إيماننا تبعاً له، الواقع أن إيماننا أبعد من ذلك وأعمق، وهو يعتمد أول ما يعتمد على تيسير الله بما يقذفه في قلب المرء من نور واطمئنان إذا ما سلك طريق الحق، وحرص على بلوغ الحقيقة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت، الآية 169].

أما الأدلة والبراهين فهي لا تنفع إلا الراغب في معرفة الحق، وتعتمد ثانياً على التفكير في مخلوقات الله التفكير العميق الطويل، وذلك أدعى لأن يأتي بالإيمان، وأدعى أن يرسخه في العقول والنفوس، وهذا هو الأسلوب الذي سلكه القرآن الكريم في إثبات وجود الله وما يستحقه من إفراده بالعبادة"[2].

---

(1) ينظر العقيدة الإسلامية وأسسها: 98. وتفسير آيات العقيدة: 94/1.

(2) نداء الروح، فاضل صالح السامرائي، مكتبة القدس – بغداد، 1411هـ-1991م: 11-12.

المطلب الثالث:

وجوب المعرفة وقصد النظر في إثبات وجود الله

وقد اختلف العلماء في مسألة وجوب المعرفة، وقصد النظر، وقد انقسموا في أقوالهم إلى اثني عشر قولاً وهي:

القول الأول: ما قاله الأشعري؛ وهو أنه المعرفة.

القول الثاني: ما قاله أبو إسحاق الإسفراييني أنه النظر الموصل إلى المعرفة، ويعزى للأشعري أيضاً.

القول الثالث: ما قاله الباقلاني، في أنه أول النظر في نحو قولك: العالم حادث، وكل حادث لا بد له من محدث، فمجموع المقدمتين هو النظر، والمقدمة الأولى هي أول النظر.

القول الرابع: ما قاله "الجويني": إنه القصد إلى النظر؛ أي تفريغ القلب من الشواغل، وعزي للقاضي الباقلاني أيضاً.

القول الخامس: إنه التقليد [1].

القول السادس: إنه النطق بالشهادتين.

القول السابع: ما قاله "أبو هاشم الجبائي": إنه الشك لمورد هذا القول بأنه مطلوب زواله؛ لأن الشك في شيء من العقائد كفر، فلا يكون مطلوباً حصوله، لعلهم أرادوا ترويض الفكر فيؤول إلى النظر، وهذا تخريج جيد من قبل الشيخ "إبراهيم الباجوري".

القول الثامن: إنه الإيمان.

القول التاسع: إنه الإسلام، والقول الثامن والتاسع مردودان لأنهما متقاربان لاحتياج كل منهما إلى المعرفة.

القول العاشر: اعتماد وجوب النظر.

القول الحادي عشر: إنه وظيفة الوقت، كصلاة ضاق وقتها فتقدم.

القول الثاني عشر: إنه المعرفة والتقليد؛ أي أحدهما لا بعينه فيكون مخيراً بينهما، والأصح أن أول واجب مقصداً هو المعرفة، وأول واجب وسيلة قريبة النظر، ووسيلة بعيدة القصد إلى النظر، وبهذا يجمع بين الأقوال الثلاثة؛ أي إذا أردت المعرفة فانظر، لأن النظر وسيلة لها، والأمور بالنظر كل مكلف، يقول إبراهيم اللقاني في الجوهرة:

فانظر إلى نفسك ثم انتقل . للعالم العلوي ثم السفلي

---

(1) ينظر: تحفة المريد بشرح جوهرة التوحيد: 37.

قال الباجوري: وأمره المصنف بالنظر إلى نفسه ابتداء لأنها أقرب الأشياء، ثم بالنظر إلى العالم العلوي لأنه أعظم وأبدع، ثم إلى العالم السفلي، والنظر لغة: هو الإبصار؛ أي إدراك الشيء بحاسة البصر والفكر حركة النفس في المعقولات، وأما في المحسوسات فتخيل، وعلم من ذلك أن النظر مشترك بين الإبصار والفكر.

وأما عرفاً: فهو ترتيب أمرين معلومين للتوصل بترتيبهما إلى علم مجهول [1]. ومما تقدم يتبين بأن المذاهب في مسألة المعرفة ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: لـ "الإشارة" وحاصله: أن جميع الأحكام - ومنها معرفة الله تعالى- إنما تثبت بالشرع؛ أي ما جاء به القرآن والسنة، ويكلف فيها العقلاء.

المذهب الثاني: وهو مذهب "الماتريدية"، وحاصله أن معرفة الله تعالى تثبت بالعقل، أما سائر الأحكام فلا تثبت إلا بالشرع.

المذهب الثالث: وهو مذهب المعتزلة، أن الأحكام- ومنها معرفة الله- تثبت بالعقل، ويترتب على ذلك ما قاله الأشاعرة أن الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، وأنه لا حكم قبل الشرع لا أصلي، ولا فرعي، وأما المعتزلة فيرون أن الحسن ما رآه العقل حسناً، والقبيح ما رآه العقل قبيحاً، وعندهم أنه إذا أدرك العقل حسن شيئاً حكم بوجوبه، ووجب أن يجيء الشرع مطابقاً لما حكم به العقل. وأما "الماتريدية" فقد جعلوا معرفة الله وحدها يوحيها العقل، لكن على معنى أنه لو لم يرد الشرع لأدرك العقل ذلك استقلالاً لكونه أمراً واضحاً، ولم يبنوا ذلك على التحسين العقلي، وهو مذهب متوسط بين المذهبين[2].

ويترتب محل هذا أنه يجب على المكلف وجوباً شرعياً أن يعرف جميع ما وجب لله، لكن ما قامت عليه الأدلة العقلية والنقلية تفصيلاً، وما قامت عليه الأدلة إجمالاً، وهي سائر الكمالات، يجب على المكلف أن يعرفه إجمالاً [3].

---

(1) ينظر: تحفة المريد، 32. وشرح جوهرة التوحيد: 47.

(2) ينظر: تحفة المريد: 48. والنظام الفريد: 32. وشرح جوهرة التوحيد: 48.

(3) ينظر: شرح جوهرة التوحيد: 49.

فساد الفطرة

ذكرنا آنفاً حديث النبي في ولادة الإنسان على الفطرة في قوله ﷺ في الحديث الذي يرويه أبو هريرة: "ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، أو يمجسانه"؛ ودلالة الحديث تشير إلى أن البيئة والمجتمع والأسرة لها دور كبير في بناء الإنسان عقائدياً، وتحديد هويته، فالإنسان يخرج إلى الدنيا صفحة بيضاء، كما قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ فالبيئة هي التي تحدد مسار الإنسان وسيرته، فإن كانت صالحة نبت فيها صالحاً، وإن كانت فاسدة منحرفة في العقيدة والسلوك نشأ حاملاً لتلك العقيدة الفاسدة المنحرفة، فالبيئة هي التي تنحرف بالإنسان في عقيدته، فبعد أن كان موحداً بفطرته، أصبح يؤمن بالثالوث النصراني إن كان أبواه نصرانيين، وإن كان يؤمن باليهودية المنحرفة، إن كان أبواه يهوديين، وإن كان يؤمن بالنار والنور والظلمة إذا كان أبواه مجوسيين، ويؤمن بالأوثان والأصنام واتخاذ الأنداد من دون الله إن كان أبواه مشركين، وهكذا ... ويُنْبِئ عن فطرته النقية الصافية عندما يسأل: من خلقك؟ يقول: الله رب العالمين، وإن كان في لجة البحر وتلاطمت عليه الأمواج، وأشرف على الهلاك، ظهر صدق اللجوء إلى الله على الرغم من اعتقاده الفاسد.

وقد بين الأسلوب القرآني في بعض من آياته كيف أن الفطرة تفسد بتأثيرات تقع فيها، قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية 10]، ودلالة معنى الآية تشير إلى أنه سبحانه تعالى بين سبب الغفلة هو أن آلة إدراكهم مريضة، شغلها المرض عن إدراك ما ينفعها، فهي لا تجنح إلا لما يؤذيها، فالمريض لا تميل نفسه إلى غير مضارها، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي في أصل الخلقة، وقوله: ﴿فزادهم الله مرضاً﴾، أي سوء اعتقاد[1]، ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآية 7]، وقد بدأ الله سبحانه الكلام بالختم على القلب في الآية وهو أنسب بتسويتهم بالبهائم، ونفي السمع والبصر، من باب التسفيل لهم عن حال البهائم.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ

(1) ينظر: نظم الدرر: 44/1.

وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [سورة البقرة، الآيات 204-206]، والآيات تعرض لوناً آخر من ألوان فساد القلب بصيغة نفاقية تذهب بها النفس، وصفاء القلب، فالآيات تصف إنساناً حلو المنطق، جميل المنظر، إلا أنه فاسد القلب متلون، فهو يعيش في حالة مضطربة مزدوجة، فهو يتصنع الكلام الجميل ويخفي وجه الشر والكفر، والطغيان[1]، ومنها قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة المطففين، الآيتان 13-14]، وفي دلالة معاني الآيتين هنا بيان لما أدى بالكفار من التفوه بتلك القرية العظيمة؛ أي ليس في آياتنا ما يصح أن يقال في شأنها مثل هذه المقالات الباطلة، فجاء قوله تعالى ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بل لكسب قلوبهم وغلب عليها ما كانوا يكسبونها من الكفر والمعاصي حتى صارت كالصور في المرآة، فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق والدين، "والرين" هو الصدأ، يقال: ران عليه الذنب، وغان عليه ريناً وغيناً [2]؛ فإن الذنوب إذا تكاثرت على العبد أهلكته فالفطرة تفسد بها -أي الذنوب- كما يفسد العسل بالخل، وينغل القلب بالذنب كما ينغل الأدم من الماء، وهذا واضح في الذنوب فكيف بفساد الاعتقاد؟!

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [سورة الأعراف، الآيتان 175-176]، والإخلاد إلى الأرض من الأمور الطامة على ضوء القلب ونور الفطرة، والملاحظ في هذه الآية ائتلاف الإنسان مع الشيطان في خلوده إلى الأرض، والإخبار في الآيتين عن بلعام بن باعوراء، وهو من علماء بني إسرائيل، وقد كان مستجاب الدعوة، فاغتر بذلك فأتبعه الشيطان فصده عن طريق الحق، وجعله ينسلخ عن الدين والفطرة[3]. ومن خلال ما تقدم نخلص إلى:

أولاً: أن البيئة التي تحيط بالإنسان تؤثر في فطرته صفاءً وكدورة، وقد بين ذلك حديث الفطرة.

ثانياً: أن المعاصي والذنوب مملة للإنسان ويصدر عنها صدأ النفوس وعفن القلوب.

---

(1) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 11/1، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: 104/1.

(2) ينظر: إرشاد العقل السليم: 127/9.

(3) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 264/2.

ثالثاً: أن الشيطان هو عدو الإنسان يحسده، ويدخل عليه مداخل شتى ويـزين لـه أعمال السوء، ويدفعه إليها ويفسد عليه صفوة فطرته.

المطلب الرابع: كيف خاطب القرآن الفطرة

خطاب القرآن للقلوب: خاطب الأسلوب القرآني في عرضه لعقيدة التوحيد خطاباً مباشراً لقلوب الناس توعية لها، وهذه القلوب التي أثر فيها البيئة والمجتمع، وهذا الخطاب الذي من شأنه أن يؤثر في القلوب، وقد دخل أناس كثر في الإسلام عند سماعهم آيات الله؛ فإن لهذه الآيات تأثيراً وهيمنة مباشرة القلوب، وقد حاول المشركون في بداية دعوته عليه الصلاة والسلام، وعند نـزول القرآن على قلبه منع الناس من الاستماع إليه، منهم كبار القوم الذي منعوا أنفسهم من الاستماع إليه بعد أن علموا تأثيره المباشر فليهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [سورة فصلت، الآية 27]؛ أي لا تسمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب، ويسلب العقول، وكل من استمع إليه صبأ إليه[1]، وقوله ﴿الْغَوْا فِيهِ﴾ أي: أهذوا من: لغى بالكسر، "يلغا" بالفتح: إذا تكلم بما لا فائدة فيه، وقوله ﴿فِيهِ﴾؛ أي اجعلوه طرفاً للغلو بأن تكثروا في الحركات والهذيان، واللغو بالمكاء والتصدية في حال تلاوته ليقع الذي يتلو في السهو والغلط، وما علم المشركون أن من نور قلبه بالإيمان وأيد بالفهم، وأمد بالبصيرة، وكوشف بسماع السر من الغيب فهو الذي يسمع ويؤمن، والذي هو في ظلمات جهله لا يدخل الإيمان قلبه، ولا يباشر السماع سره[2]، وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾؛ أي ليكون حالكم حال من يرجى له أن يغلب ونظر بمراده في لا يميل إليه أحد، أو يسكت أو ينسى ما كان يقول، وفي ذلك دلالة على أنهم كانوا يعرفون بأن من سمعه ولا هوى عنده مال إليه[3]، وأقبل بكليته عليه، وهكذا يتبين من دلالة الآية بأن للقرآن تأثيراً عجيباً في القلوب، ولهذا كان الصد عنه.

---

(1) ينظر: لطائف الإشارات: 326/3.

(2) ينظر: لطائف الإشارات: 326/3.

(3) ينظر: نظم الدرر: 568/6.

وقد صرحت بعض الآيات بأن للقرآن تأثيراً حتى في الجماد، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الحشر، الآية 21] وهذه الآية الكريمة تصور حقيقة ثابتة، فإن لهذا القرآن لثقلاً وسلطاناً، وأثراً مزلزلاً، لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته وقد وجد عمر بن الخطاب ﷺ ما وجد عندما سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۞ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۞ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۞ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۞ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۞ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۞ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [سورة الطور، الآيات 1-8]، فارتكن إلى الجدار ثم عاد إلى بيته يعوده الناس شهراً مما أصابه، واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متهيئاً لتلقي شيء من حقيقة القرآن، يهتز فيها اهتزازاً، ويرتجف ارتجافاً، ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما يمثله في عالم المادة فعل المغناطيس، والكهرباء بالأجساد أو هو أشد.

والذين أحسوا شيئاً من مس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقاً لا يعبر عنه إلا هذا النص القرآني المشع المضيء[1]. وإن كثيراً من الذين أسلموا لاشك أن القرآن قد أثر فيهم، وبيان أثره في قلوبهم، أنه كلما جاءهم آية زادهم إيماناً؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [سورة الأنفال، الآية 2]، هذا الخشوع والخضوع لله إنما يأتي من قلب نظيف وفطرة سليمة، زال غبشها، وظهرت بيضاء للعيان، مطمئنة متيقنة؛ قال أبو إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي نجيم من أصحاب عطاء ومجاهد أن إسلام عمر، فيما تحدثوا به عنه، أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر، أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحَزْوَرَة، عند دور آل عمر أبي عبد بن عمران المخزومي، قال: فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجد فيهم منهم أحداً، قال: فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمار - وكان بمكة يبيع الخمر لعلي أجد عنده خمراً فأشرب منها، قال: فخرجت فلم أجده، قال: فقلت: فلوا أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين، قال: فجئت المسجد أريد أن أطوف في الكعبة، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، كان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني، قال: فقلت حين رأيته: والله لو أني استمعت لمحمد الليلة،

---

(1) ينظر: روح المعاني: 61/8. ونظم الدرر: 536/7.

حتى أسمع ما يقول، قال: قلت: لئن دنوت منه أستمع منه لأروعنه، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويداً ورسول الله يصلي حتى قمت في قبلته مستقبله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة، قال: فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت، ودخلت الإسلام، فلم أزل في مكاني قائماً حتى قضى الرسول صلاته، ثم انصرف، ثم وصف طريقه الذي يسلكه عند انصرافه من الكعبة، ثم أعلن إسلامه(1). وهذا دليل واضح على تأثير القرآن في القلوب وجميع أصحاب النبي كانوا يتأثرون بما ينزل على قلب النبي ﷺ.

المطلب الخامس: كيف خاطب القرآن العقل

إن أثمن ما في الإنسان عقله، ولذا فإن الأسلوب القرآني في عرضه للعقيدة خاطب العقل خطاباً مباشراً، وقد وردت آيات قرآنية تشير إلى هذا الخطاب الذي من شأنه أن يدفع الإنسان إلى التفكير والتدبير في معاني ودلالات الآيات الكريمة، فإن الله سبحانه وهب الإنسان عقلاً، وأمره أن يحرك هذا العقل من خلال النظر في آيات الكون العديدة والتي تشير إلى الخالق العظيم، وهذه الأدلة تمتاز بالسهولة واليسر مع تناسبها مع جميع المستويات العقلية، والعلمية - كما سبق الإشارة إلى ذلك - وهي على سهولتها ويسرها تعد من أقوى الأدلة وأقربها إلى النفوس باعتبار أنه قد حثت عملية تهيئة العقول لاستيعابها لأنها أعظم تأثيراً، وأكثر إقناعاً لدلالتها على المطلوب بذاتها، وهذه التأثيرات تأتي من أقصر الطرق دونما حاجة إلى مقدمات، وتقسيمات نجدها في أدلة الفلاسفة والمتكلمين، والتي يصعب فهمها عند كثير من الناس، بخلاف أدلة القرآن المقنعة، والميسرة، والتي تتلاقى مع فطرة الإنسان وتفكيره(2)، وقد تعددت سياقات الخطاب الذي خاطب به الأسلوب القرآني العقل ومن هذه الخطابات:

أولاً: خطاب التحنن والاستعطاف: ومما ورد في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الزمر، الآية 53]، ودلالة معنى الآية تشير إلى خطاب الأسلوب القرآني للفطرة والتي ابتعدت عن المسار الصحيح، وتكبلت بالذنوب، وانحرفت عن

---

(1) ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط2، 1375هـ – 1955م: 346/1.
(2) ينظر: تفسير آيات العقيدة: 10/1.

الطريق، فجاء القرآن بهذا الخطاب الذي يهز العقل والفكر، ليعيدها إلى صوابها وينتشلها مما وقعت فيه ويرتفع بها إلى مراتب التقوى والإيمان(1).

ثانياً: خطاب التحبيب: وقد وردت آيات في هذا المعنى؛ منها قوله تعالى: ﴿يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [سورة مريم، الآية 42] وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [سورة طه، الآية 94] وقوله تعالى: ﴿يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ﴾ [سورة لقمان، الآية 16]، ومما ورد من آيات كريمات يظهر فيها خطاب التحبب الذي يستميل الفكر والعقل فيصحح مسار الإنسان من خلاله (2).

ثالثاً: خطاب التهييج: ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية 23]، ودلالة معنى الآية تشير إلى الحث على التوكيل ودفع النفوس في الاعتماد على الله، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة التوبة، الآية 131]، ودلالة معنى الآية تشير إلى الحث منه سبحانه على الخشية وهي استعداد فطري يحتاج إلى إثارة، وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال، الآية 1]، وتظهر من دلالة معنى الآية إشارة تدفع النفوس والعقول إلى طاعة الله ورسوله من خلال إثارة مكامن الفطرة الصحيحة وإرجاعها إلى أصلها (3).

رابعاً: خطاب التشجيع والتحريض: ومما ورد في هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [سورة الصف، الآية 4]؛ أي: كفى بحثّ الله تشجيعاً على منازلة الأقران، ومباشرة الطعان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [سورة البقرة، الآية 195]، قال صاحب البرهان معلقاً على هذه الخطابات: "ونحو ذلك في الترغيب والترهيب بما جاء في قصص الأشقياء تحذيراً لما نزل من العذاب وإخباراً للسعداء مما صاروا إليه من الثواب" (4).

---

(1) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 250/2.
(2) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 247/2.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه: 248/2.

خامساً: خطاب الإغضاب: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ [سورة الممتحنة، الآية 9]، وقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [سورة الكهف، الآية 5]، وهذا الأسلوب في الخطاب فيه محاولة منع الإنسان من الوقوع في الخطأ عن طريق الإغضاب، ووضع الرادع ليحصل الرجوع الحقيقي للإنسان أي عقله وفطرته.

سادساً: خطاب التنفير: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الحجرات، الآية 12]، وقد جمعت هذه الآية أوصافاً وتصويراً لما يناله المغتاب من عرض من يغتابه على أفظع وجه، وفي ذلك محاسن من ذلك الاستفهام الذي ورد في سياق الآية، وقد خرج معناه إلى التقريع والتوبيخ وجعل ما هو الغاية في الكراهية موصولاً بالمحبة، وإسناد الفعل إلى قوله ﴿أَحَدُكُمْ﴾ فيه إشعار بأن أحداً لا يحب ذلك ولم يقتصر على تمثيل الاعتبار بأكل لحم الإنسان حتى أخاً، ولم يقتصر على لحم الأخ حتى جعله ميتاً وهذه مبالغات عظيمة، وهي أن المغتاب غائب، وهو لا يقدر على الدفع لما قيل فيه فهو كالميت[1].

سابعاً: خطاب التعجيز: ومنه قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [سورة البقرة، الآية 23] وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [سورة هود، الآية 13] وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ [سورة الطور، الآية 34]، وقوله تعالى: ﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية 168]، وتظهر من معاني هذه الآيات الكريمة صورة العجز لدى الإنسان من خلال بيان ضعفه أمام قدرة الله سبحانه، وهذا التحدي منه سبحانه للإنسان إنما جاء لبيان حاجة الإنسان إلى ربه وخالقه، وأن الإنسان لا يمكن له مجاراة قدرة الله سبحانه، فإن الله قادر على كل شيء وأمره بين الكاف والنون[2].

---

(1) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 298/2.
(2) ينظر: المصدر نفسه: 252/2.

المطلب السادس

علاج القرآن الفطرة الفاسدة بالنموذج والقدوة

إن الإنسان مفطور على التأثر بالغير، فهو يؤثر ويتأثر، وهذا من صميم مكوناته النفسية، والإنسان يجب أن يجعل لنفسه قدوة وأسوة يتمثل بأعماله، بل ويقلده أحياناً، وكل ذلك يأتي من التأثر بالغير، ولما كان الأمر كذلك، اهتم الأسلوب القرآني بعرض نماذج لشخصيات إنسانية يتخذها الناس قدوة ويتأثرون بها، وقد جعل من الأنبياء والرسل محط أنظار العباد، وهم يمثلون الكمال الإنساني، لأنهم يتصفون بصفة الجمال والجلال البشري مما يجعلهم يتبوؤون مكانة بين الناس، فإن الله يختار من الناس رسلاً وأنبياء بحسب ما تقتضيه حكمته سبحانه قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [سورة الأنعام، الآية 124]، وهو يصطفي من يشاء ويجتبي من يختار، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران، الآيتان 33-34]، فإن منصب الرسالة لا ينال بما يزعمه المشركون من كثرة المال والولد، وتعاضد الأسباب والعدد وإنما ينال بفضائل نفسية، ونفس قدسية، أفاضها الله تعالى بمحض الكرم والجود على من كمل استعداده،وهو تابع للاستعداد الذاتي، ولا يستلزم الإيجاب الذي يقوله الفلاسفة لأنه سبحانه إن شاء أعطى ذلك وإن شاء أمسك.

قال صاحب المواقف: لا يشترط في الإرسال الاستعداد الذاتي، بل الله يختص برحمته من يشاء[1]، وهو محمول على الاستعداد الذاتي الموجب، فقد جرت عادة الله أن يبعث في كل قوم أشرفهم وأطهرهم جبلة[2]. وأما الاصطفاء في جميع الرسل، فإنه سبحانه قد خصهم بالنفوس القدسية، وما يليق بها من الكمالات الروحانية، والجسمانية، حتى إنهم امتازوا على سائر الخلق خلقاً وخلقاً وجعلوا خزائن أسرار الله تعالى، ومظهر أسمائه، وصفاته، ومحل تجليه الخاص من عباده، ومهبط وحيه، ومبلغ أمره ونهيه[3]، قال صاحب المواقف: ثم إنهم قالوا: من اجتمعت فيه هذه الخواص انقادت له النفوس المختلفة، مع ما

---

(1) المواقف في علم الكلام، القاضي عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، عالم الكتب - بيروت، (د.ت): 337.

(2) ينظر: روح المعاني: 8/21-22.

(3) ينظر: المصدر نفسه: 3/131.

جبلت عليه من الإباء وذلت له الهمم المتفاوتة على ما هي عليه من اختلاف الآراء فيصير سبباً لقرار الشريعة التي بها يتم التعاون الضروري لنوع الإنسان[1].

لذا كانت الرسل نماذج البشر المتقدمة التي تؤثر في حياة الناس في عقائدهم، وأصولها، وفروعها، وفي الشريعة أصلاً، وفرعاً، وهنا تتم قضية التأثير في الفطرة استجابة لأمر الله، والقرآن حافلٌ بقصص الأنبياء، مع ذكر غيرهم من الحكماء، "كلقمان" على وجه الخلاف في نبوته، وكذي القرنين، وغيره ممن ذكروا في القرآن، وهم قدوة يؤثرون في الفطرة فتستقيم، وفي النفس فتطمئن، وفي العقل فيسترشد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ [سورة الأحزاب، الآية 21] أي: القدوة، وهو المتأسي به؛ أي المقتدى به[2].

فالقدوة لها تأثير كبير في الإنسان، وهي احتياج فطري؛ لأن الإنسان يحتاج إلى خبرة غيره، وهو بحاجة إلى قدوة يقتدي بها تنجيه من ظلمات التيه، والضلال، وتأخذ بيده إلى شاطئ الإيمان والأمان.

---

(1) ينظر: المواقف: 338.

(2) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 142/1. ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: 298/3.

المبحث الثاني

مراعاة مقتضى الحال

ويشتمل على تمهيد وستة مطالب:

المطلب الأول: العرض العقائدي الميسر.

المطلب الثاني: طبيعة الدعوة لعقيدة التوحيد.

المطلب الثالث: الخطاب القرآني المباشر.

المطلب الرابع: اعتماد الأسلوب القرآني الحوار في عرضه العقيدة.

المطلب الخامس: اعتماد الأسلوب القرآني الوسطية ونبذ الغلو والتطرف.

المطلب السادس: الأسلوب القرآني في التأكيد لبشرية الرسل التي أنكرها المشركون.

تمهيد

راعى القرآن الكريم قدرات الناس في العقيدة والشريعة فجاءت مطابقة لواقع الناس، وليس هذا بمستغرب، لأن الله تعالى هو الذي أنـزل هذا القرآن على قلب رسول الله ليكون للعالمين نذيراً، والله سبحانه هو خالق الناس، وهو أعلم بسرهم ونجواهم، فيعرف ما توسوس به صدورهم، وتكنه قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق، الآية 16]، وهذه الجبلة التي نشأ عليها الإنسان والتكوين الذي خلقه، والنفس التي بناها، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [سورة الشمس، الآيات 7-10]، هذه النفس، وهذا القلب، وهذا العقل، وهذه التركيبة، كلها من صنع الله تعالى، والقرآن كلامه، فلما نـزل القرآن وهو محمل بالأحكام الشرعية، والمتطلبات الإلهية، وفيه ما هو فلاح وصلاح للإنسان في دنياه وأخراه، جاء مراعياً له، ومطابقاً لواقعه، وناسب ما يحمله من كفايات وقدرات وعلى ما يستطيع، والعقيدة الإسلامية هي ذات الصلاحية الكاملة التي تناسب الإنسان كإنسان، وكذلك الشريعة التالية لهذه العقيدة.

لقد هيأ الله الإنسان من خلال إعطائه القدرات الكافية التي من شأنها أن توفر له الصلاح في حال واقعه، والله قد خلق في الإنسان استعداداً لتقبل هذا الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الآنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ۞ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [سورة الإنسان، الآيتان 2-3]، ودلالة معاني الآيتين الكريمتين تشير إلى أن الله لم يترك الإنسان هكذا، بل خلقه مستعداً لتقبل الصحيح والقبيح بعد توضيح الطريق الصحيح عن طريق الرسل والأنبياء، وإنـزال الكتب السماوية، وخاطبه من خلالها بما يناسب ويوافق فطرته، ويناسب قدرته، وقد جاء القرآن الكريم، وفيه من الأساليب المراعية لوضع الإنسان ومقتضى حاله لينسجم مع تعاليم الكتاب العزيز بمعطياته العقدية والتشريعية، وفي مضامينه، وسياق معاني آياته مراعاة لضعف الإنسان وقوته بعد أن خاطبه بما ينور قلبه وعقله، أطلعه على بعض من أسرار خلقه، دافعاً إياه للنظر والتمحص ثم الاعتبار، وناقلاً إياه من العالم المنظور إلى العالم المسطور من أجل تهيئة بيئة صالحة لعبادة الله وإقامة المشروع العقائدي في توحيد الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات، الآية 56].

المطلب الأول: العرض العقائدي الميسر

والمقصود باليسر هنا هو سهولة ووضوح العقيدة، فبمجرد نطق الإنسان أي كان بالشهادة دخل في الإسلام، والإسلام خالٍ من الطقوس المعقدة التي فرضتها الديانات الأخرى بمختلف أشكالها وكشفت سهولةً الإسلام العظيم من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سر قوة الإسلام، والإسلام وإدراكه سهل خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً، وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله وبضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يعرض عنها، وأنك إذا ما اجتمعت مع أي مسلم من أية طبقة رأيته يعرف ماذا يجب أن يعتقده، ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث، والاستحالة، وما مثلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الإسلام[1].

وهذا الحكم صادر من عالم فرنسي هو "غوستاف لوبون"؛ وهو يعرض بوضوح وسهولة عقيدة الإسلام ويدعم قوله السابق في وضوح وسهولة العقيدة ودخول الناس في الإسلام بكثرة قوله: "وساعد وضوح الإسلام، وما أقر به من العدل والإحسان على انتشاره في العالم، ثم يقول: وبتلك المزايا نفسر سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، ثم يقول: كما نفسر به السبب في عدم تنصر أي أمة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً سواء كانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة، ثم يزيد ذلك وضوحاً عندما يقول: ويجب على من يرغب في الحكم بفائدة كتاب ديني ألا ينظر إلى قواعده الفلسفية الضعيفة على العموم، بل إلى مدى تأثيره، والإسلام إذا ما نظر إليه من هذه الناحية وجد من أشد الأديان تأثيراً في الناس، وهو مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل، والإحسان والصلاة، وهو يعلم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع، وهو يعرف فضلاً عن ذلك أن يصب في النفوس إيماناً ثابتاً لا تزعزعه الشبهات[2]. وعلى هذا ففي التصور الإسلامي يبلغ

---

(1) حضارة العرب: د. غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1399هـ - 1979م: 158.

(2) ينظر: حضارة العرب: 159.

التوحيد في مراتب التنـزيه، والتجريد حداً لا تستطيع فيه كلمات اللغة ولا خيالات الذهن تحديد كنه الذات الإلهية، وماهيتها، وهويتها.

ومن ثم ليس هناك بُد أمام الإنسان في نفي الشبيه والمماثلة والتشبيه للاقتراب من التصور الأدق للوحدانية، وأنها تعطي تصوراً عن التنـزيه عن مشابهة المحدثات كل المحدثات، وكل ما عداها - أي الذات الإلهية - فجميعه محدث؛ ولذلك فإن أعلى الدرجات التي يستطيع العقل أن يصعد إليها على سلم تصور الذات الإلهية هي تلك التي جاءت في القرآن بكل بساطة يفهمها صاحب العلم الكثير، ويفهمها الراعي بين أغنامه وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرِ﴾ [سورة الشورى، الآية 11]، فهو عطاء قرآني بكل يسر وسهولة يعطاه الإنسان، وهذا التصور بعيد من التعقيد الفلسفي، ومقنع بالوقت نفسه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص]، وهذا هو الأسلوب القرآنيَ في عرضه للتوحيد من تنـزيه وتجريد.

أما الصياغة البشرية للتعبير عن التوحيد والتنـزيه بكل بساطة ما ورد عن السلف في قولهم: "كل ما خطر على بالك فالله خلاف ذلك" وأما الصفات فتتلقاها بنفس الأسلوب الذي مر في التنويه والتوحيد؛ فقد وصف ذاته العلية بصفات الجلال والجمال ومن واقعية هذه العقيدة أنها تشعر الإنسان أو هو يشعر من خلالها بأنه محرر من قيود الأرض من العبودية لغير الله من الطواغيت والأغيار والقوى المادية، والأساطير والأوهام، ففيه جوهر التحرير وقمته الذي يفك كل قيود الإنسان عندما يخص بعبوديته الذات الإلهية التي جلت في التصور عن المادة [1].

ولقد أمعن التصور في العقيدة في التوحيد للذات الإلهية، وفي تنـزيهه عن الشبه، والمثل، والمماثلة، بعدما كشف للعقل المسلم انفراد الذات الإلهية دون كل من عداها وما عداها بهذه الوحدانية يزيد هذه الواقعية بهاءً ورسوخاً لهذه العقيدة بأن ما سوى الله قائم على الثنائية والازدواج والاجتماع، والاشتراك، فقوام الأحياء، وكل ما في الكون إحياء بمعنى مؤسس على قاعدة وفلسفة التزاوج، قال تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [سورة هود، الآية 40]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يس، الآية 26]، وعلى

(1) ينظر: معالم المنهج الإسلامي، د. محمد عمارة، المعهد العالي للفكر الإسلامي، ط1، 1411هـ - 1991م: 29.

الجماعية والارتفاق، والتساند، والتعاون، والاجتماع، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 38]، بهذا التوحيد يمثل المنهج الإسلامي سمةً يمتاز بها وتميز جميع المناهج والشرائع، والديانات، والفلسفات وحتى تظل هذه السمة مميزة لهذه العقيدة، ولهذا المنهج - سمة التوحيد - التي هي من متطلبات حياة الإنسان الرئيسة، ويظل هذا التنزيه فاعلاً فعله في تحرير الإنسان من العبودية لغير الله، وهذه سمة لمنهج حضاري ينهض بالإنسان، ويلبي حاجته الروحية، والمادية، وليست هي مجرد نظرية، وإنما هي واقع[1].

ويتمخض عن هذه العقيدة التي تطابق واقع الإنسانية، وتؤدي بهم إلى منهجية في العمل، وأصحاب التوحيد هم من يأخذ بالحياة ويفهمها ويعمل فيها ويزرعها، ثم يتركها إلى عالم آخر يجني فيه الثمر، ثمر العمل، وقد تكلم "غوستاف لوبون" على الأمة الإسلامية من خلال سهولة عقيدتها التي لا يلحقها التعقيد، بل جاءت متساوية مع قدرات الإنسان ومتطلبات حياته، فيقول: ولا ريب أن نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيماً للغاية، وهو مبني على أساس هذه العقيدة في بساطتها، ثم يقول: فقد كانت بلاد العرب قبل محمد ﷺ مؤلفة من إمارات مستلقة، وقبائل متقاتلة على الدوام فلما ظهر محمد ﷺ ومضى على ظهوره قرن واحد، كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى إسبانيا، وكانت الحضارة تستطع بنورها الوهاج في جميع البلدان التي خفقت راية الإسلام فوقها "[2]. وقوله هذا يشير إلى الواقع الحضاري الذي أنتجته هذه العقيدة، وزيادة على ما قال فإن الأمة التي تربت على التوحيد لم تكن غايتها هو السيطرة على العالم وإنما كانت غايتها أعلى وأجل، وهو الرضوان والحب من الله تعالى، ثم دخول الناس جميعاً في هذا الخير الذي جاءت به من غير إكراه.

وقد أكد "غوستاف لوبون" أن هذه العقيدة ممثلة بالإسلام من أكثر الديانات ملاءمة للاكتشافات العلمية، ومن أعظمها تهذيباً لنفوس، وحملاً على العدل والإحسان والتسامح، والبديهة، وإن فاقت جميع الأديان السامية فلسفة تراها مضطرة إلى التحول لتستمرئها

---

(1) ينظر: معالم المنهج الإسلامي: 30.
(2) ينظر: حضارة العرب: 159.

الجموع، وهي لا شك دون الإسلام في شكلها المعدل هذا، ثم يبين بعد ذلك عمر هذه الأمة، وكيف تسلقت سلم الحضارة لترتقي إلى القمة ثم تبدأ بالهبوط، فيقول: ومع ما أصاب حضارة العرب من الدثور، لم يمس الزمن دين النبي ﷺ الذي له من النفوذ ما له في الماضي، والذي لا يزال ذا سلطان كبير على النفوس مع أن الأديان الأخرى التي هي أقدم منه تخسر كل يوم شيئاً من قوتها [1].

وهذه الإشارات والدلائل نتائج حتمية لهذه العقيدة التي نبت أفرادها على حب الله، وهو أصل فيها، ثم جعلتهم في طاعة لله ورسوله، فلا عجب أن يكون لها هذا القدر من الرفعة والعلو في النفوس والقلوب، فإن فيها ما يكفل للإنسان أطيب حياة وأجملها، ويحفظ له حقوقه بين أفراد جنسه، وليس هذا فقط بل وضمان له في الحياة الثانية ونجاة له، والفوز بالحياة والنعيم الأبدي.

المطلب الثاني: طبيعة الدعوة لعقيدة التوحيد

من المهم جداً أن نتعرف إلى طبيعة الدعوة لهذه العقيدة، وهي في غاية البساطة، خالية من التعقيد الفلسفي لتكون عامة، وللناس كافة، لأنها دعوة عالمية، لا تخص فئة معينة، أو شعباً بعينه أو أمة بعينها، وإنما هي عالمية للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سورة سبأ، الآية 28]، ومن هذا المنطلق لابد أن تكون طبيعة هذا الدين سهلة ينقاد إليه الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والعالم، والجاهل، فلا بد أن يكون الخطاب جامعاً عالياً في أساليبه، بسيطاً في فهمه وقد استنبط العلماء شروطاً على فهمهم للنصوص، وهذه الشروط متلائمة مع قدرات الإنسان، يقول صاحب الجوهرة:

فكل من كلف شرعاً وجب   عليه أن يعرف ما قد وجب

أي: وجوب معرفة الله تعالى إنما هو بلسان الشرع، فكل فردٍ من المكلفين من الإنس والجن يجب عليه أن يعرف ما يجب لله تعالى، وما يجوز، وما يستحيل، وكذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام ذكراً كان المكلف أو أنثى، ولو عامياً ومن العبيد والنساء،والخدم [2].

---

(1) ينظر: حضارة العرب: 160.
(2) ينظر: شرح جوهرة التوحيد: 13.

التكليف: يقول صاحب الصحاح: كلفه تكليفاً؛ أي: أمره بما يشق عليه، وتكلفت الشيء: تجشمته[1]. والكلف: الإبلاغ بالشيء، وتكلف الشيء ما يفعله الإنسان بإظهار كلف مع مشقة تناله في تعاطيه[2].

والتكليف: إما إلزام ما فيه كلفة وهو الراجح، فيقتصر على الوجوب، والحرمة، أو هو: طلب ما فيه كلفة فيشمل الندب والكراهية مع الوجوب والحرمة [3].

أما شروط التكليف: فهي البلوغ، والعقل، بلوغ الدعوة، وسلامة الحواس. ويترتب على هذه الشروط أمور:

أولاً: الصبي: فهو ليس بمكلف، فمن مات قبل البلوغ فهو ناجٍ، ولو من أولاد الكفار، ولا يعاقب على كفر غيره، خلافاً للحنفية حيث قالوا بتكليف الصبي العاقل (المميز) بالإيمان لوجود العقل وهو كافٍ عندهم، فإن اعتقد الإيمان أو الكفر فأمره ظاهر، وإن لم يعتقد واحداً منهما كان من أهل النار لوجوب الإيمان عليه لمجرد العقل[4]. والمجنون ليس بمكلف، لكن إن بلغ مجنوناً واستمر على ذلك إلى أن مات بخلاف ما لو بلغ عاقلاً ثم جن وكان غير مؤمن ومات كذلك فهو غير ناجٍ.

والذي لم تبلغه الدعوة ليس بمكلف، وذلك بأن نشأ في شاهق جبل على الأصح؛ خلافاً لمن قال بأنه مكلف لوجود العقل الكافي لوجوب المعرفة عندهم وإن لم تبلغه الدعوة، وعلى اشتراط بلوغ الدعوة فهل يكفي دعوة أي نبي ولو سيدنا "آدم"؟ لأن التوحيد ليس أمراً خاصاً بهذه الأمة، أو هل لابد من بلوغ دعوة الرسول الذي أرسل إليه؟ والتحقيق ما ذكره "الآبي" خلافاً للنووي، أنه لبى من دعوة الرسول الذي أرسل إليه[5].

والمذهب الحق أن أهل الفترة وهم من كان في أزمنة الرسل، أو في زمن الرسول الذي لم يرسل إليهم ناجون، وإن بدلوا وغيروا و عبدوا الأصنام، وهنا يرد اعتراض فيقال: كيف هذا مع أن النبي ﷺ أخبر أن جماعة من أهل الفترة في النار كامرئ القيس وحاتم الطائي، وبعض آباء الصحابة، فإن بعض الصحابة سأله وهو يخطب فقال: أين أبي؟

---

(1) ينظر: الصحاح: 1424/4.
(2) ينظر: المفردات: 438.
(3) شرح جوهرة التوحيد: 13.
(4) ينظر: إتحاف المريد: 33. وتحفة المريد: 23. النظام الفريد: 32.
(5) إتحاف المريد: 34.

قال: في النار[1]، والجواب أن أحاديثهم أحاديث آحاد، وهي لا تعارض الأدلة القطعية، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [سورة الإسراء، الآية 15]، وبأنه يجوز أن يكون تعذيب من صح تعذيبهم لأمر يختص به يعلمه الله ورسوله.

وأما غير سليم الحواس فإنه ليس بمكلف؛ ولهذا قالوا: لو خلق الله إنساناً أعمى أصم سقط عنه وجوب النظر والتكليف وهو صحيح، وقد ذكره الباجوري في تحفته[2]. والمطلوب كذلك ما هو حد هذا الواجب، هل أن الناس المكلفين يجب عليهم المعرفة التفصيلية في معرفة الله؟ وجوابه هو أن حد الوجوب ينقسم حسب حال المكلف إلى قسمين:

الأول: عموم الناس، فإنه يجب على كل مكلف أن يعرف معرفة إجمالية بما قامت عليه الأدلة.

الثاني: أهل العلم والمعرفة، فإنه تجب عليهم المعرفة التفصيلية بالله تعالى [3].

من هنا يتبين أن طبيعة هذه الدعوة، تباين الأحكام في حق المكلفين، ومحل وجه الخصوص فيما يتعلق بمعرفة، والأحكام المتعلقة بها تعطي دلالة واضحة على حتمية مراعاة هذه العقيدة لقدرات الناس وطاقاتهم.

المطلب الثالث: الخطاب القرآني المباشر

إن أسلوب القرآن في عرضه للعقيدة أسلوب مباشر، فقد خاطب القرآن الإنسان خطاباً مباشراً، وهذا الخطاب مبني على القناعات القائمة على الدلائل التي لا يستطيع الإنسان السوي ردها بحال من الأحوال، وهذا من يسر هذا الدين، ومراعاته لوضع الإنسان، حيث خاطبه مباشرة بلا تعقيد كالمقدمات والنتائج المنطقية، كما واجهه بالحقائق كما هي بلغة واضحة بليغة وقف أمامها البلغاء بكل ما أوتوه من قوة البيان والمحاججة عاجزين عن محاكاته.

الكلام المباشر في قضية التوحيد

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ اللهُ﴾ [سورة محمد، الآية 19]، والآية تشير إلى خطاب الله تعالى للنبي محمد ﷺ، فضلاً عن خطاب الأمة جميعاً، وهو تحقيق للوحدانية التي

---

(1) رواه مسلم: (230)، 191/1. ابن حبان (578): 340/2. البيهقي: (13856)، 190/7.
(2) ينظر: تحفة المريد: 21.
(3) ينظر: تحفة المريد: 22. وشرح الجوهرة: 45 وما بعدها.

جاء من أجلها، والتوجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التي يقوم عليها أمر النبي ﷺ ومن معه، وعلى هذا الأساس الذي هو أساس العلم تستحضر في الضمير وتبدأ التوجيهات الأخرى من الاستغفار وغيره، قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [سورة محمد، الآية 19]، وقال تعالى: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة، الآية 255]، فهذا العرض الذي قدمه الأسلوب القرآني في الإخبار عن وحدانية الله تعالى وعن صفاته عرض مباشر يصل القلوب والنفوس بطريق مباشر خال من التعقيد الكلامي والمعاني المبهمة، والمقدمات والنتائج المنطقية والفلسفية، فإن الله سبحانه هو خالق الإنسان وهو أدرى بحاله ويعلم ما يؤثر فيه ويجعله متجاوباً مع الخطاب القرآني، ومن ثم إدراك المعاني والدلالات في سياق معاني الآيات القرآنية وهي تتحدث عن الله تعالى وعن صفاته لكي يكون الإنسان على علمٍ ودرايةٍ كافية لمعرفة خالقه ومنشأه سبحانه.

الكلام المباشر في دعوة المخالف

يمتاز الأسلوب القرآني باليسر والسهولة والمباشرة، وهذا الأسلوب مطلوب في الدعوة، وفي مسألة استمالة القلوب ولفت الانتباه إليه، قال تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۞ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ۞ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ۞ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآيات 60-64]، فهذا الأسلوب يعرض القضايا الخطيرة والمهمة بيسر وسهولة، ويهيئ النفس لتقبل الهدف المنشود، ويدعو الناس مباشرة بأسلوب من أرقى أساليب الخطاب لكي يحقق معاني التوحيد، ويقيم الحجة تلو الحجة[1].

---

(1) ينظر: جامع البيان: 301/3.

الكلام المباشر في إظهار النبوة والإيمان بالرسل

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنـزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنـزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية 84]، ودلالة معاني الآية الكريمة تشير إلى الإسلام وسعته وشموله لكل الرسالات قبله، وفي توحيده لدين الله، ورجعه لجميع الدعوات، وجميع الرسالات إلى أصلها الواحد، والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده[1]، وقد عرض هذا الكلام بأسلوب مباشر يمس العقول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنـزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنـزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية 4]، والإشارة في الآية إلى مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وأضرابه من الذين آمنوا بكل وحي أنـزل من عند الله فقوله: ﴿بِمَا أُنـزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن، وعبر عنه بالماضي وإن كان بعضه مترقباً تغليباً للموجود – أي الذي نـزل والذي يترقب نـزوله – ذلك على ما لم يوجد، وهذا الخطاب خطاب مباشر[2] للناس يحرك فيهم كوامن أنفسهم للإيمان بهذا الحق والاستعداد لتقبله، وهذا أسلوب القرآن السهل في عرضه لعقيدة التوحيد.

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن: 423/1.

(2) ينظر: مدارك التنـزيل: 14/1.

المطلب الرابع:
اعتماد الأسلوب القرآني الحوار في عرضه العقيدة

اعتمد القرآن أسلوب المحاورة مع المخالف في مسألة عرضه للعقيدة، وهذا الأسلوب ناجح في الإقناع، وهو أسلوب مباشر، وخطابه تلقائي مع وجود الحجة، وإقامة الدليل والبرهان، وهذا الأسلوب يجعل المقابل منهزماً منكسراً بعد قيام الحجة عليه، فيستسلم لما يراه من الحق الذي يعرض له بلا قهر أو استبداد أو إكراه، بل ملؤه الرحمة والرأفة والحب والحرص على الهداية.

الرحمة والإحسان في أسلوب المحاورة والجدل

قال تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 46]، والآية الكريمة تخاطب المؤمنين كافة في عدم الجدال والمماراة مع أهل الكتاب، وألا ينفقوا جهدهم في جدالهم، والإسلام ليس من طبعه المجادلة، فهو دين واضح سهل التناول، والجدال لا ينفع في الدين ولا يؤيد اليقين، ولا يرد من كان في ضلال مبين[1].

وقد كان النبي ﷺ لا يحب الجدل، ولكن عندما كان الأمر يتطلب ذلك فإنه كان يجادل بالتي هي أحسن من إقامة الدليل والدعوة إلى الإيمان بالكتب كلها، وهذا أدعى إلى الاستجابة لأنها دعوة حق، وسياق الآية السابقة تبين كيف أن النبي كان يبين حقيقة عقائدهم بخطابه لهم "أنكم تعبدون الله ونحن نعبد الله، فالله واحد فعلينا أن نتفق ولا نختلف، وأن تتخلوا عن شرككم، وترجعوا إلى أصل العقيدة وهو التوحيد "[2].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل، الآية 125]، والمخاطب في الآية الكريمة هو النبي محمد ﷺ فقوله: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ يعني "الإسلام"، ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ يعني المقالة المحكمة الصحيحة، وهو الدليل الواضح للحق، ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾؛ أي الخطابيات المقنعة

---

(1) ينظر: نظم الدرر: /564.

(2) ينظر: إرشاد العقل السليم: 42/7. وموقف الرسول من أهل العقائد الأخرى، د. عبد اللطيف محمد العبد، مطابع مدكور – القاهرة، ط1، 1397هـ – 1977م: 17.

والعبر النافعة على وجه لا يخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم، و﴿جَـادِلْهُمْ﴾ أي: ناظر معانديهم بـ ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة والمجادلة مع الرفق واللين، واختيار الوجه الأيسر[1] واستعمال كل ما من شأنه أن يعيدهم إلى جادة الصواب.

وهاتان الآيتان السابقتان يبيّن الأسلوب القرآني كيفية محاجة الخصوم فيهما؛ فآية سورة العنكبوت أشارت إلى تخصيص الدعوة والمجادلة بالتي هي أحسن مع أهل الكتاب الذين عرفوا الحق ولكن كثيراً منهم جانبوه، وأما آية سورة النحل فإنها عامة من خطاب الناس وجدالهم جميعاً في محاورتهم ومجادلتهم في محاولة إقناعهم عن طريق الإتيان بالأدلة والبراهين والحجج الدامغة وحث الناس على الإيمان بالله الواحد الأحد ونبذ ما سواه من الأنداد والأصنام الأمثال.

نماذج من المحاورة في القرآن الكريم

النموذج الأول: قال تعالى: ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ۞ هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۞ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآيات 65-67]، ودلالة معاني الآيات تشير إلى زعم اليهود بأن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً وزعم النصارى بأن إبراهيم عليه السلام كان نصرانياً، فأبطل الله سبحانه زعم هؤلاء المكذبين من خلال بيان أن نزول الإنجيل والتوراة كانت من بعده، ثم جاء التقرير منه سبحانه على حقيقة النبي إبراهيم في كتابه العزيز في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾، وبهذا أوضحت هذه المعاني عن طريق أسلوب المحاورة والمحاجة التي أعطت وأوضحت انتساب سيدنا إبراهيم عليه السلام[2].

النموذج الثاني: قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً۞ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَراً۞ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً

---

(1) ينظر: نظم الدرر: 324/4. وإرشاد العقل السليم: 151/5.

(2) ينظر: مدارك التنزيل: 162/1، وروح المعاني: 192/3.

وَأَعَزُّ نَفَراً ۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً۞ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً۞ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً۞ لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً۞ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِي أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً۞ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً۞ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً۞ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً۞ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً۞ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ [سورة الكهف،الآيات 32-44] . والآيات تشير إلى المحاورة التي جرت بين الرجل المؤمن والرجل الكافر، وقد عرضت هذه المحاورة العقيدة التي يجب أن يكون عليها الإنسان المسلم وما جرى من حوار في سياق هذه الآيات له تأثير في النفوس والقلوب لأنه يثير القلب للتلقي، ويقنع العقل ببرهان وحجة داحضة، فهذا الإنسان الناكر لفضل الله، الكافر بنعم الله عندما أخذ يفاخر بما أعطاه الله أمام الإنسان المؤمن ناظراً إلى جنته معتقداً عدم زوالها، ثم ازداد استهتاراً بأن نفى قيام الساعة فقال: ﴿مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، وفي حالة قيامها ادعى أن له فيها خيراً مما هو فيه قال تعالى على لسانه: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾ فأخذ صاحبه المؤمن يحاوره ويجادله بالأدلة والبراهين على وجود الله الذي رزقه هذه النعم، وعلى حقيقة وجود يوم القيامة، فذكر له دليل خلقه منذ أن كان نطفة وقبلها من تراب إشارة إلى أبي الناس جميعاً "آدم"[1] ثم سواك رجلاً سوياً، ثم عاد وذكر فضل الله عليه وأنه عبد الله ﴿لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾، وأخبره أنه لو دخل إلى جنته ونسب ما فيها من خير ومال إلى الله سبحانه لأنه خالقها لكن هذا الكافر عاند وكابر فوقع عليه عقاب الله بحسبان من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً لا يثبت عليها ماء ولا نبات فأصبح يعض عليها أصابع الندم، وهذا في الدنيا، أما في الآخرة فإن له عذاب جهنم لكفره وعناده[2].

---

(1) ينظر: أنوار التنـزيل وأسرار التأويل: 12/2.

(2) ينظر: مدارك التنـزيل: 12/2.

النموذج الثالث: قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ۞ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة يس، الآيات 78-81]، والآيات تشير إلى أسلوب المحاورة في رد الضالين عن غيهم عندما أنكروا البعث بعد الموت فأقام القرآن الحجة على الخصم بشيء مما هو في واقعه ومطابق، لمقتضى حاله، حيث إن بمثل واقع الإنسان يراه ويلمسه، وقوله: ﴿رَمِيمٌ﴾ هو اسم لما بلي من العظام، وقد جاء الرد على الاستفهام بقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، وفيه إشارة إلى بيان أن هذا المنكر هو أحد خلقه سبحانه، وكل شيء من خلقه سبحانه، ولا يخفى عليه شيء من خلقه، ولا تخفى أجزاؤه وإن تفرقت في البر والبحر، فيجمعه ويعيده كما كان، ثم جاء الأسلوب القرآني مدعماً بالدليل والحجة والبرهان في إقامة العقيدة بذكر بعض بدائع صنعه وهو انقداح النار من الشجر الأخضر، ثم جاء الاستفهام بقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى ... ﴾ وقد خرج الاستفهام في هذا السياق إلى معنى الإقرار، أي إقرار أن اللهَ سبحانه هو الخالق فضلاً عن إقامة الحجة عليهم بمقارنة خلقهم البسيط بخلق السماوات والأرض، وهما أضخم ما هو محسوس لدى الإنسان، وقد سلك الأسلوب القرآني في سياق هذه الآيات طريقاً سهلاً لا التواء فيه ولا تعقيد، وهذا مطلوب في مسألة الدعوة إلى العقيدة لكي يستميل الفكر والقلب وتتحقق لدى الإنسان الاستجابة النفسية التي يسعى إليها القرآن الكريم[1].

---

(1) ينظر: أنوار التنـزيل: 287/2. ومدارك التنـزيل: 14/4. موقف الرسول من العقائد الأخرى: 28.

المطلب الخامس:

اعتماد الأسلوب القرآني الوسطية ونبذ الغلو والتطـــرف

يتسم المنهج الإسلامي بالوسطية وهذا ما ميزه عن غيره مـــن المـــذاهب والـــشرائع والفلسفات، وبها - أي الوسطية - انطبعت الحضارة الإسلامية التي أصبحت نوراً يمـــشي بها من أظلمت الدنيا عليه دنيا الحال والصعاب والمشاكل ومتاعب الطريق، وهذه الوسطية مبنية على نبذ الغلو والظلم والتطرف الباطل، إنها تمثل الفطرة الإنـــسانية في بـــساطتها، وبداهتها وعمقها وصوت تعبيرها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها، قبل أن تعرض لها، وتعدو عليها عوارض وعادياتها الآفات المفسدة لها.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَـــى النَّـــاسِ وَيَكُـــونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [سورة البقرة، الآية 143]، ودلالة الآية الكريمة تشير إلى جعل أمة الإسلام أمةً وسطاً بين الأمم وهذه الوسطية لها جاءت من طبيعة رسالة هذه الأمة فإنها رسالة للناس كافة بل حتى للجن "ولما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير كان محموداً"[1]، فإن هذه الأمة لم تغل غلو النصارى في عيسى، ولا قصروا تقصير اليهـــود في أنبيـــائهم، وبهذه الوسطية جعل الله هذه الأمة شهيدة على الأمم بهذا الدين الوســـط الـــذي ينفـــي التقصير والغلو معاً، فالوسطية هي الحق بين باطلين، والعدل بين ظلمين، والاعتدال بـــين تطرفين، والموقف العادل الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال، والرافض للغلو - إفراطاً وتفريطاً[2].

والوسطية تمتاز في أنها تجمع وتؤلف ما يمكن جمعه وتأليفه من السمات، والقـــسمات والمكونات الموجودة بين النقيضين وهي لذلك "وسطية جامعة"، والتوحيد هـــو الوســـط الذي لابد قيامه في نفوس الناس لأن التوحيد المحض هو الحق الذي لامرية فيه، فلا تعـــدد في الآلهة والأنداد، ولا انحطاط إلى الظلم لنفس بالرياء الذي يشارك في العبادة والتوحيـــد هو المخلص الوحيد للإنسان من أوضار الشرك وعبادة الطواغيت، وإن الأحكام والأوامر والمتطلبات التي جاء بها القرآن الكريم تمثل المنهج الوسط، وقد راعى الله سبحانه تكـــوين خلق الإنسان وهو أعلم بحاله؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ

---

(1) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، مصطفى البابي الحلبي، 1349هـ: 130/1. وينظر: روح المعاني: 3/2.

(2) ينظر: معالم المنهج الإسلامي: 77.

بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ [سورة الفرقان، الآية 76] والآية تبين المنهج الوسط في الإنفاق يمثل القضية الاقتصادية الإسلامية وحدود الإنفاق والتقتير، وقوله تعالى: ﴿وَآت ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ [سورة الإسراء، الآية 21]، والآية تشير إلى النهي عن الإسراف في الإنفاق أيضاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ [سورة الإسراء، الآية 29]، فهذه الوسيطة تبين أن الدين يؤخذ باليسر وليس بالعسر، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُم الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة، الآية 185]، وهذا هو الاعتدال الذي يرفض في جوهر كل غلو، وإفراط، فلا رهبانية، ولا النسك الأعجمي،ولا الحيوانية الشهوانية والتملل من التكاليف[1].

وقد وردت أحاديث عن النبي محمد ﷺ تشير إلى هذه الوسطية، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين في الإسلام إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه"[2] ومنه قوله ﷺ: "إن الله لم يبعثني معنفاً ولا متعناً ولكن بعثني معلماً ميسراً"[3].

معالجة القرآن للغلو والتطرف

لقد اهتم القرآن بمعالجة قصة الغلو والتطرف في العقيدة والشريعة، وقد وجه القرآن البشرية جمعاء إلى الاعتدال ونبذ التعصب، فإن دعوات الشرك مرفوضة لأنها غلو وتطرف، وميل عن الحق المبين الذي فطر الله الناس عليه، فاليهود غلوا وتطرفوا حين جعلوا العزيز ابناً لله سبحانه؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ [سورة التوبة، الآية 30)، والنصارى غلوا وتطرفوا في عيسى عليه السلام وجعلوه ابناً لله سبحانه قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية 30]، وقد بين القرآن الكريم إيغالهم بالغلو أكثر من ذلك؛ وهو عبادتهم للأحبار والرهبان، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إلاَ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحداً لاَ إِلَهَ إِلاَ

(1) ينظر: معالم المنهج الإسلامي: 78.

(2) رواه مسلم: (2327)، 1813/4. البخاري: (3367)، 1306/3. سنن أبي داوود: (4785)، 250/4.

(3) رواه مسلم: (1478)، 1104/2. البيهقي: (13047)، 38/7. مسند الإمام أحمد: (14556)، 823/3.

هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية 31]، وقد اتبع القرآن أسلوب إقامة الحجة على الخصم وفضحه حتى يكون ذلك سبباً في هدايته، فادعاء اليهود والنصارى نسبة البنوة إليه تعالى وعبادة الأحبار والرهبان أمر خارج عن العقيدة التي بعث بها موسى وعيسى عليهما السلام، وقد ابتدع النصارى الرهبانية وأحلوا لأنفسهم وحرموا عليها ما لم ينــزل به سلطاناً، وقد نهاهم القرآن عن هذا الغلو[1] فقال: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [سورة النساء، الآية 171] وقوله: ﴿لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: لا تتجاوزوا الحد، فقد قالت اليهود، في الحط من منــزلة المسيح: إنه ابن زنى، وغلت النصارى في رفعه عن مقداره حيث جعلوه ابناً لله، وقد نهاهم سبحانه عن التقول على الله سبحانه بما لا يعلمون، وحثهم على العودة إلى العقيدة الصافية بعد أن كدرها التحريف والتزوير[2].

---

(1) ينظر مقالنا "كيف نفهم الوسطية في ضوء الكتب والسنة"؛ وهو منشور في مجلة الرسالة الإسلامية، العدد 297، 1421هـ - 2001م، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية - العراق: 21.

(2) ينظر: أنوار التنــزيل وأسرار التأويل: 257/1. ومدارك التنــزيل: 265/1.

المطلب السادس:

الأسلوب القرآني في التأكيد لبشرية الرسل التي أنكرها المشركون

حرص القرآن على عرض عقيدة التوحيد مطابقة للواقع الذي يعيش فيه الإنسان، ومن هذا المنطلق فإن الله سبحانه أرسل الرسل للناس يبشرونهم وينذرونهم، وأنزل إليهم كتبه وخاطب كل قوم بلغتهم ليقيم عليهم الحجة ولا يبقى لهم عذر، والعقيدة على هذا النحو تنسجم وواقع الإنسان وحاله، وقد حفل القرآن بذكر هذا الموضوع في آيات كثيرة منه.

الآيات التي تؤكد بشرية الرسل

قال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ [سورة الفرقان، الآية 20]، وقد جاءت هذه الآية رداً على قول الكافرين: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ [سورة الفرقان، الآية 7]، والآية الكريمة تثبت بشرية الرسل وما أرسل الله من المرسلين إلا آكلين وماشين[1]؛ والآية في بيان بشرية النبي ﷺ أي "أنهم يأكلون الطعام كما نأكل ويأكل غيرك من الآدميين، ويمشون في الأسواق كما تفعل ويفعلون"[2]، وقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ أي: بصيراً بكل شيء فهو عالم بالإنسان وحاله، ولهذا أرسل إليهم ما يوافقهم ويوافق طباعهم، والبشر أدرى بالبشر، والله سبحانه خالقهم ويعرف ما جبلوا عليه من خير وشر، وهو أدرى بتصرفاتهم في الأقوال والأفعال، وهذا من منتهى الحكمة الإلهية، وهو يؤكد أن هؤلاء الرسل هم بشر، ويجب الإيمان بهم، وهؤلاء أدرى بأخلاق الناس وعاداتهم، فوصف الأسلوب القرآني للرسل هو في الحقيقة تنبيه على أنهم بشرٌ كباقي البشر لا يختلفون عنهم من الصفات البشرية في شيء، فهم يشعرون كما يشعر البشر، ولكنهم عصموا وحفظوا بأمر الله سبحانه ليكونوا قادرين على حمل عبء الدعوة وهم أئمة

---

(1) ينظر: إرشاد العقل السليم: 210/6.

(2) ينظر: نظم الدرر: 308/5.

الهدى، وأعلام الحق، والداعين إليه سبحانه وتعالى، فيكون أحرى بالناس استجابة دعوتهم والإقبال عليهم وطاعتهم، والرسول محمد ﷺ بشر كإخوانه من الرسل، وقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله تشير إلى بشرية النبي محمد ﷺ.

إنكار المشركين لبشرية الرسل

فإن الله لما أرسل رسله إلى خلقه يحملون رسالته إليهم بعد أن اصطفاهم، واختصهم من صفوف الناس أئمة يهدون بأمره سبحانه عارض كثير من المشركين هؤلاء الرسل، وأنكروا عليهم الرسالة، ومن الذرائع التي تذرعوا بها في رد دعوة الرسل هو إنكارهم أن يكون رسول الله بشراً مثلهم، قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآيتان 2-3]، وقال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 24]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 33]، ودلالة الآيات الكريمة تشير إلى عناد المشركين ومكابرتهم في إخراج النبوة من البشر ودحض النبوة، يدفعهم تكبرهم والغشاوة على عقولهم وقلوبهم[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [سورة الكهف، الآية 110]، والمخاطب في الآية الكريمة هو النبي محمد ﷺ؛ أي: قل لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فمن زعم بأني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي مثل قصة أصحاب الكهف وذي القرنيين مما هو مطابق في نفس الأمر لولا ما أطلعني الله عليه وأنا أخبركم ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾؛ أي: ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ وهو الذي يراد

(1) ينظر: نظم الدرر: 550/6.

به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل [1]؛ أي أن قبول الأعمال عند الله لابد أن تكون خالصة لوجه الله تعالى وأن تكون صائبة؛ أي موافقة لفعل النبي محمد ﷺ.

لغة الخطاب هي لغة البشر

إن الله سبحانه لم يرسل رسولاً إلى قوم إلا بلسانهم ليسهل التفاهم وإيصال العقيدة والشريعة، والله أرسل الرسل بلسان قومهم لتثبت الحجة عليهم، وزوال الشكوك من نفوسهم، ولا يبقى ظن في تذكيرهم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة إبراهيم، الآية 4]، والآية تشير إلى لطف الله بخلقه أنه يرسل منهم رسلاً بلغتهم ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم[2]، وقد أرسل الله كل رسول بلغة قومه "فإذا عبر عنها بالعربية فهي القرآن، وإذا عبر عنها بالسريانية فهي الإنجيل، أو بالعبرية فالتوراة فالمسمى واحد وإن اختلفت العبارات"[3].

فالله سبحانه أرسل كل رسول بلسان قومه ليسهل على الناس معرفة العقيدة واللسان العربي أسهل الألسنة وأجمعها وأفصحها وأبينها، فكان غاية في الدلالة، والله ختم الرسالات والكتب بالقرآن الكريم، بلسان عربي مبين غاية في الاستقامة والاعتدال، وقد دل على شرف هذا اللسان لصلاحيته لجميع الأمم[4]؛ فالله راعى الإنسان بأن أرسل إليه ما يوافق طبائعه ويسهل عليه تقبل وفهم الرسالة السماوية والإيمان بها.

فتح باب التوبة

فتح القرآن آفاق التوبة وهي الرجوع والإنابة إلى الله تعالى والتبرؤ من الإثم والعزوف عنه وإظهار الندم والتحسر، وذكر التوبة والإنابة إلى الله جاءت في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وهي ظاهرة بارزة فيه، وهي إحدى طرق القرآن في عرضه لعقيدة التوحيد، ويأتي هذا من واقعية القرآن ومحاكاته لواقع الإنسان وحاله وقدراته، والإنسان بطبيعة خلقه

(1) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 108/3.
(2) ينظر: المصدر نفسه: 191/5.
(3) ينظر: إتحاف المريد: 101. والإرشاد إلى قواطع الاعتقاد: 99.
(4) ينظر: نظم الدرر: 197/4.

مجبول على الضعف، والإثم يقع منه لأنه بشر، وقد جعل له باب التوبة مفتوحاً سواء مرتكب الكبيرة أو الصغيرة إن تاب وآمن وأصلح، ومثلما فتح الله باب التوبة للمؤمنين الذين يقعون في الخطايا فإنه فتح الباب أيضاً لكل كافر فاسد العقيدة، قال تعالى عن الكافرين: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [سورة التوبة، الآية 11]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [سورة التوبة، الآية 11]، ولا تكليف ولا عوائق ولا مطالبات صعبة في الدخول في الإسلام والتوبة من الشرك، وإنما بكيفية النطق بالشهادتين، ثم تطبيق ما يؤمر به غيره من المسلمين من عبادات وأحكام، وهذه الشهادة تفضي بهذا الإنسان إلى آفاق رحيبة وممتدة من الطمأنينة والأمان، ويشرق فيها القلب على نور التوحيد، وينجو القلب من دون الشرك ولوثة الاعتقاد الفاسد ويتحول من ضعف الإرادة إلى قوة باعثة فاعلة للعمل الصالح فيصبح من خلال كلمة التوحيد والاعتقاد الجازم به محصناً من الخنوع والخضوع للآلهة المزعومة[1].

الشفاعة

وهي مأخوذة من أشفع: أي ضم الشيء إلى مثله، وأكثر ما يستعمل في انضمام ما هو أعلى حرمة ومرتبة إلى ما هو أدنى[2]، وقد وردت الشفاعة في القرآن والسنة فأثبتت شفاعة الرسل والأنبياء والأولياء، والعلماء،وشفاعة الرسول محمد ﷺ واجبة ويجب على المؤمن اعتقادها وهي من ضمن واجبات ثلاثة:

الأول: كونه ﷺ شافعاً، والثاني: كونه ﷺ مشفعاً؛ أي مقبول الشفاعة، والثالث: كونه ﷺ مقدماً على غيره من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، فيتعين اعتقاد أنه ﷺ له شفاعات إلا أن أعظمها شفاعته المختصة به للإراحة من طول الوقف؛ وهي أول المقام المحمود، وإدخال قوم الجنة بغير حساب، وإخراج الموحد من النار من العباد الذين تجاوزت سيئاتهم حسناتهم، وزيادة الدرجات في الجنة لأهلها،ويجب الاعتقاد في شفاعة غيره ممن عظم قدره عند الله، وهذا مما أجمع عليه أهل السنة[3]، وقد وردت آيات في التدليل على الشفاعة منها قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَ بِإِذْنِهِ﴾ [سورة البقرة،

---

(1) ينظر: عقيدة المسلم: 146.
(2) ينظر: المفردات: 263، والتعريفات: 112.
(3) ينظر: إتحاف المريد: 242، والإرشاد: 393.

الآية 255]، وقوله: ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزخرف، الآية 8] وقد وردت آيات تصرح بإثبات الشفاعة له ﷺ؛ منها قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [سورة محمد، الآية 19]، وسياق الآيات والأحاديث الشريفة تشير إلى رأفة الله بعباده وأنه قد وضع لهم ما ييسر عليهم أمورهم في الدنيا والآخرة، والله قد فتح باب التوبة لعباده والناس جميعاً، وقد حبب الله للإنسان الرجوع والعودة إليه والتوبة من كل المعاصي وهو يتقبل ذلك رحمة منه وتفضل، كيلا ييئس الإنسان من رحمته وإن عظمت ذنوبه، وما يؤكد هذه المعاني أن جعل النبي صاحب الشفاعة يشفع للمؤمنين، وهذا غاية في الكرم والجود ونوال رضوانه والنجاة من النار والجحيم.

المبحث الثالث
استعمال الألفاظ المألوفة

ويشتمل على تمهيد وأربعة مطالب:

المطلب الأول: الألفاظ المفردة والمركبة.

المطلب الثاني: اللفظ ومرادفه في الأسلوب القرآني.

المطلب الثالث: التقديم والتأخير في الأسلوب القرآني.

المطلب الرابع: لا تناقض ولا تطويل في الأسلوب القرآني.

تمهيد

نــزل القرآن بلغة العرب على قلب النبي محمد ﷺ؛ وهو كتــاب هدايــة للعــالمين جميعاً، ولما كان كذلك فكان لابد من مخاطبة الناس بألفاظ مألوفة لديهم؛ لأن اللغة هــي وسيلة التفاهم، فكلما كانت سلسة مألوفة كان التأثير أكبر، والاستجابة أسرع والقــرآن الكريم كتاب الله يمتاز بهذه الخاصية، فهو سهل مقنع ممتع مؤثر واضح المعاني ويهدف إلى تحقيق عبادة الخلق للخالق سبحانه، وتوجيه القلوب لربها كي تعتنق عقيدة أرادها الله وهي عقيدة التوحيد، فكلما كان العرض ميسوراً وسهلاً كانت استجابة القلب لداعي الإيمــان أشد أثراً واستجابة حتى إن الجن لما سمعوه تعجبوا منه وانبهروا؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِــيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّــا بِــهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ [سورة الجن، الآيتان 1-2]، فإن الجن لما سمعوا القرآن تعجبــوا من بديع صنعه، ومباينته لكلام الناس في حسن النظم ودقة المعنى؛ وهو كلام يهــدي إلى الرشد والصواب فاستجابوا له وآمنوا بما فيه من دلائل التوحيد[1].

واستعمال القرآن لهذه اللغة السلسة واختيار الألفاظ التي هي مصدر للتــأثير، مــع الإعجاز القرآني الذي تحدى به العرب مع ما يملكون من مَلَكات كبيرة في ميدان البلاغــة والفصاحة والبيان. فإن آيات القرآن جاءت متحدية لهم مؤثرة فيهم أبلغ تأثير، واللغة التي استعملها القرآن ذات طابع مؤثر، فنظم القرآن جاء في غاية الدقة، وسبك آياته في غايــة البلاغة، واستعمالاته البيانية من المعاني والبيان والبديع غاية لا يصلها الإنسان مهما بلغ من الفصاحة والبيان، فجزالة اللفظ وجمال التركيب مع دقة وصوله إلى المعنى في غاية البراعــة وسحر البيان مع كونه موصوفاً - باتفاق البلغاء، والفصحاء، والعلماء، وأهل اللــسان - بأنه أفصح كتاب في الوجود.

وبما أن العقيدة هي أهم أهداف القرآن الكريم فإن عرضها جــاء في غايــة اليــسر والسهولة بحيث يؤثر في الملتقي بشكل مباشر، وتتضح لديه أمور العقيــدة في التوحيــد، وبيان صفات الخالق، مع تصوير قدرته في خلق الكون، وانطباع ذلــك علــى الــنفس الإنسانية مع محادثته بأسلوب مطابق لواقع حياته تتجلى من خلال عظمة الخالق ليقر هذا الإنسان بوحدانيته سبحانه.

وقد عرض القرآن صفات الأنبياء والمرسلين بأسلوب مؤثر من خلال إبراز دورهــم في الدعوة إلى الله، وبيان معاناتهم وصبرهم على ما لاقوا؛ وقد عرضت هذه المعاني بلغــة

---

(1) ينظر: إرشاد العقل السليم: 42/9.

سلسة وأسلوب رشيق، فضلاً عن عرضه لأهوال يوم القيامـــة والحـــساب، والحـــوض، والميزان، والجنة، والنار، ومصير المؤمنين ومصير الكافرين، بأسلوب لا يسع من يسمعه إلا الاستجابة له والالتزام بأمره، وتحقيق العبادة لله الواحد الأحد.

المطلب الأول: الألفاظ المفردة والمركبة

اللفظة المفردة المعني بها الكلمة المفردة، وأما اللفظ المركب فهو سبك الجملة وإعطاؤها جمالاً باللفظ وعمقاً في المعنى مع وجود اليسر في نطقها وفهم معناها من غير تعقيد مع وجود التجانس بين الحروف والكلمات وصياغة العبارة بما يدل كل لفظ على معناه منفرداً أو مضافاً، والكلمة القرآنية المكونة من الحروف العربية لذيذة السماع، طيبة المجرى على اللسان، معتدلة في الوزن، نازلة على أحسن هيئة في الإيقاع. وحروف المعاني وظفها الأسلوب القرآني على قدر الضرورة، ووقت الحاجة فلم يزد فيها زيادة ترهق السمع، أو تشعر السامع بالملل، وإنما كان كل حرف في موضعه بحيث لا يمكن أن يستغنى عنه، أو يستبدل به غيره، وكان من نتيجة ذلك أن جاءت الكلمة المؤلفة من هذه الحروف خفيفة على السمع، سلسة في النطق، تدل على المعنى المراد بيسر وسهولة.

وقد بذل العلماء جهدهم في توضيح مقاييس الجمال في الكلمة وبيانها فاشترطوا أن تكون خالية من تنافر الكلمة، ومن مخالفة أوضاع اللغة، وهذه الشروط هي عوامل مساعدة لمن وهب الله له فقه اللغة، وسر العربية وهذه الضوابط تصقل هذه الموهبة حتى تأتي باللفظ البليغ الذي يعجب ويطرب، وتذوق الكلمة العذبة هو فطرة في النفوس يشعر بها كل صاحب ذوق سليم، ونظر مستقيم، وهو عمل يميل إليه السمع، ويألفه الطبع والأسلوب القرآني في تعبيره حدث فريد لم يسبق إليه ولم يلحقه أحد لأن أصحاب هذه الأذواق بشر، وفرق بين صنع البشر في صياغة كلامهم وبين كلام الله الذي أتقن كل شيء.

لذلك عندما زعمت الأعراب الإيمان بقولهم: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ فردهم الله إلى التعبير الصحيح، وأرشدهم إلى الكلمة التي تعبر عما في داخلهم فقال تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الآيَمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات، الآية 14]، فنبه القرآن بأسلوبه الأعراب أن يلتزموا الدقة في التعبير فيقولوا: ﴿أَسْلَمْنَا﴾ بدلاً من ﴿آمَنَّا﴾ حتى لا تضل المعاني بين الاحتمالات، وتتوه الأغراض والمقاصد في الأفهام[1].

يقول ابن الأثير: "إن الكلام الفصيح هو الظاهر البين، وأعني بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة، فلا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة، ،إنما كانت بهذه الصفة، وهي مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر، دائرة في كلامهم"[2]. والقرآن الكريم

(1) ينظر: صفاء الكلمة، عبد الفتاح لاشين، مطبعة دار المريخ – الرياض، 1403هـ - 1983م: 1-2.
(2) ينظر: المثل السائر: 115/1.

دقيق في اختيار ألفاظه، وانتقاء كلماته، فإذا اختار معرفة كان لسبب، وإذا انتقاه نكـــرة، كان ذلك لغرض، كذلك إذا كان مفرداً، كان لمقتضى يطلبه، وإذا كان مجموعـــاً كـــان لحال يناسبه، وقد يختار الكلمة ويهمل مرادفها الذي يشترك معها في بعض الدلالة، وقـــد يفضل كلمة على أخرى، وكل ذلك حسب ما يتطلبه السياق ووحدة المعاني كي تكـــون أكبر تأثيراً حتى تحقق الاستجابة النفسية التي يسعى إليها القرآن[1].

حسن اختيار كلمات القرآن

إن المتفحص في مفردات القرآن وكلماته يجد أنها ظـــاهرة البيـــان؛ أي أن ألفاظـــه مفهومة، ولا يحتاج إلى إعمال ذهن وفكر في فتح أبواب معانيها، وهي مألوفة الاستعمال، دارجة في دائرة الكلام، فالنفس البشرية إذا ما استلذت بشيء ومالت إليه من الكلام فهو الحسن، والذي نكرته وتنفر منه هو القبيح، والألفاظ القرآنية جاءت على أعلـــى صـــيغ التأثير والإقناع في النفس البشرية، فإن السمع يستلذ صوت البلبل مـــن الطـــير، ويكـــره صوت الغراب وينفر عنه، ويكره نهيق الحمار، ولا يجد ذلك في صهيل الفرس والألفـــاظ جارية في هذا المجرى، فلفظة "المزنة" وهي "الدِّيْمَةُ" حسنة يستلذها الـــسامع، وإن لفظـــة "البُعَاق" قبيحة يكرهها السامع، وهذه الألفاظ الثلاثة من صفة المطر، وهي تدل على معنى واحد، ومع هذا فإنك ترى لفظتي "مزنة" و"ديمة" وما جرى مجراهما مألوفة الاســـتعمال، وترى لفظة "البعاق" وما جرى مجراها متروكاً لا يستعمل، ولو كانت الفـــصاحة لأمـــر يرجع إلى المعنى لكانت هذه الألفاظ في الدلالة عليه سواء ليس منها حسن ومنها قبـــيح، ولما لم يكن كذلك علمنا أنها تخص اللفظ دون المعنى[2].

إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة يستحيل على البـــشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول، وأدق تعبير، مع التناسق العجيب بين العبارة والمدلول [3]، بقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ﴾ [سورة النـــور، الآية 43]، ويقول امرئ القيس:

(1) ينظر: صفاء الكلمة: 3.
(2) ينظر: المثل السائر: 151/1.
(3) ينظر: صفاء الكلمة: 6.

فألقى بـــصحراء العـــبير بعاقـــه[1]

فالفرق واضح بين "الودق" و"البعاق" فاختصاص "الودق" بالرقة واللطافة، و"البعاق" بالغلظة والبشاعة، وفي ذلك دلالة ظاهرة على أن الفصاحة راجعة إلى اللفظ لأجل دلالته على معناه[2].

دقة القرآن في إحكام التعبير

دعا القرآن إلى دقة التعبير مع إحكامه حتى لا يقع أو لا يصح وقوع لفـــظ في غـــير مكانه، فتضل حينئذ المعاني بين الاحتمالات، وتضل الأغراض والمقاصد في نيـــة الـــشك والتمويه، قال تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَـــدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات، الآية 14] فقد فيه القرآن الاعراب علـــى وجـــه الالتزام بالتعبير الدقيق فيقولوا: "أسلمنا" بدلاً من "آمنا" حتى تعبر الكلمة عما كان يجـــول في داخلهم تعبيراً حقيقياً، والملاحظ أن الله سبحانه بعد أن أغلظ عليهم وجَهَّلـــهم بعـــدم الدقة في التعبير واستعمال الكلمات في مكانها أدخل على الكلام شيئاً من المحاسن وســـتر الغلظة بنوع من اللطائف فأتى بأداة الاستدراك "لكن" في سياق الآية الكريمـــة ﴿وَلَكِـــنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، ولو اقتصر على ما دون أداة الاستدراك "لكن" لكان في الكلام تنفير لهم وإساءة، فأوجبت البلاغة وحسن التلطف ذكر الاستدراك؛ ليعلم أن الإيمان موافقة القلب للسان وأن انفراد اللسان بذلك يسمي إسلاماً، ولا يسمى إيماناً، وزاد ذلـــك إيـــضاحاً ولطفاً فقال ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

وأما كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ التي يقولها اليهود للنبي ﷺ على سبيل التهكم ويقصدون منـــها سبه بالرعونة، ويتهمونه أنهم يقولون: ﴿رَاعِنَا﴾ بمعنى: انظر إلينا، قال تعالى: ﴿مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّـــاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُـــمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [سورة النساء، الآية 46]، وتجنباً لهذه الملابسة جاء النهي للمؤمنين في عدم مخاطبة النبي بهذا التعبير ﴿رَاعِنَا﴾ وإنما عليهم أن يقولوا: ﴿انظُرْنَا﴾ وأن يبتعدوا عن ﴿رَاعِنَا﴾ الذي يتخذه اليهود ذريعة في النيل من النبي

---

(1) البيت رواه صاحب الطراز: 65، ولم أجده في ديوانه.

(2) ينظر: الطراز، يحيى بن حمزة العلوي، تحقيق: عبد السلام شاهين، دار الكتب العلميـــة - بـــيروت، ط1، 1415هـــــ - 1995م، 65.

ﷺ، وبهذا المقياس الدقيق، والميزان المضبوط كانت ألفاظ القرآن الكريم طبقاً لمعانيه[1] وما يتطلبه السياق ووحدة المعاني فيه، قال الراغب: ألفاظ القرآن هي لب كلام العرب، وزبدته، وأن ماعداها وعدا الألفاظ المشتقات عنها كالقشور والنوى بالنسبة إلى أطايب التمر وكالنخالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة[2].

ويشير ابن أبي الإصبع إلى ميزة اللفظ في كلام المتكلم وأنه بمنزلة الفريدة من العقد، وإذا أسقطت هذه اللفظة من كلام عزت على الفصحاء غرابتها، ثم يشير إلى أن هذا كثير في القرآن فيقول: فقد جاء في ذلك الكتاب العزيز غرائب لا يقع مثلها لمخلوق، وهي من الكثرة في القرآن بحيث يصعب حصرها؛ منها قوله تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [سورة يوسف، الآية 51] وقوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً﴾ [سورة يوسف، الآية 80]، فألفاظ هاتين الآيتين من هذا المعنى فنلحظ جزالة اللفظ في قوله: ﴿اسْتَيْئَسُوا﴾ وفي ﴿حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾، والفصاحة ﴿خَلَصُوا نَجِيّاً﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [سورة الصافات، الآيتان 176-177]، وفي الآية تهديد للكفار ووعيد لهم، وهذه الألفاظ تجدها في الطبقة العليا من البلاغة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [سورة غافر، الآية 19]، والآية تشير إلى علم الله الشامل لكل ما دق وجل، ولفظة "خائنة" بمفردها سهلة مستعملة كثيرة الجريان على الألسن، فلما أضيفت إلى الأعين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هذا الوقع بحيث لا يستطاع الإتيان بمثلها[3].

ومنه قوله تعالى في وصف حال موسى بعد أن تسبب بقتل القبطي؛ قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ فإن لفظة "يترقب" ترسم هيئة الرجل الحذر المتلفت في المدينة بعد أن فقد الأمن والأمان[4]، فهذه الكلمات مألوفة في السماع مصورة لمعانيها بصياغة جميلة على أعلى صورة في البيان والبلاغة، فالكلمات التي تألفت منها الجمل القرآنية تمتاز بجمال وقعها في السمع، واتساقها الكامل مع المعنى، حتى لكأنك تشم منها

(1) ينظر: صفاء الكلمة: 9.
(2) ينظر: المفردات: 6.
(3) ينظر: بديع القرآن. أبن أبي الإصبع، تحقيق: حنفي شرف، القاهرة: 287.
(4) ينظر: من روائع القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، مطبعة حلب، 1972م: 170. وصفاء الكلمة: 11.

رائحة المعنى المطلوب، وتلمح فيها صورة المضمون أمام العين والقرآن على كثرة سوره البالغة أربع عشرة سورة بعد المئة، منها الطوال البالغة حد الطول، والقصار البالغة نهاية القصر والذي امتد نزوله ثلاثة وعشرين عاماً، وما حوى فيه من توحيد وعقائد، وفقه، وأحكام[1] وتحريم، وتحليل، وتشريعات، وقوانين، وقصص، وأخبار، وعلوم ومعارف، وظف الأسلوب القرآني المفردات والجمل في سياق هذه الأغراض والمقاصد، فأتت كل مفردة من المفردات المعنى الذي وظفت من أجله وبدقة عالية جعلت الإنسان يقف مبهوراً أمام هذا السبك العظيم لهذه الجمل والسياقات والنظم العالي المعجز الذي جاءت به، فكان تأثيره في الإنسان تأثيراً مباشراً فتحققت الاستجابة النفسية التي يسعى إليها القرآن كي تلتفت القلوب إلى خالقها الواحد الأحد وتفرده بالعبادة والتوكل والعمل.

استعمالات القرآن الكريم للكلمة

اعتنى القرآن الكريم باللفظة المستعملة فيه،واللفظة المستعملة قد جاءت على صيغة الإفراد والجمع، والتذكير والتأنيث، والإظهار والإضمار، وغير ذلك من الاستعمالات، وهذا هو الأكثر في ألسنة العرب، والقرآن الكريم دقيق في اختيار الألفاظ، وانتقاء الكلمات، وهو يختار اللفظ في مكان معين لسبب ويوظفه في مكان آخر لسبب أيضاً.

أما الوحشي في الكلام فإن ابن الأثير ذكره فقال: "وقد خفي الوحشي على جماعة من المنتمين إلى صناعة النظم والنثر، وظنوه المستقبح من الألفاظ وليس كذلك، بل الوحشي ينقسم إلى قسمين أحدهما: غريب حسن، والآخر غريب قبيح، وذلك أنه منسوب إلى الوحش الذي يسكن القفار، وليس بأنيس، وكذلك الألفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال، وليس من شرط الوحشي أن يكون مستقبحاً، بل أن يكون نافراً لا يألف الأنس، فتارة يكون حسناً، وتارة يكون قبيحاً"[2]، وعلى هذا فإن أحد قسمي الوحشي – وهو الغريب الحسن – يختلف باختلاف النسب والإضافات، وأما القسم الآخر من الوحشي الذي هو قبيح فإن الناس في استقباحه سواء، ولا يختلف فيه عربي باد، ولا متحضر، وأحسن الألفاظ ما كان مألوفاً متداولاً، لأنه لم يكن مألوفاً متداولاً إلا لمكان حسنه، فالألفاظ تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسمان حسنان، وقسم قبيح، فالقسمان

(1) ينظر: مقال الشيخ: محمد عضيمة، العدد التاسع، مجلة كلية اللغة العربية، الرياض: 29.
(2) المثل السائر: 223. وينظر: صفاء الكلمة: 15-16.

الحسنان: أحدهما ما تداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم إلى زماننا هـذا، ولا يطلق عليه أنه وحشي(1)، وقد تضمن القرآن الكريم منه كلمات معدودة، وهي التي يطلق عليها "غريب القرآن"، وقد تضمن منه الحديث الشريف وقد أطلق عليه "غريب الحديث".

قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأنثَى ۞ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [سورة النجم، الآيتان 21-22]، فجاءت لفظة "ضيزى" على نفس الفاصلة التي جاءت في السورة جميعاً، والأسلوب القرآني اختار لفظة "ضيزى" بدلاً من "ظالمة" أو "جائرة" فالأسلوب القرآني اختار لفظة "ضيزى" التي هي غريبة بدلاً من "ظالمة" أو "جائرة" التي هي أكثر استعمالاً؛ وذلك لغرابة ادعاء الكافرين وغرابة معتقدهم في نسبة الإناث إلى الله سبحانه ونسبة الذكور إليهم، فهم في تصورهم وفكرهم لا يقبلون نسبة الإناث إليهم لأن في ذلك تضميناً لمعنى الضعف لما جبلت عليه الإناث، وهم لا يتوانون عن نسبة الإناث إلى الله ويقصدون بهم "الملائكة" – تعالى الله عن ذلك – فجاءت لفظة "ضيزى" في مكانها المناسب والدقيق لتعبر عن غرابة موقف الكافرين وسفاهة عقولهم فجاءت ﴿ضِيزَى﴾ لتشير إلى هذه المدلولات العظيمة: ولو قال: "ظالمة" أو "جائرة" لما أعطت هذا المعنى الذي دلت عليه "ضيزى" في سياق الآية الكريمة(2).

اختيار المفرد دون جمعه

كلما دققنا النظر في سر ألفاظ القرآن وأمعنا النظر فيها، ظهر أمام العيان شيء من أسراره العظيمة ولطائفة العجيبة، ورأينا أن القرآن يتصرف بالألفاظ تصرفاً عجيباً فهو يضع كل لفظ في موضع يلائمه وفي محله المناسب، فنشاهد في تعبيرات القرآن أنه تارة يستعمل المفرد دون جمعه، وتارة يستعمل الجمع دون مفرده، ولو حاولنا التغيير والتبديل أو إحلال أحدهما محل الآخر، فسد التعبير، وذهبت حلاوته، ولاختل عقد نظامه والأمثلة القرآنية على ذلك كثيرة منها:

السمع والبصر: الأسلوب القرآني يخالف بين السمع والبصر في سياق الآيات الكريمة فهو يستعمل "السمع" مفرداً "البصر" مجموعاً أي "أبصاراً"، قال تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ

(1) ينظر: المثل السائر: 29/1.
(2) ينظر: في ظلال القرآن: 3408/6.

تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل، الآية 78]؛ وسبب ذلك أن استقبال الأذن للمسموع لا خيار للإنسان فيه فلا يمكن أن يمتنع من السماع إذا وصل شيء إليهما أو وقع عليها، أما العين فلها الخيار في ذلك، فإن لها أن ترى المنظر الذي أمامها فتحملق فيه، ولها أن تغمض فلا ترى أمامها شيئاً، نجد أن الأذن فما صدر من صوت ووقع على الأذن فلا بد أن تسمعه، فإذا جاء إنسان وصرخ في جمع من الناس سمعه الناس جميعا، فلا خيار للإنسان في قبول المسموع إذا كان المسموع في الجماعة واحداً، إذاً فالسمع واحد، لكن الأبصار تتعدد مرائيها، والأبصار لم تأت مفردة إلا في آية واحدة من القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ به علْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [سورة الإسراء، الآية 36].

وسبب ذلك أن الكلام في الآية عن المسؤولية الذاتية وهي مسؤولية فردية، فكل إنسان مسؤول عن بصر نفسه، وليس مسؤولاً عن أبصار الآخرين، ولهذا أفرد البصر هنا، وخص السمع، والبصر والفؤاد في الآية لأنه يتعلق بها من المنافع الدنيوية والدينية ما لا يتعلق بغيرها، وقدمنا مع السمع والبصر والفؤاد في الآية حيث إننا نعمل السمع والبصر أولاً في آيات الله وأفعاله، ثم ننظر ونستدل بالأفئدة والقلوب، والذي لا يعمل السمع والبصر والأفئدة فيما خلقت له فهو كالذي عدمها، يقول تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئدَتُهُم منْ شَيْء﴾ [سورة الأحقاف، الآية 26]، أما قوله في سورة النحل ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ منْ بُطُون أُمَّهَاتكُمْ...﴾.

فالإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئا، لكن الله خلق معه وسائل التعلم والإدراك، هذه الوسائل تربطه بالعالم الخارجي، وأخرى تربطه بالعالم الداخلي، فالتي تربطه بالعالم الداخلي هي ما يجده الإنسان من آلات حسه الظاهرة المعروفة، كأن يعرف متى يجوع، ومتى يظمأ، أما الوسائل التي تربطه بالعالم الخارجي فهي أولاً: السمع والبصر فإننا نسمع ثم نرى ثم تنشأ من هذه المحسوسات أمور عقلية، وأمور وجدانية وأمور عقلية، كما بين ذلك الإمام النسفي في قوله: "أسباب العلم للخلق ثلاثة: الحواس السليمة، والخبر الصادق، والعقل"[1].

وقد تحدث القرآن عن هذه المنافذ للعلم الإنساني في كثير من آياته؛ منها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئدَةَ﴾ [سورة النحل، الآية 78]، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَترُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ﴾ [سورة فصلت، الآية 22]، والسمع

(1) شرح الإمام سعد التفتازاني على العقائد النسفية: 29.

أول حاسة تعمل بعد الولادة، وهي تسبق غيرها من الحواس في العمل عند الإنسان ثم البصر، وبعدها تتكون المعلومات العقلية أو القلبية التي تبنى عليها حركة حياة الإنسان، وحاسة السمع تظل تعمل منذ ولادة الإنسان وحتى أثناء نومه؛ فإن الأذن تؤدي مهمتها باستمرار وتظل مستقبلة دائماً للأصوات؛ لهذا لما أراد الله سبحانه أن ينيم أهل الكهف مدة طويلة أراد سبحانه أن يمنع عنهم ما يوقظهم وهم في جبل، ولابد أن يكون هناك أصوات رعد وبرق، وحيوان، قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ [سورة الكهف، الآية 11]، ولم يقدم البصر على السمع في القرآن إلا في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة، الآية 12]، وسبب التقديم في هذه الآية هو أن هذه الآية الكريمة تصف مشهداً من مشاهد يوم القيامة، والذي يحدث في ذلك اليوم يقع أمام نظر الإنسان عياناً دون إخبار أو سماع، وإنما يشاهد ما يحدث للكون من انقلاب في نظامه، وتغيره إلى عالم آخر غير العالم الذي كان فيه، فتقديم البصر على السمع جاء في موضعه لأن البصر هو الذي يرى هذه المشاهد، وهي متقدمة على السمع هنا[1]، وهذا من إعجاز نظم القرآن، ودقة سبكه، فإن المفردات والألفاظ التي وظفت فيه جاءت معبرة على المعاني والدلالات المطلوبة، وقد وظفها الأسلوب القرآني على أعلى صيغة في التأثير والإقناع.

النكرة والمعرفة في القرآن

ذكرنا كيف أن القرآن يختار ألفاظه على أعلى دقة في البيان والبلاغة في توظيف المفردة والجمل، وقد تفنن القرآن في تعريف بعض المفردات وتنكيرها في الكتاب العزيز، ولهذا التعريف والتنكير لهذه الألفاظ أهداف ومقاصد معنوية ترفع من قيمة دلالة المفردة والجملة بشكل عام، ومن ذلك تنكير "بلد" وتعريفها؛ قال تعالى على لسان النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمناً﴾ [سورة البقرة، الآية 126]، وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [سورة إبراهيم، الآية 35]، وسبب ذلك أن دعوة إبراهيم عليه السلام الأولى كانت عند بداية بناء الكعبة الشريفة ولم يكن هناك في مكة

---

(1) ينظر: القضاء والقدر: محمد متولي شعراوي، 11. والمعاني في ضوء أساليب القرآن: د. عبد الفتاح لاشين، ط3، دار المعارف، 1978م: 150.

سوى إبراهيم، وابنه إسماعيل، وزوجه "هاجر"، فكانت دعوته لهذا البلد نكرة لأن البيت لم يكن معروفاً بعد عند الناس ولم يجتمع إليه أحد منهم بعد، وأما دعوته الأخرى فإنها جاءت بعد أن استقر الناس فيها وبعد أن وصلت إليها قبيلة جرهم التي سكنت مكة، وقد صاهرها إسماعيل عليه السلام فجاء استعمال "بلد" معرفة لأن الناس قد استوطنوها وعرفوها، فناسب ذلك تعريف لفظة "بلد"[1].

إن الإبهام في بعض من آيات القرآن لبعض المفردات وظف في مواطن حساسة، فلا نراها مقصورة على المعنى المتبادر فيها أول الأمر، بل عند إمعان النظر، والتدقيق في دلالة الكلمة نجد أن دلالتها تتسع، وأن إشعاعات مضيئة توحي بالمعنى الأهم، والمقصود الأدق "وقد يظن ظان أن المعرفة أبلى؛ أي أنها من النكرة أولى، ويخفى عليه أن الإبهام في مواطن خليت، وان سلوك الإيضاح ليس بسلوك للطريق، وعلة ذلك أن النكرة ليس لمفردها مقدار مخصوص بخلاف المعرفة فإنها لواحد بعينه، يثبت الذهن عنده ويسكن إليه، ولما في الإبهام من التفخيم"[2]، ولذلك أبهم القرآن ذكر أسماء أهل الكهف وزمانهم ومكانهم، وفي هذا بلاغة يقصدها القرآن، فقد يكون البيان أدق مراتب البيان لأنه لو ذكر أسماءهم، والأسماء مشخصات، فرب قائل يقول: هذه ظاهرة لهؤلاء الأسماء بخصوصهم، ولو عين القرآن مكانهم فرب قائل يقول: قد يسمح مكانهم بذلك، لكن القرآن أبهم أسماءهم وأماكنهم، وإنما اكتفى بوصفهم ومدحهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [سورة الكهف، الآية 3].

---

(1) إعجاز القرآن: عبد الكريم الخطيب، مطبعة بيروت، 1395هـ: 306/2.

(2) ينظر: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، للزملكاني، تحقيق: د. أحمد مطلوب، بغداد، 1974م: 136.

المطلب الثاني: اللفظ ومرادفه في الأسلوب القرآني

القرآن الكريم ينتقي ألفاظه، ويختار كلماته في موضعه لما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، فتستخدم كل كلمة بدقة بحيث تؤدي معناها المراد بإحكام شديد يكاد السامع يؤمن بأن هذا المكان وضعت له هذه الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تؤدي المعنى الذي أفادته أختها، وفي الكلام العربي ألفاظ يحسبها كثير من الناس متساوية في الدلالة وهي غير ذلك "فالحمد" و"الشكر" يترادفان إلا أهما يفترقان في الدلالة، فإن الحمد يكون ابتداءً بمعنى الحمد والثناء، أما الشكر فلا يكون إلا في المكافأة والجزاء، وقد يكون الشكر قولاً كالحمد وقد يكون فعلاً، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً﴾ [سورة سبأ، الآية 13]، والحمد ضده الذم، والشكر ضده الكفران، وقد يكون الحمد على المحبوب والمكروه، ولا يكون الشكر إلا على المحبوب[1].

ولما كان الشكر لا يكون إلا جزاءً على معروف ومكافئاً لعمل، لم يستثن الله تعالى فيه ولم يعلقه على المشيئة، قال تعالى: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم، الآية 7]، لكنه استثنى في الإغناء، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [سورة التوبة، الآية 28]، وفي الإجابة على الدعاء قال: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 41]، وفي التوبة إلى الله سبحانه بقوله: ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة التوبة، الآية 15]، وأما الشكر فقد أطلقه بغير استثناء كما مر في الآية، ولقد كان القرآن الكريم في ذلك المثل والقدرة فقد فرق بين المترادفات وفصل بينهما بما لا يكاد الفطن اللبيب يدركه أو يتجه نحوه[2].

اختيار اللفظ المؤدي إلى المعنى

القرآن يعبر عن المعنى المراد بلفظ معين، ويحرص على أن يكون هذا اللفظ بذاته هو المقصود دون غيره من الألفاظ التي يتوهم أن تقوم مقامه في أداء المعنى، أو سد مسده في الوصول إلى الغرض، وقد لا يتأتى مع اللفظ المقصود الحلية اللفظية، وهي المحسنات البديعية كالجناس والمقابلة التي تقع على الأذن موقعاً جميلاً فتعجب وتطرب، لكن الأسلوب القرآني يعرض هذا اللفظ الذي تأتي منه الحلية اللفظية، ويغفل هذه الكلمة التي

(1) ينظر: إعجاز القرآن: الخطابي، تحقيق: د. زغلول سلام، دار المعارف، 1968م: 30.
(2) ينظر: صفاء الكلمة: 63.

يتهيأ معها المحسن البديعي من أجل الغرض الأسمى والمقصود الأول وهو حسن المعنى، وقوة المضمون.

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية 17]، وقد وظف الأسلوب القرآني بـ "نورهم" بدلاً من "ضوئهم" كي يتناسق الكلام ويتجانس مع قوله: ﴿أَضَاءَتْ﴾ فإن الضوء فيه دلالة على النور وزيادة، والإضاءة هي فرط الإنارة وقد استشهدوا عليه بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ [سورة يونس، الآية 5] فجعل الله الضياء للشمس لأنها الأكبر، والنور للقمر، فكل ضوء هو نور، وليس كل نور ضياء فدلالة معنى قوله: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ إنما هو إزالة النور عنهم أصلاً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ فهو إذا أزال النور فقد أزال الضوء، وقد وظف قول ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ و لم يقل "أذهب الله نورهم" لأن كل من ذهب بشيء فقد أذهب وليس كل من أذهب شيئاً ذهب به؛ لأن الذهاب بالشيء: هو استصحاب له، ومضي به، قال تعالى في الحديث عن أخذ إخوة يوسف ليوسف: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ [سورة يوسف، الآية 15] وقوله تعالى في تنزيه عن الند والشريك: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 91] [1]، ويتبن في ذلك دقة القرآن في اختيار اللفظ المؤدي إلى المعنى بشكل مناسب.

---

(1) ينظر: المثل السائر: 210/4. ومعترك الأقران في إعجاز القرآن: السيوطي، تحقيق: علي البجاوي، القاهرة 1969م: 429/1.

المطلب الثالث: التقديم والتأخير في الأسلوب القرآني

لكل كلمة في الجملة العربية ترتيب خاص بحسب وضعها اللغوي؛ فمثلاً الفعل يتقدم على الفاعل، والفاعل يتقدم على المفعول ...، إلا أنه قد يعرض من المزايا والمقتضيات ما يدعو إلى نقل بعض الكلمات في الجملة من موضعها، فتتقدم كلمة أو تتأخر، وهذا هو التقديم والتأخير والتقديم والتأخير من شأنه أن يكسب الكلام جمالاً وتأثيراً لأنه سبيل إلى نقل المعاني من مدلولات بسيطة إلى معانٍ ودلالات أكبر وأوسع.

التقديم للاختصاص

التقديم يفيد الاختصاص، فتقدم الكلمة بأمر ما فتقديم الخبر على المبتدأ يفيد القصر، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ﴾ [سورة الحشر، الآية 2] والآية في سياق الإخبار عن يهود بني النضير عندما تحصنوا بحصونهم بالمدينة ووثقوا بمنعها إياهم من المؤمنين، فقدم الخبر ﴿مَانِعَتُهُمْ﴾ على المبتدأ ﴿حُصُونُهُمْ﴾، وفي ذلكم دلالة كبيرة على فرط اعتقادهم بمتانة هذه الحصون والضمير "هم" الذي هو اسم "إن" وإسناد المنع والحصون إليهم دلالة بالغة على تقريرهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة، فلو أخر الخبر ولم يتقدم على المبتدأ لم يعطِ شيء من هذه القواعد والأسرار، ومنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة، الآية 4]؛ فتقديم المفعول على فعل بين معنى عظيماً؛ وهو اختصاص العبادة بالله سبحانه لأنه الخالق الموحد، واختصاص الاستعانة به والتوكل عليه سبحانه، وهذه المعاني بينتها دلالة تقديم المفعول على الفاعل في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [1].

التقديم للمزية والفضل

ويوظف القرآن التقديم لقصد التفضيل، وهو تفضيل المقدم على غيره، فهو يقدم السمع على البصر، ذلك أن العلوم الحاصلة من السمع أضعاف العلوم الحاصلة من البصر؛ لأن البصر لا يدرك إلا المشاهدات، والسمع يدرك الموجودات والمعدومات، كما أن فقد السمع يوجب ثلم القلب واللسان، ففاقد السمع لا ينطق غالباً، أما فاقد البصر فربما يكون معافى بقوة البصيرة، ويستطيع الحصول على المعارف بشكل أكبر من الذي فقد السمع.

---

(1) ينظر: الطراز: 235.

تقديم الأليق بالسياق

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ۞ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً﴾ [سورة الشورى، الآيات 48-50]، فقدم الإناث على الذكور في هذه الآية مع تقديم للذكور في آيات أخرى كما في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى﴾ [سورة النجم، الآية 21]، فإنه لما ذكر آخر الآية السابقة البلاء وكفران الإنسان بنسيانه للرحمة التي منحها الله عقب ذلك بذكر ملكه ومشيئته، وذكر قسمة الأولاد فقدم الإناث على الذكور لأن سياق الكلام أنه فاعل لما يشاء، لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي هن من جملة ما لا يشاؤه الإنسان، ولا يختاره، والأهم واجب التقديم، ويلي ذكر الجنس الأنثوي الذي كانت تعده العرب بلاءً.

ولما قدم الإناث لجبر كسرهن، جبر الذكور بالتعريف؛ للإشارة إلى ما فاتهم من فضيلة التقديم؛ لأن التعريف تنويه بالذكور، كأنه قال: يهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين، ثم أعطى كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير وبين أن تقديم الإناث لم يكن لتقدمهن، ولكن لمقتضى آخر فقال: ﴿ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾[1].

(1) ينظر: المثل السائر: 233/2. وينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن: د. عبد الفتاح لاشين، مطبعة دار المعارف – القاهرة، ط2، 1978م: 219.

المطلب الرابع: لا تناقض ولا تطويل في الأسلوب القرآني

القرآن الكريم يوظف لفظاً معيناً في تعبيره، ولا يعقل أن يستعمل هذا اللفظ أو ما يؤدي معناه في عكس المعنى الأول المستعمل، وإلا حدث هناك تناقض واضح وفساد بين، لكن الأسلوب القرآني يوظف اللفظ في محله لتحقيق الهدف الذي يريد.

فإن لفظة "الود" و"المعروف" الواردتان في القرآن يظن أن بينهما تناقضاً؛ ففي قوله تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [سورة المجادلة، الآية 22] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ [سورة لقمان، الآية 15] ففي الآية الأولى ينهى الله المؤمنين عن محبة وود كل من يحادد الله ورسوله ولو كانوا أقرباءهم، "فالود" كلمة تمس شغاف القلب وتعبر عن الحب ولا يمكن أن يجتمع حب الله ورسوله، وحب من يحارب الله ورسوله بينما المعروف يفعله الإنسان بمن يحبه وبمن لا يحب، فالوالدان إن حاولا أن يمسا الإيمان في القلوب ويقسرا الإنسان على الشرك، فتعلو وشيجة العقيدة على كل وشيجة، لكن مع هذا الاختلاف البين في العقيدة والآمر بعدم إطاعتهما فلا يسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة، والصحبة الكريمة، وضمان العيش الرغيد، وهنا يتبين الفرق بين توظيف "الود" و"المعروف" في كلتا الآيتين[1].

مراعاة مستويات البشر

عرض الأسلوب القرآني العقيدة والعبادات والمعاملات بأسلوب ميسر، وهذا واضح في سياق الآيات الكريمات، وقد أكدت آيات من القرآن هذا المعنى؛ منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [سورة القمر، الآية 32]، وقد كررت هذه الآية في سورة القمر، وفائدة التكرار هنا توجيه للناس في أن "يجدوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكاراً واتعاظاً، وأن يستأنفوا تنبيهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم بالشن تارات لئلا يغلبهم السهو

(1) ينظر: معجزة القرآن: 71.

وتستولي عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكرار في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمن، الآية 12] وقد جاءت عقب كل نعمة عدها على ابن آدم"[1].

فإن تيسير القرآن للذكر هو مراعاة لمستويات البشر، فإن آيات القرآن سهلت للادكار والاتعاظ، فجاءت سياقاته حافلة بالمواعظ الشافية، وصرف فيه من الوعد والوعيد ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾؛ أي فهل من متعظ مستبصر بهذه النعم التي أنعمها الله سبحانه، وقيل: إن التيسير هو حفظ القرآن والإعانة عليه[2]. لقد جاءت آيات القرآن مبينة أن القرآن واضح المعاني والدلالات وهذا ينصب في مراعاة مستويات البشر وقدراتهم، قال تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [سورة يوسف، الآية 11]، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية 138]، وقال تعالى: ﴿الر ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [سورة الحجر، الآيتان 1-2]، وقال: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النور، الآية 1]، وهذه الآيات الكريمات تبين تيسير القرآن وآياته للناس على أعلى درجة في الوضوح والبيان[3]، وهي قد جاءت مراعية لمستويات البشر وقدراتهم.

وزيادة في الإيضاح فإن الله سبحانه أقام الحجة على العرب بأن جعل هذا القرآن ينطق بالعربية؛ فقد وظف القرآن الكريم اللفظ العربي في سياق عرض آياته وجعل لغة القرآن لغة عربية؛ لأن اللسان العربي هو أخف لسان بالنطق وأدق بالمعنى، وأجمل في التركيب والنظم، قال تعالى: ﴿آلر ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۞ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يوسف، الآيات 1-3]؛ أي "أنزلناه مجموعاً مقروءاً بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه وتستعملوا فيه عقولكم"[4]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [سورة النحل، الآية 103]، والآية تشير إلى اتهام المشركين للنبي محمد ﷺ في أنه تعلم القرآن من رجلٍ أعجمي، وقد رد القرآن عليهم وفند مزاعمهم وأقام الحجة عليهم على

---

(1) الكشاف: 40/2. وينظر الجامع لأحكام القرآن: 124/17.
(2) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 125/17.
(3) ينظر: الكشاف: 40/4. ونظم الدرر: 364/7.
(4) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 486/1. وينظر: تفسير الجلالين: 486/1.

أن القرآن نــزل بلسان عربي مبين، ولا يمكن لأعجمي أن تكون له هذه البراعــة وهــذا النظم العالي الإعجاز[1] وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سورة فصلت، الآية 44]، والآية تشير إلى علو منــزلة القرآن[2] الذي لا يمكن مناظرته، وهو شفاء للمؤمنين الذين يؤمنون به وشفاء لما في صدورهم من داء الكفر وهم يتلذذون بسماعه والتفكر في معانيه ولما فيه من لطائف المواعيد[3]، أما الذين أصموا آذانهم عنه فإنه عليهم عمى وزيــادة في كفرهم لأنه آية ظاهرة على صدق دعوة الرسول وحجة وبرهان على توحيد الله سبحانه، فزادهم كفراً إلى كفرهم وأبعدهم عن طريق الإيمان، وزادهم ظلمة فوق ظلمات الكفــر الذين هم فيها يتخبطون بغير دليل ولا نور.

إعجاز القرآن

على الرغم من استعمال القرآن للغة السهلة الميسورة اللفظ، والحفظ، وفهم المعنى إلا أنه معجزة بحد ذاته للناس كافة وللعرب خاصة، فهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان.

تحدي القرآن

إن القرآن الكريم تحدى العرب، وأثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله، وهم من يمتلــك الفصاحة والبيان، شعراً، ونثراً، وقد تحداهم في لغتهم الذين يعتبرون هم أربابها، يعرفــون أسرارها، ويفرقون بين ما هو جميل في اللغة وما بين غيره، ويدركون اللسان العربي مــن غيره، وهم خبراء في معرفة الناطق بها إن كان فصيحاً أو غير فصيح، قــال تعــالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [سورة الطور، الآيتــان 33-34]، وقد تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات: ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِــنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنــزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة هود، الآيتان 13-14] وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، قــال

(1) ينظر: المحرر الوجيز: 421/3.
(2) ينظر: نظم الدرر: 582/6.
(3) ينظر: لطائف الإشارات: 336/3.

تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة، الآيتان 23-24] وقد عجزوا عن الإجابة عن هذا التحدي، وقد تحدى القرآن الإنس والجن معاً على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وقد أثبت في نفس الوقت عدم تمكنهم وضعفهم في مجاراة القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتْ الآنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [سورة الإسراء، الآية 88]، وهذا التحدي ماضٍ إلى يوم القيامة، ويشمل كل الأوقات وهو إعجاز في حد ذاته.

وأما المقتضى الذي يدفع المتحدي إلى المنازلة، فإن الرسول ﷺ قد جاءهم بالقرآن الكريم، وفيه ما يسفه أحلامهم وعباداهم، ويسخر من عقولهم، فكانوا حريصين على الرد بأن يأتوا بمثله أو ببعضه لوجود الرغبة لديهم حتى يدحضوا حجته ويكذبوه فلا يقال: إن هذا القرآن من عند الله[1] وأما عدم وجود المانع من المباداة فهو غير موجود ويتضح من جوانب هي:

1- جانب اللغة: فإن القرآن كان بلسانهم وهم أرباب الفصاحة والبيان.

2- جانب المعنى: فالعرب يمتازون بالذكاء والخبرة، وهم أهل تجارب وممارسة.

3- جانب الزمن: نزول القرآن منجماً على مراحل، فهو لم ينزل جملة واحدة، وهو يعطي مجالاً واسعاً للمعارضة حيث نزل في ثلاث وعشرين سنة[2].

إن العرب يعلمون أن معارضة القرآن بنظم سورة أبلغ في تكذيب محمد ﷺ وأسرع في تفريق أتباعه، لكنهم أصابهم العجز عن ذلك، وهم أهل الفصاحة والبيان، وأمراء البلاغة وإنهم مصاقع الخطباء، وأساطين البلاغة في تلك الفترة؛ ولذلك سلكوا طريقاً آخر في محاربة الرسول وأتباعه عليه الصلاة والسلام في بذل النفوس والمقارعة بالرمح والسيف، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال بالحروب الضاربة ضد النبي ﷺ[3]، وتحدى القرآن الكريم ثابت قديماً حديثاً ومستقبلاً للخصوم ذوي الأفكار الخبيثة الباطلة الذين يظنون به،

---

(1) ينظر: إعجاز القرآن للباقلاني: 16.

(2) ينظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف – مصر، ط7، 1956م: 25. وينظر: في أصول الفقه على مذاهب أهل السنة والإمامية، بدر المتولي، عبد الباسط، بغداد، ط1: 129/1.

(3) ينظر: الإتقان: 255/2.

ويشككون فيه، إن هؤلاء بموقفهم يمثلون موقف المتخاذل المنهزم الذي لا حول لـــه ولا قوة، وما ذاك إلا اعتراف منهم بأن القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فما لهم إلا الاستسلام والانقياد لما فيه من الأوامر والنواهي، والإيمـــان بما جاءت به السنة النبوية المطهرة(1).

ووجوه الإعجاز في القرآن هي:

1- الوجه الأول: فصاحة ألفاظه، وبلاغة عباراته، وعجيب نظمه، فإن جميع ألفاظ القرآن فصيحة، لاتنبو عن السمع، وعباراته مطابقة لمقتضى الحال إلى أرفع مستوى مـــن البلاغة، بحسن طلاوته، ورقته، وروعته، من له أدنى ذوق باللغة العربية، وهذا واضـــح في استعاراته، وتشبيهاته، ومجازاته، ومختلف أساليبه غير أنه يتميز عن كلام العرب في أسلوبه، فهم عاجزون عن الإتيان بمثله حيث يشتمل على فصاحة فريدة، وتصريف بديع، ومعـــانٍ لها من اللطافة والجلال، والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة، ما يميزها عن كلامهـــم، وهـــو بديع في تأليفه، لا يتفاوت، ولا يتباين واللغة العربية لم يحدث لها تطور تدريجي حتى جاء القرآن، فظفر باللغة من اللهجة الجاهلية إلى لغة منظمة متناسقة ذات جمال فني راقٍ، مـــع أنه لم يستعمل ألفاظاً أجنبية عن لهجة الحجاز بل إنه أخذ ألفاظ هذه اللغة وأحدث فيهـــا انقلاباً هائلاً أصبحت من خلاله أكثر تأثيراً، وأشد سبكاً(2)، وأقدر علـــى الإيـــصال في عملية توضيح المعاني المطلوبة وهذا ما أكدته الآيات الكريمات، فإن دلالاتها تشع بـــالنور والمعاني الواضحة وتقرب بأقرب صورة.

2- الوجه الثاني: تأثيره، وسلطانه على القلوب، وأخذه بمجامع الأفئـــدة، وقارئـــه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الانكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، فإذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة والحلاوة ما تنشرح لـــه الـــصدور، وتـــشير بـــه

---

(1) ينظر: المصدر نفسه.

(2) ينظر: الظاهرة القرآنية: مالك بن بني، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر - بيروت: 232.

النفوس[1]؛ قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [سورة الزمر، الآية 33][2].

3- الوجه الثالث: أخباره في الماضي وذكره لقصص الأمم السالفة والأنبياء السابقين، قال تعالى بعد ذكر قوم نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة هود، الآية 49]، ومن أخباره عن الحاضر حديثه عن الجن والملائكة، والجنة والنار، ومن أخباره عن المستقبل حديثه عن انتصار الروم على الفرس بعد أن ظفر الفرس بالروم من قبل، قال تعالى: ﴿الم ۞ غُلِبَتْ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الروم، الآيات 1-4].

4- الوجه الرابع: ما جاء فيه من حقائق علمية مطابقة للعلم الحديث، وهي كثيرة، وإن دلت على شيء فإنها تدلل على صدق هذا القرآن وصدق دعوة النبي محمد ﷺ.

5- الوجه الخامس: معانيه وأحكامه، وانعدام الاختلاف فيه، فقد اشتملت آياته على موضوعات تخص العقائد، والأخلاق[3]، والتشريعات المتنوعة في شتى الميادين، والقرآن كتاب الله لا يطرأ عليه تغيير ولا نقصان، فقد تكفل الله بحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر، الآية 9].

أسلوب القرآن الكريم

أسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، وقد جاء القرآن الكريم كتاباً عربياً جارياً على مألوف العرب، فمن حروفهم تأليف كلماته، ومن كلماتهم تألفت تراكيبه، وعلى قواعدهم العامة في صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه، ومع هذا الإعجاز في أسلوبه واضحاً متحدياً لهم.

---

(1) ينظر: مبادئ الإسلام، أبو الأعلى المودودي، ط2، دمشق، 1957م: 47.
(2) ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، أبو الفضل عياض، المكتبة التجارية – مصر: 273/1.
(3) ينظر: الإتقان: 266/2. وأصول الدين الإسلامي: 351.

الأسلوب غير المفردات والتراكيب

إن الأسلوب هو غير المفردات والتراكيب التي يتألف منها الكلام، وإنما الطريقة التي ينتهجها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب، وهذا هو السر في أن الأساليب مختلفة باختلاف المتكلمين من ناثرين وناظمين من أن المفردات التي تستخدم واحدة وكذا التراكيب في جملتها واحدة، وقواعد صوغ المفردات وتكوين الجمل واحدة، وهنا يتضح لنا أن السر في القرآن جاء بأسلوب خارج عن معهود العرب في لغتهم من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينهما العامة، بل جاء كتاباً جارياً على مألوف العرب من هذه الناحية، ولكن المعجز والمدهش والمثير أنه مع دخوله على العرب من هذا الباب الذي عهدوه، ومع مجيئه بهذه المفردات والتراكيب التي توافروا على معرفتها وتنافسوا في حلتها، جاء القرآن ليظهر عجزهم عن الإتيان بمثله.

إن الخصائص التي تميز بها القرآن في أسلوبه جعلت له طابعاً خاصاً معجزاً في لغته وبلاغته؛ وهذه الخصائص هي:

الخاصية الأولى: سمة القرآن اللفظية وهي تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي المراد بالنظام الصوتي اتسام القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته وحدوده وغنته وهو يسترعى الاستماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي نظمٍ أو نثر حتى إن كان السامع أعجمياً لا يعرف العربية، فإنه يجد نفسه أمام لحن عجيب ووقعٍ يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقا وترنيم الشعر وهذا الجمال الصوتي في القرآن هو أول شيءٍ أحسته الآذان العربية حين نزول القرآن، ولم تكن عدت مثله في النظم العربي ومن منثور الكلام سواءٌ أكان مرسلاً أم مسجوعاً وحين يخرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة الجامعة بين اللين والشد والخشونة والرقة والجهر والخفية على وجهٍ دقيقٍ محكم تألف من المجموع قالب لفظي مدهش تتلاقى عنده جميع الأذواق على اختلافها بكل يسرٍ وسهولة.

الخاصية الثانية: إرضاؤه العامة والخاصة منهم على حدٍ سواء بالتأثير به إذا أقرئ عليهم وأحسوا بجلالته وذاقوا حلاوته، وأما الفهم فكل على استطاعته واستعداده على ما يرضي وجداهم وعقولهم لأنه استعمل التصريح والحقائق العارية المكشوفة مع وجود

التجوز والإعراب والإشارة، وعلى أية حال فإن له قبولاً لدى الخاصة والعامة؛ فالخاصة بحثوا في عمق معناه واشتغلوا في استخراج كنوزه، وقد أرضى العامة بوضوح عبارته ويسر فهمه على قدر استعدادهم، فقد راعى الأذواق والمشارب في طبقات الناس في الفهم والإدراك.

الخاصية الثالثة: إرضاؤه للعقل والعاطفة؛ فإن أسلوب القرآن خاطب العقل والقلب معاً؛ فهو يسوق استدلالاً عقلياً في معرض الكلام عن البعث والإعادة، وهو يسوق هذا الاستدلال بطريقة تهتز لها الوجدان فيمتع القلب والعاطفة؛ ومنه قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة فصلت، الآية 39] ومعاني الآية فيها لإرضاء للعقل والعاطفة من خلال سوق هذا الدليل في إحياء الأرض.

الخاصية الرابعة: جودة سبك القرآن وإحكام سرده؛ ومعنى هذا أنه سبك القرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره مبلغاً لايدانيه فيه أي كلامٍ آخر، مع طول نفسه وتنوع مقاصده، وإن التجانس والتجاذب بين جمله والتشابك والترابط الموجود فيها يوحي أن هذه الآيات متعانقة الأجزاء، فكأنما هي سبيكة واحدة على حين إنها متآلفة في حلقات، لكل حلقة منها وحدة مستقلة في نفسها ذات أجزاء، ولكل جزء وضع خاص، وإحكام سرد القرآن جعل من الأجزاء المتفرقة ذات المعاني المتنوعة وحدةً مركزيةً بديعة متآلفة، ترى من خلالها كمال الانسجام بين جزء وجزء.

الخاصية الخامسة: براعته في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام؛ ومعناه أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وطرق متعددة ومختلفة، وهذه التصاريف المتعددة تدعو إلى الدهشة والافتتان، وهو لباسٌ فضفاض من الجدة والروعة على القرآن، فلا يمل السامع ولا تنفر منه ولا يسأم من سماعه ولا يمل من قراءته، وهذا هو من فنون الإعجاز القرآني؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَ كُفُوراً﴾ [سورة الإسراء، الآية 89].

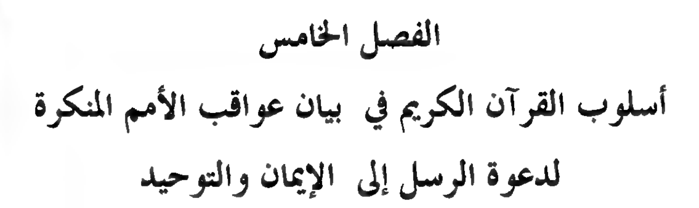
الخاصية السادسة: جمع القرآن بين المجمل والمبين مع أنهما غايتان متقلبتان ولا تجتمعان في كلامٍ واحدٍ للناس، بل كلامهم إما مجمل أو مبهم، فالكلمة إما واضحة المعنى

لا تحتاج إلى كلامٍ تفسيري، وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان، أما القرآن فقد وظف كلتا الحالتين في سياق آياته، فتأتي الآية مجملةً مع أنها مبينة واضحة المغزى وضوحاً يريح النفس من عناء التنقيب والبحث.

الخاصية السابعة: قصد القرآن باللفظ مع وفائه بالمعنى؛ ففي ألفاظ القرآن بيان قصدٍ مقدر على حاجات الناس دون أن يزيد اللفظ عن المعنى أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق، وهو على أعلى درجات الفن والصياغة في التأثير والإقناع[1].

(1) مناهل العرفان في علوم القرآن: 205/2.





الفصل الخامس

أسلوب القرآن الكريم في بيان عواقب الأمم المنكرة لدعوة الرسل إلى الإيمان والتوحيد

المبحث الأول: التشابه في وسائل الإنكار.

المبحث الثاني: التذكير بالعاقبة.

المبحث الثالث: تحقق العاقبة.

المبحث الأول
التشابه في وسائل الإنكار لدى الكفار

ويشتمل على تمهيد وأربعة مطالب:

المطلب الأول: الاستكبار وصوره.

المطلب الثاني: مظاهر آثار الاستكبار وأثرها في الناس.

المطلب الثالث: التكذيب في تحدي الرسل والأنبياء.

تمهيد

إن الشرك أكبر آفة أصابت البشرية منذ نشأتها وأخطر انحراف عن الدين الحق الذي كان عليه آدم أبو البشر عليه السلام ومن بعده وعلى فترةٍ قصيرة من الزمن، ذلك الدين هو توحيد الله سبحانه، أما الشرك فأمر طارئ محدث، تلك هي الحقيقة القاطعة التي أثبتتها النقولات الصحيحة، وأيدتها العقول السليمة و لم يكن ثمة داعٍ إلى التعرض للآراء المخالفة لقواطع الأدلة الواردة في هذه المسألة لولا أن أفكاراً سقيمة تحملها عقول مريضة هدفها النيل من أصالة هذا الدين تثليم قاعدة التوحيد وعبادة الإله الواحد، ومن هذا المنطلق فإن سعي الكفار في إنكار دعوة الرسل وردها جاء على صيغ متنوعة حاول الكفار بوسائل متشابهة رد دين الله وصد الناس عنه، وتدفعهم إلى ذلك عقول متعفنة وأنفس مريضة واستكبار على دين الله وخلقه ومصالح دنيوية فانية، وقد وظفوا كل ما من شأنه طمس معالم نور الله ودعوة الأنبياء والرسل إنه التشابه في وسائل الإنكار عند الأمم المكذبة شمل الاستكبار، وهذا الاستكبار أخذ صوراً متعددة منها "دفع الحق والالتفاف عليه، و انتهاك الحرمات، والاستعلاء على الناس واحتقارهم والاعتداء على الناس، والفخر والمباهاة، والتوسع في العمران للعبث والمباهاة".

ومن وسائل الإنكار الأخرى التي استخدمها الكافرون من الأمم السابقة هو التكذيب وشمل تكذيب الرسل عليهم السلام، وصور التكذيب هذه جاءت على صيغ متنوعة منها "الاتهام بالكذب الصريح، والاتهام بما يقتضي الكذب من خلال رمي الأنبياء بالضلال والسفاهة والسحر والجنون، وأيضاً التصريح بالكفر بدعوة الرسل وإبداء الشك بإنزال العذاب والتكذيب بالبعث والنشور"، ومن وسائل الإنكار الأخرى التي انتهجها المشركون في رد دعوة الله هو الاستهزاء، والذي شمل "الاستهزاء بالرسل عليهم السلام والاستهزاء باتباع الرسل كون أن معظم أتباعهم من الضعفاء".

ومن وسائل الإنكار الأخرى هي "إيذاء الرسل وأتباعهم وشمل التهديد لهم بالقتل والتهديد بالرجم والتهديد بالنفي فضلاً عن السب والشتم وتقليل شأنهم وتحقيرهم والتضييق عليهم، وقد يمتد بهم الأمر زيادةً في كفر الظالمين وخوفهم على فقدان الجاه والمنافع الدنيوية إلى إبادة المؤمنين ودفن دعوتهم معهم، فضلاً عن انتهاك حرمات الله وعدم الامتناع عن فعل أي شيءٍ قبيحٍ في هدفهم في رد دعوة الرسل والقضاء على مرتكزات دعوة الرسل والقضاء على مرتكزات التوحيد والإله الواحد.

المطلب الأول: الاستكبار وصوره

صيغة استفعال دالة على الطلب، قال الآلوسي: "الاستكبار طلب الكبر من غير استحقاق، والتفاتة الآلوسي هذه جميلة، فإن الاستكبار لا يذكر إلا للذم؛ ولذلك ورد في أسماء الله تعالى المتكبر" في قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [سورة الحشر، الآية 23] ولم يرد "المستكبر" لأنه طلب الشيء بغير استحقاق، والله سبحانه وتعالى وهو وحده المستحق لهذه الصفة، فكل من طلبها من الخلق كان طالباً لما لا ينبغي له، فيكون متعدياً مستحقاً للذم والعقاب، وقد قال الرسول في تحديد هذا المفهوم: "الكبر مَنْ بَطِرَ الحق، وغَمَطَ الناس"[1] وكثيراً ما يرد في القرآن وصف الاستكبار بأنه استكبار بغير حق وقد يفهم من ذلك أنه تخصيص لبعض أنواع الاستكبار لكونها بغير حق مما يشعر بوجود استكبارٍ بحق وقد ذكرنا أن هذه الصيغة لا تأتي إلا للذم وقد أجاب ابن عاشور في تفسيره على هذا الإشكال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [سورة القصص، الآية 39] فقال قوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ حال لازمة لعاملها إذ لا يكون الاستكبار إلا بغير الحق[2] فيكون قوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ زيادة بيان للمعنى الذي دل عليه لفظ الاستكبار، أما صور الاستكبار والتي انتهجها الكافرون كوسائل في إنكار دعوة الرسل هي:

أولاً: التكبر على الله سبحانه بالترفع عن عبادته وعن الإذعان لأوامره ونواهيه، وهذا أشنع أنواع الكبر، ويمثله كبر فرعون الذي ادعى الربوبية واستنكف أن يكون عبداً لله جلّ وعلا؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ [سورة النساء، الآية 171].

ثانياً: التكبر على الرسل من جهة الترفع عن الانقياد للبشر مع معرفة صحة ما جاؤوا به كحال عامة الأمم المكذبة للرسل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [سورة القمر، الآية 24]، وقوله تعالى: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [سورة التغابن، الآية 6].

---

(1) انفرد به أبو داود في كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، رقم الحديث (3569).
(2) ينظر التحرير والتنوير: 124/2.

ثالثاً: التكبر على سائر الخلق باستعظام نفسه، واحتقار الناس والترفع عليهم، والإباء عن الانقياد لهم ولو كانوا على حق؛ مثل قول قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [سورة هود، الآية 27].

رابعاً: العلو؛ وهو من معاني الاستكبار، وقد ورد في عدة مواضع فعلاً وصفة ومصدراً؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة القصص، الآية 4] وقوله: ﴿عَلاَ﴾ أي استكبر وتجبر وتعظم وبطر(1)، وجاء في لسان العرب " يقال: علا في الأرض إذا استكبر وطغى"(2) أما المصدر ففي قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل، الآية 14] أي تعظماً واستكباراً.

خامساً: العتو؛ وهو الاستكبار ومجاوزة الحد، وقد وردت في عدة مواضع؛ منها في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ [سورة الطلاق، الآية 8] قال ابن كثير: "أي تمردت وطغت واستكبرت عن أتباع أمر الله ومتابعة رسله"(3) وقوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ۞ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الذاريات، الآيتان 43-44] أي "تكبروا عن أمر ربهم وعلوا استكباراً عن طاعة الله"(4).

سادساً: الطغيان؛ وهو أيضاً من وسائل الإنكار التي اتبعها الكافرون في رد دعوة الرسل، وأصله مجاوزة الحد في العصيان؛ وقد ورد في عدة آيات منها؛ قوله تعالى في الحديث عن قوم نوح: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [سورة النجم، الآية 52] وقوله تعالى عن فرعون: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [سورة النازعات، الآية 17] قال الطبري في معنى الطغيان في الآية: "عتا وتجاوز حده في العدوان والتكبر على ربه"(5).

---

(1) ينظر تفسير ابن كثير: 391/3.
(2) ينظر الطبري: 151/4.
(3) تفسير ابن كثير: 410/4.
(4) جامع البيان: 5/27.
(5) جامع البيان: 39/20.

سابعاً: البغي؛ وهو من وسائل الإنكار التي اتبعها الكافرون في رد دعوة الرسل وقد ورد في قصة قارون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [سورة القصص، الآية 76] قال الطبري في بيان معنى البغي في الآية: "أي أنه تجاوز حده في الكبر والتجبر عليهم"[1]. لقد بين الأسلوب القرآني في عرضه لعقيدة التوحيد وبناء المشروع العقائدي خطورة صفة التكبر، فإن الكبر خلق ذميم وكبيرة من كبائر الذنوب يقود التكبر نفسه إلى سوء العاقبة واستحقاق من العذاب في الآخرة وقد حفل القرآن بآيات تدل على ذمه وبيان خطورته كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر، الآية 60] وقد قال الرسول ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"[2]، وهذان النصان في الوعيد الأخروي؛ أما الدنيا فيكفي في بيان عقوبة الكبر ما ورد من النصوص على كونه سبباً في هلاك كثير من الأمم السالفة وأشد آثار الكبر ضرراً لصاحبه أنه يمنعه عن اتباع الحق والانقياد بعد معرفته فيحرم الهداية وينقاد للباطل بسبب كبره وعناده ولذا كان كفر أغلب الأمم بسبب الإباء والاستكبار فإنهم قد عرفوا صدق الرسل وصدق ما جاؤوا به لكنهم لم يؤمنوا بل تكبروا واستنكفوا عن اتباع بشرٍ مثلهم.

وقد جعل ابن القيم رحمه الله هذا الكفر من أنواع الكفر الخمسة فقال: "وأما الكفر الأكبر فخمسة أنواع: كفر تكذيب وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر شقاق"[3]، ثم قال: وأما كفر الإباء والاستكبار فنحو كفر إبليس، ومن هذا الكفر كفر من عرف صدق الرسول وأنه جاء بالحق من عند الله و لم ينقد له إباءً واستكباراً وهو الغالب على كفر أعداء الرسل والكبر كما ذكر ابن تيمية أنه أحد نقيضي التوحيد؛ فقد قال: "لا إله إلا الله وحده له ضدان: الكبر والشرك، فإن المستكبر عن عبادة الله لا يعبده ولا يكون مستسلماً له والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركاً به فلا يكون سالماً به بل يكون له فيه شرك"[4].

---

(1) جامع البيان: 106/20.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود في كتاب الإيمان رقم " 149".

(3) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، 1392هـ: 337/1.

(4) مجموع الفتاوى: 623/7.

بل إن الشيخ جعل الكبر شراً من الشرك كما نقله عنه تلميذه ابن القيم رحمه الله قال: "وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: التكبر شر من الشرك؛ فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمشرك يعبد الله وغيره"[1]؛ وبيان هذا الكلام أن التكبر آفة خطيرة جداً تؤدي بصاحبها إلى الهلاك والخسران، ويصبح حال حاملها كحال فرعون الذي استنكف أن يكون عبداً لله فادعى الربوبية ودعا إلى عبادة نفسه، إن إصرار أغلب الأمم على استنكار بشرية الرسل إنما هو نابع من التكبر والترفع عن الانقياد لرسول يشترك معهم في الصفات البشرية؛ قال تعالى عن قوم صالح: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ۝ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآيتان 33-34].

قال ابن كثير: "وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم واستنكفوا عن اتباع رسول بشري"[2] والحقيقة أن هذه المقالة وردت عن أغلب الأمم المكذبة التي وقفت ضد دعوة التوحيد ووضعت العراقيل والمعوقات أمام هذه الدعوة من خلال التصدي لأنبياء الله ورسله، وتجنيد كل ما من شأنه الوقوف ضد نور الإيمان، و لم يكن ما حشدوه سوى غرابيل لا تقف ولا تقوى على صد خيوط شمس الإيمان التي اخترقت تلك الغرابيل واخترقت حتى عقولهم وقلوبهم.

من هذا يتبين أن هذه الصفة الذميمة صفة التكبر كانت من الوسائل التي استخدمها الكفار في رد دعوة الرسل، وهذا الاستكبار يترتب عليه استنكاف عن عبادة الله ودفع للحق وانقياد لما زينه الشيطان من الباطل، وقد وردت آيات قرآنية تتحدث عن هذه الآفة الضارة التي أصابت الأمم السالفة والتي كانت سبباً في هلاكهم واستئصالهم؛ ومن هذه الآيات قوله تعالى في الحديث عن قوم نوح بعد أن دعاهم إلى عبادة الله وترك ما يعبدون من دونه: ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ [سورة نوح، الآية 7]، وقد تناول سياق الآيات بعدها الحديث عن شنائعهم وأفعالهم المنكرة؛ قال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً﴾ [سورة نوح، الآية 25]، ومن هذه

(1) ينظر: مدارج السالكين: 332/2.
(2) تفسير ابن كثير: 255/3.

الخطايا التي وقع عليهم العذاب بسببها الاستكبار؛ ومنها قوله تعالى في الحديث عن قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [سورة فصلت، الآيتان 15-16]، وقوله تعالى في الحديث عن قوم ثمود: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ۞ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [سورة الذاريات، الآيتان 43-44]، وقوله تعالى في الحديث عن فرعون وقومه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ۞ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ۞ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [سورة المؤمنون، الآيات 45-48].

وفي موضع آخر قرن السياق القرآني بين قارون وفرعون وهامان في التشابه في وسائل الإنكار في مسألة التكبر؛ قال تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 39]، وقال تعالى في الحديث عن أصحاب السبت وتكبرهم عن المثول لأمر الله في عدم الصيد: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 166].

ومما ورد تتضح معالم وسيلة الاستكبار التي وظفتها الأمم السالفة في رد دعوة الله والوقوف ضد رسله وصد الناس عنهم، تدفعهم بذلك غطرسة وتجبر وأهواء ومصالح دنيوية زائلة، والكبر إذا ما استقر في الأنفس وتمكن من القلوب والعقول لابد أن يظهر أثره على الإنسان في صورة أعمال يقوم بها المستكبر بفعل طبيعة هذه الصفة التي تدفع صاحبها إلى التخلف بأخلاق سيئة، وهذه المظاهر تتفاوت في القبح بحسب تمكن صفة الكبر من المستكبر وبحسب مقدرته على فعل ما يفعله به الكبر.

المطلب الثاني: مظاهر آثار الاستكبار وأثرها على الناس

والمتطلع في سياق الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأمم السالفة والأقوام المكذبة وحتى الشخصيات الفردية يجد بعض هذه المظاهر الذي هو نتيجة حتمية عن الاستكبار فيهم؛ وهي تختلف وتتفاوت في عددها من أمة إلى أخرى ولكنها كانت طامةً عليهم وأقنعةً سدت وجوه شمس الإيمان عن قلوبهم؛ وهذه المظاهر هي:

دفع الحق: إن دفع الحق والوقوف ضده هو أحد آثار الكبر والمستكبر يبتلى دوماً بدفع الحق والترفع عن الانقياد له، وقد يكون ذلك الحق المدفوع توحيد الله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله، أو الإيمان بملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

فإن الأقوام التي ترفعت عن توحيد الله سبحانه وأنكرت تفرده بالعبادة تكبراً واستنكافاً وأبوا أن يتركوا ما درجوا عليه من عبادة الأصنام، وقد حفلت الآيات القرآنية في الحديث عن الأقوام المكذبة على هذا النحو؛ منها قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ [سورة نوح، الآية 23]، وقال تعالى في الحديث عن عاد: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [سورة الأعراف، الآية 70]، وقال تعالى في الحديث عن ثمود: ﴿قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [سورة هود، الآية 62]، وقال تعالى في الحديث عن مدين: ﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [سورة هود، الآية 87]، وهذه طريقة واحدة، وهي وسيلة متبعة متشابهة في إنكار دعوة الرسل والوقوف ضد توحيد الله سبحانه، وقد توارثها المشركون وتلقوها خلفاً عن سلف؛ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [سورة الذاريات، الآيتان 52-53].

أما فرعون وقومه فما ورد في حقهم أشدُّ شنعاً فهم استنكفوا عن الإقرار بوجود الله من الأساس، وأشركوا فرعون مع الله في مقام الربوبية والألوهية وذلك لفرط استكبارهم وعلوهم، فكان جرمهم أشنع وكانت مقولتهم في رد دعوة موسى مشابهة لأسلافهم من الأمم المكذبة، قال تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس، الآية 78]، وقد بينت الآيات القرآنية في[1] سياقات متنوعة عن سبب تمسكهم بما كان عليه آباؤهم من الشرك وعدم إيمانهم بنبوة موسى وهارون، ويعود السبب إلى الكبر فهم يخافون أن تذهب عنهم العظمة والسلطان والملك وتستقر عند موسى وقومه إذا هم آمنوا به ففضل فرعون وقومه اتباع الباطل على اتباع الإيمان بالله سبحانه[2] وتعالى وتوحيده وعبادته إلى ذلك تكبرهم وكبريائهم وغطرستهم.

وقد حفلت الآيات القرآنية بصور متنوعة لدفع الحق من خلال الترفع عن الإيمان بالرسل لكونهم بشراً، وقد وظف الأسلوب القرآني في عرضه لعقيدة التوحيد هذه المعاني في سياقات وأنساق الآيات القرآنية من خلال الإشارة إلى هذه الآفة التي اتخذها الكافرون وسيلة لرد دعوة الرسل، وقد كانت هذه الوسيلة صورةً متشابهةً لدى مشركي الأمم السالفة، والملاحظ أن هناك تناقضاً في مسالك هؤلاء الكافرين، فإنهم يترفعون عن اتباع الرسل لكونهم بشراً مثلهم -والمعروف أن الرسل الذين خصهم الله بالرسالة واجتباهم هم أكمل الناس خلقاً باعتراف أعدائهم- ومع هذا فإنهم ينقادون لزعمائهم وساداتهم ويتبعونهم فيما يشرعون لهم من عبادة غير الله والصد عنه وعدم الإيمان به، يدفعهم بذلك الكبر واتباع للهوى الذي أعمى قلوبهم وأنزل الستار على بصائرهم فانقلبت عندهم الأمور وأصبحوا يرون الحق باطلاً والباطل حقاً، وقد قادهم هذا الكبر إلى التكذيب والجحود بآيات الله، وهذه الآيات التي من شأنها أن تنير طريقهم وتبصرهم بالخير إلا أنها بسبب تكبرهم لم تفدهم شيئاً وما استناروا بها، وقد شاء الله أن يضلهم ويعمي أبصارهم؛ قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 146].

والمتطلع في الآيات القرآنية في هذا المجال يلحظ أن الأسلوب القرآني يفرق في معظم آياته بين الجحود والإنكار، فسبحانه لما ذكر استكبار عاد ختم الآية بقوله: ﴿بِآيَاتِنَا

(1) ينظر: الكشاف: 247/2.
(2) ينظر: جامع البيان: 136/7.

يَجْحَدُونَ﴾ [سورة فصلت، الآية 15]، وفي موضع آخر لما ذكر اتباعهم الجبابرة المستكبرين استهل الآية بقوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [سورة هود، الآية 59]، ومثله ما ورد في الإخبار عن فرعون وقومه الذين جحدوا بآيات الله بسبب ظلمهم وعلوهم مع يقينهم بصدق نبوة موسى وهارون قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل، الآيتان 13-14].

انتهاك الحرمات: قال تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالآثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [سورة البقرة، الآيات 204-206]، وهذه الآيات الكريمة تشير في دلالة مضمونها إلى أن المستكبر عندما يبتلى بالنهي عن أمرٍ معين تأخذه العزة بالإثم، فتدفعه إلى انتهاك النواهي والمحرمات ليثبت علو مرتبته وأنفته وعدم خضوعه لأمرٍ يعتقد في عقله أنه يحط من كبريائه(1). إن هذه الصورة للمستكبر الذي ينتهك المحرمات مثلتها ثمود، فإن ثمود قد أعطاهم الله الناقة آية دالة على صدق رسالة النبي صالح عليه السلام، وكان قد نهاهم عن مسها بسوء حتى لا يحل عليهم غضب الله، وهم لم يؤمنوا بهذه الآية بل كذبوا وعاندوا وكابروا، وزادوا على ذلك أن ثارت ثائرتهم وبلغ انتهاكهم للمحرمات مبلغه بسبب كبرهم فاستعظموا أن يكون هناك تفضيل لناقة صالح على نوقهم فأخذوا في انتهاك حرمة(2) هذا النهي، وعقروا الناقة عتواً واستكباراً قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝ وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [سورة الشمس، الآيات 11-15].

الاستعلاء على الناس واحتقارهم: وهي من مظاهر الكبر أيضاً؛ فإن نفس المستكبر المريضة تستعلي على الناس وتزدريهم وتظهر في قرارة قلبها المظلمة أنها فوقهم فضلاً

---

(1) ينظر: الكشاف: 352/1.
(2) ينظر: الكشاف: 259/4.

ومكاناً، وقد بين الأسلوب القرآني هذه الآفة التي كانت ملتصقة في الأمم السالفة، فإن كفار هذه الأمم كانوا يستعلون على الرسل وأتباعهم المؤمنين، ويحتقرونهم فضلاً عن ضرهم وجهلهم، وهذا ما مثله موقف أهل مدين في تعاملهم مع نبيهم شعيب عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [سورة هود، الآية 91]، ودلالة معنى الآية تشير إلى أن هؤلاء الكافرين يرون أن النبي شعيباً ضعيف مهين لا قوة له ولا قدرة لديه على أن يمنع نفسه منهم[1].

ودلالة مقتضى الآية تبين أن أهل مدين على وصف كلامهم لشعيب بالضعف هم الأقوياء الأشداء، وقد بينوا أن لا شيء يمنعهم من التنكيل بشعيب بالرجم إلا مراعاتهم لرهطه الذين ما زالوا على دينهم، وقد بين القرآن صورة ازدرائهم لشعيب بقوله تعالى على لسانهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ وقد أشار الأسلوب القرآني لمثل هذا الاستعلاء من خلال الحديث عن فرعون الذي جعل نفسه خيراً من موسى بعد أن أخبر عن تفاخر فرعون بملكه وسلطانه؛ قال تعالى على لسانه: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ [سورة الزخرف، الآية 52]، وقد خرج معنى الاستفهام في الآية إلى الإنكار والتعجب؛ أي أن فرعون أراد أن يخبر قومه أنه خير من موسى عليه السلام وقد وصف موسى بأنه ﴿مَهِينٌ﴾؛ أي حقير لا ملك له ولا سلطان ولا مال[2] ووصفه أيضاً بقوله ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ أي لا يكاد يفصح عن كلامه؛ فهو يعيب موسى بعدم الفصاحة والعي في لسانه.

ولا عجب أن يتخذ هؤلاء الكافرون موقفاً متشدداً مع أتباع الرسل من المؤمنين بل هو أولى وأجدر، وقد وظف الأسلوب القرآني هذه المعاني في دلالة آياته الكريمة؛ منها قوله تعالى على لسان قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [سورة هود، الآية 27]؛ أي الذين هم سفلتنا من الناس دون الكبراء والأشراف وقد استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فكان الأشراف عندهم من له جاه ومال[3]، وقد لوحوا لإخراج شعيب ومن

(1) ينظر: المصدر نفسه: 290/2.

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: 140/4.

(3) ينظر: الكشاف: 265/2.

تبعه من المؤمنين يدفعهم بذلك استكبارهم واستعلاؤهم، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [سورة الأعراف، الآية 88]، ودلالة معاني الآية تشير إلى أن تهديدهم لشعيب ومن آمن معه ما جاء إلا لاعتقادهم بأنهم هم الأعلون وأهل التصرف والرأي في شأن القرية، وأن ما يقولونه هو المعتمد، أما شعيب وأتباعه فهم لا رأي لهم؛ فهم ضعفاء وأذلاء، وأما فرعون وقومه فقد احتازوا غيرهم من الكفار في الاستعلاء على الناس واحتقارهم، وقد كانوا في كل مناسبة يصرون على تأكيد علو مرتبتهم على بني إسرائيل كما أخبر سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 127]؛ أي أنهم عالون عليهم[1] ومتسلطون فوقهم، وفي موضع آخر قال: ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 47]؛ أي مطيعون منذلون يأتمرون بأمرنا ونفعل بهم ما نشاء، وليس لهم أن يخرجوا عن طاعتنا[2]، فإن كلام فرعون وقومه في تحقير بني إسرائيل وإذلالهم نابع من غطرسة وتكبر ونفسٍ عفنة متباهية في الاستعلاء على الناس.

الاعتداء على الناس: والاعتداء على الناس هو أحد مظاهر الاستكبار؛ فإن المستكبر يتمنى من قوة ومنعة في رد دعوة الرسل، وقد جعل منها وسيلةً في صد الناس عن توحيد الله، وقد ورد في سياق الآية القرآنية ومن خلال توظيف الأسلوب القرآني لهذه المعاني في الإخبار عن فرعون الذين وجد فيهما صورة الاعتداء على الناس بشكل ظاهر، فأما عاد فقد قال الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [سورة الأعراف، الآية 69]، فدلالة معاني الآية تشير إلى أن الله سبحانه قد أعطى قوم عاد قوةً ومنعة[3]، وقد زادهم في أجسامهم طولاً وضخامةً في الأجسام، وهم لم يوظفوا هذا في طاعة الله بل استخدموا في الاستكبار على الناس والتعدي عليهم كما أخبر سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية 130].

(1) ينظر: المصدر نفسه: 105/2.
(2) ينظر: المحرر الوجيز: 144/4.
(3) ينظر: المصدر نفسه: 105/2.

أما قوم فرعون فإنهم قد جاوزوا الحد في اعتدائهم على بني إسرائيل؛ فقد كانوا يسومونهم العذاب يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم ويهينونهم في أرذل الأعمال وأخسها، وقد وصف الأسلوب القرآني فرعون وصفاً يدل على شدة بطشه وقساوته؛ قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [سورة الفجر، الآية 10]، "وقد سمي ذلك لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا أنزلوا، أو لتعذيبه بالأوتاد كما فعل بماشطة بنته وآسيا"[1].

وعلى أية حال فإن المتكبر تلتصق فيه صفات ذميمة وكثيرة هي منها الفخر والمباهاة وتشمل الفخر والقوة كما قال تعالى على لسان قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [سورة فصلت، الآية 15]، ومنه أيضاً الفخر بالملك والسلطان كما جرى لفرعون؛ قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الزخرف، الآية 51]، ومنه أيضاً الفخر بالمال كما في ابتلاء قارون الذي أعطاه الله سبحانه أموالاً ضخمةً تفاخر وتباهى بها وتعالى بها على قومه واستحقرهم ظاناً أنه ماله سيخلده ويقيه عذاب الله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [سورة القصص، الآية 76].

وقد كان ماله وسيلة في صد دعوة موسى والوقوف ضد دعوة الإيمان، ولكن الله عاقبه وعذبه وخسف به الأرض هو ومن ظاهره[2]، ومنه أيضاً التوسع في العمران عبثاً ومباهاةً وهو مطلب الذين يرجونه الدنيا بطراً وحباً في البقاء، وقد اشتهر قوم عاد وثمود بفنون البناء والعمارة؛ قال تعالى في الحديث عن قوم عاد: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآيتان 128-129]، وفي الحديث عن قوم ثمود قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً﴾ [سورة الأعراف، الآية

(1) الكشاف: 250/4.
(2) ينظر: الكشاف: 193/3.

74]، وقد جعلوها من وسائلهم في رد دعوة الرسل والوقوف ضد دعوة التوحيد، وقــد دمر الله عليهم مساكنهم وقصورهم لكفرهم وجحودهم بآيات الله.

المطلب الثالث: التكذيب في تحدي الرسل والأنبياء

من الوسائل التي استخدمها الكافرون في رد دعوة الرسل وطمر دعوة توحيد الله سبحانه، وقد وردت آيات كثيرة في الحديث عن هذا المعنى؛ منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 44]، ودلالة معاني هذه الآية الكريمة تشير إشارةً عامة إلى جميع الأمم المكذبة، وقد وقع التكذيب من هذه الأمم على رسلها نتيجة لما كانت تحمله نفوسهم من أمراضٍ نفسية دنيوية دفعتهم إلى تكذيب الرسل وتكذيب ما جاؤوا به من أدلة وبراهين تشير إلى صدقهم وكونهم مرسلين من الله سبحانه.

وقد وظف الأسلوب القرآني هذه المعاني في سياق آياته، وقد كانت تسلية للنبي ﷺ واطمئناناً له على ما يلاقيه في دعوته وأن ما يصيبه من صد ودفع للحق الذي جاء به إنما هو سنة متبعة لدى الأمم الكافرة؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۞ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سورة الحج، الآيات 42-44]، ودلالة معاني الآية تشير إلى ذكر الأمم المكذبة: قوم نوح، وعاد وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وقوم فرعون، ولم يذكر فرعون في الآية وذكر موسى لأنه الرسول الذي أرسل إلى فرعون [1]. وقد اتخذ تكذيب الرسل صوراً متعددة منها:

اتهام الرسل بالكذب الصريح

وقد تحدثت آيات القرآن عن بعضٍ من هذه الاتهامات، وقد رمى الكافرون رسلهم بالكذب دون خجلٍ ولا تلميح؛ قال تعالى على لسان قوم نوح: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [سورة هود، الآية 27]، وقال تعالى على لسان قوم عاد في خطابهم لنبيهم هود: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 66]، وقال تعالى على لسان فرعون حين كان يصف موسى: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة القصص،

---

(1) ينظر: الكشاف: 16/3.

الآية 38]، وهذه المعاني التي حملتها الآيات القرآنية تبين كيف رمى هؤلاء الكافرون رسلهم بالكذب الصريح، وقد كان تكذيب الرسل إحدى الوسائل التي استخدمها الكافرون في الوقوف ضد دعوة التوحيد.

ولم يكتف الكافرون برمي رسلهم بالكذب، بل اتهموهم اتهامات أخرى؛ منها رميهم بالضلال كما قال تعالى على لسان قوم نوح: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية 60]، ومن الاتهامات الأخرى رميهم بالسفاهة؛ من ذلك قوله تعالى على لسان قوم هود: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية 66]، ومن الاتهامات الأخرى اتهامهم بالسحر والجنون؛ وهذا الاتهام كان سنةً متبعةً عند الأمم المكذبة[1] كلها كما قال تعالى ذلك عنهم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [سورة الذاريات، الآية 52].

التصريح بالكفر وإبداء الشك بدعوة الرسل

وقد وردت هذه المعاني في سياق الآيات القرآنية التي تحدثت عن موقف الكافرين من دعوة الرسل، وقد كان تصريحهم بالكفر وإبداء الشك فيما جاءت به الرسل من الوسائل التي انتهجها الكافرون في الوقوف ضد دعوة التوحيد؛ فمما جاء في معنى الكفر قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سورة سبأ، الآية 34]، ومما جاء في معنى إبداء الشك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [سورة إبراهيم، الآية 9]، ويعد أسلوب التشكيك من الأساليب الخبيثة التي استخدمها الكافرون في رد دعوة الرسل من خلال خلق معضلة فكرية في نفوس الناس لإبداء الشك في ما هو موجود من فكر في تلك الفترة والتي تؤدي إلى خروج نتائج مختلفة متباينة لأنها تكون مبنية على مرتكزات عشوائية فتؤدي بدلالة الاقتضاء إلى نتائج عشوائية.

---

(1) ينظر: الكشاف: 20/4.

عدم اتباع الأوامر والنواهي

وهو من الوسائل التي استخدمها الكافرون في إنكار وجحود دعوة الرسل عن طريق الخروج عن ما أمروا به من واجبات وأحكام، وقد جاءت آيات قرآنية تحمل في سياق معانيها هذه الإخبار عن تصرفات هؤلاء الكافرين في عدم استجابتهم لأمر الرسل؛ منه قوله تعالى على لسان نوح حين رفض قومه اتباع أوامره[1] قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً﴾ [سورة نوح، الآية 21]، فإن هؤلاء الكافرين أطاعوا رؤساءهم وساداتهم ولم يطيعوا أمر الله الذي بلغهم إياه نبيهم نوح؛ منه قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [سورة هود، الآية 59]، وعصيانهم لم يكن متصلاً على عدم الطاعة فقط بل امتد ذلك إلى التلويح والفعل الصريح بعدم امتثال ما أمر به الرسل أو اجتناب ما نهوا عنه كما مثله موقف قوم هود الذين قالوا لنبيهم:﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة هود، الآية 53].

تحدي الرسل بنزول العذاب

وتحدي الرسل بنزول العذاب من أسفه أفعال الكافرين وأغباها؛ إذ ليس من الحكمة والعقل تحدي الخالق العظيم، وقد حسبوا أن الله يتصدى لتحديهم هذا، وقد بين الأسلوب القرآني في سياق آياته أن الرسل عملوا على تخويف أقوامهم مما قد يحصل لهم عند نزول عذاب الله إذا ما أصروا على كفرهم وتكذيبهم والعجيب أن هذا التخويف والترهيب لم يزد المكذبين إلا إصراراً على شركهم وتكذيبهم، وذلك ما جعلهم يستعجلون عذاب الله سبحانه، قال تعالى على لسان قوم نوح: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة هود، الآية 32]، وقد شابه مقولتهم هذه مقولة هود لنبيهم صالح؛ قال تعالى: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 77]، ومنه قول قوم لوط: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 29]؛ وقد تسربت هذه المقولة إلى مشركي مكة الذين تحدوا نزول

---

(1) ينظر: المصدر نفسه: 165/4.

العذاب؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة المائدة، الآية 31) وهذه المقولة تدين الكافرين من عهد نوح إلى مشركي هذه الأمة.

مما سبق يتبين أن المشركين وظفوا كل الوسائل الممكنة في إنكار رسالة الرسل وصد دعوة التوحيد و لم يتوانوا عن فعل أي قبيح أو أمرٍ مستهجن في إنجاح ما كانوا يسعون إليه من دفع ضد الحق وتعطيل عجلة الرسالة وصد الناس عن دين الله؛ تدفعهم لفعل ذلك أنفس مريضةٌ متعفنة مبنية على الاستكبار والكبر والأنفة والتعالي على الناس واحتقارهم والنظر إليهم نظرة دونية، وقد عرض الأسلوب القرآني هذه المعاني في سياق آياته في مخاطبته للناس للترفع عن مثل هذه الصفات الخبيثة والوسائل الضعيفة في الوقوف ضد دعوة الله؛ ذلك أن دعوة الله سبحانه سائرة بأمر الله، وأن لا أحد يستطيع أن يقف ضدها كي تطمئن التقوى والعقول لما جاءت به الرسل من عند ربها فتستجيب لها نفوس المؤمنين، وهو هدف القرآن الكريم الذي يسعى إليه.

المبحث الثاني: التذكير بالعاقبة

ويشتمل على تمهيد وستة مطالب:

المطلب الأول: قوم نوح عليه السلام.

المطلب الثاني: قوم هود عليه السلام.

المطلب الثالث: قوم ثمود عليه السلام.

المطلب الرابع: قوم لوط عليه السلام.

المطلب الخامس: قوم فرعون.

المطلب السادس: كفار مكة.

تمهيد

من الطبيعي أن تقوم إزاء كل دعوة جديدة، وتغيير شامل في العادات والنظم والمقاييس اتجاهات وأيدلوجيات مضادة لها متضاربة معها، والناس فيها ما بين مؤمن بها وجاحد، ومن هنا نشأ أمام كل مبدأ: الإيمان به أو الكفر إيجاباً وسلباً أو التذبذب بين الحالتين، والقرآن الكريم قد وضع أمام كل إنسان صور هذه الاتجاهات والأيدلوجيات والمواقف، وبين حالها والعاقبة التي تؤول إليها وتنتهي وبين مميزاتها وخصائصها، وهذا الاهتمام القرآني يفسر لنا هدف القرآن في الإشارة إلى عواقب الأمم والشعوب وحتى الشخصيات الفردية والتركيز عليها في مهمته لإقامة المشروع العقائدي وتصحيح العقيدة والبراءة من كل ما يعبد من دون الله سبحانه، فالقرآن يخلص في مقام التبشير ومن العاقبة إلى كشف القيم ورصد المثل العليا التي تخلق نموذجاً رائعاً للإنسان الصالح أو يرمي إلى تحديد الطريق في التخلص من العناصر الفاسدة أو يدمج بينهما في التحذير من الفئات المترددة التي لا تقر مبدأً، ولا تنتهج هدفاً، وقد ذكرنا فيما سبق عند الحديث عن الأساليب القرآنية التي وظفت لعرض عقيدة التوحيد والدعوة للإيمان بالله الواحد الأحد، وكيف جعل منها القرآن شخوصاً حيةً تدفع الإنسان إلى التفكر والتدبر في معاني ودلالات ما فيها، وما حوته من أهداف ومقاصد، ونقف هنا للحديث عن أسلوب آخر وظفه القرآن في عرضه لعقيدة التوحيد، وهذا الأسلوب هو أسلوب التذكير بالعاقبة.

فإن القرآن الكريم كشف في سور عديدة منه عن سيرة الإنسان في درب حياته الطويل، وبين ما حاق به من فنون العذاب، وضروب الهلاك والدمار؛ وذلك لتجبره واستكباره وعناده للرسل، وقد وردت هذه الأخبار مبثوثة في قصص الأمم الغابرة، والهدف منها العظة والعبرة، وإقامة الدليل، وإظهار قدرة الله[1] وهيمنته على الوجود منذ بدء الخليقة إلى منتهاها، لقد دأب الأسلوب القرآني على التذكير بعواقب الأمم وما حل بها، وقد تنوع الأسلوب القرآني في الإخبار عن هؤلاء الأقوام الذين سبقوا بعثة النبي ﷺ، وهذا الإخبار يكون موجزاً مرةً ومتسعاً مرة أخرى، وتناول في أخباره ووصفه أقواماً بعينها، وبين ما حل بها وما أصابها من نوازل تارة، ثم تناول أقواماً آخرين فوصفهم وصفاً عاماً يومىء إلى أخذهم وإفنائهم تارة أخرى، وقد تنوعت صور هلاك هذه الأمم المكذبة لدعوة الرسل كما أخبر سبحانه وتعالى عن ذلك بعد ذكر الأقوام المكذبة من قوم نوح عليه السلام وقوم إبراهيم

(1) ينظر: أحسن الحديث، د. محمد سعيد البوطي، منشورات المكتب الإسلامي – دمشق، (د. ت).

عليه السلام، وقوم لوط عليه السلام وقوم شعيب عليه السلام وعاد وثمود، وقارون وفرعون وهامان الذين استكبروا في الأرض بغير الحق؛ قال تعالى: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية، 40].

المطلب الأول: قوم نوح عليه السلام

وقد ورد ذكر نوح عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم، وقد ذكرت قصته مفصلة في سورة الأعراف وهود، والمؤمنون، والشعراء،والقمر، ونوح، وقد كانت الفترة بين آدم عليه السلام وبين نوح عشرة قرون كلها على التوحيد كما روي في الحديث الصحيح: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها على الإسلام"[1]؛ أي أن كلها على التوحيد، وقد ظهر الشرك في عهد نوح بعدما زين الشيطان لهم وجوب تعظيم الرجال الصالحين بعد موقم، وأوحى إليهم إن نصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها؛ أي الأصنام المصورة على صور أولئك الصالحين التي نصبوها في مجالسهم وسموها[2] بأسمائهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ۝ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَ ضَلاَلاً﴾ [سورة نوح، الآيتان 23-24]، وجاء آخرون من قوم نوح فأوحى إليهم الشيطان أن من كان قبلكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فعبدوها وأخذوا ينذرون لها ويقدمون لها القرابين ووضعوا لها شرائع وطقوس.

وعندما عم البلاء، وانتشر الفساد، وعكف الناس على عبادة الأصنام من دون الله، اختار الله سبحانه عبده نوحاً لينذر قومه من العذاب، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: " ...

(1) صحيح البخاري: بروح الحديث.
(2) ينظر: جامع البيان: 14/99. والكشاف: 4/164.

فيأتون نوحاً فيقولون، أي الخلائق: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، أما ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ..."[1].

وقد دعا نوح عليه السلام قومه إلى الاعتراف بوحدانية الله وعدم الإشراك به وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية 59]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة هود، الآيتان 25 – 26]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 23]، وقوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [سورة نوح، الآيات 1-3].

والملاحظ من سياق هذه الآيات الكريمات أن دعوة نوح والتي امتدت خلال ألف سنة إلا خمسين عاماً تتلخص بقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وهذه الدعوة هي المنهاج الذي اتخذه الرسل من بعد في خطاب أقوامهم كما أخبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 21]، وهذه الدعوة التي من شأنها أن تنير عقول الناس وبها يستقيم أمرهم في الدنيا والآخرة، وقد كان نوح عليه السلام حريصاً على نجاة قومه من الهلاك وسوء العاقبة، لا يرجو لهم إلا الخير ولا ينتظر منهم مكافأة أو أجراً[2].

ولهذا تلطف في خطابهم، وطرق كل سبيل في إيصال الدعوة والإيمان إلى قلوبهم، وقد ظهر حرصه عليهم من خلال عرض القرآن الكريم ووصف حاله عندما كان يخاطبهم؛ فقد قال تعالى على لسانه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، وهو يحذرهم من سوء عاقبة الكفر والعصيان كان في أسلوبه معهم يتوخى الدقة ووضع الأمور في نصابها، فهو وإن كان حريصاً على إيمانهم فإنه لم يخل بالتبليغ و لم يقصر في شيء، قال تعالى على لسانه: ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ

(1) البخاري: (3162)، 1215/3. مسلم: (194)، 185/1.
(2) ينظر: الكشاف: 164/4، وفي ظلال القرآن: 3714/6.

وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة هود، الآية 31].

ودلالة الآية الكريمة تبين رد نوح على قومه وهو يخبرهم بأنه لا يعلم الغيب، ولا يعد المؤمنين منهم بالأموال أو الجاه، فإن أجرهم على الله وحده يجازيهم به يوم القيامة، ولم يدع أنه ملك إن هو إلا بشر أكرمه الله سبحانه بالرسالة(1)، وكل ذلك محاولة منه في للحيلولة دون عقابهم، وبدل أن يؤمنوا أصروا على كفرهم وتحدوه بالعذاب أن يأتيهم إن كان صادقاً، قال تعالى جواباً على تحديهم: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ به اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۞ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة هود، الآيتان 33-34].

وعلى الرغم من جحودهم واستكبارهم فإن النبي نوحاً كان غاية في الصبر والأناة وسعة الصدر ليجنبهم سوء العاقبة، فظل يدعوهم دون كلل أو ملل، وكلما أعرضوا عنه غير أسلوبه، فكان يدعو(2) بصورة علنية وتارة بصورة سرية، وفي جميع الحالات كان رحيماً بهم خائفاً عليهم من عذاب يوم أليم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ۞ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ۞ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾ [سورة نوح، الآيات 13-20].
ولما كان لقوم نوح قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يبصرون بها، ولم يؤمن(3) من قوم نوح إلا عدد قليل لم يبق إلا العذاب والدمار وهو عاقبة هؤلاء المكذبين حتى إن نوحاً دعا عليهم كما أخبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ۞ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ۞ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾ [سورة نوح، الآيات 26-28].

وبعد أن بلغ الحمق بقوم نوح منتهاه وأخذوا يسخرون من نوح عندما كان يصنع السفينة فجاءت سوء العاقبة التي كانوا يسخرون بها، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

(1) ينظر: جامع البيان: 26/7. والكشاف: 265/2.
(2) ينظر: منهج الأنبياء في الدعوة الى الله: 57.
(3) ينظر: منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام: 326.

فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۝ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [سورة القمر، الآيات 9-17].

فالآيات تشير إلى سوء عاقبة الكافرين من قوم نوح، ومشهد العذاب هذا يصور بدقة ما حل بهم "بعد تكذيبهم لنبيهم وكفرهم برسالته فأرسل الله سبحانه المطر منصباً بقوة وغزارة، وجعل الأرض كلها عيوناً تتفجر بالماء، فالتقى ماء السماء وماء الأرض على حال قد قدرها الله في الأزل وقضاها بإهلاك المكذبين"[1].

ويلحظ جمال التعبير القرآني في وصف مآل الكافرين ووقوع العذاب بهم، فقد شبه الله سبحانه تدفق المطر وانهماره من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء، وانشق بها أديم الأرض، وقد وقع للعيون في المعنى ووقع على الأرض في اللفظ، وقد حصل بذلك على معنى الشمولية، حيث أفاد أن الأرض أصبحت كلها عيوناً تتفجر، والماء يتفجر من كل مكان فيها، قال الزمخشري:"جعل الأرض كلها عيوناً تتفجر وهو أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الأرض"[2]. وهذا من قبيل المبالغة[3] ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقيل: وفجرنا عيون الأرض أو العيون في الأرض لم يفد بذلك ولم يدل عليه "ولكان المفهوم منه: أن الماء قد فار من عيون متفرقة في الأرض وتبجس في أماكن فيها"[4]. فإنه مشهد عجيب، مشهد نوح وهو يتلقى أمر ربه والقوم يسخرون منه، وهم قد حكموا على الظاهر من الأمر أمامهم ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر، وأما نوح فهو واثق عارف، وهو يخبرهم في اعتزاز وثقة واستعلاء[5]، ونجا هو ومن آمن معه من المؤمنين الطائعين، وهلك الكافرون العصاة وكانت عاقبتهم خسراناً.

---

(1) صفوة التفاسير: 285/3.
(2) الكشاف: 285/3.
(3) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 150/3.
(4) التصوير الفني في القرآن: 31.
(5) ينظر: منهج القرآن في عقيدة الإسلام: 326.

المطلب الثاني: قوم هود عليه السلام

وقوم هود هم عاد، وعاد أمة عظيمة من العرب العاربة البائدة، وقد وردت قصتهم بعد قصة نوح عليه السلام، وهذا هو الأغلب في سياق الأخبار التي قصها القرآن، وقد شابهت دعوة هود قومه دعوة نوح قومه في المهم من كلامها؛ لأن الرسل مرسلون من الله، والحكمة من الإرسال واحدة فلا جرم أن تتشابه دعواهم كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [سورة الشورى، الآية 13].

وقد دعا النبي هود قومه عاد إلى عبادة الله وحذرهم من سوء عاقبة الكفر وعصيان الله سبحانه قال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [سورة هود، الآية 65]. وقد ذكرت قصة عاد مع نبيها هود في مواطن عديدة من القرآن(1)، وقد تنوع الخطاب القرآني في سياق هذه الأخبار عن قوم عاد فإن النبي هوداً قد دعاهم إلى الإيمان والتقوى وعبادة الله سبحانه بكل الطرق والوسائل التي من شأنها أن تقنعهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاحهم وحصولهم على مغفرة الله ورضوانه، ويلحظ أن الآية الكريمة قد انتهت بقوله ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ وهي "جملة استفهامية إنكارية معطوفة على جملة ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ والمراد بالتقوى الحذر من عقاب الله تعالى على إشراكهم غيره في العبادة واعتقاد الإلهية، وفيه تعريض بوعيدهم أن استمروا على ذلك، وإنما ابتدأ بالإنكار عليهم إغلاظاً في الدعوى وتهويلاً لفظاعة الشرك"(2) وعاقبته الوخيمة، ففيها غضب الرب والطرد من رحمته والعقاب المقيم في نيران جهنم وألوان أخرى من العذاب، ومن الملاحظ أن بيان عاقبة الأمم الكافرة التي بطرت معيشتها هو في الحقيقة موجه لترسيخ العبرة والعظة مما حل بالسابقين، فيشار إلى مساكنهم التي بقيت بعدهم تبكي ساكنيها الذين طوتهم يد البلى والدمار، ولفهم الهلاك بإرادية العدم، فتلك منازلهم باقية الآثار يشاهدونها في الأسفار(3). تلك الأقوام التي بطرت معيشتها و لم يحتملوا

---

(1) ينظر: سورة الأعراف، الآيات 65-72، وسورة الشعراء، الآيات 123-139، وسورة هود، الآيات: 50-60.

(2) التحرير والتنوير: 202/8. وينظر: صفوة التفاسير: 453/1.

(3) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 62/4.

الغنى فيحفظوا حق الله فيها قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [سورة القصص، الآية 85].

بل إن السياق القرآني يبين أن كثرة كاثرة من القرى الظالمة قد قصمت، وزالت عن الوجود زوالاً وكان عاقبتها فناء واستئصالاً؛ قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 11]، والقصم: هو كسر الشيء الصلب، وجعل مستعاراً ليعبر عن إهلاك الجبارين من أهل القرى الذين هم أصلب ما كانوا عيداناً، وأمنع ما كانوا أركاناً[1]، وقد أخبر القرآن عن سوء عاقبتهم وصورهم لما أدركتهم مقدمة العذاب حيث راحوا يركضون طلباً للخلاص؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 12]، والقرآن يختم الحديث عن هؤلاء المكذبين وبين مآلهم وعاقبتهم وما صاروا إليه قال تعالى ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 15].

فإن قوم عاد قد أصابهم العقاب وكانت عاقبتهم سوءاً بعد أن عصوا رسولهم هوداً وأصروا على الكفر والمعاندة، فهؤلاء العتاة الجبارون الذين يبطشون بلا رحمة، والذين أبطرتهم النعمة، والذين يقيمون المصانع يريدون من ورائها الامتداد والخلود لم يغن عنهم شيء لما وقع عليهم عذاب الله، فكانت عاقبتهم سوءاً في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم[2]؛ قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 72]، وقال في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۞ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۞ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [سورة هود، الآيات 58-60]، وعلى هذا النحو يشير القرآن إلى عاقبة الأمم البائدة دون أن يربطها بالأرضية التي كانت تقطنها بل يقصد إلى العموم في الإشارة إلى عاقبتهم وتشابهها، وهو يلمح أحياناً بذكر قرى أخرى متناثرة على سطح المعمورة قد وقع عليها عقاب الله

(1) تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي محمد بن الحسين بن الإمام موسى الكاظم، مطبعة المعارف - بغداد 1350هـ: 140.

(2) ينظر: جامع البيان: 57/7، والجامع لأحكام القرآن: 50/9، والكشاف: 275/2، وفي ظلال القرآن: 1906/4.

فكانت عاقبتها هلاكاً وتدميراً منها ما هو قائم ومنها ما هو حصيد، قال تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [سورة هود، الآية 100]، ويظهر العنصر الوصفي في الإخبار عن هذه الأمم وسوء عاقبتها في كلمتي: قائم وحصيد، فالقائم هو البناء الخالي من الأهل، والحصيد: منقوضاً لأبنية ملحقة بالأرض يشبه الزرع المحصود[1]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [سورة الحج، الآية 45].

المطلب الثالث: قوم ثمود عليه السلام

خلفت عاداً ثمود الذين أورثهم الله الأرض فعمروها عمراناً عظيماً وفجروا خلالها الأنهار، وغرسوا الحدائق، وشيدوا القصور، واتخذوا الجبال بيوتاً؛ ليأمنوا غوائل الدهر، ونوائب الحدثان، وقد كانوا في سعة من الرزق ولكنهم كفروا النعمة، وعتوا في الأرض عتواً، وعبدوا الأصنام واستحكم حب الدنيا في نفوسهم، فأرسل الله سبحانه النبي "صالحاً" فنصح وحاول إصلاحهم وحذرهم من سوء العاقبة ولكنهم صموا آذانهم عن سماع دعوة الحق، وأغلقوا قلوبهم، وأعموا أبصارهم برغم ما جاءهم به نبيهم من دلائل وبراهين على صدق دعوته حين فتق الجبل فخرجت عنه الناقة، لهم شرب يوم ولها شرب يوم معلوم، وسرعان ما ضايقت القوم وهو ابتلاء من الله سبحانه فائتمروا على عقرها، وقد تم لهم ما أرادوا فدمدم عليهم رب العالمين وكانت عاقبتهم عذاباً وهلاكاً[2].

وقد عرض الأسلوب القرآني صورة العقاب والعذاب الذي حل بقوم ثمود وحالهم وموقفهم من دعوة النبي صالح في مواضع كثيرة من القرآن[3]، وقد كانت العبرة والعظة من أهداف ذكر حالهم وعاقبتهم وأن العذاب وقع عليهم بعد أن عصوا الله ورسوله؛ قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ۞ قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۞ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ

---

(1) ينظر: تلخيص البيان: 81.

(2) ينظر: جامع البيان: 62/7. والجامع لأحكام القرآن: 55/9. والكشاف: 278/2.

(3) ينظر: سورة الأعراف، الآيات: 73-79، سورة الشمس، الآيات: 11-15.

يَنصُرُنِي مِنْ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝ وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِثَمُودَ﴾ [سورة هود، الآيات 61-68].

وبهذا الإخبار القرآني تتبين عاقبة قوم ثمود وعقابهم وقد عرض الأسلوب القرآني هذه المعاني والدلالات بصورة دقيقة ومؤثرة ووصفهم وما آلوا إليه من سوء عاقبة وصفاً حياً هادفاً تستمد صورته حيوتها وخلودها من العنصر البياني الذي قصد القرآن الكريم إليه قصداً، لينقل المعنى بصورة فنية نشطة وفي هذه الآيات تتسع صورة عاقبة هؤلاء الظالمين الذين تجاوزوا حدودهم، ففاجأهم صوت قاصف عند شروق الشمس تركهم جاثمين، رممهم باقية عبرة لغيرهم، وهكذا فالعقوبة صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم فاضت لها الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة وأصبح الناس صرعى(1).

أما في سورة الأعراف فإن عاقبة قوم صالح كانت رجفة راجفة حصدتهم وجعلتهم أثراً بعد عين، وانقلبت الديار العامرة خلاءً خاوياً، وهذا ما تظهره دلالة معاني الآيات الكريمة في بيان عاقبة هؤلاء الكافرين، وفي موضع قرآني آخر يتحدث القرآن عن عاقبة قوم ثمود، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النمل، الآيات 50-52]. وهذه الآيات تعرض صورة أخرى لعاقبة قوم ثمود، وقد رسمت هذه الآيات صورة أوسع لهؤلاء القوم، فهم يمكرون مكراً ويدبرون لكيد نبي الله صالح، وكانت النهاية في غير ما فطنوا إليه، فقد أخذهم عذاب قصيم ترك بيوتهم خاوية ساقطة متهدمة، بيوتهم هم، وبيوت من شايعهم(2)، وتترك هذه الآيات وصفاً لصورة الاجتثاث والعاقبة المريرة وتفتح أمام الإنسان نافذة ليطل من خلالها على طريق الهدى الصحيح، ولتكون الصورة أكثر وضوحاً

(1) ينظر: جامع البيان: 64/7. والجامع لأحكام القرآن: 58/9. والكشاف: 279/2.
(2) ينظر: مدارك التنزيل وأسرار التأويل: 22/4. وفي ظلال القرآن: 2646/5.

فإن القرآن قد عرض جانباً من حياة قوم صالح فيما مضى وهم في حالة الرخاء، حيث كانوا في جنات وعيون وحدائق ذات زروع ونخل هضيم يسكنون بيوتاً يتخذونها في الجبال تغمرهم الفرحة نشاطاً فقد كانوا كما قال تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۞ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآيات 147 – 149]، والآيات الكريمة تعرض حال قوم ثمود وبصورة أخرى، وعلى الرغم مما هم فيه من منة وتفضل من قبل الله سبحانه فإنهم فضلوا العمى على الهدى والكفر على الإيمان(1)؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة فصلت، الآية 17].

وهذه الآية الكريمة تخبر عن الجانب النفسي لقوم ثمود وانغماسهم بالكفر والضلال، وقد كشفت سورة القمر في بعض من آياتها عن نهاية ثمود، وقد وقعوا في قبضة العذاب وسوء العاقبة والعقاب، وقد عرضت لعاقبتهم عرضاً موحياً فيه روح الحياة الواقعية، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۞ فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۞ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۞ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ۞ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ۞ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ۞ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ۞ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [سورة القمر، الآيات 23 – 31].

وهذه الآيات الكريمات تشير إلى سوء عاقبة هؤلاء المكذبين الكافرين بعد عصيانهم وتمردهم وكفرهم بآيات الله سبحانه، فكانت عاقبتهم الاستئصال والهلاك فأصبحوا كالهشيم "والهشيم هو: الشجر اليابس المتهشم المتكسر، والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة، وما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم"(2) فضلاً عما في هذه المكان من أرواث الحيوانات وبولها، فهذا المكان الحقير هو عاقبة قوم ثمود الذين كفروا بالله سبحانه وعصوا رسوله صالحاً عليه السلام.

(1) ينظر: الكشاف: 123/3. وفي ظلال القرآن: 2611/5.
(2) الكشاف: 40/4. وينظر التحرير والتنوير:

المطلب الرابع: قوم لوط ﷺ

وكان أهل سدوم – وهم قوم لوط – من أفجر الناس وأخبثهم سريرة وسيرة، وكانوا يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ويقطعون الطريق ويخونون الصديق، ويأتون في ناديهم المنكر جهاراً علناً دون حياء أو خجل، وما كان فيهم رجل واحد رشيد، قال تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآيتان 80-81].

وقد ورد الحديث عن قوم لوط في مواضيع كثيرة من القرآن الكريم(1)، وقد تنوعت صياغة هذه الأخبار وبسياقات متعددة، وقد حذر النبي لوط قومه من سوء العاقبة والهلاك والدمار إن لم يؤمنوا بالله ويتركوا فعل الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، قال تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة العنكبوت، الآيتان 28-29]، وقوم لوط لم يكتفوا بالصدود والإعراض عن دعوة نبيهم، وإنما هددوه بالإخراج من قريتهم، ولم يخجلوا في بيان سبب التهديد(2)، قال تعالى على لسانهم: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية 167]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [سورة النمل، الآية 56]، فسخط الكفار وغضبهم كان سببه أن آل لوط يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويدعون إلى توحيد الله وعدم الإشراك به، وينكرون عليهم إتيان الذكران من العالمين ويجتنبون الفواحش والبغي والإثم.

وهذا التبجح من الكفار هو ذاته أسلوب الطغاة وديدهم في قلب الحقائق فيلصقون الأعمال القبيحة بالدعاة، ويزعمون أهم دعاة إصلاح، أما أهل سدوم فقد قالوها صراحة: إنه لا مقام لمن يتطهر في أرضنا، ولا نؤمن بشيء اسمه الشرف أو العفة(3) أو تعطشت

---

(1) ينظر: سورة الحجر، الآيات: 61-74، وسورة النمل، الآيات: 54-58، وسورة التحريم: الآية 10.
(2) ينظر: جامع البيان: 2/11. والكشاف: 154/3. وفي ظلال القرآن: 2647/5.
(3) ينظر: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله: 164.

نفوسهم إلى الخبائث واستحكم فيها حب الشهوات والمنكرات، ونصح لوط قومه، ودعاهم إلى الهدى ولكن أنى لهم أن يستجيبوا؟ فحذرهم سوء العاقبة وأنذرهم سوء المصير، فما أقلعوا عن معصية بل تمادوا فيها فاستنزل لوط العذاب عليهم بدعاء ضارع فاستجاب الله له، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۞ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۞ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۞ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ۞ قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۞ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [سورة هود، الآيات 77-83].

فالآيات الكريمات تشير إلى العقاب والهلاك وسوء العاقبة التي أصابت قوم لوط بعد عصيانهم، والعقاب الإلهي هو تأييد للدين ولحملته، وعقوبة قوم لوط عقوبة فطرية فضلاً عن أنها عقوبة قهر إلهي يعاقب بها المنحرفون والمجرمون والكفار فإن فعلهم للفاحشة في اكتفاء الرجال بالرجال هو ضياع وإخلال بعملية التوالد لبقاء النوع فأمة كأمة لوط عندما أصيبت بهذا الداء واستشرى بها فإنه يعرضها للفناء عملياً إذا مشت بهذا الانحراف إلى منتهاه، فهذه عقوبة فطرية على جريمة بعينها، ولكن زيادة على ما يترتب على هذه العقوبات الفطرية فإن الله عذب هذه الأمة عذاباً آخر استأصلها به إذ جعل عالي ديارها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود[1]، وفي موضع آخر من القرآن يشير القرآن إلى الزمن الذي قطع فيه دابر القوم الذين أذهلهم الصوت القاصف عند شروق الشمس، وأصابهم الخسف، وجعل عالي منهم سافلاً، ثم تراكم حطامها ليبقى آية للمتوسم المتأمل على طريق السفر حين يمر بديارهم[2]، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [سورة الحجر، الآية 66]، وفعلاً جاءهم العاقبة

---

(1) ينظر: الإسلام: سعيد حوى: 701.

(2) ينظر: الكشاف: 395/2. وفي ظلال القرآن: 1249/4.

التي كانوا قد كذبوا بها، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۞ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [سورة الحجر، الآيتان 73-74]، فهذه الآيات تصف سوء العاقبة التي حلت بهم وهو عذاب علوي مطر، ولكنه في الحقيقة حجارة مسومة تتالى من السماء تتعقب قوم لوط ثم تأخذهم حيث كانوا[1].

وتعود سورة القمر إلى ذكر عاقبة قوم لوط فتصفهم وقد أصبحوا هدفاً لريح شديدة تحصبهم بالحجارة حيث لم يأخذوا بنصيحة نبيهم بل ركبوا رؤوسهم يلهثون وراء شهواتهم، فقد صبحهم بكرة عذاب شديد قد استقر عليهم إلى أن يفضي بهم إلى عذاب الآخرة، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۞ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ۞ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۞ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۞ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ۞ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [سورة القمر، الآيات 33-37]؛ فهذه الآيات الكريمة ترسم صورة العذاب وسوء العاقبة التي حلت بهؤلاء المجرمين وفي سوء عاقبتهم وهلاكهم عظة وعبرة وذكرى للمعتبرين، قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۞ وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآيتان 34-35].

وقد رسمت الآيات في وصف عاقبة قوم لوط مشهد التدمير الذي أصابهم، وكان هذا العقاب والهلاك هو عاقبتهم ومآلهم الطبيعي لهذه الشجرة التي فسدت فلم تعد صالحة للإنماء ولا للحياة و لم تعد إلا للاجتثاث والتحطيم[2].

(1) في ظلال القرآن: 1249/4.
(2) ينظر: الوصف في القرآن الكريم: 84.

المطلب الخامس: قوم فرعون

إن من طباع الاستبداد أنه يعرض الظالم عن الحق وإن جاءه الدليل، ويطرح أسباباً ومسوغات وتعليلات واهية ضعيفة للكفر، والأعراض لا ترقى أن تكون حجة أو دليلاً وإنما فرار من الحق والصواب يدفعه لهذا الفرار هوى متبع لمصلحة دنيوية زائلة.

وقد أظهرت آيات القرآن الكريم وفي مواضع كثيرة[1] حال فرعون وقومه وسوء عاقبتهم بعد طغيانهم وصدهم عن دعوة موسى عليه السلام، وتعود الآيات الكريمة وصفاً لمنهج فرعون في المكر والتدبير لمحاصرة دعوة الحق بالتعالي والتشكيك والكذب من أجل تضليل الأمة، لترضى عن ممارسات الظلم والطغيان ولا تعارض البطش والتنكيل بالمستضعفين[2].

وفرعون الطاغية الجبار نفر لما رأى موسى وأدلته وانطلق يحاربه تنازعه عاطفتان جامحتان: أقواهما الإبقاء على ملكه، وثانيهما مجاهدة موسى حتى تنجلي عجاجة ظلامه، وتنكشف سحابة غمامه، ويبقى لفرعون الأمر يفعل ما يشاء، وتلك هي منهجية الطغيان على مر العصور، وقد أوردت الآيات الكريمة في معانيها ودلالاتها أن عاقبة التدمير والهلاك هي عاقبة كل من يمارس الاستبداد ويشارك في الظلم من أعوان وجنود، وأن هؤلاء عليهم اللعنة في الدنيا، ولهم عاقبة الخزي والعذاب يوم العرض والحساب.

إن موسى عليه السلام جاء آل فرعون بالآيات ودعاهم إلى الإيمان وأخبرهم أنه جاء بالهداية من عند الله، ولكنهم أنكروا ذلك بدعوى أن ما جاء به كان سحراً وكذبوا بالرسالة لأنهم لم يسمعوا عن مثل ذلك في آبائهم الأولين[3]، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَ سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ۝ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة القصص، الآيتان 36-37]. ولما رفض فرعون وقومه الاستجابة لدعوة الحق حاورهم موسى بالحجة ومنطق العقل فقال لهم: إن الله بعثه من أجل هدايتهم، وإن الادعاء بعدم العلم عند آبائهم لا يصلح أن يكون دليلاً لإنكار رسالة أنزلت من بعدهم أو مسوغاً لعدم استجابتهم، ثم خوفهم موسى من عاقبة الكفر

---

(1) ينظر: سورة الأعراف، الآيات 103 – 136، وسورة هود، الآيات 96-99، وسورة الشعراء، الآيات 56-66.

(2) ينظر: منهج الرسل في الدعوة إلى الله: 103.

(3) ينظر: جامع البيان: 76/11. والكشاف: 176/3. والتفسير الفريد: 2367/3.

والإنكار وأخبرهم أن الفلاح في الآخرة لا يكون إلا لمن آمن وأن من يظلم نفسه تكون عاقبته خسراناً[1].

والناظر في سياق الآيات التي تتحدث عن موسى وفرعون يجد إشارات إلى منهج النبوة في الدعوة إلى الهداية والنجاة من سوء العاقبة من هلاك ودمار، ويأتي ذلك كله من خلال الدعوة إلى الإيمان ثم بالحوار وتقديم الدليل بالحجة والمنطق إلى جانب الدعوة إلى التأمل والتدبر وإعمال الفكر لأنها وسيلة الحوار مع كل كافر يتحرى الهداية وتشير هذه السياقات القرآنية أيضاً إلى أن ذلك لا يجدي نفعاً مع من أنكر واستكبر[2].

والمتتبع في سياق أخبار موسى وفرعون في القرآن الكريم يلحظ أن الأسلوب القرآني قد تدرج في تصوير ما أصاب فرعون وقومه من سوء العاقبة، وشكل لوحة رسم أبعادها صورة الهلاك والعقاب لهؤلاء المكذبين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۞ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [سورة القمر، الآيتان 41-42]، فالنذر المتتالية والآيات والبراهين لم تنفع فرعون، بل إنه أبى أن يلقي إليها سمعه أو فكره وانطلق يكذب بالآيات، وفي دلالة آية العقاب هذه تظهر معاني العزة والاقتدار من الله سبحانه وتلقي معاني الشدة في الأخذ كما أن فيها تعريضاً بعزة فرعون واقتداره على البغي والظلم، فقد ضاعت العزة الباطلة، وسقط الاقتدار الموهوم وأخذه الله وقومه أخذ عزيز مقتدر[3].

وتعرض آيات أخرى جانباً آخر من صور تكذيب فرعون ومن شابهه من أضرابه للذين كانوا قبله يقترفون الخطايا، ويكذبون الرسل، فأخذهم الله سبحانه أخذة شديدة مهلكة، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۞ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [سورة الحاقة، الآيتان 9-10].

وفي مشهد آخر تظهر عاقبة فرعون وجنوده حين يسوقهم في ملاحقة موسى وصحبه حتى أدركوهم قريباً من البحر، وتظهر سوء عاقبتهم فيما أصابهم حين غرقوا وأحاط بهم العذاب إحاطة وتغشاهم تغشياً، كما يغشى الليل النهار، ويترك القرآن الصورة مفتوحة أمام المخيلة في تصوير ذلك العقاب والهلاك مشيراً إليه بكلمة "ما" في

---

(1) ينظر: منهج الرسل في الدعوة إلى الله: 104.

(2) ينظر: جامع البيان: 77/11. والكشاف: 177/3. والتفسير الفريد: 2368.

(3) ينظر: الكشاف: 41/4. وفي ظلال القرآن: 3435/6.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۞ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [سورة طه، الآيتان 78-79] "قيل: إن ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ من جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها – بالمعاني الكثيرة؛ أي غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله عز وجل"[1].

وهذا الإخبار ذو وقع في النفس شديد مهول لا يحدده تفصيل أو يعطل عمومه توضيح، ليبقى في النفس شاملاً مهولاً، وقد قاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة كما قادهم إلى الضلال في البحر، وكلاهما يؤدي إلى بوار[2]. وفي موضع آخر يشير القرآن إلى صورة أخرى لعقاب فرعون وقومه وسوء العاقبة لهذه الفرقة الضالة حين استاق قومه يتابع بهم موسى ومن معه، ثم فاجأهم البلاء فنبذوا في اليم نبذاً، واعتصر آلام الحزن والندم نفس فرعون ولكن لا جدوى في حزن ولا ندم[3]، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [سورة الذاريات، الآية 40].

وفي موضع آخر حين يسخر فرعون جنوده ليتمردوا على كل حق ويعتوا ويعيثوا في الأرض فساداً ويبسطوا الأذية للناس، وقد كان أجناده طوع أمره وإشارته وهم الذين يشدون له أمره، ويوطدون له سلطانه لكن الله كان لهم بالمرصاد فأنزل عليهم رجزاً من السماء وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين[4]، قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۞ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۞ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [سورة الفجر، الآيات 10-14]. والسوط في عرف العرب يكون سبباً للعقوبات الواقعة، والآلام الموجعة، وإنما سيق هنا على سبيل الاستعارة والمراد بها العذاب المؤلم والنكال المرمض[5].

وفي موضع آخر تظهر سوء عاقبة فرعون الدنيوية والأخروية في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۞ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ۞ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ

---

(1) مدارك التنزيل وأسرار التأويل: 205/3.
(2) في ظلال القرآن: 2344/4.
(3) ينظر: الكشاف: 19/4.
(4) ينظر: في ظلال القرآن: 3904/6.
(5) ينظر: تلخيص البيان: 277.

هُمْ مِنْ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [سورة القصص، الآيات 40-42] وهذه الآيات تفتح أمام المخيلة صورة جديدة واسعة لهلاك فرعون ومن ناصره؛ فأغرقوا في صيحة واحدة فلم يبق منهم أحد، ولعنوا في ديارهم وهم في الآخرة مقبوحون وصورة القبح والفضيحة والتشنيع وجو التقزز والاشمئزاز كانت عاقبة هؤلاء الكافرين، فإن الله أغرقهم جميعاً ليكونوا عبرة لكل ظالم يأتي بعده، وهذه اللعنة التي ستلازم فرعون وآله وتلاحقهم سوف تتجدد عليهم كلما جاء ذكرهم أو ذكر حاكم ظالم مستبد مثلهم، كما أن الله سبحانه سيقبح وجوههم، ويسودها يوم القيامة جزاء ظلمهم وبغيهم واستبدادهم.

إن فطرة البشر تمقت الظلم والاستبداد، وهذه الآيات الكريمة تغرس في نفوس المؤمن مفهوما معادياً للظلم والاستبداد.

"إن فرعون وجنوده لعنوا على لسان جميع الأنبياء من بعد موسى للتأكيد على سوء فعل فرعون ليراجع كل ظالم سلوكه وينظر في عاقبة هؤلاء الظالمين ويعلم أنه محاسب على كل ظلم يقوم به أو يأمر به، وأن الجند والأعوان محاسبون على كل ظلم يوقعونه وهم يعلمون ولا يشفع لهم أنهم مأمورون، كما لم يشفع ذلك لجند فرعون"[1]. قال تعالى ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ [سورة هود، الآية 113].

قارون

إن طغيان المال وبغي الثروة وجمعها لا يتحقق بوسائل الحكم المستبد ابتداءً لأنه لا يملكها، وإنما تتحصل الهيمنة من خلال إفساد المفاهيم ورفع قيمة المال من أجل أن يتخلى الناس عن المبادئ والقيم والمثل، فيستجيبوا لنداء غرائزهم وميولهم الفطرية في حبّ المال وكل ما يتحصل بالمال من وسائل الترف والمغريات فبذلك تتسع دائرة نفوذ المال وتمتد إلى مواقع اتخاذ القرار ويصبح للمال هيمنة على جميع مجالات الحياة من إعلام وسياسة وثقافة وفكر[2].

إن قارون كان من بني إسرائيل فتعالى عليهم وتجاوز الحد في الكبر والتجبر بما آتاه الله من أموال وفيرة وكنوز كثيرة، فقال له قومه: لا تبطر، وذكروه بأن الله لا يحب البطرين

(1) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله: 106.
(2) ينظر: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله: 117.

الذين لا يشكرون نعمة الله، وإن عاقبة هؤلاء البطرين أن ينـزع الله منهم ما آتاهم من مال وثروة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة القصص، الآيات 76-77].

وتبرز في قصة قارون[1] صورة كاملة وتأصيل لمنهج الهيمنة على بني إسرائيل من خلال إفساد المفاهيم الذي أدى ببعضهم أن يقولوا: إن قارون لذو حظ عظيم. وتشير الآيات إلى موقف ودور أهل العلم ومنهجهم في مواجهة انحراف الأمة وبغي أهل الثروة والمال من خلال الوعظ والتذكير بسوء عاقبة التبطر والتبجح على الناس ونعمة الله، فضلاً عن الارتقاء بإرادة الخير عند الناس حتى إذا ما زال ذلك البغي يخسف بهم كما حدث لقارون أو يجهد من فعل البشر؛ فإنه يتحصل للأمة وعيٌ وتزكية تحميها من عودة بغي أو طغيان أو قارون جديد[2]؛ قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة القصص، الآية 78]، فإن قارون لم يعترف بأن لله فضلاً عليه في تحصيل المال؛ لأنه لا يريد أن تتقيد حريته في التصرف بما يملك من مال، وقال: إنما أوتيته على علم عندي ليشعر قومه بعجزهم مقابل تميزه بالعلم والخبرة عليهم من أجل أن تتحقق له الهيمنة عليهم، فجاء التذكير في هذا الموقف بسوء عاقبة الذين من قبله من الأمم الغنية القوية وما أصابها من هلاك ودمار ليعتبر ويتعظ هو وكل طاغية وباغ على مرّ العصور، ويمكن فيها تخويف من فجاءة الهلاك وزوال الثروة، وما ينتظرهم يوم القيامة "فإن كان قارون ذا قوة وذا مال، فقد أهلك الله من قبله أجيالاً كانت أشد منه قوة وأكثر مالاً، وليعلم هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم[3]؛ لأن معاصيهم تقدم أدلة دامغة على إجرامهم. فلما لم يفد بقارون نصح ولا إرشاد في التذكير بعاقبة من سبقه من المكذبين خسف الله به وبداره وكنوزه عقاباً له على تعاليه وبغيه

(1) ينظر: جامع البيان: 117/11. والكشاف: 192/3. والتحرير والتنوير: 178/21.
(2) ينظر: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله: 117.
(3) في ظلال القرآن: 2712/5.

وفساده، فعجز عن إنقاذ نفسه و لم يجد أحداً يعينه أو ينقذه، قال تعالى: ﴿خَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ۞ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة القصص، الآيتان 81-82]، فتحققت الهداية والنجاة لمن اتعظ بسوء عاقبة قارون، وأيقنوا بأن الرزق بيد الله يبسطه بحسب مشيئته وحكمته لا لأن الغني عنده منزلة عند الله وكرامه، وأنه يضيق الرزق على من يشاء قضاءً وحكمة منه وأن كل شيء عنده بمقدار، لا هواناً لشأن الفقير عنده، وقد حمد الذين تمنوا مكان قارون الله سبحانه على رحمته بهم وأنه لم يعذبهم جزاء غفلتهم، وشكروه على الهدية بعد الضلال ونظروا في سوء عاقبة قارون فاتعظوا[1].

(1) ينظر: الكشاف: 193/3، في ظلال القرآن: 2713/5.

المطلب السادس: كفار مكة

إن انتقال المجتمع المكي من الجاهلية إلى الإسلام ونبذ الشرك واعتناق التوحيد كانت معركة بحد ذاتها برغم ضخامة المجابهة وطول الزمن، وقد كانت هذه المعركة الفكرية ذات أثر إيجابي أثمرت فيه الدعوة ثماراً طيبة بقيت ركائز للحياة الإسلامية حتى يرث الله الأرض ومن عليها وكان في مقدمة هذه الثمار إثبات التنـــزيه والوحدانية لله جلّ جلاله، وإثبات النبوة والقرآن وأركان الإيمان الأخرى ...

إن القرآن الكريم قد عمق مناقشة قضية التوحيد مع مشركي العرب فلم ينته العهـــد المكي إلا وقد استقرت فكرة التوحيد في جلاء ووضوح، ولم يبـــق لمعانـــد فيهـــا أدنى شبهة[1].

إن ما قصه القرآن من سير الأقوام السابقة هو في الحقيقة موجه إلى الذين عاصـــروا نـــزول القرآن، وهم أهل مكة، وقد جعل من تلك الأمم وبيان حالها أنموذجـــاً حيـــاً في بيان سوء العاقبة كي يتعظ هؤلاء ومن بعدهم الذين لم يستجيبوا لـــدعوة الحـــق، فـــالله سبحانه في سياق إخبار هذه الأمم سوء عاقبتها وأن عقوبة القهر الإلهي تـــأتي بأشـــكال متعددة؛ فقد تكون غرقاً، وقد تكون صاعقة، وقد تكون مرضاً، وقد تكون زلزالاً، وقـــد تكون خسفاً .... والحقيقة أن ما من مصيبة يصاب بها الإنسان إلا وهي أثر من آثار هذا القهر[2] كما بين ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [سورة الشورى، الآية 30]، وإن لم تكن المصيبة عقوبة فهي تربية أو امتحان أو ترقية لمقام، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 35].

إن القرآن لما صور عاقبة الكافرين من الأمم الغابرة وما أصابهم من هلاك وعقاب في الدنيا وما سيلقون من عقاب أخروي حين يساقون إلى جهنم، وقد رسمت آيات القـــرآن لوحة واسعة غنية العناصر، متحركة حية لأولئك العصاة بأسلوب فني يمزج بين الوصـــف والتصوير، وكل ما ذكر في سياق هذه الأمم المكذبة هو مسوق للتعريض بالكفار من أهل مكة؛ ففي سورة القمر ذكر القرآن مصارع المكذبين من قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود

(1) ينظر: منهج القرآن في إثبات عقيدة الإسلام: 117.
(2) ينظر: الإسلام: 707.

وقوم لوط، وقوم فرعون، ثم جاء قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۞ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۞ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [سورة القمر، الآيات 43-46].

فالخطاب في الآيات موجه لأهل مكة؛ أي هل أن هؤلاء الذين ذكروا من قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وآل فرعون خير قوة ومنزلة ومكانة في الدنيا أو أقل كفراً وعناداً [(1)]؟ فإن كفاركم أشر من أولئك لأن مصارعهم وسوء عاقبتهم قد ذكرت لكم ولم تتعظوا، أولستم بقوتهم وجبروتهم كي تركنوا إلى قوتكم وجبروتكم في مواجهة الله سبحانه ورد دعوة الرسول محمد ﷺ؟ وقد خاطبهم القرآن في مواطن كثيرة منه وذكرهم بما حل بالأمم السابقة؛ منه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 6]؛ "ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة، وقد مكنهم الله في الأرض، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله المخاطبين من قريش وأرسل عليهم المطر متتابعاً ينشئ في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق ثم عصوا ربهم، فأخذهم الله بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر"[(2)]. فكانت عاقبة المكذبين سوءاً وهلاكاً ودماراً، والمشركون الكافرون لم يتعظوا بما آل إليه هؤلاء برغم ما أعطاهم الله من إمكانيات وحواس؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج، الآية 46]؛ فلم يفدهم سمع ولا بصر ولا عقل ولا فكر في إدراك عواقب الكفر وعدم الاتعاظ بمن سبق[(3)].

---

(1) ينظر: الكشاف: 41/4. وفي ظلال القرآن: 3435/6.
(2) في ظلال القرآن: 1037.
(3) ينظر: الكشاف: 17/3.

المبحث الثالث

تحقق العاقبة بأصنافها المختلفة

ويشتمل على تمهيد وعشرة مطالب:

المطلب الأول: الغرق.

المطلب الثاني: الريح.

المطلب الثالث: الصيحة.

المطلب الرابع: الرجفة.

المطلب الخامس: الصاعقة.

المطلب السادس: قلب الديار.

المطلب السابع: الحجارة.

المطلب الثامن: الظلة.

المطلب التاسع: الخسف.

المطلب العاشر: المسخ.

تمهيد

ذكرنا في المبحثين السابقين في الحديث عن الوسائل التي اتخذها الكافرون في ردّ دعوة الرسل والوقوف ضد دعوة التوحيد، وكيف كانت عاقبتهم، وسنتكلم الآن في هذا المبحث على اشتراك الكفار في المصير؛ وهو العذاب والاستئصال في الدنيا وعذاب الآخرة والخلود في النار.

إن الأمم التي أهلكها الله سبحانه وتعالى كثيرة، وقد بدأ الهلاك بأول قوم كذبوا وهم قوم نوح كما أشار إلى ذلك القران الكريم في سياق آياته؛ قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ [سورة الإسراء، الآية 17] وقد استمر نزول العذاب بالأمم المكذبة، وكان آخر هلاك أصاب أصحاب الفيل؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۞ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۞ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ۞ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۞ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل]، والله سبحانه لم يقصص علينا في كتابة العزيز جميع قصص الرسل؛ دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء /164].

وما ساقه القرآن من قصص الأمم الهالكة إنما سيق للاتعاظ والاعتبار وشحذ الهمة وتحريك العقل في الاستفادة من معرفة مصير هؤلاء الكافرين الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وكان مصيرهم المصير الأذل والمؤلم، وقد ذكرنا في الفصل الثالث أن القرآن تحدث عن مصير الأمم الهالكة، وقد تحدث عنها أحياناً مفصلة ذاكراً مواطنها والرسل التي أرسلت إليها، مع وصف دقيق لما حل لهم من عذاب وسوء المصير، وأحياناً يتحدث عنها مجملة، وحتى هذا الإجمال فانه يأتي على أعلى صيغة من التأثير والإقناع والعظة والعبرة، فضلاً عن ذكر أسباب هلاكها كي يعرف الناس هذه الأسباب فيبتعدوا عنها.

إن الناظر في مصير الأمم المهلكة يلحظ أن السبب الأول في هلاك هذه الأمم هو الشرك بالله، وهذا هو الطريق المؤدي إلى الهلاك وسوء المصير، فقد جرت عادة الله أن يرسل الرسل إلى الأمم التي حدثت لهم انحراف عن التوحيد وانغماس في أوحال الشرك، وهذه الرسل تأتي أقوامها التي تأصل فيها حبّ عبادة الأصنام والأوثان، وأمسى الشرك دينها القويم في نظرهم وفكرهم الضيق، فيحاول الرسل تغيير ما هم عليه وما ألفوه وما

اعتقدوه، ويجابه الكافرون دعوة الرسل بالصد والمهارة ويستنكفوا أن يتركوا ما كان عليه آباءهم وأجدادهم من شرك وضلال.

إن الكيد كما ذكرنا سابقاً يعمي البصائر عن تبصر ما جاء به الرسل من أدلة وبراهين وحجج ظاهرة دالة على صدق ما جاؤوا به كي يبادر الكافرون إلى تكذيب الرسل دفاعاً عن ملة الشرك وعبادة الأصنام والأوثان التي ظنوا بها النفع والضر، وقد وظفوا كل سلاح للدفاع عن هذا الشرك فرموا الرسل بالأوصاف الرديئة والتهم القبيحة، فقوم نوح لما دعاهم إلى التوحيد ونهاهم عن الشرك قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية 60]، وقالت عاد لهود رداً على دعوته إياهم إلى التوحيد: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية 66] بل زاد بهم الأمر على هذا فإنهم أخذوا يتعجبون من دعوة هود إلى عبادة الله وحده ونهيه عن عبادة آلهة عكفوا على عبادتها، فقد قالوا له: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [سورة الأعراف، الآية 70]، وقد خرج الاستفهام في الآية إلى معنى الإنكار والتعجب فإن حمق هؤلاء الكافرين زادهم إيغالاً في رد دعوة الرسول حتى جعلهم يتعجبون وينكرون عليه ما يطلبه منهم من عبادة إله واحد لا يعرفونه وترك عبادة ما عرفوا من أصنام وأوثان كان قد عبدها آباؤهم من قبل[1].

وأما فرعون الذي أرسل الله إليه موسى بعد أن طغى وتجبر وادعى الربوبية، فإنه قد اتهم موسى بالجنون، بل جزم أنه مجنون كما بينته دلالة الآية الكريمة في قوله تعالى على لسانه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الشعراء، الآية 27]، إن الذي يدفع الكافرين إلى الاستهزاء بالرسل وإيذائهم هو التكذيب، وقد رأى المشركون في التكذيب سبيلاً للانتصار لآلهتهم التي لا تنفع ولا تضر، وقد أبطل الرسول دعاوى الكافرين بضر هذه الأصنام ونفعها من خلال أدلة ظاهرة مؤيدة من عند الله سبحانه، وقد دفع الكبر والتكذيب والجحود هؤلاء المشركين إلى إرغام الرسول وأتباعهم إلى العودة إلى ملة الشرك كما بين ذلك القرآن الكريم في بعض آياته؛ منه قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [سورة الأعراف، الآية 88]، لقد قاد المشركون أنفسهم إلى الهلاك بعدما وقع منهم من

---

(1) ينظر: الكشاف: 87/2.

شرك ونبذ لعبادة التوحيد والاستكبار على الرسل وتكذيب آيات الله الكونية والنقلية، وما جرى منهم من استهزاء وإيذاء للرسل وإتباعهم فضلاً عن كفران نعم الله وما أسبغ عليهم من نعم ظاهرة وباطنة وانتهاك حرمات الله دونما رادع يردعهم أو خلق يوقفهم عن فعل هذه القبائح؛ فإنهم قد استعجلوا غضب الله واستعجلوا عقابه وعذابه، وقد أثبتت التجربة من خلال ما قصه القرآن من قصص أن الذي يقف ضد الله ودعوته خاسر لا محال، وأن عذاب الله وعقابه سيحل عليه وينال منهم، وكل من يحارب الله ورسله سيكون مصيره مثل مصيرهم: تدمير وتحطيم واجتثاث وفناء.

لقد كان في مصارع الأمم الهالكة وما آلت إليه من مصير محتوم بيان لقوة الله سبحانه وجبروته وإحاطته، وهو في نفس الوقت عبرة وموعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وقد كان العذاب الذي نزل بهم عذاباً مهولاً كما بينته آيات القرآن عند الحديث عن نزول العقاب للأمم الكافرة؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة هود، الآية 102]، ودلالة الآية الكريمة تشير إلى أن الله قد أخذهم أخذاً أليماً شديداً؛ فسلط عليهم أصنافاً من الهلاك تقشعر الأبدان من سماعها، وترتعد الفرائص من تصورها، ويقف العقل أمامها منبهراً متعجباً من هول ما جرى لهم وحدث من تدمير وهلاك واستئصال وفناء، فذاقوا العذاب خزياً في الحياة الدنيا، ومصيرهم في الآخرة إلى عذاب خالد، ودلالة آيات القرآن تشير إلى أن الله سبحانه قد سلط أصنافاً معينة من الهلاك على كل أمة منها ما نعلمه ومنها ما لا نعلم، وقد يصيب أمة مهلكة أكثر من صنف واحد من العذاب، وهذا زيادة في النكال والعذاب، وقد جعل الله عذاب هذه الأمة عبرة وعظة للناس كافة.

لقد اشتركت كل الأمم الهالكة بمصير واحد وهو الهلاك، وقد توحد مصيرها – أي مصير العذاب والهلاك –كنتيجة لتوحدهم في رد دعوة الله وإصرارهم على الشرك ومعاداة رسل الله وكفر بآياته والاستكبار والكبر على الذين يتبعون الدين الصحيح، وعلى الرغم من تشابههم بمصير واحد وهو الهلاك، لكن هذا الهلاك اتخذ أصنافاً عدة وهي:

المطلب الأول: الغرق

إن عذاب الغرق كما بينته دلالات آيات القرآن الكريم قد أصاب أمتين من الأمم المهلكة؛ وهاتان الأمتان تعدان من أعتى الأمم وأشدها إيغالاً في الكفر وأكثرهم تجبراً واستكباراً؛ وهما قوم نوح وفرعون وقومه:

أما قوم نوح فقد بينت دلالة الآية القرآنية أن مصيرهم كان إلى الهلاك[1] بالطوفان قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية 14].

إن الطوفان الذي أهلك الله به قوم نوح لم يكن فيضاناً عادياً للماء الذي يحدث بين الحين والآخر على سائر المعمورة، بل كان عذاباً عاماً شاملاً مستهدفاً الكافرين من قوم نوح، وقد وصف الأسلوب القرآني هذا الطوفان وصفاً دقيقاً مؤثراً له وقع في النفوس من خلال ما فيه من هول وشمول للعذاب؛ قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۞ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۞ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [سورة القمر، الآيات 11-14].

أما فرعون وقومه فقد أغرقهم الله في البحر، وتشير الروايات إلى أنهم قد وقع عليهم العذاب بعد أن خرجوا في أثر بني إسرائيل يريدون اللحاق بهم وإعادتهم إلى الكفر، وقد انطبق البحر عليهم بعد أن نزلوا في حين خروج قوم موسى، وقد كانت نجاة بني إسرائيل من فرعون بهذه الطريقة العجيبة أدلة واضحة على نصر الله ووقوفه مع المؤمنين، وأنه ناصر لهم من أعدائهم، وقد حفلت آيات القرآن في وصف مصير آل فرعون وفرعون وما آلوا إليه؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۞ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ۞ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۞ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ۞ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ۞ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الشعراء، الآيات 61-68]؛ والآيات الكريمة تشير إلى رحمة الله سبحانه وتعالى بالمؤمنين من خلال إنجائهم من فرعون ومن الغرق نفسه، وبيان

(1) ينظر: الكشاف: 200/3.

أيضاً لعظمة الله وقوته وإحاطته من خلال اختصاص العذاب بالكافرين فقط من فرعون وقومه[1].

المطلب الثاني: الريح

بينت آيات القرآن أن مصير الهلاك قد أصاب قوم عاد وهذه الأمة المتجبرة المستكبرة على ربها التي اعتدت بقوتها وشدتها، وقد وقع عليهم الهلاك عن طريق إرسال الريح القوية المدمرة؛ قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [سورة الذاريات، الآيات 41-42]؛ ودلالة معاني الآيتين الكريمتين تشيران إلى شمولية هذا العذاب، وأن هذا العذاب يثير الهلع في القلوب والفزع في النفوس من خلال تصوير الأسلوب القرآني لهذا العذاب، وقد وصفت هذه الريح بأنها ريح عقيم؛ والعقيم: هي الريح المفسدة التي ليس بها شيء من الخير والبركة؛ فلا تلقح شجراً ولا تسوق مطراً بل التدمير والهلاك هو غايتها[2]، وقد وصفت هذه الريح في موضع آخر من القرآن بأنها ريح صرصر عاتية كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [سورة الحاقة، الآية 6]، والصرصر: هي الشديدة الهبوب مع شدة بردها؛ ومعنى العاتية: هي التي تجاوزت الحد في شدة الهبوب والبرودة[3]. وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً﴾ [سورة العنكبوت، الآية 40] والمقصود بدلالة معنى الآية: هم قوم عاد؛ والحاصب: اسم للريح العاصف التي فيها الحصى الصغار أو الثلج أو البرد والجليد[4]. وقد وصفت هذه الريح أيضاً في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [سورة القمر، الآية 31]، وقد روي أن هذه الريح كانت تقتلعهم وتحملهم إلى عنان السماء ثم تلقيهم على رؤوسهم فتدقها فتتركهم أجساداً بلا رؤوس ممدة على الأرض كنخل منقلع من أصوله[5]، وقد بين الأسلوب القرآني أن الله سبحانه وتعالى قد زاد من التنكيل بهم، هذا ما بينه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ

---

(1) ينظر: الكشاف: 115/3.
(2) ينظر: تفسير ابن كثير: 4/ 253.
(3) ينظر: جامع البيان: 49/29.
(4) ينظر: المصدر نفسه: 150/20.
(5) ينظر: تفسير ابن كثير: 482/4.

أَلِيمٌ﴾ [سورة الأحقاف، الآية 24]، فإن هؤلاء الكافرين كما بينته الآية ظنوا أن هذه الريح هي ريح خير كانوا ينتظرونها، و لم يعلموا أنها مصيرهم للهلاك والدمار، هذه الريح التي استمرت في الهبوب والعصوف سبع ليال وثمانية أيام قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ [سورة الحاقة، الآية 7] هذه الأيام التي كانت وبالاً عليهم ونحساً وشؤماً لم ترَ فيها عاد خيراً قط ولا بعدها، وقد استمر بهم البلاء والعذاب إلى أن وافى بهم جهنم، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، وهم لا ينصرون[1].

المطلب الثالث: الصيحة

وقد كان عذاب الصيحة أحد أصناف العذاب الذي آل إليه مصير أربعة من الأمم، وقد وقع عليها هذا العذاب بعد أن كفرت بالله ورسله وآياته، ووقفت ضد دعوة التوحيد؛ وهذه الأمم هي: ثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب وأصحاب القرية؛ فأما قوم ثمود فقد وقع عليهم العذاب (عذاب الصيحة) كما أشارت إلى ذلك الآيات الكريمة؛ منها قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [سورة الحجر، الآية 83] وقال في موضع آخر عنهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ ودلالة الآيتين الكريمتين تشيران إلى سوء مصير الكافرين وما آلوا إليه من استئصال وتدمير[2].

أما قوم لوط فإن الله سبحانه وتعالى قال عنهم في وصف العذاب: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [سورة الحجر، الآية 83]، وأما قوم شعيب الذين بخسوا الناس في الكيل والميزان فإن الله سبحانه قد قال عنهم بعد استحقاق العذاب لهم: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، وأما أصحاب القرية الذين ورد ذكرهم في سورة يس فقد وقع عليهم أيضاً عذاب الصيحة وكان مصيرهم إلى الهلاك قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [سورة يس، الآية 27].

---

(1) ينظر: جامع البيان 50/29.
(2) ينظر: الكشاف: 91/2.

المطلب الرابع: الرجفة

الرجفة: هي الزلزلة الشديدة التي يكون معها اهتزاز وارتعاد واضطراب، وقد بينت آيات القرآن أن الله سبحانه قد جعل مصير هلاك أمتين من الأمم بعذاب الرجفة والأمتان هما قوم ثمود وقوم شعيب، فأما قوم ثمود فقد قال الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 78] والرجفة في الآية هي: الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها وأصبحوا هامدين لا يتحركون؛ يقال: الناس جُثَّمٌ: أي قعود ولا حراك بهم[1]، وقد كان عذابهم بالصيحة عذاباً أليماً ماتوا على أثرها.

وأما قوم شعيب فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 91]، فقد تشابه مصيرهم مع مصير قوم ثمود في العذاب.

المطلب الخامس: الصاعقة

والصاعقة: نار من السحاب مصحوبة بصوت عال، وقد أهلك الله سبحانه وتعالى ثمود بالصاعقة؛ قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ۞ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الذاريات، الآيات 43-44].

المطلب السادس: قلب الديار

وهذا الصنف من العذاب ذو وقع كبير في النفوس والعقول؛ وهو عذاب شديد قد كان مصير قوم لوط؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [سورة الحجر، الآية 74]، وقد ذكر أن جبريل عليه السلام اقتلع أرضهم من أصولها ورفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم وأهواها إلى الأرض، فصاروا منكسين في باطن الأرض[2].

---

(1) ينظر: الكشاف: 91/2.

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: 471/2.

المطلب السابع: الحجارة

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن مصير الهلاك بالحجارة كان من نصيب أمتين من الأمم الهالكة؛ وهاتان الأمتان هما: "قوم لوط وأصحاب الفيل"؛ أما قوم لوط فقد قال الله عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ۝ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [سورة هود، الآية 82]؛ فإن الله سبحانه وتعالى قد أرسل عليها حجارة بعد أن قلبها جبريل رأساً على عقب زيادة في عذاب الله لهؤلاء المجرمين الذين عطلوا سنة الله في استمرار الذرية والنسل، فأرادوا أن يغيروا سنة الله بإتيانهم الذكور دون الإناث، وقوله: ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي من طين وقد بينه قوله تعالى في موضع آخر عند الحديث عن عذاب قوم لوط قال تعالى ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [سورة الذاريات، الآية 33] وقوله: ﴿مَنْضُودٍ﴾؛ أي نضد بعضها إلى بعض فصارت كالحجر وهو صفة للسجيل وقوله: ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾؛ أي معلمة بعلامة في أسماء أصحابها[1]، وقد ذكر الأسلوب القرآني في موضع آخر تسمية لهذا المطر الذي أمطر على قوم لوط وسماه "مطر السوء"، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ [سورة الفرقان، الآية 40]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [سورة النمل، الآية 58].

وأما أصحاب الفيل فقد بينت آيات القرآن أن الله سبحانه سلط عليهم حجارة من سجيل من خلال إرسال طير أبابيل رمتهم من فوقهم فأهلكتهم؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل]، وقد كانت هذه الطيور تأتيهم من كل مكان حتى أفنتهم عن بكرة أبيهم[2]؛ فإن كل مخلوقات الله جنود له تسمع وتنفذ أوامره، فهذه الطير التي أتت من قبل البحر يحمل كل واحد منها ثلاثة أحجار بحجم الحصى: حجراً في منقاره وحجرين في رجله، فكانت

---

(1) ينظر: جامع البيان: 95/12.

(2) ينظر: الكشاف: 286/4.

ترميهم بتلك الحجارة، فإذا أصاب الحجر رأس أحدهم خرج من دبره فتفتت جسده، فما زالت الطير ترميهم حتى هلكوا[1].

المطلب الثامن: الظلة

وعذاب الظلة قد أهلك الله به قوم شعيب؛ قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الشعراء، الآية 189]، فأخذهم الله بنحو ما اقترحوا من عذاب؛ والظلة: هي السحابة التي لها ظل، وقد كان عذابهم وهلاكهم المصير الطبيعي لهؤلاء الكافرين الذين كفروا بآيات الله ورسله[2]، فالله سبحانه لما أراد هلاكهم بعث عليهم حراً شديداً أخذ بأنفاسهم، فلم ينفعهم بيت ولا مال فخرجوا إلى البرية فأنشأ لهم سبحانه وتعالى سحابة، فلما دخلوا تحتها وجدوا بردها فتنادوا حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً.

المطلب التاسع: الخسف

والخسف كان مصير قارون؛ قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [سورة القصص، الآية 81] بينت دلالة الآية الكريمة أن الخسف بدأ من تحت قارون ثم بداره كي يكون فوقه فتختفي معه مظاهر التجبر والغرور والتسلط على رقاب الناس واحتقارهم[3].

المطلب العاشر: المسخ

وعذاب المسخ كان مصير أصحاب السبت الذين عتوا وتجاوزوا على أمر الله؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية 65] وقال في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية 166]؛ والمسخ: هو قلب الخلقة وتحويلها من صورة إلى صورة، والآيتان وردتا في سياق الحديث عن المعتدين في السبت خصوصاً فكان مصيرهم الذلة والهوان في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة، وهو مصير كل من يقف ضد الله سبحانه وتعالى[4] وإن ما ورد من أصناف لعذاب الأمم الهالكة هو مصيرهم

(1) ينظر: ابن كثير: 591/4.
(2) ينظر: الكشاف: 127/3.
(3) ينظر: الكشاف: 129/3.
(4) ينظر: جامع البيان: 332/1.

المحتوم نتيجة كفرهم فأصابهم الهلاك والدمار، وقد صور الأسلوب القرآني مصيرهم المهلك بأسلوب مؤثر جداً يثير في النفس كوامن الخوف والرهبة؛ قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية 45]، والتهديد قائم لكل من يقف ضد دعوة الله ويعادي رسله وأولياءه كما نص على ذلك كتاب الله؛ قال تعالى: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [سورة محمد، الآية 10].



الخاتمة والنتائج

وبعد الانتهاء من إعداد هذه الأطروحة نستطيع أن نقف على أهم النتائج التي توصل إليها بحثنا هذا:

1- إن تنوع الأسلوب القرآني وتعدد أغراضه كان يصب في اتجاه واحد وهدف منشود وهو مخاطبة العقول والقلوب لترسيخ عقيدة التوحيد الصحيحة وإقامة المشروع العقائدي السليم لتكوين بيئة صالحة لعبادة الله سبحانه وتعالى.

2- تمايز الأسلوب القرآني على الأساليب الأخرى لأن أسلوبه أسلوب خاص، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، والقرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم بل جاء مطابقاً لما ألفوه من مفردات وجمل وتراكيب على الرغم من أنه أعجزهم بصياغته.

3- إن آيات الكون العلوية وظواهره أكدت - جملة وتفصيلاً - إثبات العقيدة، وقد عكس هذه الصورة الكونية أمام البشرية في أعلى درجات الكمال ليصل به إلى حقيقة الكون وأن وراءه صانعاً متقناً عظيماً.

4- جعل الأسلوب القرآني من الأرض والإنسان وما فيهما من آيات ظاهرة وباطنة أدلة دامغة على الخالق الموجد، وهذه الأدلة مستقاة من واقع الإنسان وحاله.

5- الأسلوب القرآني في عرض عقيدة التوحيد لم يقسم التوحيد إلى أقسام ثلاثة، بل ذكر أن توحيد الربوبية هو مقدمة لتوحيد الألوهية، وهذا ما أثبته من خلال عرضه للتوحيد في الآيات التي ذكرت على أن التوحيد واحد، وقد عرض التوحيد دون الإشارة إلى أقسام فهي متداخلة في العرض.

6- القرآن مشحون بالأدلة والبراهين على حدوث العالم، وهو رد على من ادعى قدم العالم، وقد أشار القرآن في هذا في كلمة الخلق والبدء مع تعدد وتنوع ذكر البرهان وإقامة الدليل وظهور اهتمام القرآن بها لأنها ترسي قواعد العقيدة بالتوحيد والواجب الوجود.

7- استعمال القرآن للأدلة التي تؤكد إتقان الصانع العظيم الذي يعتبر أهم دليل على توحيد الله تعالى، وإن الأسلوب القرآني عرض العقيدة بشكل واضح ومبسط وخال من التعقيد الفلسفي، والذي يصلح لنفر من الناس، وقد جاء الدليل القرآني ليدعم قضية التوحيد في النفوس ويعمق جذورها وليلفت أنظار الناس إلى عظيم صنعه وإتقان خلقه مازجاً العقل بعاطفة القلب.

8- توظيف المثل من قبل الأسلوب القرآني بطريقة حازت السبق بين لهجات العرب في الإيجاز، وقد وظفه للتدليل على الإله الواحد والعقيدة الصحيحة، وقد كانت هذه الأمثال على أعلى درجات الفن والصياغة والتأثير والإقناع.

9- كان لجوء القرآن إلى القصص دليلاً واضحاً على عمق أثر القصة في نفوس الناس وعقولهم، وقد كانت الطريقة الأمثل التي نفذ بها إلى قلوبهم وقد كانت سياقات وأنساق القصص القرآني تتمتع بحرية كاملة في معالجة جميع أغراض القرآن عامة.

10- الجانب الوصفي في الأسلوب القرآني مهم جداً لما فيه من إعجاز كإنبائه عن الغيب، وسلامته من الاختلاف، واحتوائه على العلوم الدينية والأحكام التشريعية وعجز الزمان عن إبطال شيء منها.

11- القرآن الكريم أكد أن الفطرة من الأدلة الأساس في قضية الإيمان بالله، وأن الإنسان يولد صفحة بيضاء تؤثر فيه بيئته التي تشكل الحاضنة في تحديد هوية الإنسان العقائدية والسلوكية.

12- أشار الأسلوب القرآني إلى سهولة اعتناق هذه العقيدة لأنها راعت مقتضى حال الإنسان ضعفاً وقوةً، فجاء التكليف مناسباً لوضع الإنسان وقدراته العقلية والنفسية، وأعطته مجالاً للتوبة مشفوعة بالشفاعة، كل ذلك جاء مراعياً لطاقات وقدرات الإنسان كونه استعمل العرض المباشر والميسر وطريقة الحوار الهادئ والهادف.

13- جمع القرآن الكريم في أساليبه المتعددة في عرض العقيدة جزالة الأسلوب مع وضوح اللفظ والمعنى وكثرة الاستعمالات المنساقة مع النظم القرآني الخالية من التعقيد والوحشي من الكلام، كل ذلك له الأثر في بروز إعجازه وتأثيره في العقل البشري.

14- إن الشرك أكبر آفة أصابت البشرية منذ نشأتها وأخطر انحراف عن الدين الحق الذي كان عليه آدم عليه السلام ومن بعده، وعلى فترة قصيرة من الزمن؛ ذلك الدين هو توحيد الله سبحانه، أما الشرك فأمر طارئ مستحدث.

15- إن وسائل المشركين في الصد عن سبيل الله سبحانه تمثلت في رد دعوة الرسل وإيذائهم ودفع الحق والترفع عن الانقياد له؛ يدفعهم لفعل ذلك الاستكبار والكبر والطغيان واتباع الهوى والاستعلاء على الناس واحتقارهم.

16- كشف القرآن في مواطن عدة منه عن سيرة الإنسان في درب حياته الطويل، وبين ما حاق به من فنون العذاب وضروب الهلاك والدمار، وذلك لتجبره واستكباره وعناده الرسل، وقد وردت هذه الأخبار مبثوثة في قصص الأمم الغابرة الهدف منها العظة والعبرة وإقامة الدليل وإظهار قدرة الله وهيمنته على الوجود.

المحتويات

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الخامس